

ايلرات  
رواية

# إيلات

رواية

تأليف :

**ماجد شبيحة**

تصميم الغلاف:

**أحمد مراد**

مراجعة لغوية:

**محمد جلال إسماعيل**

**محمد أحمد عبدالغفار**



رقم الإيداع: 2017/22462

الترقيم الدولي: 978-977-820-048-5

إشراف عام:

**محمد جميل صبري**

**نيفين التهامي**

\*\*\*

## كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678 - 0235611772

هاتف محمول: 01005248794-01000405450-01001872290

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com - info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

©جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

# ايلات

ماجد شبيحة

رواية



## تقدمة

تمنيْتُ كثيرًا أن أقول إن أحداث هذه الرواية ليست حقيقية.. وهذا كذب، ربما تكون شخصيات روايتي غير حقيقية.. هذه كذبة أيضًا، أو إن الأحداث التي سردها لم تمر بالكيفية نفسها التي حدثت بها.. كذبة أخرى، ولكن كما يقول الأستاذ «سمعان»: «كذبٌ في السرد خيرٌ من كذبٍ في الأحداث»، أو لعلّه قال: «الصدق واسع، نستطيع أن نقول كل شيء من دون أن نكذب»، من دون أن يدري الأستاذ «سمعان» أن هذه كذبة أيضًا.. لكن كلمات الإهداء دائمًا هي أصدق ما يقال؛ لأنّ العالم لن يخلو ممّن نهدي إليهم كذباتنا.

أهدي هذا العمل إلى الأستاذ «سمعان» الحقيقي - كنصّ في عشق الفقه - إلى «إيلات» - كنصّ في الحب - إلى «حسين» (القاتل الحقيقي) - كنصّ في اكتشاف الذات. هؤلاء الذين علّموني أنه لا أفضلية لعقلٍ على آخر، ما دام مدد السماء قد انقطع.



من نافلة القول أن أقول: إن أسماء الشخصيات لا علاقة لها بأحدٍ من قريب أو بعيد. لكن الأمر أشدُّ تعقيدًا من هذه الأكذوبة.



«وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا»  
(يوسف: ٨٢).



«أَكثِرُوا تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ». قالوا: هذه المصاحف تُرْفَع؟! فكيف بما في صدور الرجال؟! قال: «يُسْرَى عَلَيْهِ لَيْلًا فَيُصْبِحُونَ مِنْهُ فَقَرَاءً، وَيَنْسُونَ قَوْلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَقْعُونَ فِي قَوْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَشْعَارِهِمْ».

حديث شريف



## الفصل الأول



## «حسين» - القاتل

«جزء كبير من الأجر الذي يناله منقذو القصاص ليس في المال الذي يأخذونه من حكوماتهم ولا في خدمة التاريخ البشري، بل في الرضا التام الذي يحوزونه عند تنفيذ القصاص من دون كراهية».

من كُتِبَ التعليمات



في منتصف نهار حار، ولم يُكن مفعول حبوب الهلوسة التي ابتلعها قد بدأ، قال «حسين» لصديقه «إسحاق»:  
- سأقتلك يومًا ما.

الجلسة والجو والنوافذ المغلقة وضجيج الشارع الخافت المتسرّب منها، كانت تشبه عشرات المرات السابقة التي تناولوا فيها الغداء وخلدا بعدها للراحة ثم ابتلعا الحبوب، لا شيء متغيّر عن ذي قبل، لا شيء مميز، حتى نبرة الصوت التي نُطقت بها الجملة المفزعة، نُطقت بينهما عشرات المرات، بالتبادل: سأقتلك إن تأخرت مرة أخرى، سأقتلك يا «إسحاق» لأنك ممل، سأقتلك بسبب طريقتك في الأكل، سأقتلك بسبب عينيك هاتين.. ولكن هذه المرة كانت «سأقتلك» فقط، «سأقتلك فعلاً».

لا يعرف «حسين» لماذا قال هذه الجملة، كيف أفلتت منه بهذه التلقائية الشديدة، من دون حقد ومن دون كراهية ومن دون سابق مهمة يُكلّف بها؛ فهو مأمورٌ بأن يكشف عن هويته لضحاياه قبل أن يضغط الزناد، لماذا قالها إذًا من دون داعٍ، وبكل وضوح، وبشكل لا يقبل التأويل؟

صحيح أنها لم تكن المرة الأولى التي يدهمه فيها هذا الشعور، ولكنها كانت المرة الأقوى، فطول الوقت يملأ القتل حواسّه كما تملأ صفارة قطارٍ بعيدٍ أسماعَ المنتظرين له على المحطة، ولكن عندما يشرع في القتل يدهمه هذا الشعور كقطار فعليٍّ وصل إلى محطته.. لا صوت، فقط صمت متآمر، وحفيّف ملابس السائرين يلوّن ذاكرته المؤقتة، وكان هذا يحدث كثيرًا، أن يرى وجهًا ما في الزحام، جالسًا في حديقة، في انتظار الترام، وجهًا في استقبال فندق، ف«حسين» يتجول كثيرًا، ليس على قدميه، بل في سيارته، لا هدف له إلا أن يتأمل الناس، ليس الوجوه، بل الأجساد؛ يرتاح لحركة الجموع، ربما

لأنه لم يُعد مثلهم، ثم يحدث فجأة أن يجذب انتباهه وجهه ما، وجهه كأن إضاءة قوية مسلطة عليه، وجه مثل لقطة ملونة تتجول في مشهد كامل بالأبيض والأسود، ويجتاحه يقين أنه سيقتل صاحب الوجه يومًا ما، سيكلف بمهمة لقتله، وعندما يدرك هذا يشعر براحة ونشوة وكشف، كأنه رأى ضلعًا في مستطيل مهيز الضلع فأعاده إلى نقطتي التحامه.. كأنه ديني مهووس رأى حذاءً مقلوبًا فعدله؛ لئلا تكون النعل إلى اتجاه وجهه من يقدسه في السماء.

صديقه المذهول لم يضحك، لم يتسم حتى، ابتلع ريقه، نكس رأسه، لا نظرة تصمد أمام نظرة قاتل أبدًا عندما تستعر ذكرى القتل في عينه.. وعندما رفع رأسه، قال وهو يشير إلى بقايا الطعام المتخلفة عن مآدبتهما النهارية، محاولًا تخفيف زخم الجملة بالدعابة:

- هل تقول إنك ستقتلني، الآن، بعد أن أكلنا معًا؟

لكن «حسين» لم ينتبه لنبرة المرح المصطنعة في صوت «إسحاق» وأجابه بلسان لا يتلعثم:

- لا، ليس الآن. بعد سنة أو سنتين أو ثلاث، لكني سأقتلك.

أدرك «إسحاق» أن «حسين» مستمر في جدّه، وأن المرة الأولى كانت صادقة عن عمد، فسأله في حيرة:

- لماذا؟!

- افهمني، ليس كراهية أو لسبب بعينه، سأقتل بعدك الكثير، وقتلت قبلك الكثير؛ إنها مهنتي.

ساد بينهما ذلك الصمت الذي لا بُدَّ من أن يقطعه أحدهما، الصمت الذي لا يشي ولا ينم، صمت كتوم كصمت رجل عجز على مقهى كل رؤاده من الفتيان، بداخله أكبر رغبة عبثية في الوجود لإدهاش من حوله، وكان «حسين» يشعر بعيني هذا العجز تطلان

من عينيه، وكان التسلسل الطبيعي للحماقة. التقط «حسين» حقيبة الكتف الصغيرة التي لا تفارقه، من داخلها عالج شيئاً ملفوفاً بإهمال في كيس أسود من البلاستيك، شيئاً أسود ولكن سواده أكثر أصالة وتكتمًا، أخرج طبنجته ووضعها بتراخ على سطح المنضدة، أعقبت تصرّفه هذا لحظة صمت، ثم ضحكة مجلجلة، وكأن تصرفه المسرحي هذا إذن منه بإنهاء الموقف السخيف. ضحك صديقه، ومع آخر ذيول ضحكته، وبحركة فجائية، التقط «حسين» الطبنجة وصوّبها إلى منتصف المنضدة وضغط الزناد، لكن الخفقة السريعة من جفني صديقه، وإن وشت بخوفه، لم تجد لها رصيّدًا من جعجة مُطلقها، كان المسدس فارغًا.

ابتسم «إسحاق» متوترًا، ثم هزّ رأسه متفهمًا كالمستهزئ. لاحظ «حسين» استهزاءه، لكنه لم يغضب، لقد تعوّد أن يضبط نفسه، فضلًا عن أن يفسد المزاج الرائق الذي حصل عليه بهبة رؤيته النادرة ويظل أثرها يتردد في عروقه كمخدر فائق المفعول.

- أنت لا تصدقني؟

- لا بالعكس، أصدقك. أخبرني، كم قتلت اليوم بهذا المسدس؟

- واحد، غير مسموح لي بأكثر من واحد في كل مرة.

- وهل أطلقت رصاصاتك كلها على فرد واحد فقط؟

- لا أضع في خزانة الطبنجة عندما أكون ذاهبًا لأداء مهمة سوى رصاصة واحدة، أخاف أن يقطع أحد مهمتي فأقتله هو أيضًا، لا أريد أن ألوث نقاء مهنتي.

\*\*\*

قاتل موظف، أيهما الصفة؟ وأيهما الموصوف؟ تتطلب الإجابة قراءة للتاريخ، والتاريخ يقول إنها لم تعد مهنة شائعة في هذا الزمن الغريب، بلفظ أدق: لم تعد شرعيّة، حتى لو كانت الحكومة هي

من تُكَلِّف بها، يسميها الموظفون الحكوميون في أوراقهم السرية: تكليفاً بالإعدام، يسمونها أحياناً أخرى: قصاصاً، ولكن «القصاص» لم تعد كلمة ذات معنى، حتى لو أضافها رجال الدين والسياسة إلى عشرات المضافات الموحية لينكِّهوها وليخففوا من ثقلها: القصاص للمجتمع، للكادحين، للشرفاء.. تظل كلمة الإعدام لا تفقد بريقها أبداً، لا تنحاز، حالة نادرة من الموت.. حتى الانتحار في أشد حالاته نقاءً ينحاز لليأس والإحباط، أما الإعدام فهو حالة موت متواطئاً عليها، خاصة إذا اكتسب سرية لا ينبغي لها أن تُهتك إلا بالدم.

«حسين» فتى أسمر، طويل العنق، أسنان مفلوجة، عينان كبيضتي رُخٍ مهما دُرَّت حولهما لتستشف ما بداخلهما فلن تستطيع، صعيدي أباً عن جد، اللهجة واللون، لا ينقصه إلا الشارب، وكثيراً ما فكَّر في إطلاقه، لكن مديريه في صالات الجمانيزيوم حدَّروه: لا يحب المُحكِّمون شوارب المتبارين. على أيِّ حال، ما فائدة شارب في جسد تعهَّده بحيث لا تنبت فيه شعرة واحدة؟! عندما يخلع ملابسه أمام الحكام يبدو جسده مصلِّئاً كسيف من البرونز، شهقات الإعجاب تستحق المجهود الذي يبذله يومياً في التدريب، تستحق أن يضحى بشاربه الذي أطَّره أبوه في لوحة العائلة باعتباره من الصفات المميِّزة لها، المتبقي من سيرة مُخيفة لجَدٍّ كان قاتلاً بالأجر، أسطورة في مجاله لدرجة أن الأسماء التي اشتقها لمفردات مهنته ظل معمولاً بها لسنوات طويلة في عالم القتل المأجورين بمنطقته.

كان جدُّه مولعاً بالكلمات المفخمة، كـ«سقط على أمر رأسه، وحمي الوطيس، واختلط الحابل بالنابل»؛ لذا فقد جعل للقتل جملة مفخمة مشابهة: «الزبون والزابن»، الضحية هو «الزبون»، ومن يدفع للقتل هو «الزابن»، باعتبار القتل أمراً قدرئياً سيحدث حتى لو لم يطلق رصاصته، كل ما في الأمر أن قدر «الزبون» هو ما دفع «الزابن» مسلوب الإرادة إلى الذهاب للقاتل ودفع المال إليه لتحقيق

قدر «الزبون». من يناقش قاتلاً في اشتقاق خطأ؟ حتى لو كان فيه جانبٌ من الصحة.

كمسألة قدرية أيضاً، كان من السهل تفسير قدر «حسين» كقاتل إذا نُسِبَ لجده، لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة؛ فـ«حسين» من عائلة معظم أفرادها من العلماء، والعلماء لفظٌ يُطَلَق في بلدته بالصعيد على كلِّ من أمسك مصحفاً ودرّس للناس الفقه، إنها طريقة جيدة للتخلّص من الأثر السيئ لإرث الجد القاتل، أو ربما كان الجد هو مَنْ حاول التخلص من مشنقة الفقه الملتفة حول عنقه، وكذلك «حسين»، ولكن بطريقة مختلفة تماماً عن جده، طريقة شرعية إن صح القول.. فالآن، صار «الزابن» هو الحكومة كلها، مؤسسات الحكومة تحديداً، التي وقَّعت على معاهدةٍ دوليةٍ ما بجعل جبل المشنقة والزلاجة والخشبة متحفاً أثرياً للزائرين، ثم جعلوا للموت هوية سرية يجول بها في البلد حاملاً معه مسدساً غير مرخّص، وسيارة مشاوير خاصة.

لا أحد يعرف أن «حسين» موظفٌ رسمي، قام بنقل زبائن عدة إلى أماكنهم الأخيرة: قضاة ومشايخ ومديرين لمؤسسات كبيرة وبشر عاديين تماماً، لا يميّزهم شيء. ما تهمتهم؟ لا يعرف إلا عند النفق المظلم، عندما يدخل هناك ويقوم بتمثيلية السيارة المتعطلة، يقرأ التهمة ويعرف لماذا سيطلق النار.

قال له صديقه:

- عرفتُ أنك لن تطلق النار على المنضدة، على الرغم من أنني لم أكن أعلم أن المسدس فارغ.

- كيف عرفت؟

- إطلاق النار بهذا القرب من الممكن أن يُتلف سلاحك، القتلة الحقيقيون فقط يفعلون ذلك لتلبيس الأمر على الطبيب الشرعي، كأنه انتحار.

سكت «حسين» متفكرًا، لا يعرف «إسحاق» أن جثث ضحاياه لا تذهب إلى المشرحة، ولا تُستخرج لها شهادات وفاة، على الرغم من أن تخمينه كُئِّلَ كان في محله؛ ف«حسين» أبدًا لم يدربه أحد، لم يخبره أحدٌ عن أضرار إطلاق النار عن قُرب، عليه وعلى سلاحه، ولا عن تعريض نفسه بحماقة للاشتباك القريب، وهي الميزة الأولى في تفوُّق السلاح الناري على الأسلحة البيضاء. لم يخبره أحد، وحتى لو أخبروه، فوظيفته فطريَّة، لا تحتاج إلى مهارات، تحتاج إلى رغبة وحياد، وفي هذا الزمن الذي يشبه استراحة محارب عجوز شرس - لا يُعلِّم متى سيلتقط أنفاسه ومتى سيعود - كان من المستحيل الحصول على وظيفة مميزة مثلها.

كيف وصل به الأمر إلى ما وصل إليه؟ بمعنى آخر: لديه موهبة تواطأ العالمُ على رفضها بل وتجريمها، من ذا الذي يستطيع أن يتنبأ لقاتل بأنه سيصبح قاتلاً؟! حتى عمه، الفقيه الأزهري الذي رباه، رأى أن قلب «حسين» مهيباً للفقه كتهيبُ كوبٍ نظيفٍ للماء، وكثيراً ما ألحَّ عليه أن يسعى للعمل في مجاله حتى ميعاد اختباره. حسب توزيعه الجغرافي، كان المبنى الذي سيُتم فيه «حسين» اختباره شقَّة حكومية قديمة أعدها لاختبار الطلبة الذين نزحوا إلى القاهرة بعد إتمام دراستهم الثانوية.. السلالم متآكلة، والباب شبه مغلق، ولكن الأصوات في الداخل أنبأته بأن المكان مأهول، دفع الباب قليلاً، كان باباً ثقيلاً، لا بُدَّ أن أي شخص غيره يحتاج إلى كلتا ذراعيه ليدفعه، المكان لا يشبه مكتب اختبار للوظائف الحكومية، يشبه أكثر عيادة طبيب أسنان في منطقة راقية، عيادة تحتوي على ألمٍ أرستقراطيٍّ خاصٍّ، الجدران مدهونة حديثاً، والمقاعد في الاستقبال تشبه احتضانة راقية من الخلف، مرتفعة عند الريلتين ومنخفضة جدًّا عند الأرداف، بدت له المقاعد وسيلةً تصنيفٍ من المرحلة الأولى، غريزة خشنة، النوع الأول من الجالسين كان يسمح

لأنخفاض المقعد أن يحتوي رديه، متيحا للارتفاع أن يُشبح ساقه، كأنه يصطاد بهما في الفراغ! أما النوع الثاني من الجالسين فكانوا يضعون ساقا فوق ساق مع تطبيق تفاصيل الجلسة الأولى، فكان هذا يجعلهم أكثر اتساقا مع إعطاء إحياء بالتفاخر الذي لا محل له من الإعراب، اثنان فقط من المُختَبرين ترحزا إلى حافة المقعد ليُمكنا أقدامهما من الثبات على الأرض، كانت هذه الجلسة لتناسب «حسين» أكثر، لكنه قرر بعد تسجيل اسمه أن يذهب إلى الشرفة وأن يقف هناك.

عَبثًا حاول استنطاق أيّ من النوافذ المفتوحة في البنايات المقابلة عن طبيعة السكان، لا ملابس على أحبال الغسيل، ولا ظهر دولاب، ولا رأس مشجب طويل، ولا منضدة عليها كأس من الكريستال أو كوب به حثالة شاي، كأن خلف شيش كل نافذة قنّاصا يترصده بعدسة بندقية.

لم تطل وقفة «حسين» هناك؛ فعلى الفور أتى مسرعًا أحد مرتدي المعاطف البيض من موظفي الاختبار بعد أن لمح، ضغط «حسين» على زر سيارته الإلكترونية ووضعها في فمه كذريعة لوقوفه في الشرفة، سأله الرجل:

- لماذا تقف هنا؟ ليس مسموحًا لك.

- لم أكن أعلم، أردت أن أدخن.

- التدخين أيضًا ممنوع.

رد «حسين» في ابتسامة واسعة:

- لا توجد لافتة.

أشار له الرجل أن يتبعه، مشى «حسين» خلفه، دخلا إلى غرفة مكيفة، في نظام يحفظ الحميمية وُضعت على مسافات أجهزة تشبه أجهزة أطباء العيون، أجلسه على واحدٍ منها، من الخلف وبكلتا يديه

احتضن وجه «حسين». كفان دافئتان لا رائحة لهما جعلتا «حسين» يُمكن ذقنه من فجوة طرية الملمس؛ بحيث لا تُفلت عينيه شاشة ضيقة أشعتها مريحة، في نهايتها منطاد ملون، المنطاد راسٍ وسط مساحة معشوشبة، مكان يصلح لأن يُدفن فيه المرء، أو يُدفن فيه الآخريّن..

جاءه صوت خافت من سماعات الجهاز: هل أنت جاهز؟ لم يجفل «حسين»، أجاب بثقة: نعم. شرح الصوت: قواعد الاختبار ألاّ تجيب بصوتك بل بعينك، لكي تجيب بـ«نعم» يجب أن ترفع المنطاد عن الأرض بحركة طولية من مركز العين، أما النفي فيجب أن ترحزه من مكانه بحركة عرضية مع الحفاظ عليه من الانقلاب. «لعبة جيدة»، غمغم «حسين». قال الصوت: المهم في إجاباتك ألاّ تسمح للمنطاد أن ينقلب أو للحبل الذي يثبته أن ينقطع، سيُهي هذا اختبارك على الفور.

لا يتذكر «حسين» معظم الأسئلة، كانت سطحية ومتشعبة ومرهقة ومكرّرة، وبدأت عيناه تؤلمانه، وإليّاه تتبللان بالعرق، على الرغم من تيارات الهواء القادمة من التكييف التي تضرب أعطافه في موجات متتالية، ما جعل شعوره بالبرد مضاعفًا، ثم سمع نفثة صغيرة، وشمّ رائحة غريبة لم يشمها إلا في يوم الحادثة، عندما صعد طفل السنوات الأربع، بمساعدة مقعد، إلى رفّ الأتيكات العالي واختلس طبنجة جدّه المخبأة في فِازة ملوّنة هناك، استطاع حملها والنزول بها من دون إثارة صخب يلفت الانتباه، ومن الشرفة صوّب إلى رجل يمشي في الشارع وجذب الزناد فأصابه في كتفه، كان هذا الحادث سببًا في تغيّرات جذرية في حياته: انفصال أبيه عن أمه لفترة طويلة، وإرساله إلى عمه في الصعيد؛ حيث عاش معه عشر سنوات كاملات، أخبروه هناك أن الرجل الذي أطلق عليه الرصاصة مات، وأنه ينبغي عليه أن يختبئ حتى تتوقّف الحكومة عن البحث عنه، لكنه عرف

فيما بعدُ أن الرجل لم يمُت وأنه مكث في المستشفى أربعة أيام فقط، وتم إرضاءه بمبلغ من المال، بينما استمر الطفل الذي أطلق رصاصة عليه في وهم الخوف من تبعات ما حدث. لم يكتسب من حياته مع عمه إلا السخط، وتعوّد على إنكار الحادثة بشئى الطرق، إنكارها حتى بينه وبين نفسه، ربما لو تصرف أبوه وأمه بعقلانية أكثر! لم تتصرف أمه كسيدة طُعنَت في مثالياتها، ولم يتصرف أبوه كرجل صلب يستطيع أن يحل المشاكل على الرغم من هذر النساء، لسنوات ظل يفكر في التصرف الأمثل، ربما لو طلبوا منه أن يندم أو يعتذر للرجل أو يزوره في المستشفى لكانت حالة الإنكار لم تتشأ أبدًا، ولكن في زيارات أبيه وأمه له كانت حالة الإنكار تتحسن فقط، منساقّة لتصريحاتهما المتجددة، قالوا له إن الرجل كان يتعارك مع أبيه، وإنه رآهما وتصرّف بتلك الطريقة، لكن الحقيقة كانت مخبأة بداخله هذه السنوات كلها، جعلته تلك الرائحة يتذكّر، لم ينس أصلًا، لكنها استحضرت الحادثة بتفاصيلها، والفارق أنه كان الآن مستعدًا للاعتراف، لم يكن يصوّب على كتف الرجل، بل على رأسه، يده الضعيفة لم تحتمل القبض على الطبنجة فأمسكها بكلتا يديه وصوّب، كان يريد قتل رجل لا تربطه به أي عداوة ولا يحمل له ضغينة، وعلى الرغم من أنه لم يسمع سؤالاً فإنه أجاب بصوت هامس، وبإيماءة طولية لعينيّه: نعم، كنتُ أنوي قتل الرجل دون كراهية بيني وبينه. عندئذ، وبحبور كامل، رفع المنطاد بعينه وترك الحبل يتمزّق بينما سبح المنطاد خارج الكادر وسمع صفارة خافتة. لقد انتهى الاختبار.

\*\*\*

أعطوه ظرفًا، كان هذا أول ظرف يتسلّمه في حياته بصفته الوظيفية، ظل محتفظًا به حتى بعد أن دأب على حرق الأطراف والتخلص من أثرها، بالظرف عنوان وميعاد، الميعاد بعد نصف ساعة، والمكان

يستطيع أن يصل إليه سائرًا على قدميه دون أن يفوت الميعاد.  
عندما وصل، وللهولة الأولى، ظن أنه أخطأ في قراءة العنوان، كانت  
شقة في بناية فاخرة، فاخرة جدًا، لدرجة أن مرآة البورسلين الأسود  
للأرضية المدخل أظهرت قبح ملامحه الصلبة بشكل مُزِر، وبدا  
عنقه الطويل كعنق شهيد، دلف في مصعد مضمخ بالعطر وأرضيته  
مفروشة بسجاد أحمر، وعلى باب الشقة، التي خرج من المصعد  
ليجدها تجاهه، اسم منحوت على لوحة نحاسية، اسم فقط بلا  
وظيفة.

ضغط على زر الجرس، لم يسمع صوته، ضغط عليه مرة ثانية،  
لم يسمع، ظن أنه معطل، فضم سُلَامِيَات يده اليمنى ليدقَّ بها،  
لكن الباب فُتِحَ مفصَّحًا عن رجل في سن الستين غالبًا، وعندما رأى  
الظرف في يده تنهَّد ودعاه للدخول.

هذا رجل لا يزوره أحد، بهو الصالة يؤدي إلى غرف النوم المفتوحة  
والمطبخ والحمام، لا ستائر، والكنبة التي أجلسه عليها كانت في  
مواجهة تلفاز يعمل بالنظام القديم، نظام الهوائيات، قناة الوطن.  
- أخيرًا!

قال الرجل وهو يضع أمامه صينية عليها كوبان من سائل بارد لم  
يقربه «حسين» الذي قال:

- هل كنتَ تنتظري؟

- طبعًا، قالوا لي إنهم على وشك العثور على واحد، ولكن كما  
تعلم، لا يمكنك أن تصدِّق الحكومة حتى في شهادة الوفاة إلا بعد أن  
تري الجثة. والآن أخبرني، كيف عثروا عليك؟  
- ذهبْتُ للاختبار وطلبوا مني أن...

- الاختبار! سمعتُ أنهم طَوَّروا الطرق القديمة في اختيار الأشخاص  
بنسبة لا تحتل الخطأ أبدًا، فيما مضى كان عليَّ أن أخوض تدريبات

عنيفة لإثبات كفاءتي، طبيعة المهنة متحرّكة كما ستعلم، كل شيء عليك، فيما مضى كانوا يأتون بالرجل إلى عرينك لتتعامل معه بطريقتهم، الصعق أو حبل المشنقة أو السم، أما الآن فكان الله في عوننا.

لقد رأى أقارب له يتحدثون بحدّة أكثر من هذه في مواضيع تافهة، حدة تصل إلى سحب أجزاء السلاح والتهديد بالقتل في مجالس مليئة برجال متأهبين كالصقور الجائعة، الآن هو في صالة شقة يلعب حولهما أطفال وتطش سيدهُ شيئاً ما في المطبخ القريب ويحتسيان مشروباً بارداً منعشاً على شرف الطرق المفضّلة للإعدام، لم يُفاجأ «حسين» ولم يتوتر، ربما اندهش قليلاً بالتفاصيل، والتفاصيل تقول إن عليه العثور على سلاحه بنفسه، كل ما سيساعده به زميل العمل السابق، العجوز هذا، أنه سيسلّمه جهازاً فائق السرية يحدّد له مكان وطريقة تسلّم الطرف وميعاد التنفيذ في كل مرة (المهمة التي سيفشل فيها سيتم خصم ٢٥٪ من مرتبه، وكل مهمة يؤديها بنجاح عليها حافز ١٠٪ من مرتبه). سلّمه العجوز كُتيباً سميّاً، وعلى الرغم من تآكل أطرافه فإنه كان صامداً وقابلاً للقراءة، الكُتيب مكتوب بخط منمنم وعلى هامشه توجد ملاحظات قليلة بخط اليد، عنوان الكتيب: «لا تكره». في لحظة إشراقة ذهنية وهو يغادر الشقة، عرف لماذا اختاروه، «لا تكره»، لطالما شعر بالرغبة في قتل أشخاص لا تربطه بهم علاقة حب أو كراهية، كالحروب القديمة، بلا حقد.

\*\*\*

حياة «حسين» تبعثرت خلال الشهر الذي مكثه منتظراً شاشة جهاز المهمات قبل أن يومض بمهمته الأولى، البدايات كلها مخزية، خاصة إذا بدأت بعمل مكتبي كالقراءة، قرأ «حسين» كُتيب التعليمات صفحةً صفحة، وبينما يقرأ كان التساؤل يتجسّد بداخله كخيبة: كيف ستحول هذه الحروف والكلمات إلى رصاصة وإدانة مقنعة لإطلاقها

على جسد حي؟!

الفصل الأول كان يربو على الخمسين صفحة، العناوين فيه صيغت بهذا الشكل: «في حال ضياع هذا الكتاب، عليك أن تضغط على رقم ١ من جهاز المهمات حتى تسمع الصفارة.. في حال ضياع جهاز المهمات، عليك أن تتصل بالرقم أسفل التصرف المطلوب، في حال:

١- اكتشاف هويتك من قبل من سيقع عليه القصاص.

٢- فرار من سيقع عليه القصاص.

٣- إذا لم يُمْت بعد توقيع القصاص عليه بشكل مؤكد!

٤- إذا احتوى الظرف على ميعادين للقتل.

٥- إذا احتوى الظرف على مكان واحد وميعاد واحد.

٦- إذا احتوى الظرف على مكان وميعادين.

٧- إذا احتوى على مكانين دون ميعاد...».

وهكذا كل صفحة بها شرح لحالة طارئة ينتهي معظمها برقم هاتف يجب عليه أن يتصل به في حال وقوع الحالة الطارئة.

بينما يقلّب «حسين» أوراق هذا الفصل، كان الرعب يتكوّن بداخله كحالة من عسر هضم، خمسون حالة طارئة! كم مرة عليه أن يقتل في حياته الوظيفية إن كانت الحالات الطارئة خمسين؟ وكلما توغّل أكثر نتج من هذا الرعب الرديء نوعٌ من الخبل الإحصائي الشبيه بخبل الفقهاء المكرسين الذين يطاردون بفتاواهم حالات مستعصية الحدوث، لدرجة أنه كان يقطع قراءته كثيرًا ليجث عن حالة يعتقد أنه لن يجدها، ولكنه وجد راحته القلبية عندما ابتكر جدولًا لاكتشاف ذلك، مما لا شك فيه أن مؤلف الفصل الأول استخدم جدولًا كهذا، لكن التَّبُّع غير الابتكار؛ فالعمل على هذا الجدول بقدر ما كان ممتعًا للمؤلف كان مؤلمًا جدًّا ومُربكًا لأعصاب «حسين»، لم يدرك ذلك إلا عندما استيقظ ذات مرة مفزوعًا من نومه بشعور

أن لديه ذراعين، ككتاهما يسار، أما الذراع اليمنى فحالة وجودية فارغة، وعندما عاد إلى واقع الأمر خرج ليستنشق الهواء قبل أن يفقد عقله.

المهمة الأولى لم يتم تكليفه بها بواسطة شاشة الجهاز، بل بواسطة موظف البريد عند ذهابه لتسلم راتب الشهر الأول، سلّمه الراتب في ظرف مغلق وطلب منه أن يضع توقيعه على ورقة ثم سأله:

- هل قرأت كتيب التعليمات؟

هزَّ «حسين» رأسه بطريقة بدت له خرقاء عندما تذكرها فيما بعد، كرر موظف البريد السؤال فأجابه بصوت قوي: نعم، قرأته. فسحب ظرفاً آخر من أسفل «الكاونتر» وأعطاه له.

فيما بعدُ، أدرك «حسين» أن ما حدث في مكتب البريد كان مفيداً لإنقاذ أعصابه من الحالة الإحصائية وجحيم الاحتمالات، فعندما انطلق خارجاً من الباب الزجاجي أخذ يفكر كأنه أصابته حمى:

- لا بُدَّ أن هذا الموظف لا يعرف ما الذي فعله لتوّه ولا يعرف معنى السؤال الذي ألقاه عليّ، ولا يخرج عن كونه موظف بريد لديه تعليمات يُنفّذها: سلّم الظرف الأول ثم اسأله: هل قرأت كتاب التعليمات؟ فإن أجابك بـ«نعم» فسَلّمه الظرف الثاني.

عندئذ، وبشكل فجائي، تجمّدت يد «حسين» على مقود سيارته، تجمّدت أفكاره: وماذا لو أنه أجاب موظف البريد بـ«لا»، أو رفض الإجابة، أو أخذ ظرف المال وانصرف؟! هذه كلها احتمالات إحصائية، فهل درسوها جيداً، أم تركوه لاحتمال لا يعرف هو ولا يعرفون هم نتيجة؟! شعر «حسين» بشعوره نفسه؛ إذ اكتشف أنه كان يقف منذ قليل على حافة مهلكة، وهبطت قدمه تلقائياً تضغط على دواسة الفرامل لتتوقّف سيارته فيمس خلفية سيارته مانع اصطدام سيارة سائق حذر.

وليجد الخلاص من أفكاره السوداوية، خرج من نهر الطريق الغاضب عليه وفتح الظرف.. في الظرف وجد ورقة سُجل عليها ميعاد ومكان تسليم وثمة، هذه الطريقة في التكليف بالمهام التي لم تتكرر بعد ذلك، وكانت الخطوات مُلزمة حتى لو لم يفهم التهمة جيدًا، عندئذ وبشكل فجائي، وجد فتحة المتاهة التي تاه فيها طيلة شهر كامل من القراءة، عثر على الفهم الذي سينقذه من خبل الإحصاء، بل أصبح «حسين» الآن قادرًا على السيطرة على هذا الخبل، واستنتاج الهدف منه، ما جعله متيقنًا أن موظف البريد كان سيسلمه الظرف الثاني في جميع الحالات حتى لو أجابه بـ«لا»، كل ما في الأمر أنه كان لا بُدَّ من هذا السؤال للفت انتباهه إلى أهمية كُتَيْب التعليمات.

لم يتبادل مع زبونه الأول كلمة واحدة، أطلق عليه النار في ظهره قاصدًا موضع القلب، ثم اكتشف أنه أطلق النار على يمينه التي هي يمين الرجل أيضًا لا يساره، لكن زبونه الأول كان كأنه ينتظر الموت، فلم يستدِر عندما ثقت الرصاصة ظهره وسار بضع خطوات للأمام ثم سقط على وجهه في الظلام وتمزَّق الخيطُ الذي يخيِّط روحه بجسده بالسما فانفرط، حتى السماء انفطرت وأحس «حسين» لانفراطها رجة خفيفة لولا أن ثبتَّها صعودُ الروح إليها، وسمع لصعود الروح رفرفة خافتة اعتقد يقينًا أنها أجنحة الملاك الذي أتي لقبض روح ضحيته، هذه الرؤية جعلته يشعر بالحق، ضغط على أسنانه وجرح الظلام بوميض رصاصتين متتاليتين تجاه الرفرفة، ثم شعر بقوة قلبه تتمدد على المكان عندما سكن الصوت، وزفر الجسد زفرته الأخيرة في الأرض السوداء.

من بين جميع مهام القتل التي كُلف بها، لم يحصل «حسين» على زخم الحالة الأولى، استلزم منه الأمر ساعتين كاملتين لتقلَّ نبضات قلبه إلى النصف وتكف عن الدق كطبل أفريقي. في هذا اليوم،

وضع «حسين» قاعدته الأولى في وظيفته: ألا يضع في خزانة طبنجته إلا رصاصة واحدة، لكي لا يقتل «شخصًا» آخر خارج مهمته، يندرج تحت بند «شخص»: الملاك الذي يشترك معه في قبض الروح.

\*\*\*

فيما بعدُ، استطاع «حسين» ترتيب الأمر ليبدو بشكل رسمي، توصيل لمكان تحدده الهيئة التي يعمل فيها زبائنه، سيارة حكومية يقودها قاتل، عندما يريدون إعدام شخص تُرسل رسالة إلى جهازه بمكان الظرف وميعاد تسلمه، على ظهر الظرف مكتوب العنوان الذي سيتسلم منه المحكوم عليه بالإعدام، يقود به حتى يصل إلى النفق، لا يفتح الظرف إلا في النفق، قريبًا جدًّا من منطقة الإعدام، قبل أن يطلق رصاصته يجب عليه أن يتلو التهمة على الشخص الذي سيرديه، ثم يحرق الظرف.

كتيب التعليمات لم يذكر شيئًا عن الدفن أو مواراة القتل، موظف الإعدام الذي سبقه أخبره أنه كان يكتفي بأن يصطحب الزبون إلى مكان بعيد عن مسكنه ويقتله ثم يسكب حمض الكبريتيك على وجهه ويلقيه في بئارة من بيّارات الصرف الصحي المكشوفة في محطة بعيدة، أما هو فيُدفن، يتخلّص من حرارة القتل بالطقوس ليعود بريئًا قادرًا على ممارسة حياته من جديد. جسد لا يزال دافئًا، وتربة لينّة، وسماء متراخية.. عندما يحفر يشعر وكأن السماء تتط فوقه، وكأنه يغرس سلاح الرفش في أديم الأفق، وينثر منه خلف ظهره سحابًا بلون التراب، كأنه يدفن جثة العالم، ومَن قتلها فكأنما قتل الناس جميعًا.

مهمات القتل التالية كانت مليئة بالأخطاء الفادحة التي وجد غفرانها مع الزمن، نتج منها ما نتج من تأويلات مرتبكة، وارتجافات يده المرتعدة، والأنفاس الثلجية لرئة لم تعتد بعدُ على حرارة الحدث، وعسر الهضم، والإسهال المريع، والبول الحامضي، وعلى

الرغم من هذه المعاناة كلها، لم يستقم الأمر بعدها، تحوّل القتل إلى عملية ميكانيكية خالية من المعنى والمشاعر. ولشهورٍ، ظل «حسين» يحاول إقناع نفسه أن الطبيعة ساعدته على إنجاز مهمته الأولى، وأنه ربما أصاب برصاصيته خفاشًا أو شبحًا، لكن الرؤية التي حصل عليها كانت بمثابة دفعة ملهمة في المهام التالية حتى استقر على تعريف لما يقوم به ووصل إلى اليقين النهائي والدرجة التي استطاع معها أن يفكر في القتل بشكل مختلف، وكان الفضل في ذلك يعود إلى قراءة الفصل الثالث.

الفصل الثالث الذي كانت متعة «حسين» الخاصة واقتناعه بمهنته مستمدّين بالكامل منه، وكأنه جُعل خصيصًا ليعادل حالة الإنكار التي خلقها بداخله الفصل الأول، وحالة الدهشة والجمود التي خلقها الفصل الثاني.. لا بُدَّ أن مؤلفته سيدة، هكذا سمح «حسين» لنفسه بالتخمين، طبيعة نفسية تحديداً، تحب صنف الميتافيزيقا الوادعة، ولا بُدَّ أنها لم تُكن في حالتها الطبيعية وهي تكتب هذا الفصل الكامل من السلام النفسي، عن الموت الذي هو مجرد انتقال، عن الكراهية التي يجب أن ننزه منها قصاصنا، والتهم التي ننقذ من خلالها رغبة المجتمع ونعود به إلى اتزان المقدس، عن استقرار طاقة العالم بواسطة القتل الممنهج، لا عجب أن اسم الكتاب منسوج منه: «لا تكره».

هل تكره يا «حسين»؟ حسنًا، مَنْ تكرههم يجب عليك ألا تقتلهم، القتل لمجرد الكراهية الشخصية تبديد وسخافة، لا تكره، فليس لـ«حسين» مطلق الحرية في الكراهية، هو موظف، يجب ألا يحركه دافع إلا الظرف، حتى لو كان الزبون طالبًا في مدرسة أو رضيعًا في حجر أمه، عند النفق يعلم أن الزابن كان على حق، دائمًا الزابن على حق، خاصة إذا كان الحكومة، فالحكومة تقتل للمصلحة العامة ويجب عليه أن يكون مثلها.

فيما بعدُ، عرف «حسين» أن قراءة هذا الفصل من الكتاب كانت هي الخطوة الأهم في حياته الوظيفية، بالضبط مثل تسلُّم الظرف وقراءته كخطوة أولى في مهمة القتل، فبعد أن تسلَّم «حسين» عمله بهذه الطريقة الغريبة قتل أصنافاً كثيرة من البشر، تُهم مباشرة، لا سذاجة فيها ولا إيهام، ليست مثل التهم القديمة التي دارت حول عبارات مثل «التآمر على النظام، إدارة أجندة خارجية، الإرهاب، سب رئيس الدولة، التلبُّس بجريمة لا يُعاقب عليها القانون ولكن تجرِّمها السُّلطة، إثارة الفتنة الطائفية، التسبب في إثارة الفوضى، تسريب معلومات ووثائق للدول الخارجية دون دليل يدمِّغهم بالإدانة، الدعوة لفكر مبهم لا طائل من ورائه، السخرية من الثوابت» هذه التهم المبهمة، المجازية، التي ذكرها كتيب التعليمات بنوع من السخرية يقترب من التهكم، إن كان يجب على المرء أن يُقتل لصحة المجتمع فيجب على الأقل أن يعرف سبب قتله، السبب الحقيقي وليس الملفَّق.

على مدى سنوات قيامه بوظيفته، صَنَّف «حسين» كراهيته بشكل جيد يجعله مرتاحاً وهو يطلق رصاصاته، تصنيفاً يبعده تماماً عن شبهة القتل الحر، لتصبح عنده أولويات في الكراهية، حتى كراهية الأشياء مارس عليها تدريباته الذهنية، ليصبح امتناعه عن كراهيتها نفلاً يحفظ حدود فرض امتناعه عن كراهية البشر، كراهية صيفية: مقاعد السيارة الساخنة بعد ركنتها طويلاً في الشمس، وكراهية شتائية: الطين الذي يضطره إلى غسل سيارته بشكل مستمر والبطارية التي تفقد شحنتها في الصباح بسبب البرودة، كراهية ربيعية: حبوب اللقاح، والفراشات، والبعوض، عندما يدهمهم بزجاج سيارته المسرعة يلتصقون بها كالصمغ فلا يستطيع إزالتهاهم بالصابون السائل وإنما بطرف مديّة حادة، كراهية خريفية: الغبار والزوابع الصغيرة التي تُعْمي عليه معالم الطريق.

كما أن هناك فارقًا بين كراهية الشخص ذاته وكراهية أفعاله؛ فهو يكره الزبون الذي يتكلم كثيرًا، الذي لا يهتم بغلق الباب جيدًا خلفه ويتركه يشغل مثل مصراع نافذة تالف في يوم ريح، الذي يغلق الباب مرتين: مرة واهنة ومرة ليستوثق، ويكره الذي يغلقه بعنف، والذي يحب أن يجلس بجانبه في مقعد السائق، يكرهه أكثر إذا وضع أصابعه على أزرار الراديو أو التكييف أو الزجاج لتشغيلها أو ضبطها، هذه كراهية يجب الأخذ على يدها حتى تستقيم حتى لو كانت كراهية أفعال لا ذوات.

لهذا ابتكر «حسين» طقوسه الخاصة عندما يتسلم زبائنًا، يضع على المقعد الأمامي جاكيت بذلة لا يرتديه أبدًا، لكنه يشغل به المكان، يدفس «مسوَجَر» الباب الأمامي ويضع في أذنيه سماعات (هيد فون) لا تعمل، وعندما يلج الزبون باب سيارته يصيح بصرامة: انتظر، لا تغلق الباب، أنا سأغلقه. ثم يسأله بمجرد أن تتحرك بهما السيارة: هل تفضل نافذتك مفتوحة أم مغلقة؟ هل تريد الاستماع إلى شيء ما مخصوص؟ هذا كله ليضمن ألا تنحدر مشاعره إلى كراهية الزبون، وأن يظل ملفه الوظيفي نظيفًا، ألا تتدخل عوامل أخرى في تعامله، الكراهية سيئة، خاصة عندما يمتهن مهنة كميته، ليضمن أن الرصاصة التي ستخرج من مسدسه عندما تخرج ستكون خالصة لله وللبلد وللقمة العيش.

\*\*\*

## «إسماعيل» - الكاتب

«(فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ)»

(الكهف: ٧٧).

\*\*\*

بالمكان الذي وضعوني فيه لا يوجد ماء، إلا ما يحملونه في زجاجات للشرب، واللون الأخضر المتاح هو لون الجدران، جدران مدهونة بالأصفر وخطوط خضراء طولية، الهواء يتجدد بفعل غلق الباب وفتحه؛ لأن النافذة الوحيدة مغلقة، قالوا لي إن الخروج إلى العالم خطرٌ على حالي النفسية، وإن أبسط الأشياء، بدايةً من تاريخ اليوم في الجريدة، يمكن أن يسبب لي مضاعفاتٍ عقلية.

قبل ثلاثة أيام، سألتني الدكتورة «عالية»:

- هل أنت مرتاح؟ هل تأكل ما يقدمونه لك من طعام؟ هل تنام جيداً؟

أجبتها في الفواصل بين أسئلتها:

- نعم، نعم، نعم.

ثم ترددت قليلاً قبل أن تقول - أُمِرُّ صوتها عندما تتردد في الهاتف:-

- أخبرني، هل تحلم يا «إسماعيل»؟

- ليس كثيراً.

- وبماذا تحلم؟ بالقصر، بها، أم بالمدرسة، بزملائك في المدرسة، وبالاستاذ «سمعان»؟

- لو كنت أحلم بشيء منها لأخبرتُكِ.
- وهل تتذكر كل ما تحلم به عندما تستيقظ؟
- بلا شك.
- وهل تحلم وأنت تعلم أنك تحلم؟
- تقصدين الأحلام الجلية؟
- ماذا تعرف عنها؟ أخبرني.
- ما يقوله «أرسطو» عنها: «يحدث كثيرًا عندما يحلم الشخص أن يخبره شيء في وعيه أنه في حلم ليس إلَّا، يكون واعيًّا أنه يحلم وهو يحلم».
- سألتني في قلق:
- هل هذا يحدث لك؟
- ليس دائمًا، حلم واحد فقط.
- وما هذا الحلم؟
- لن تصدقيني.
- بل سأصدقك.
- أحلم أنكم تحلقون لي لحيتي وأنا نائم، وعندما أستيقظ تتهمونني بقتل رجل اسمه «إسحاق».
- وهل تستيقظ عندئذ؟
- لا.. أستمّر في النوم.
- لماذا؟
- لأنني لا أعرف رجلًا اسمه «إسحاق».

\*\*\*

لا أحتاج إلى أن أنام وأحلم بالقصر، فقط أغمض عيني فأراه،  
الصور الحديدي، لا تندفع روحي هناك كالأثير أو أتحيل، لكني أرى  
الموجودات كلها هناك كأنها صيغت من زجاج.. وأنا، كأنني أقف  
خلف ستارة صيفية من الحرير، السياج الأول بعد الصور الحديدي  
تتعاضد فيه أشجار الكافور وشوك الشام (الأكاسيا)، والسياج التالي  
تُحني فيه أشجار التويا العطرية رأسها خوفاً من مقص البستاني  
النشط، غرف السادة التي تطل على أحواض الزهور، المطبخ  
والبدروم، الرائحة العطرة للطعام تُثير جوعك حتى لو لم تُكن  
جائعاً، والجدران السمكية تدفعك لتخيل الخريف، والشتاء، والمرة  
الوحيدة التي نزل فيها الثلج من السماء.

وكان كل شيء كان بالأمس فقط، عندما طلبت مني «إيلات» أن أكتب  
لها نصاً في الحب، لا تزال كل كلمة قالتها لي طازجة في قلبي، لم  
تُحمل لي الورقة في طبق خزي من أطباق الطعام، أو تُرسلها مع  
«جبر»، بل طلبت ذلك مني شفهيّاً، ولا يعني هذا إلا أنها تريد  
أن أكتب لها النص من دون أن أتعجل كتابته، يعني أيضاً أنها لن  
تسامحني إن لم أكتبه كما تتوقع، أو فوق ما تتوقع.

عندما ولجت من الباب كان ظهرها إليّ، سعلت سعلَةً خفيفةً لأبّتها  
إلى دخولي، شعرها المنسدل حتى حزام الثوب الطويل المصنوع من  
الشفوف الأبيض، وألق ذراعيها وعنقها من الخلف جعلاً المساء  
متردداً في الدخول من النافذة، أذنت للمساء بالدخول ولم تأذن لي،  
جعلتني أنتظر طويلاً وهي واقفة هناك عند النافذة، تغرب الشمس  
عليها وتشرق هي على قلبي، فرحت بأبدية الانتظار خلفها على الرغم  
من أن إصبعي المتقيحة ظل ينبض فيها الألم بالتزامن مع دقات  
قلبي التي تسارعت في حضورها، الدم يحمل الألم إلى الأعصاب  
والتسارع يجعله مثل تيار كهربائي، وكنت أستطيع أن أقطع سريانه  
بأن أرفع ذراعي كلها لأعلى فيهدأ الألم، طريقة مجرّبة، ولكني لم

أفعل، كنت ملتدًا بوجودي في شعاعها، وكانت هذه طريقي لأدفع ضريبة لذتي المحرمة.

لم تستدرِ لتقول، لم تمهد بتبرير طلبها، قالت فجأة:

- أريدك أن تكتب لي نصًا في الحب يا «إسماعيل»، واعتبر أن هذه هي المرة الأخيرة التي سأطلب فيها منك نصًا.

قالت ذلك وكأنها طلبته مني قبلًا عشرات المرات، قبل أن نلتقي، وبعد أن التقينا، طلبته مني عندما استويتُ رجلًا، وعندما كنتُ مراهقًا، وطفلًا، وربما كلَّفتِ الملاك الذي وُكِّل بنفخ الروح فيَّ وأنا في الرحم أن يبلغني بذلك: «اكتب لها نصًا في الحب». وكأن هذه هي المرة الأخيرة التي ستطلب فيها مني ذلك، فقد صرْتُ قادرًا على فعل ما طلبته، صرْتُ مكلَّفًا عن جميع الرجال أن أكتب لها نصها الأثير، قُبلة الحياة الأخيرة للعالم المنتهي، على الرغم من أن هذه الكلمة (مكلَّفًا) لم يُعد لها معنى في الزمن الذي وُلدنا فيه، وكنتُ أعرف بالضبط نوع الحب الذي تريدني أن أكتب لها عنه، إنه الحب مُدبِّرًا، الحب بعد أن صار رمادًا سحريًا ينتظر بعناد أول المطر ليتنفض من جديد كالعنقاء، الحب الذي لم تشتهه يومًا وإن كفرت به كما يكفر المشتبه، كم أشفقت عليها من انتظار المطر في عصر مجذب، كأني أشفق على تلك الدرقاة القاسية التي تُحصن قلبها من الخدوش العابرة، وما أشد حماقتي عندما حسبت نفسي يومًا ما أعمق من خدش عابر!

\*\*\*

على باب «إيلات»، كنتُ أتذكَّر جدي، لا أتذكره من نسيان، بل بوحى من التجربة المكررة، ساعيًا خلف الصوت الذي صاغه له الماء، كان جدي ضعيفًا، قليلًا، أعطته الحياة أكثر مما أعطتني: البيارات العشرين والعشب والأسماك، وأصابعه، كل ما حوله كان كافيًا، كافيًا له، ولي، لأولدَ في مخاض متعسّر، ولأهزم ليونة ساقِي

الضعيفتين وأصعد الدرج، كافيًا لأتعلم القسمة التقريبية، وعدد الكواكب في المجرة الشمسية، وأكتب اسمي مرارًا وتكرارًا حتى أتقنته: «إسماعيل.. إسماعيل.. إسماعيل».

من الصعب أن أذكّر المرة الأولى التي رأيت فيها وجه جدي؛ فأنا أعيش معه منذ ولدت، وجهه أصبح مُسلّمةً بصريّةً، ولكنني أذكّر حدثًا بدأت أدرك فيه وجود وجهه في حياتي، يوم أيقظني مبكرًا جدًّا، قبل ضوء الصبح، كان وجهه يحمل تعبيرًا مختلفًا، ظاهرًا كأوضح ما يكون؛ فمصباح الصالة الكهربائي كان مضاءً، كل المصاييح مضاءة، وفي يد جدي كان الكشاف مضاءً أيضًا، وكأن ضوء الكهرباء المبهر غير كافٍ ليبصر، أو أن العتمة بداخله أصبحت أشد، ناولني الكشاف فحملته وتبعته بالضوء وهو ينقل متاع العمل المعتاد إلى العربة التي تُدفع باليد: حقيبة العدة الثقيلة ومشحمة يدوية تحمل ما لا يقل عن خمسة كيلوجرامات شحمًا متعدد الأغراض، ثم رفعني بين ذراعيه ليضعني أيضًا فوق أشيائه فتشبّث بالمشحمة البرميلية كما يتشبّث قرد بابون صغير بجذع شجرة، دفع الجد العربة وانطلق.

منذ ذلك الحين، جفت حياتنا مثل مجرى نهر انقطع عنه الماء، عرفت أن جدي ماتت، وأنه لم يعد ممكنًا أن أترك بالبيت بينما جدي غائب بالعمل، صرت أصحابه يوميًا، أنا كشافه وعيناه، وهو القوة الدافعة لقافلتنا الصغيرة، على الرغم من أن جدي يحفظ عن ظهر قلب، أو بالأحرى، تحفظ قدماه جغرافية الطريق، لا أنبهه إلا عند وجود مستجدات (قرص روث طري، فرع شجرة ساقط، بركة ماء صغيرة)، وعندما تشح المستجدات أنقل له نشرة أخبار الطريق بصوتٍ تُرعه المطبات، أرنب بري يضرب بقدميه الخلفيتين قبل أن يمرق بين الأشجار أو يختبئ في حفرة تحت الأرض، ثعلب مار وقف يرقبنا في حذر، أو ثعبان خشخش وهو يندفع بين أوراق الشجر المبللة بالندى هاربًا من ضوء الإنسان.

مع ضوء الشمس الأول الذي يظل - مع وجوده - لضوء الكشف الفضل في كشف الطريق، نكون قد وصلنا إلى أرض البيارات، خمس وعشرين بئرًا تستمد الماء من النهر البعيد من خلال قناة أرضية، آبار ضخمة بأسوار أسطوانية عالية، تحدّق إلى السماء في أرض فضاء لينة ينطق لون عشبها بالخصوبة الطرية، كلُّ بئرٍ متصلة بالقناة عن طريق بوابة حديدية، إذا صرخت في إحداها صعد الصوت من المتبقّيات كأرانب مذعورة، وإذا فاض الماء فيها روى أراضي بمد البصر.

أول ما نصل لأرض البيارات يقوم جدي بفتح البوابة الأساسية الكبرى، رفعها هي بالذات يتم عن طريق صندوق تروس يتغذى موتوره بالواح الطاقة الشمسية المشرعة فوق البوابة، يضغط جدي على زر التشغيل فيسود هديرٌ خافتٌ، يبرز فتيلها نصف متر في الهواء ثم يرفع يده عن الزر فيتوقف عن صعوده، يعاين جدي درجة جفاف الفتيل ثم يقرر، يأتي بالمشحمة، يفك التفاف خرطوم التشحيم حول الأسطوانة المليئة بينما أقوم بسحبه حتى ألصق مقدمة الخرطوم وبه «نبل» التشحيم مُسدس الرأس بفتحة التلقي في جراب الفتيل، ثم يضغط جدي الزر ويواصل الفتيل صعوده مزهوًّا براقًا في أجزاءه الحديدية المكشوفة، زلّنا بفعل الشحم الذي يندفع في مساره الثابت، بضغوطات سريعة من جدي، يحمله الخرطوم إلى حيث تضغط يداي بقوة للسيطرة على دفعات الشحم المندفقة التي تتلوّى مثل دودة غاضبة فائقة القوة.

في انتظار مجيء المياه نقوم بمهمتنا التالية، يتهيأ جدي لها بخلع ملابسه تمامًا مهما كان الطقس باردًا، يطويها ويرصّها بعناية فوق يديّ المشرعتين تجاهه بينما ينهني من وقت لآخر بالحفاظ على عيني مغمضتين لئلا أرى عورته المغلّطة، مع الثقل المضاف لآخر قطعة من ملابسه على رف ذراعي أنصت لصوت انضغاط العشب

الأخضر تحت قدمي جدي وهو يبتعد ثم أسمع انزلاق أصابعه على الجدران صاعدًا، عندئذ أفتح عيني وأهرع لأشاهد جزءًا من ظهره قبل أن تُغيّبه الظلمة المكدسة في بئر الماء وهو يهبط سلامها، سلام حديدية زلقة ممتدة على الجدران الخرسانية بشكل رأسي لمسافة خمسة أمتار تحت سطح الأرض، لا تعتاد عيناى على الرؤية في ظلام البيارة على الفور، بعكس جدي، كثيرًا ما تساءلت عن السر في اعتياد عيني جدي على الظلام بسرعة بعد ضوء الشمس المبهر، ربما هو شيء ملازم للكبار، ثبات الأعين على الرؤية القديمة، أرى جدي وهو يخوض سابقًا في الماء البارد برفق، محاذرًا ألا يثير أسماك الشبوط والبلطي المحتجزة هناك في مخاضة الماء القليل، لم يصطد جدي السمك بالشباك أبدًا، يصطادها بيده، ينتشلها بضربة واحدة ويقذفها في الهواء بقوة واحتراف لتتجاوز ارتفاع البيارة وسورها وتسقط على العشب، السمكة الأولى مبهجة بشكل لا يوصف، تعكس ألوان الطيف على قشورها وتنفس كأنها نزلت للتو من لعبة أفعوان الملاهي، يشغلني تأملها عن مطر السمك حولي، ثم أهرع لجمع الأسماك قبل أن يحملها تقافؤها العنيف على العشب الأخضر إلى بئر أخرى، أعبئ بها الجوال المصنوع من الخيش.

كان جدي يعرف البيارات التي تحتجز الأسماك الأكثر، فعلى الرغم من عشوائية اختياراته والفرص القليلة المتاحة، لم تخيب توقعاته البطن الفارغ لجوال الخيش أبدًا، ومع ذلك دائمًا ما كان الوقت يدهمنا بينما صيحات جدي وأنفاسه تتنقل من بيارة لأخرى، ثم يهتز الهواء إنذارًا بتشغيل مضخة السحب البعيدة وتنفث البيارات القريبة رذاذًا خافتًا لا تكشفه إلا الشمس في انعكاسها عليه بأقواس من ألوان الطيف المرحّة، وتسود رائحة كما لو أن كائنًا مائيًا عملاقًا غافيا استيقظ في القنوات وتجشأ خفية، يصعد جدي بسرعة ويرتدي ملابسه الداخلية ويُسرّع ليتمم فتح البوابة الرئيسية بالكامل ثم يبدأ في فتح باقي البوابات بمقاديرها المضبوطة التي لا تُخطئ، حسب

جدول يسير عليه بدقة شديدة، تمتلئ البيارات نهارًا ثم ينخفض منسوب الماء فيها ليلاً بعد إغلاق جدي البوابة الرئيسية وإيقاف مضخة السحب البعيدة، تنسحب المياه للخلف إلى منبعها من تفاوت البوابات عند القاع، لتترك السمك في مخاضة يسهل صيدها، رزق اليوم التالي.

\*\*\*

لم يتطلب العيش مع رجل مثل جدي إلا الاستيقاظ مبكرًا ومهارة يدين لا تنزلق منهما الأسماك، بعد مهارة اليدين لا يأبه جدي بأي شيء آخر، دائمًا ما كان ينصحي:

- يا «إسماعيل»، لا بُدَّ لك أن تبرع في اصطياد شيء بغض النظر عن فائدته..

لم يمثل السمك مصدر رزق معتبرًا مع المرتب الضئيل لجدي وفقط، بل كان الإثبات الدامغ على نظريته تلك، والتي ما فتئ يكررها على مسمعي، لا بُدَّ أن تبرع في اصطياد شيء يا «إسماعيل» ولو كانت الزنابير اللاسعة، براعتك بدرجة كافية في اصطياد هذا الشيء كفيلة بجلب باقي الأشياء التي لم تبرع في اصطيادها إلى يدك.

جدي كان صادقًا فيما يخصه؛ فعلى الرغم من موت جدتي فإن حياتنا لم تخلُ من لمسة أنثوية، تحملها بائعات السمك اللاتي كن يتناوبن أيام الأسبوع مشى مشى، ثلاث بائعات، تأتي إحداهن اليوم ولا تأتي غدًا، لتحل محلها زميلاتها في اليومين التاليين، بعد أن يُتم جدي رفع البوابات وضبطها تظهر في الأفق وهي تحمل قفتها الفارغة على رأسها، تسير بين البيارات حتى تصل إلينا، ومن دون أن تبادلنا كلمة واحدة تفتersh الأرض بجانب الجوال المليء وتبدأ في إفراغ وفرز الأسماك منه إلى قفتها، تنزع بعض العشب الطويل من حولها وتغطيه تمامًا، تنهض، وبمرونة فائقة تحني وترفع القفة الثقيلة الممتلئة إلى رأسها وتعود من حيث أتت.

صفقة جدي كانت معروفة، يقايض جوال السمك بخدمات غسل الملابس وتنظيف البيت ووجبة ساخنة يومية، بعد الظهيرة نعود فنجدها على مائدتنا مغطاة تنتظر، بقايا التراب الناتج عن الكنس والتنفيض لا تزال عالقة في الهواء، الملاءات تم تغييرها بأخرى، والملابس التي كانت متسخة مُنشرة على الأحبال تزغرد بلمسة أثوية لا تخطئها العين، والأطباق المتبقية من وجبة الأمس لا يزال الماء يتساقط منها في «المطبخية» إلى حوض الغسيل، وطبق كبير للفاكهة مليء مُغطى بشرشف قماشي ملون بجانب رشاقة السكاكين، سيدة مرت من هنا ولوّنت الحياة، سيدة اختلس جدي ساعات من عمرها بدلاً من زوجته التي غابت ولن تعود، والفضل في ذلك يعود لمهارته في اصطياد السمك بيديه.

\*\*\*

ترك جدي العنان لأصابعي في التجربة، إلّا أن أنزل البئر بها، ظل حريصاً على أن تمتلك تاريخاً أكثر زخماً من تاريخي أنا، ما من مرة رفعتها إلى عيني في ضوء أو ظلام إلا ورأيت عليها آثار طفولتي، ندبات وخدوش، طفولة منفلة العيار في القبض على ما يشغفها وإفلاتها عندما تمل: خيوط طائرات ورقية، وذيول رعاشات الماء وقواقع حلزونية وديدان أم أربعة وأربعين، أرى عليها أولى آثار الإثم الإيروتيكي في اختلاسات التحسس للمواضع الحميمية سرّاً، دهشة وليس شهوة؛ فالشهوة لم تُغن قد استيقظت بعد من غمدها.

هذا التحسس العاثر لم يقلل من جدية أصابعي وجدواها عندما اشتدّت، لا أنسى أبداً المرة الأولى التي غمست يدي في الكارديوم، أذهلتني التجربة، غلظته وسُمكه، كالشحم ولكنه أسود، سألت جدي حائراً:

- قار؟!

- لا، كارديوم يا بني، أثنم وأبقى من القار.

كم مرة غرفت يدي من الكارديوم لتوزّعه على التروس وحصائر التروس في أبواب البيارات الضخمة، الكارديوم الأسود الطيب؟! ربما مئات المرات، ولكل مرة عذاباتها؛ إذ كان عليّ أن أغسل يدي مرارًا وتكرارًا بالكيروسين ليزول اللون وتبقى رائحته لأيام في يديّ المشققتين.

عندما تحتد الشمس تفوح رائحة الكارديوم الصمغية في الهواء، يصبح أكثر لمعانًا وتألّفًا كذيل فستانٍ حسناء في ليلة حافلة فاصلة، وعندما تتحرّك الحصائر وتمضغ الكارديوم بين أسنانها يُسمّع له صوتٌ مثل هسيس مرور عجلات سيارة بطيئة ثقيلة في طين شتاء ثخين.

ما من نهار صيف احتدّت حرارته إلا وأيقظت بداخلي ذكرى بيت جدي ورائحة العشب عند البيارات ونفور قشور السمك على ظهر كفّيّ بعد جفافهما وأنا عائد معه إلى البيت، الصيف في طفولتنا غير الصيف عندما نكبر، الأشياء تدخل صيف طفولتنا ولا تخرج، لا يُخرجها إلا الحرارة، وهي تعيد تشكيل العالم في وقت الظهيرة، تفتح ممرات سرية بين الصلب والسائل، بين الروح والجسد، ومثل موجة على شاطئ الدنيا تلفحنا الروائح القديمة، تتخللنا لتنسل منه حيواتنا السابقة وتلقيها على سيقاننا مثل ثياب قديمة عثرنا عليها في دولاب الطفولة، نتحسس الثياب بيدٍ طفولية الشعور، وتذكر، التذكر وسيلة جيدة للقتل البطيء للذكرى.

في هذا القيظ، كانت الأسماك تموت إذا تأخرت البائعة. البلطي بجميع أنواعه كان هو الأقصر روحًا، يلفظ أنفاسه سريعًا مذهولًا بعينين جاحظتين فوق العشب، يليه الأنومة، جسد ناعم وشكل غريب ولا شوك تقريبًا يجرح الأيدي إذا قبضت عليه، وفم مثل خرطوم الفيل وموت يشبه موت فتاة معصوبة الرأس لَوامة لم تذُق من الحياة متعة، ثم الكركور: جسد زلق وشوارب طويلة،

يكركر بأنفه بمجرد خروجه من الماء، الشال أطول روَّحًا على الرغم من شبهه بالكركور، إلَّا أن له ثلاث شوكات، اثنتين في الجنب وواحدة في الظهر، لطالما حدَّرني جدي من هذه السمكة، أخبرني أنها سمكة عنيدة، إذا شعرت بالشص في فمها جذبت خيط الصنَّارة ودخلت بين الصخور وشبكت أشواكها فيه واستحال على الصياد جذبها إلا بضياغ الشص؛ لذا يسمونها سمكة الصخر، سمكة الشال الكبيرة يبدو فمها كفم غجرية مليء بالأقراط، مليء بالشص، يُنبئ عن عدد المرات التي فشل الصيادون في صيدها فيها، أما القرموط فلا يموت إلا بضربة على الرأس، يظل يروغ منك بين العشب مثل كلب فقد سيقانه، باحثًا عن الطين، القبح والسواد جعلاني أعتقد أن القرموط جنس ذكر، ذكر فقط، وبقية الأسماك إناث، خاصة البلطي والأنومة، عندما أخبرْتُ جدي باعتقادي هذا ضحك حتى سال الروال من فمه والدموع من عينيه.

بعد أن يفرغ جدي من معايرة البوابات، يقوم بفرز الأسماك، يضع الأسماك الأطول روَّحًا في قاع الجوال، يقصُّ ذيول الأسماك الكبيرة منها أولًا، أخبرني أن هذا يجعلها تستسلم سريعًا للموت، يلجدها ببعض العشب، ويرشُّ عليه الماء، ثم يذهب للنوم في ظل البيارة الرئيسية، لم يكن نومه ثقيلًا، لكنه إذا أراد نام على الفور، كأنه أطفأ ضوء ردهته الداخلية بضغطة زر.. في المقابل، يوقظه أقلّ تغَيُّر في الأصوات المحيطة، وأصوات لا أسمعها، كنداء النداهات لي: «إسماعيل». كم مرة استيقظ لينقذي في اللحظة الأخيرة بعد أن صار معظم جسدي متدليًا في البئر! يسمع أيضًا خنين الأسماك الكبيرة التي لم تَمُتْ بقصِّ ذيولها، تبعث في ذاكرته لحظة غرق من ذاكرة مرادفة، يرفس بقدميه، وبعينين حمراوين يستيقظ، يأتي عند الجوال ويركع على ركبتيه ويجس بيده اليسرى باحثًا عن السمكة التي لا يزال فمها ينبض، ليفرك خياشيمها بإصبعيه فتختنق سريعًا، ثم يعود لنومه تحت الشجرة.

إذا نام جدي صعدت على سور إحدى البيارات، استلقيت على بطني لأراقب دوامات الماء التي يشكّلها جريان الماء في دخوله وخروجه حسب اتجاه البوابات، يكتب الماء حكاية دوّامية مغلقة بفرع شجرة أو زجاجة فارغة أو زبد أبيض، أقرأ الحكاية وأتساءل: متى سيسمح لي جدي بالنزول مثله إلى البيارات لصيد السمك؟! أظل مستلقيًا حتى تُحمي حرارة الشمس المختزنة في السور معدتي كجدران فرن مشتعل، أشعر بالجوع فأذهب لإيقاظ جدي لنعود إلى البيت.

\*\*\*

زيارتي الأولى لمحطة الرفع لا يمكن نسيانها، لم يَنَمْ جدي في هذا اليوم بعد خروجه من البيارات، كان قد لاحظ وجود نقاط صغيرة من الزيت طافية على سطح الماء، أمرني أن أنتظر بائعة السمك، وعاد هو إلى البيت فأحضر شنطة العدة، وارتدى «أفارول» أزرق متسخًا، غادرنا أرض البيارات الخضراء في اتجاه آخر غير اتجاه البيت، حملتنا أراضٍ عدة، طينية وأسفلتية، ومررنا ببيوتٍ حيّا جدي أصحابها واستضافونا على كوبين من العصير البارد أو اللبن الدافئ أو الشاي، وسبقتنا سيارات ضربت أبواقها تحيةً لجدي، وخرج أولاد القرى ليستقبلونا عند الدخول ويشيّعونا ونحن نخرج، كانوا يتهامسون: البحار وابنه. كنتُ فخورًا فأمسكت بيد جدي كأني أؤكد انتمائي له فشدّ على يدي وابتسم من علٍ.

لم أرَ السد، المحطة كانت في نهاية طريق مصفوف بالشجر من الناحيتين، بوابة عملاقة من الحديد فتح جدي بها بابًا مفصليًا صغيرًا يسع دخول رجل متكامل الجسد، بالداخل كان الهواء دافئًا معبّأً برائحة السولار، ها هنا الكائن الذي يتجشأ كل يوم عند البيارات، مشيت بحذر على أرض خرسانية زلقة بالشحم والريم الأخضر، أضاء جدي النور الكهربائي بضغطه على زر، فانكشف أمامي ما التبتست عليّ رؤيته للوهلة الأولى: حلقتان من حديد، عملاقتان

وملامستان تقريبًا للأرض، تربطان مضخة السحب العملاقة بموتورها عبر أحبال بلاستيكية مقوَّاة، جسد المضخة وأنا أتحمسه في رهبة كان باردًا في أجزاء ودافئًا في أجزاء، عثر جدي على الجزء الذي يُسرب الزيت فوضع الرباط عليه حتى طقطقت المسامير، وسكب بعض الزيت من فتحة صغيرة أعلى هذا الجزء حتى قرقر الزيت فكف. رائحة المكان كانت خليطًا من الحديد والرطوبة والبلل ورائحة الأسماك الكبيرة النافقة التي جاءت وباتت في غرف ريشة مضخة الماء في أثناء خمولها، ثم مرَّقتها في الصباح عندما دارت من دون تدخل البشر، دار جدي في المكان يتَّمم على رباط المسامير الأخرى وأخذتُ أنا جولة، عددتُ ثلاث مرات دارت فيها مضخة السحب الغاطسة المغموسة بالكامل تحت الماء، كانت تدور أوتوماتيكيًا إذا ما ارتفع منسوب الماء الجوفي في المحطة أعلى من الأرض الخرسانية، تسحب الماء بكفاءة هائلة إلى أعلى السد البعيد لئلا تتضرر الدوائر الكهربائية والإلكترونية، كان المكان بأكمله أشبه بعبادة هامسة للماء، بها من الخلط والزيف ما بها، لكنها تعترف بالقوة التي تستطيع المياه أن تفعلها إذا ما كفرت بها تلك العبادة وتعطلت - مثلاً - مضخة الغاطس فأتلقت اللوحة.

في الوقت الذي يصمت فيه هدير المضخة الغاطسة وصوت انسحاب الماء في المواسير، يسيطر صوت آخر، منتظم ضعيف، كصوت قبيلة خيالية من النمل الكَّتبة تخطُّ حكاية الحياة، كان هذا أكثر ما أبهرني هناك، اللوحة، بعرض الصالة وفي نهايتها بعيدًا عن الرذاذ الذي قد يتناثر من تسريب أو ما شابه، عشرات اللمبات التي تضيء وتنطفئ، وعشرات الأرقام تظهر وتبديل، وفتحات صغيرة تتحرَّك بداخلها عشرات المؤشرات الحبرية على أسطوانات من الورق الرقيق الدائر في سرمدية مُغلَّقة مُغلَّفة لا تُطال إلا بسلم المحطة الخشي، أخبرني جدي أنه يعود كل عشرة أيام، يزيل الريم الأخضر

من فوق الأرض الخرسانية بمساحة من الكاوتش، ويطمئن على مناسب الزيت، ثم يقوم بالعمل الأهم على الإطلاق: يأتي بالسلم ويسنده على اللوحة ويصعد عشر درجات ليبدّل خزانات الحبر وأسطوانات الورق ويضع المستعمل منها في دولاب خشبي صغير بعد أن يكتب عليها تاريخ اليوم.

عندما فتح الدولاب أمامي شهقت وسمعت جدي يقول خلفي فخورًا:

- هذا هو سجل عمل المحطة، كل شيء يُسجّل، والأرقام هي الشاهد الوحيد على كفاءة فني الصيانة، جديك يا «إسماعيل».

عندما قال جدي ذلك نظرت إليه فخورًا، فوجئت بالتعبير المرتسم على وجهه وعينيه اللتين خُطفتا إلى السماء، لم أخمّن الفكرة التي راودته عن نفسه إلا بعد سنوات، الفكرة التي استباحته للكفر، ثم عادت به، كملاك قُصّت أجنحته وضاعت قدرته على الصعود للسماء.

\*\*\*

## «حسين» - القاتل

من الصعب الوصول إلى «حسين»، أو لو تحرينا الدقة في اللفظ، من الصعب تخمين مكانه؛ فللهولة الأولى يبدو وكأنه لا يستقر، وهذا وجود خادع؛ فعندما لا يكون نائمًا في الفندق، أو في صالة التدريب، أو مؤديًا لمهمة من مهامه، لا يكون إلا في سيارته، يقودها بلا هدف ومن دون توقُّف، يفرد قبضة الشوارع المحكمة على سكانها ومساكنها، يدور ويلف ويخرج ويدخل كأنه في مهمة عبثية للبحث عن طرف الخيط الجغرافي الذي سيتفكك منه النسيج العابس لوجه المدينة.. وعندما ينتقل اشتباك الشوارع إلى قلبه، ينطلق إلى الطرق السريعة، يقود بسرعة جنونية، يُلقى مع دخان سيارته ما جمعه من بؤس، الطبنجة الثقيلة ملقاة في الدواسة، ملفوفة كجرذ ميت في كيس أسود، يخلع حذاءه ما دامت هناك، ورع في قلبه لا يُمكنه من أن يدوس على سلاحه بحذائه، قدماه حافيتان، يتحسّس المعدن البارد من وقت لآخر ببطن أطراف أصابعه، الطبنجة في الكيس الأسود تدب فيها الحياة بمداعبة أصابعه، تتحوّل من جرد إلى أنثى، وللأنثى الجميلة على الذكر أن يبدأ طقوس التعري قبل أن تخلع قطعة واحدة من ملابسها، عندما يكون «حسين» حافيًا والطبنجة تستجيب لمداعبات أصابعه يسب راكبي السيارات الأخرى الذين يسبقونه أو يضيّقون عليه الخناق، يسبهم بطلاقة وبذاءة لم يعهدهما في نفسه من قبل، نوافذه مغلقة والأنثى تلمظ لمداعبة أصابعه والشبق مباح..

السلاح ليس أنثى، إنه رجل، امتداد للرجل، صلب قابل للحياة، وإحدى اللحظات التي مهما تكررت لا يمكن لـ«حسين» نسيانها عندما ينزل من سيارته في النفق، يترجل حاملًا الظرف إلى ما خلف غطاء

موتور سيارته المرفوع، الخطوات نفسها لا يتغير إيقاعها، ولكن الصدى داخل النفق يمتلك أدناً موسيقية وفماً عابثاً، قام الصدى بتغيير إيقاع خطواته أكثر من مرة خلال سنوات مهنته، من إيقاع الغلبة إلى إيقاع التكريس، من إيقاع القوي إلى إيقاع المتبتل، وعندما يصل إلى غطاء السيارة يكون قد تشبّع بالكامل بالطمأنينة اللازمة للقتل.

يرفع الغطاء ويتنشق رائحة المعدن الساخن بشبق، تدحر الرائحة ما تبقى من توتره قبل أن «يفض» الظرف، لم يفهم الكلمة إلا عندما فضّ أول ظرف له، صوت طيّتي ورقة رأس الظرف وهو يقطعها دفع بالدماء إلى عروقه، واتجه تفكيره تلقائياً إلى بوز طبنجته الهامد في سيارته، أسفل الدواسة، كأن دماءه المتحفزة وجدت طريقاً لها إلى نسيج المعدن الأسود لينتصب، لحظتها يتذكر حكايات أبيه عن الرجولة القديمة والليلة الأولى في الزواج.

\*\*\*

للوصول إلى «حسين»، يوجد في كتيب التعليمات بند سمّاه بند الرسالة الصفرية، تصله رسالة على جهاز المهمات بميعاد ومكان، المختلف هو وجود الصفرة في نهاية الرسالة، الرسالة تعني أن يذهب «حسين» إلى المكان في الميعاد المحدد وينتظر التعليمات، مجرد استدعاء أجوف ربما للتأكد من بقاءه على قيد الحياة أو جاهزيته للعمل.

كانت هذه هي المرة العاشرة في عمل «حسين» الوظيفي التي تصل إليه فيها الرسالة الصفرية، والمرة السادسة التي ينقل فيها رجلاً من مكانٍ إلى آخر دون أن يعبئ رصاصته، بلا أظرف وبلا أمنيات أخيرة، فقط نوع من الخدمات المجانية خارج نطاق عمله، حراسة جيدة مع قاتل لا يقتل إلا بالأمر، المرافق له يعرف مهنته، وقد يضايقه بالأسئلة، وعلى الرغم من أنه يحصل في النهاية على إكرامية جيدة

فإن هذه المهام كانت تضايقه؛ فهو شبح بالنسبة لهم، مسخ أسطوري من قصص الأطفال، يتجول في ساعة الظهيرة ليخطف الصغار والعاجزين ويعبئهم في جوال على ظهره ويذهب بهم إلى المجهول، وعلى الرغم من خوفهم منه يطلب بعضهم هذه التوصيلة كنوع من التأمين، عبور القنطرة، فمن يعرف وجهه لن يُنفذ في حقه حكم الإعدام أبدًا، وهذا هو سبب ضيقه، أن يظن شخص ما في هذا العالم أنه خارج نطاق القتل الحكومي حتى لو كان من رجال الحكومة.

ولكن «د» كان رجلًا مختلفًا، رجلًا حرًا، فهم «حسين» هذا من النظرة الأولى، ليس رجل جيش ولا شرطة وإن كانت سيماه تدل على أنه رجل من الرجال الذين يُحرّكون الأمور من خلف الكواليس، القيادة الهادئة والصمت وعينا السائق اللتان لا تتلصقان أرخت أعصابه، أظهرت معدنه المُحب للرجولة الحقيقية والتفاني في العمل، طلب من «حسين» توصيله إلى فيلا هادئة بالسادس من أكتوبر، ومن ثَمَّ سيعيده بعد ثلاثة أيام إلى مكان في وسط البلد ارتجل عنده وسار على قدميه مبتعدًا، توقف «حسين» للغداء في مطعم قريب حتى ينتفي عنه شك أنه يتتبع رجل الحكومة السري.

بعد شهر من قيام «حسين» بإعادته من فيلا السادس من أكتوبر، بدأت معرفتهما على نحو شخصي، في سياق الحياة الطبيعية، كان يشتري بعض المنشطات من صيدلية شهيرة عندما لفت انتباهه رجل يرتدي ملابس أنيقة يشتري كمية كبيرة من العقاقير من دون أن يقدم للصيدي كشف طبي، حمل الرجل الأنيق الأدوية في حقيبتين فقتبعه «حسين» إلى الشارع، سار خلفه حتى رآه يدلف إلى سيارة بها سائق، وفي المقعد الخلفي رأى «د» جالسًا، أومأ له برأسه إيماءة لا تكاد تُلاحظ، واستمر «حسين» في سيره دون أن يتوقف.

في اليوم التالي دق الجهاز ببيعاد ومكان في رسالة صفرية، لا يحتاج

الأمر لكثير ذكاء ليعلم «حسين» أنه «د»، وفي جو السيارة المغلق عليهما تحولت الميزة الأهم لـ«د» إلى جحيم: لا يتكلم إلا إذا سأله «حسين»، وسؤال من قبيل: «ما الذي تفعلونه بهذه الكمية من العقاقير؟» لا يمكن أن يوضع في سياق حديث طبيعي مع «د» إلا إذا أردت أن تضع فوهة مسدس عند رأسه قبل أن تسأله، لكن «د» قال له قبل أن ينزل من السيارة:

- لو ضايقتك أحدٌ في الإدارة فلا تتردد في أن تخبرني بذلك.

تماسك «حسين» لكي لا يبدو عليه أنه فوجئ، كان هذا هو البرهان الأول على أن «د» يعمل على رأس المنظومة التي توجهه.

- كيف سأفعل؟ سيادتكم مَنْ يستطيع الوصول إليّ، لا أنا.

- اضغط مرتين على الزر الأبيض في جهاز استدعاء المهمات إن أردت أن تبلغني بشيء.

هذا هو البرهان الثاني، الزر الأبيض الذي لم يفلح «حسين» في أن يعرف له فائدة، حتى بعد أن غربل كتيب التعليمات جملةً بعد جملة، وبعد غربلته لم يَكنْ على «حسين» إلا أن يُخرج الجهاز ويتأملَه، الأزرار التسعة والشاشة الصغيرة، وزر أبيض، زر غائر لا يمكن ضغطه عفوّاً، بل برأس مدبب كسَن قلم، ويتساءل: متى يجب عليه أن يضغط هذا الزر؟ ومن يمكن أن يجيبه عن تساؤله والجهاز ملكية مغلقة على موظفي الإعدام، يسلمه موظف إلى آخر من دون المرور بإجراءات تسليم وتسليم، ولا يمكنه العودة إلى الموظف السابق ليسأله؟ شيئان فقط يمكنهما أن يتسببا في فصل «حسين» من وظيفته بشكل تام، هكذا ذكر كتيب التعليمات: السعي للاتصال بموظف الإعدام السابق بعد تسلم وظيفتك، والاحتفاظ بالأظرف التي تحتوي على الأسماء والتَّهْم، وإن كان «حسين» يلتزم بالتعليمات حرفيًّا فهذا لا يمنع الرغبة، عبارة «السعي للاتصال» في حد ذاتها جملة مبهمة، ماذا لو التقاه عرضًا في مقهى أو

شارع؟! ألا يمكنه أن يلقي عليه التحية، ويتصافحا، ويسأله «حسين»: ما فائدة الزر الأبيض؟

\*\*\*

أدرك «حسين»، من اللحظة الأولى، أن «د» له علاقة بتحرير أظرف الإعدام، علاقة تتعدى كتابتها، وتتجاوز ما يفهمه موظف من الورق المختوم بختم النسر، ليس كالموظفين الذين يقتلون عشرات المواطنين يوميًا بأوراقهم دون أن يفهموا ذلك، رغبة ورقية ليس إلا، رغبة يتداخل معها شظف العيش وكدر الزوجة وفشل الأولاد، ولكن «د»، كموظف، يفهم قدرات الورق المختوم، يفهم رغبته الكامنة، يحترمها، يتجاوز الروتين، ويعمل على تنفيذها.

ذات مرة سأل «حسين» «د»:

- هل يوجد موظفون للقتل غيري في الإدارة؟

لم يُجب «د»، ابتسم فقط، وفرد أصابع يده اليمنى في وجه «حسين»، ثم ضمها وفردها، ثم ضمها، عدة مرات حتى توقف «حسين» عن العد في سره، ففهمه «د»:

- كل موظفي الإدارة قَتَلَة يا «حسين»، بوجه أو بآخر، لكن أنت المُنفذ الوحيد، ومُنْفذ القتل عادة ما يكون الأبعد عن فكرة القتل.

\*\*\*

كانت الجملة العفوية التي قالها «حسين» لـ «إسحاق» (سأقتلك) هي قطعة اللحم الأولى في حياة نباتية طويلة، ظلَّ «حسين» خلالها يعتقد أنه على قمة الهرم الغذائي، المفترس، سمكة القرش في البحر والأسد في الغابة، ثم جاء «د» وأخبره أنه ليس إلا منتجًا للقتل، وأن من يتغذى بالقتل غيره.

هذا الاكتشاف كان مفزعًا للوهلة الأولى، واستغرق «حسين» وقتًا لاستيعاب الصدمة، واستعادة ثقته بنفسه، بعدئذٍ أصبحت مشاعره

أكثر استقرارًا تجاه القتل ومن يُكَلَّفون به، وصار بإمكانه أن يتسم في أوجه الناس وأن يصادقهم من دون أن تختلط بداخله دورتا الموت والحياة.

ومن حُسن حظ العالم أن «حسين» له أصدقاء كثر، أصدقاء باهتون إن صح القول، المدربون في صالات رفع الأثقال إن قالوا له «عاش» فقد أصبحوا أصدقاءه، كل شخص تذكّر اسمه بعد علاقة اعتيادية فهو صديق أيضًا، وحتى من ينسى أسماءهم فيخاطبهم باللقب الوحيد الذي يتطوَّع به لسانه: يا صديقي. نادل المقهى الذي يشرب فيه شاي الصباح، وبائع المخبوزات الذي يشتري منه السميط الذي يغمسه في شاي الصباح، وصاحب الصيدلية القريبة من فندقه الذي يسرِّب له المخدر ويتقاضى مقابل ذلك مالاً يصل لنصف راتبه، كلهم أصدقاؤه، لكن صديقه الوحيد باعتبار المسرَّة والمضرة كان صديقه هذا الذي قال له بعد أن تناولوا الغداء البارد وحبوب الهلوسة: «سأقتلك يومًا ما».

ف«حسين» - إذًا - لم يقل ما يعتقد عقله، أو ما يحبه قلبه، ولا للتعبير عمَّا يدور بداخله من هواجس تجعل «إسحاق» مرتبًا بشكل واضح على خريطة دقيقة بداخله تُخرجه من كونه صديقًا إلى اعتباره زائنًا محتملًا؛ فالهواجس لم يكن لها مكان في طبيعة مهنته، التهمة التي يضعونها في الظرف كل مرة واضحة مثل شمس الصيف، لا إبهام ولا إيهام، ومن المستحيل أن تُخدَع أو تخضع للاستقراء.

كان التهديد أكبر من مجرد مبالغة كلامية؛ لأنّ اللاشعور يمتلك لغة هي الأنقى من الشوائب، و«حسين» لا يملك ترف أن يفقد صديقه الوحيد الحقيقي مقابل مبالغة كلامية، لا شيء اسمه مبالغت كلامية ولا زلات لسان تكشف المخبوء، مما يضعه تاليًا أمام احتمال مفزع كثيرًا ما فكر فيه، أن تجربة القتل غيّرت حواسه وأطلقتها، حررتها، وأن ما احتمال فقدانه في عضو صار يطفر على أعضائه الأخرى،

لسانه وجد لذة خاصة في أن يقول ذلك، لذة بذئية؛ فالقتل محرابه وبذائه، طهره وقذارة قلبه، ولسانه انخدع بلحظات الحرية التي وهبها إياه المخدر فانطلق يغترف من تلك المتعة ويصبها على نفسه، المتعة التي يجدها عندما يدوس على ثمرة ناضجة بحذائه أو بإطارات سيارته.

وبمجرد أن وصل «حسين» في تفكيره إلى تلك النتيجة مضى يتأمل بوز طبنجته المنبعج قليلاً مثل متك زهرة، انبعاجاً لا يكاد يلاحظه إلا مُحِب، وتأكدت شكوكه؛ فهذا الانبعاج لا يعود إلى أنه لم يتدرَّب على إطلاق النار، وإنما إلى طريقتة في إطلاق النار، عندما يطلق النار يحب أن يكون السلاح ملتصقاً بالضحية، مثل الطعن، يعطيه النشوة الكاملة، ويمنع الروح من الخروج بسرعة، يبقوها قسراً بالداخل لتزور الأعضاء زيارتها الأخيرة وتودعها، القتل بهذه الطريقة يعطيه فصلاً كاملاً من المتعة السريرية الكاملة التي لا يعرف كيف يصفها.

لا عزاء للقدماء، خرجوا من الدنيا من دون أن يتذوقوا الأجمل، لغبائهم.. لا عزاء لهم.



## «إسماعيل» - الكاتب

تحت ضغط من إلحاحي بدؤوا يُخرجونني يوميًا للترّيض، ساحة مستطيلة مغلقة، الجدران مرتفعة، لكنها سمحت لشجرة أن تطلّ عليها من أعلى وتُسقط أوراقها الصفراء وأغصانها الجافة المتقصفة وزرق عصافيرها، كأنه جزء استقطعه من شارع عام، توجد كنبه خشبية مظلمة من ذلك النوع الذي يضعونه في أماكن انتظار الباصات وكابينة تليفون مفتوحة ليس به حرارة، لا تدب فيه الحرارة إلا عندما أطلب الحديث مع الدكتورة «عالية».

في هذه الساحة، استطعتُ أن أستعيد جزءًا من روحي، قبل المدرسة وقبل القصر، وأستعيد سؤالًا قديمًا كثيرًا ما راودني: لماذا فزع الناس من محو المصاحف إن كان العالم باقياً على حالته، وأوراق الشجر والرياح والماء تسجّل نصّاً إلهيّاً لا يُرفع ولا يتبدل؟! الآن أعلم مدى سذاجة السؤال، أكان لا بُدَّ أن أخوض رحلتي الغريبة لأفهم؟! أكان لا بُدَّ أن تدور رحى صدري بعجيج أسئلة أكبر لاكتشف؟!

قال لي جدي إنه عندما مُحيت المصاحف كان في سنوات شبابه الأولى، يعيش في المدينة الصغيرة قبل بناء السد، كان الفلاحون يسقون أراضيهم بمضخّات صغيرة تُدار بالديزل ويحصدون الزروع بالمنجل، الليلة التي سبقت الأحداث كانت ليلة صيفية، سهر فيها مَنْ سهر حتى نام، ثم مرّت الكارثة على أجساد النائمين بخطى خفيفة، شقة العائلة كانت تطلّ على شارع خلفي من نافذة الغرفة التي ينام فيها جدي، أيقظه الحر قبل منتصف الليل بقليل، قام وفتح النافذة، وفي ضوء الشارع الخافت المستمد من إضاءات مداخل البيوت رأى فراشات سوداء كثيرة وقد حطّت على كل شيء: الجدران، وأحبال الغسيل، وصُلّف النوافذ المفتوحة.. رآها ساكنة،

الحركة الوحيدة التي أظهرتها كانت عندما فتح جدي النافذة فطار بعضها ثم عاد إلى مكانه.

أغلق زجاج نافذته وقبع خلفها منقبض الصدر، بعض الفراشات كانت تتحرك في قلق، تطير لأي صوت أو حتى تغير في اتجاه الهواء، أما مجموعة الفراشات فكانت ثابتة وكأنها تنتظر شيئاً ما.

كان الهواء ثقیلاً، والمدينة الصغيرة تتوقف تدريجياً في محطة الليل بكثير من الأصوات، تهديدات وأبواب تُغلق ونداءات وتأوهات وصرخات.. ثم حدث الشيء الذي تنتظره الفراشات، ازداد ثقل الهواء وكأن السماء أقعّت بصدرها على الأرض، وفجأة وبلا مقدمات، وكأن زهرة عملاقة تفتحت في السماء، طارت الفراشات لأعلى جميعاً، وهناك تبذرت إلى غبار أسود.

لم يستطع جدي العودة للنوم، ارتدى ملابسه ونزل إلى الشارع، لا شيء يدل على غرابة اللحظة، الليل المفتوح على مصراعيه بعد أن فكك حرارة النهار لم يستطع أن يُغري أحداً بالسهر، العجائز الجالسون في الشرفات وفوق الأسطح يحاربون الأرق حتى هذه الساعة ويتسلّون بمراقبة حركة القليلين العائدين، كلهم شعروا بما شعر به جدي الشاب المُجدُّ في سيره، ما تخلف عن الكارثة، وغبار معلق في هواء المدينة من شدة خفته، أخبر منهم مَنْ أخبر ذويهم عندما استيقظوا في الصباح، قالوا إن الهواء كان شريراً، وظل معباً حتى الصباح برائحة حبر طازج، تلك الرائحة التي تشمها لو قُرِبت أنفك من صفحة جريدة جديدة، لكن الرائحة واضحة جداً وقوية، وكأن ألف ألف جريدة مطبوعة تَوّأ خرجت في مظاهرة حاشدة عند مدخل الشارع.

بعد ساعة من السير المنفرد، بدأ الغبار يساقط ببطء، عاد جدي أدراجه، بخطوات أثقل وبعينين لا صفاء فيهما، الشرفات والأسطح خلت من العجائز، والشوارع لم يعد فيها إلا أناس يعلم الله وحده

السبب الذي جعلهم يتأخرون إلى ما بعد منتصف الليل في مدينة ريفية، يسIRON وقد التصق الغبار بوجوههم واختنقت أنفاسهم به، لا ينتبه جدي لمرورهم إلى جواره إلا من سعالهم، وعند مداخل بيوتهم يبصقون بصقات سوداء، كان الهواء شريراً بالفعل، وطول طريق عودته ظل يسمع أصوات مدينة بعيدة تماماً عن الاستغراق في النوم، مدينة تستيقظ، نصف جنون أُلقي في يقظة رجال متعطشين، والنصف الآخر أُلقي في نساء متمنعات، أبواب داخلية تُغلق بعنفٍ مفتعل، ولم يَكُن الأمر يحتاج إلى خيال واسع ليرى جدي ما يدور خلف الجدران، حقائب تُعبأ للمغادرة في الصباح الباكر، ورجال يبيتون خارج غرف نومهم، ويخلدون للنوم سريعاً بفعل الإحباط. كل الذين عادوا إلى بيوتهم في هذا الوقت كانت لديهم اليقظة الكافية ليعطوا أجسادهم طقوسه الكاملة، غسلوا وجوههم وارتدوا ثياب النوم الخفيفة، مياه الغسيل نزلت من على وجوههم وكأنها مذاب فيها سناج أسود، واختبأ الماء الأسود في فتحات مصفاة الحوض كشيء شير.

ربما فكّر بعضهم في الأمر قليلاً قبل أن ينام، لماذا معظم الشوارع التي ساروا فيها كان فضاؤها مضيقاً بذلك السناج الأسود؟! لعل السيارات أكثر من حرق البنزين في هذا اليوم، أو مطبعة انفجرت من كمّ الأخبار الكاذبة التي ستطبعها في صحف الصباح.. والأرجح أن الفلاحين في القرى البعيدة الواقعة حول المدينة ينتهزون فرصة الليل لإحراق القش في غفلة الحكومة وموظفي البيئة، لا تفسير آخر لهذا السناج القاتم الذي علق في الهواء.

في الصباح أذاع التلفاز الخبر: نُسَخَّ معيبة من القرآن تتسبب في بلبلة الرأي العام!!

\*\*\*



## «حسين» - القاتل

لقاءات متعددة جمعت بين «حسين» و«د»، في مقهى منعزل على النيل، وفي كل لقاء تتضح صورة «د»، وتبدد الصور الذهنية القديمة له، كان «د» يطلب طلبين دفعة واحدة، يأتيه فتى المقهى بصينية بها كوب شاي، من دون سكر إضافي، وفنجان قهوة، وكزيون دائم، يتبادلان ابتسامة من يعرفان بعضهما جيدًا، ينصرف فتى المقهى ويحسو «د» من كوب الشاي أولاً حسوات سريعة حتى ينهيته، ثم يتكلم وهو يشرب قهوته.

في أثناء وقوع الكارثة، كان «د» يسكن في إحدى حارات القاهرة الكبرى، وفي إجازته الصيفية التي يعمل خلالها في محل لبيع المنظفات الصناعية، في صباح تلك الليلة، استيقظ «د» بذهن ثقيل، قرر أنه لن يذهب للعمل، خرج إلى الشرفة ووقف يحتسي شاي الصباح، فوجئ بالمشهد، وكأن الشارع بأسره شبَّ فيه حريق هائل لم يمس منه شيئاً ولكنه ترك الأثر، واجهات البيوت وأسقفها، ومقابض الأبواب ومصاريع النوافذ وزجاجها، كلها بلا استثناء مغطاة بالهباب الأسود، سار الموظفون المبكرون في الطرقات يتأملون بحذر، دق جرس الهاتف، كان صاحب المحل يرجوه أن يأتي بسرعة، ارتدى «د» ملابسه ونزل، في طريقه لاحظ أن بائعي اللبن وموزعي الخبز والجرائد يطرقون الأبواب ويسلمون بضاعتهم يداً بيد لتبرئة أنفسهم من تهمة التعبئة في زجاجات متسخة، أو أكياس غير نظيفة، وكالعادة اشترى «د» الإفطار لنفسه ولصاحب المحل.

كان هذا الطعام الوحيد الذي تناوله طيلة نهار كامل مُرهق، تلقى «د» أول آثار الكارثة واقفاً في المحل، دارت بين تجار المنظفات

الصناعية مكالمات تليفونية سريعة للاتفاق على توحيد الأسعار وزيادتها، وقبل الظهر اضطروا إلى تكرار المكالمات نفسها ليرفعوا أسعار البخاخات التي تزيل الزيوت والشحوم العالقة واصفرار السيراميك والأحواض، والتي يفضل ارتداء قفازات عند استعمالها.. وقبل العصر، بعد أن عاد الرجال من أعمالهم بملابس متسخة، رفعوا أسعار الشامبوهات المنظفة للموكيت والسجاد والمفروشات ومساحيق الغسيل الأوتوماتيكية والعادية، قبل الغروب كانا قد باعا أكثر من ثلثي بضاعة الدكان، غسلا أيديهما، وبينما يحتسيان كوبين من الشاي دخل عليهما صاحب المكتبة المجاورة.

\*\*\*

لم يقل «د» إنه أول من انتبه للكارثة، هو وصاحب المكتبة الذي أنزل معه صفيين من المصاحف ووجدوها بيضاء، فخير الرفع انتشر منذ الصباح، أول من اكتشفه هم الذين أرادوا الفوز بنفحة إيمانية في بداية يومهم، عندما فتحوا مصاحفهم فوجدوها بيضاء، خالية حتى من أثر الحبر، لكن الكثيرين منهم لم يجهروا بهذا الاكتشاف على الفور.

المستوى التالي من الاكتشاف هو ما أذاع الخبر، كان أشمل وأعم، وفي أماكن لا يمكن للناس إنكارها، المكاتب التي اعتاد أصحابها على تعليق لوحات تحمل بضع كلمات من القرآن بحروف مذهبة، أو الذين لا يمتلكون رفاهية شراء إطار مزخرف واستعاضوا عنها بدس أوراق مكتوبة بخط اليد أو مطبوعة تحت زجاج المكاتب، غرف استقبال الضيوف، وصالات الفنادق والمحاكم وأقسام الشرطة التي تمثل تلك اللوحات جزءاً روتينياً من إكسسواراتها: «وإن حكمتكم بين الناس...»، «وقل اعملوا فسيرى...»، والمكاتب الرئيسية والفرعية للأحزاب في المحافظات والمراكز الصغيرة، كل الأحزاب بلا استثناء، الدينية منها والذي كان تعليق تلك اللوحات جزءاً من هويتها،

والعلمانية التي تدفع عن نفسها تهمة معاداة الدين بتعليقها، كل هذه الفضاءات بلا استثناء، كلها، كلها أصبحوا فوجدوها تحتضن الفراغ الملون أو الأبيض، حسب نوع الخلفية، كأن من بروزها نسي أن يكتب فيها، لاحظ ذلك مَنْ لاحظ لأول وهلة وهرع لرؤيتها من غفل عن ملاحظتها، وانتشر الخبر في الشارع بين الناس مع مَقْدِم الليل، مكالمة تليفونية أو إشارة من زائر جديد متلاحق الأنفاس أتى من الخارج، تبادلوه بخوف وتحفظ فيما بينهم خوفاً من الإثم، وفي الأماكن المفتوحة بينما يختلسون النظر إلى السماء.

في اليوم الثالث، بدأ الناس يشترون الكتب، اشتروا كتباً في هذا اليوم كما لم يشتروا في أعمارهم كلها، الصحف الرسمية كانت السبب المباشر في انتشار هذه الحمى الشرائية بأخبار وتفسيرات علمية عن وجود مادة حديثة في حبر المطابع بها خطأ في تركيبها الكيميائية أدت لاختفاء الطباعة، بعض الأذكياء الساخرين هرعوا إلى أرفف المكتبات وتصفحوا الكتب الحديثة فوجدوها كما هي، اشترى الناس الكتب فقط ليضموها كإثبات مع الصحف الكاذبة، أصابهم لوثة إثبات الحقيقة، الشراء في البداية كان مُميزاً، مجرد أن الناس تذكروا فجأة الكتب التي يحتاجونها، على أن تكون طباعتها في العامين المنصرمين، بعد أن فرغت أرفف المكتبات لم يعد ثمة تمييز في الشراء.

في هذا اليوم، سمع «د» تفسيرات أكثر من قدرته على التحليل، الصحفيون والكتاب وسائقو الباصات وبائعو الخضار والجرائد وأصحاب محلات الجملة والجالسون على المقاهي والزبائن العابرون للمطاعم الشعبية، الجميع بلا استثناء كان لديهم تفسير لما حدث، أجزاء من الحقيقة مع كثير من الكذب، وكان تطور التفسيرات رهيناً بالمناقشة والدحض، أحياناً تكتمل الحقيقة وتسعى ثم تموت، وكثيراً ما كانت تموت في مهدها، حتى أصحاب نظرية المؤامرة

تلقفوا تفسير الظاهرة ووجوه الاعتراض عليها وأنتجوا تفسيرًا محايدًا قائلين إن الحبر الذي طُبعت به المصاحف تم توريده بتخطيط من مخابرات الدول الكافرة للدول التي تقوم حكوماتها على خلفية دينية، أما الكلام المضحك عن تسليط أشعة متطورة عبر الأقمار الصناعية السابحة في فضاءات بلادنا على الصفحات المقدسة لتبديد ما سُجل فيها فقد وجد أيضًا من يقوله، والنتيجة المرجوة أن تعم الفوضى العارمة في تلك الدول فتسهل السيطرة عليها.

التفسير الوحيد الذي يفسّر كل شيء بدا وكأنه لن يقال أبدًا: الأحرف المقدسة اختفت لأنها رُفعت، الله عز وجل رفعها، قالت صحيفة صغيرة على استحياء: «الأحرف المقدسة مُحيّت أم رُفعت؟ مؤامرة، أم عقاب وتمهيد ليوم القيامة؟». كان هذا هو العنوان الذي باع من الصحيفة آلاف النسخ وأعاد طبع العدد لعدة أيام متوالية، المقال الذي فتح صدره للجميع، للمؤمنين أن يقولوا إن هذا هو أو أن رفعها، وإننا في نهاية الأيام، وإن القيامة بمعناها الحرفي قريبة، والعلمانيون قالوا: إن الحروب والتناحر على أساس امتلاك الحق المطلق ستصبح موضحة قديمة، وإن علينا أن نُقيم أسس العالم من جديد على الحقائق الملموسة لا أوهام السماء، وإن المعجزة الوحيدة إن كان لنا أن نعترف بوجود معجزات هي محو القرآن، ولعل الله ملّ من نسب الترهات إليه فقرر أن يخرج عن صمته.

الحقائق التي أوردتها المقال، الحقائق والأكاذيب على حدّ سواء، سبّبت ضجة، وتسبّبت في سحب نسخ الجريدة المتبقية من الباعة؛ فالحديث عن النهاية جعل الموظفين وأصحاب الورش والحرفيين يتدرجون في التوقّف عن الذهاب إلى أعمالهم، والمحال التجارية تُغلق معظم أوقات النهار والليل.

لم تُكن المدن الكبرى أفضل حالًا من المدن الصغيرة النائية، في البداية امتلأت المساجد والزوايا بالمصلين الباكين، ثم اضطروا

للعودة إلى بيوتهم عندما سمعوا بالفوضى والغياب الأمني.

انطلق المنفلتون في الشوارع، قلبوا حاويات القمامة وأشعلوا النار في أشجار الأرصفة، ولم يطفئوها عندما امتدت إلى السيارات، من وقت لآخر كان يُسمع صوت تهشم زجاج، طلقة رصاصة مدوية، سريّة سيارة شرطة، وانعقد الدخان وصار مكوّنًا رئيسيًا للسماء، لا يكاد يمر يوم إلا وتقبض الشرطة على عدد هائل من مثيري الشغب ثم يضطرون للإفراج عنهم ليحل غيرهم محلهم، أصبح السير من دون سلاح في مكان مكشوف يعني الحماقة أو الرغبة في الانتحار والخلاص، كل أرقام السرقة والقتل كانت نتاج اليأس المجنون لعالم وصل إلى اليقين أنه يعيش أيامه الأخيرة بعد أن رُفعت الأعلام وجف الحبر من فوق الصحف.

رجال الحكومة، في محاولة لتهدئة الأوضاع، فكوا قبضتهم المحكمة عن كثير من رجال الدين غير الرسميين ليخرجوا على شاشات التلفاز ويتحدثوا إلى الناس محاولين بث الطمأنينة فيهم، قالوا إن ما حدث لعنة ستزول بزوال مسببها من ذنوب ومعاصٍ تملأ الشوارع والبيوت ومكاتب الحكومة وأقسام الشرطة وصفوف الجيش، دليل ذلك وما يُثبتُه: الكلاب التي صارت ميّالة للعضّ من دون استفزاز، وفئران بدأت بالظهور في الشوارع بوضوح النهار من دون خوف، واختفاء الطيور في السماء عدا الغربان والجوارح منها، وقلة حصيلة الصيادين من السمك في البلاد الساحلية، وازدياد حالات الطلاق بشكل لا يقبل التشكيك.

شيخ الأزهر، في لقاء تاريخي عاصف على قناة فضائية، قال: إن الرفع غير مكتمل وإنه مجرد تحذير للعصاة والآبقين. وأتى بدليل على ذلك: مصاحف كُتبت بطريقة «بريل» لم تُزل نقوشها، قرأ منها مغمض العينين، وبعد أن انتهى من القراءة أخذ يدعو وارتجت المقاهي والبيوت؛ حيث اجتمع الناس للمشاهدة بالتأمين، وبعد

الدعاء قال إن على أصحاب الديانات الأخرى أن يلهجوا أيضًا بالدعاء من أجل دُرّة الأديان؛ فسقوط الإسلام يعني سقوط هيبة الذات الإلهية في قلوب العوام وما يتبع ذلك من سقوط باقي الأديان، وأن الأمر كما ينبغي أن يُقال: أكلتُ يوم أكل الثور الأبيض.

المقربون من البابا قالوا إنه استاء من النبوة المتعالية لشيخ الأزهر، التي تخرج من البوتقة نفسها التي يخرج منها كلام القتلة باسم الدين، وإن ما يُثار عن أن محو المصاحف دليل على نقائها من التحريف والتبديل يمكن أن يرتد على صدور من أطلقوه، بأن يُقال إن الله غضب من نسب الأكاذيب إليه. وفي عظته الأسبوعية التالية قال إن حتى الشيران تتوقف عن مناطحة صخرة التاريخ قبل أن تكسر قرونها، وإن العميان فقط هم من يفسرون كل شيء لصالحهم؛ فالكلاب تعضّ منذ أن نبتت لها أسنان ولن تتوقف حتى لو سقطت أسنانها، والغربان يجذبها لمعان زجاج البنيات الشاهقة، أما العصفير فاسألوا عنها أهل الريف إن كانت قد اختفت أم لا، ثم قال متعاطفًا إنه يجب على رفاقنا في الوطن التوقف عن التحدث بصيغة أنهم المقدّمون في الحق؛ فالديانات الحقّة لا تسقط بمحو صفحات ولا بموت رجال، ندعوهم إلى الثبات، ونقيم قداسًا للشكر لا قداسًا للدعاء.

وكما فتح التلفاز صدر برامجه لرجال الدين فتحتها للعلمانيين، قالوا إنه من الملاحظ أن الفتنة دائمة شرقية، وأن قليلًا من البلاد الإسلامية هي التي تضررت بالحادثة، فهل هذا سببه أنها تحتوي على الثلثين من مجموع الكتب الدينية في العالم أو أكبر من ثلثي مقدار الإيمان الذي يملأ قلوب أهلها المؤمنين بفطرتهم دون كتب ودون قراءة للكتب، بينما لم نسمع عن تلك البلبلة في بلاد الغرب، تدور نقاشات راقية هناك، فهل يجب علينا أن نُبتلى بالدين مرتين: في وجوده وعند زواله؟

\*\*\*

عندما وصل «د» في حكاية الأحداث إلى هذه النقطة، طافت برأس «حسين» ذكرى غائمة، ما حكا له عمه عن هذه الليلة، استيقظ لصلاة الصبح كعادته، تَوَضَّأَ وبقدمين مبللتين سار من حوض الوجه إلى غرفة التدريس ليجلب قميصه وغطاء رأسه المخصصين للصلاة، عدة خطوات مشاها داخل الغرفة قبل أن ينتبه أنه يمشي على غبار أسود كالحرير، وأن الجدران وقميصه المعلق على المشجب، وعشرة أرفف مليئة بالكتب، كلها يغطيها ذرُّ أسود.

عم «حسين» كان رجل دين، ما حاول «حسين» أن يتصوره أكثر من مرة وفشل فيه هو: كيف عاش رجل دين هذه الأيام الملتبسة، بعد وصلة الدعاء والبكاء والابتهاال والاستغفار، ثم انصراف الناس عنهم لحماية بيوتهم؟

بعد الرفع، انسحب الدعاء انسحابًا كاملاً، أسماء شهيرة هجروا الشوارع والمساجد وإمامة الناس وخطب الجمعة، قالوا إن هذا هو العصر الذي لا يعيش فيه إلا رجال السوء، وإنه ينبغي على كل رجال الدين التَّقَنُّعَ والمكوث في بيوتهم والبكاء حتى الموت، البكاء فقط، ندم لا فائدة منه، لا الصلاة ولا الدعاء، حتى الاستغفار لم يُعَدَّ عبادة مرجوة، بل ومنهم من أضرب عن الطعام والشراب إلا نَزَرًا يسيرًا يقيمهم.

ثم أصدر الأزهر فتوى، قال فيها إنه ما دامت لم تخرج الشمس من مغربها فكل عبادة على حالها، بل ينبغي علينا أن نُكثِرَ من العبادة الآن أكثر مما مضى لنرفع عن أنفسنا البلاء، لكن الوضع كان مُرًّا، ولأول مرة انقلب الحال، فبعد أن كان رجال الدين يمتلكون سلطة الوصاية والحكم بيؤس الناس وتهارجهم صار الناس يرفضون وجودهم ويتعمدون البصق والتلفُّظ بألفاظ قبيحة في وجودهم أو عند مرورهم، ما نَفَعُ رجل دين في أيام رُفِعت فيها عن الناس التكاليف والعبادات؟!

قال «د» قاطعًا استرسال أفكار «حسين»:

- أخبرني يا «حسين»، هل تحب عملك؟

- لا يوجد ما يجعلني أكرهه، مرتبي يزيد سنويًا، ولديّ وقت فراغ كبير أستغله جيدًا.

- لو أنك تجلس على مكتب في الإدارة لقدمت طلبًا بترقيتك على الفور.

- لا أريد الجلوس على مكتب.

- الجلوس على مكتب تعبير مجازي.

ثم كان بينهما مدة من صمت طويل، غرق خلالها «حسين» في أفكار متشعبة انتهت به إلى أن قال:

- هل يوجد موظفون للقتل غيري في الإدارة؟

لم يُجب «د»، ابتسم فقط وقال:

- كلنا قتلة يا «حسين»، بوجه أو بآخر، لكن المُنفذ للقتل واحد، غالبًا ما يكون أكثر الناس بُعدًا عن القتل.

ابتلع «حسين» اعتراضه مراعاةً للفارق الوظيفي، وقال محاولاً إثبات خطأ «د»:

- هل وظيفة كالقتل يمكن ترقيتها؟

- طبعًا.

- كيف يمكن ذلك؟

- كما قلت لك، أنت أكثر القتلة بُعدًا عن فكرة القتل، أنت مُنفذ فقط، ولن تترقى إلا بعد أن تقتل فعليًا، أن تقتل كما نقتل نحن في الإدارة.

سأله «حسين» بحذر:

- ما العمل الذي تقوم به الإدارة؟

- استبدال مفاهيم، عمليات بتر لِمعانٍ قديمة لو استمرت لأُفسدت جسّدًا بأكمله، الإدارة تجاهد لمنع تكرار ما حدث بعد محو المصاحف.

- سأحاول أن أحسن الظن بهذه الأهداف.

- هذا أفضل لقلبك يا عزيزي.

للمرة الثانية في جلسة واحدة انقطع الحديث، وقفت الكلمات، أطلت على هُوة مليئة بالاحتمالات المتميعة، إن لم يقتلها التردّي من عل قتلها التردد، لكن «د» يعرف لماذا طلب لقاء «حسين»، ولماذا يستمر في لقاءه، بدأب أعاد وصل الحديث مرة أخرى:

- قل لي: هل أعجبك الفصل الثالث من كتيب التعليمات؟

- جدًّا، للدرجة التي تجعلني أرغب بشدة في لقاء مؤلفه.

- ربما تكون التقيته ولم تتبه يا «حسين».

- مستحيل، كنت سأعرفه على الفور.

- أهنتك على هذه الثقة.

قال «حسين» بعد تردد:

- هل التقيته أنت؟

- مؤلف الفصل الثالث من كتيب التعليمات هو أحد أعضاء الإدارة الأوائل، لم يكن حينها يعلم أنه سيُدْرَج في كتيب إرشاد لقاتل حكومي.

- لماذا كتبه إذًا؟

- كتبه ليقرأه أفراد الإدارة، ليتشَبَّعوا بفكرته المختلفة عن القتل النظيف، كان أملًا مستحيلًا أن يُقنع خليطًا متناقضًا بفكرته من دون أن يحرقوها، أطباء نفسيين، علماء في اللغة، والتاريخ، وزبانية حُكم قدامى، وعالم دين.

- عالم دين واحد؟

- صدّقي، لم يَكُن الأمر يحتمل أكثر من عالم دين واحد.

- ربما تكون متحاملاً.

ابتسم «د» كأنه يتفهم انحياز «حسين»:

- «أ»، مؤلف الفصل الثالث، لنسمّه «أ»، كان هو الشخص الوحيد الذي استطاع أن يكوّن رؤية حول ما حدث، وعلى الرغم من شذوذ آرائه فإننا في نهاية المطاف كنا نلجأ إليها، كان يقول إن الانحراف عن الطريق المستقيم هو ما يُبقي للطريق المستقيم حدوده، المعصية هي ما أبقت للدين هيئته، وبالتالي فرفع الحروف سيجعل الوقت وقت إيمان مطلق، وإن على علماء الدين أن ينتبهوا إلى ردّ الفعل؛ فالإيمان المطلق لا يعيش طويلاً، لكنهم لن يفعلوا.

- لماذا؟

- لشغف رجال الدين بالنصوص؛ لأنهم سيحاولون إحياء النصوص بحذافيرها وسيشغلهم هذا عن فهم ما يحدث.

- وهل فعلوا؟ أقصد رجل الدين الوحيد في الإدارة، هل فعل؟

- رجل الدين كان معجباً بآراء «أ»، لكنه في النهاية كرهه، «أ» لم يَكُن يهتم بالكراهية ولا بالحب بقدر ما يشغله نشر رؤيته بيننا، كان مؤمناً بأنه إذا كانت هناك أيام متبقية لنا نحن، الشر الذي ستطلع عليه الشمس من مغربها، فلنעشها في سلام ورفاهية، رفع الحروف جعله يؤمن بأن البشر، بموجب كل الأديان وليس الإسلام فقط، لم يعودوا مكلفين بالصلاة ولا بالتعبّد، ليس لأننا في وقت البدل الضائع قبل صفارة الحشر والقيامة، بل بعد ذلك بكثير، انتهى ماتش الحياة.

كانت الفكرة في رأي «حسين» أوقح من أن يُعقّب عليها، فصمت ملياً ثم قال:

- رجال الدين لديهم تفسير لما حدث.

- دور الإدارة الأول كان هو حث رجال الدين على الكلام مع الناس بغض النظر عن الكلام معنا، لكنهم لم يتكلموا معنا ولا مع الناس.

- كان لديكم رجل دين نافع بالفعل.

- لم يصبح نافعًا بعد أن اتضحت الخطوط الرئيسية للإدارة، أدخل رئيس الدولة تحسينات عدّة إلى طريقة العمل وأشرف عليها بنفسه، كان العمل تطوعًا دون أجر، فأصبح بأجر كامل، وجُعل لكل عضو فينا مكتب في مؤسسة من مؤسسات الدولة المهيمنة، يتناسب مع مكانته ووظيفته، أصبحت الإدارة أقوى مما سبق، ولم يكن ثمة أسباب للاستقالة، إلا أنه استقال بأكبر قدر ممكن من الضجة المفتعلة.

- انتصر «أ»!

- كعضو في الإدارة فقط، لكن انتصار رجل الدين كان أكبر، في الحياة الحقيقية، وبعيدًا عن الإدارة، استطاع بمجهود فردي تمامًا أن يهزمنا في معارك كثيرة، لدرجة أن قرارات مهمة لم يكن ممكنًا لنا أن نتخذها من دون موافقته.

- وأين هما الآن: رجل الدين و«أ»؟

- أقرب مما تتخيل، لو فتحت عينيك جيدًا لرأيتهما.

أفلتت من «حسين» ضحكة سريعة، حائرة، فقال «د» مشفقًا:

- لا تقلق يا «حسين»؛ فالخطوة الأولى في حياة الإبصار هي التكريس، وأنت الآن مكرّس في حياة واحدة، إذا خرجت منها أبصرت.

- أي حياة؟

- القتل.

- القتل مجرد وظيفة، عمل.

- كل قاتل يضع ملامحه الشخصية يا «حسين»، حتى الجزار، وأنت لا تقتل من أجل المال، أنا أعرف ذلك.

ضحك «حسين» ضحكة من لا يفهم الكلام الكبير ولا يستسيغه، وقال:

- لنكن بسطاء يا سيدي.

- البساطة لها ثمن يا «حسين».

- حتى لو كان سؤالاً بديهيًا؟!

- يتوقف على نوع السؤال.

- سؤال بسيط مثل: كيف يمكن ترقية قاتل مثلي؟

- كما قلت لك، كل شيء له ثمن.

- وما الثمن؟

- أن تقتل يا «حسين».

- أأست أقتل بما فيه الكفاية؟

- تقتل بلا كراهية، بتكليف، عليك أن تكرهه، أن تقتل من دون ظرف، بقرار نابع من نظرتك إلى الأمور وكيفية إدارتها.

- وكيف ستعلمون أن نظرتي صحيحة؟

- ليس مهمًا أن تكون نظرتك للأمور صحيحة كليًا، بل أن تكون غير ضارة، لو أعطيتك اسمين، كما في قصة الخلق، رجل وأنثى، عليك أن تقتل واحدًا منهما، هل تستطيع؟

هزّ «حسين» كتفه وكأن الأمر لا يشكل فارقًا جوهريًا، القتل هو القتل:

- ما السبب الذي سيجعني أقتل واحدًا منهما دون الآخر؟

- ستكون إهانة لكائك لو قلت لك إن هذا هو الهدف من تكليفك: أن تجد مبررات القتل، ولكن دعنا ننسى أنك طرحت هذا السؤال،

وسأعطيك الاسمين، عليك أن تقرر من ستقتله منهما.

- حسنًا، لنبدأ باسم الفتاة كما تقتضي اللياقة.

- «إيلات حسن».

- اسم غريب.

- اسمها ليس أغرب صفاتها.

- والرجل؟

- «سمعان الشنقيطي».

\*\*\*

ساد صمت لم يكن ممكنًا هتكه إلا بحادثة قطار في الناحية الأخرى من ضفة النيل، أو جنوح حوت إلى الشاطئ، ذكر اسم «سمعان الشنقيطي» كان يشبه جنوح حوت إلى شاطئ حوار لا ينتمي إليه، حتى لو لم يقترن بمشروع لقتله، ف«سمعان»، رجل الدين الحكومي المفضل، ذائع الصيت في وسائل الإعلام أكثر من ذيوع الماء في ثلاجة الفقير، وفي العصر الذي عاشه «د»، كان «سمعان» أحد مُخلّصي العصر، في وقت تحوّل فيه ريموت التلفاز ومؤشر الماوس عند الناس إلى وسيلة للخلاص، واستعرت النقاشات الحامية حول نوع الإساءة التي سبّبت رفع الحروف، فانتقل نقاش البشر الخالد من الفشل في تنفيذ ملكوت الله على الأرض وتطبيق شرعه إلى الفشل في الحفاظ على شكل كلام الله من السخرية.

لا يوجد أحد لا يعرف «سمعان الشنقيطي»، كان نجمًا لامعًا بالفضائيات، سيرة حياة مشرفة لداعية.

بدايته، أقل ما يجب أن يُقال عنها: رجل وهب حياته للدين، بالمعنى الحرّفي، يعيش بين طلابه ويأكل مما يطبخونه ويشترك معهم في نفقته، لديه قدر هائل من الثقة والتواضع جعله قادرًا على إقناع أتباعه بالمستحيلات والغرائب، حتى عندما قال إن

الطريقة التي يُفسَّر بها القرآن هي السبب في رفعه إلى السماء، فلا يجب أن يُفسَّر كلام الله إلا بكلام الله، لا بكلمات بشرية؛ لأن كلمات البشر تحتوي على السخرية والمجاز والكذب، ثم قال إن كل أشكال الأدب، عدا القليل من الشعر، مثل الرواية والقصة، كلها أشكال مسيئة مشوهة لكلام الله يجب التخلُّص منها؛ لأنها قائمة على مضاهاة القرآن من تأليف الحكايات والعبر بالخيال مما صرف الناس عن تلاوة القرآن والترنُّم به.

أتباعه الذين تجاوزوا المليونين ويزيدون أطلقوا عليه لقبًا يتناسب مع نبض الكارثة: «المُجدِّد»، مجدّد الدين والزمان، دأب على إقامة حفلات للتطهر الذاتي في بيوت مريديه، تحث على الامتناع عن الذنوب بحرق الروايات ودواوين الشعر والصور الفوتوغرافية واللوحات المعلقة على الجدران، وقال إن هذا كفيل بإعادة الحروف المقدسة إلى المكان الذي يتم تطهيره، مقاطع الفيديو التي سجّلت هذه الحفلات لم تزل موجودة، تسجل كيفية التطهير والنتيجة الساحرة وصيحات الدهشة الإيمانية العميقة، عادت الحروف المقدسة أيامًا قليلة برهانًا على كلامه ثم مُحيت مرة أخرى، كأنها لمسة من ملاك أو نفثة من شيطان.

ما قاله كان لامعًا، لامعًا جدًّا، وقرينًا إلى النفس، خاصة من عاش في هذه الأيام، ولو استمر على طريقته الهادئة لظل عدد أتباعه في ازدياد، خاصة أن الوقت والناس ورجال الحكومة القديمة كانوا يحتاجون إليه، لكنه لم يستمر، وقيل إن رجال الحكومة الثوريين دبّروا المناظرة الأخيرة التي قامت بين «سمعان الشنقيطي» وبعض المثقفين الدينيين لعزل «سمعان» وإظهار شذوذ أفكاره وغرابتها.

بدأت المناظرة بمحاولة من المثقفين لإثبات أن الدين والأدب لا ينفصلان، فأيهما وُجد نشأ الآخر في إثره، كالنهر والأشجار على شاطئه، وأن الأدب وُجد أولاً وساعد على تقبُّل الناس معجزات الدين

عن طريق الحكي والتصديق واللغة، رد عليهم «سمعان الشنقيطي» بلهجة مليئة بالتحدي: أنا لا أكره الأدب ولا أهاجمه، لكني أمقت أنكم تقولون إن القرآن أدب، والله عز وجل أيضًا يمجته؛ لأن الله عز وجل ليس كاتبًا من كُتَّابكم، وفي الواقع أُنتم تقصدون ذلك الأدب المليء بالتشبيهات المجازية الكاذبة، والقرآن الكريم منزّه عن الكذب، سواء كان الكذب فيما رواه أو الكذب في الطريقة التي رُوي بها. ثم قال: لن أقول لكم أعطوني حدثًا واحدًا حكاه القرآن ولم يحدث، بل أعطوني آية قرآنية بها مجاز وأنا على استعداد لو ثبت ذلك أن أقول إن القرآن لم ينزل من السماء ولم يأت من عند الله.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يجهر فيها «سمعان» بأفكاره بشكل كامل، وهذا ما نزع عنه سحر الواعظ الهادئ وجعله ينتقل للخطوة التالية في انحساره عن الجمهور: إنشاء مدرسة دينية، قيل إن أتباعه جمعوا مالا هائلًا لإقامتها على نفقتهم، وقيل إن المال منحة حكومية بإيعاز من أمريكا، وقيل إن المال نفطي المنشأ، والدليل على هذا هو جذور «سمعان» اليمنية، الالتحاق بالمدرسة الناشئة كان بلا رسوم، وظل هكذا حتى يومنا هذا، إقامة كاملة، وشهادة تجلب رضا الحكومة في وقت كان الدين فيه هو الجواد الرابع، نوع واحد فقط من الدين، الذي يقول إن الحياة مستمرة، وإن رفع الحروف مرض مؤقت سيزول بزوال سببه: الروايات.. وفي مسألة رفع الحروف، كان الأدب خصمًا مريحًا على أي حال، للدين وللحكومة.

سُمعة مدرسة الأستاذ «سمعان»، كمؤسسة تعليمية قوية يقوم على رأسها رجلٌ يطالب بتقويم الكُتَّاب وتنقية قلوبهم من وساخات المجاز، كانت مفزعة، إقامة كاملة حتى لو كان بيتك على مرمى حجر، وهذا في حد ذاته مستحيل؛ لأن أقرب مكان مأهول بالسكان يقع على مسافة نصف ساعة بالسيارة، تدريس شاق وفي كتب أجمع العالم بأكمله، إنها أصبحت أثرًا من الآثار، في فكرها ومنهجها،

والدراسة التي لا تؤهلك لأي شيء عدا التدريس في المكان نفسه، أو الخروج للعالم بشهادة من مدرسة مخيفة يُقال إنها تفرض على رُؤّادها ارتداء قمصان بيضاء قصيرة وأغطية رأس مضحكة والتحدث بالفصحى.

قال «د» وهو لا يكاد يُفعل تعبيرات وجه «حسين»:

- أين رحت؟

- دارت برأسي افتراضات عدّة، أولها أن رجل الدين في الإدارة هو «سمعان».

لم يُفاجأ «د»، بل ابتسم وكأنه توقّع هذا التخمين.

- وما دليلك على هذا الافتراض؟

- الشواهد كثيرة، الحكومة تسير على خطى «سمعان»، أو «سمعان» يسير على خطاها، التضيق على الكُتّاب، وقانون تجريم كتابة الروايات الذي يُقال إنها بصدد إصداره.

- حتى الآن الحكومة لم تمنع الروايات.

- لكنها تحاصرها.

- هذه كلها أوهام يا «حسين»، بمجرد أن تفتح عينيك ستعلم أن الحكومة تحاصر أشياء كثيرة ليس أولها ولا آخرها الروايات.

تنهّد «حسين» كأنه يخوض نقاشاً صعباً ومفروغاً من نتيجته:

- إذاً أنت تريدني أن أقتل «سمعان»؟

- لم أقل ذلك، خيّرتك بين قتل «سمعان» وقتل شخص آخر.

صاح «حسين» متسخطاً:

- ومَن الشخص الآخر، تلك الفتاة؟ ما أهميتها؟ لم أسمع عنها من قبل، كأنك تخيّرتني بين أن أنفخ في الشمس أو أبحث عن عود كبريت منطفئ، كلتا المهمتين أصعب من الأخرى.

- هذه محتك أنت يا «حسين»، وهذا أقصى ما أستطيع أن أخبرك به: اسمان، لا ذنب لي أن أحد الأسماء معروف ومشهور، قد تكتشف ببعض البحث أن «سمعان» شخص آخر غير ما يروّج لنفسه وغير ما تروّج له وسائل الإعلام.

قام «د» ونظر إلى رأس «حسين» البائس بسخطه.

- والفتاة، «إيلات»، كيف أعثر عليها؟

- هل تعلم في أي قرن نحن؟ العالم مليء بمصادر المعلومات يا «حسين»، لن تعجز عن ذلك، وعندما تقوم بمهمتك ثق أنك ستجدني بجوارك.

\*\*\*



## «إسماعيل» - الكاتب

خُلقت من لحظة رهبة؛ فبذور الرجال تُخلق بظهور آبائهم في لحظات الرهبة والفرع والثبات والغيظ، أما بذور النساء فتُخلق في لحظات الفرح والشهوة ورقة القلب، ولن تكون اللحظة التي تتأّت فيها بظهر جدي إلا لحظة نزوله إلى بئر الماء أول مرة، الافتتان والسعي خلف السراب والرغبة في إنقاذ ما لا يمكن إنقاذه من العالم القديم والحنين إلى وجود جيل جديد لم يأت بعد.

حكى لي جدي عن ذلك، بسبب خوفه من نذاهة الماء ظل شهوّرًا يقاوم إغراء النزول لصيد الأسماك التي تضطرب في الماء الضحل كصيد سهل، سمع جدي اسمه سبع مرات، مدهونًا بالود الكاوي لأعصاب الرجال، ربما لو كان اسمه في درجة موسيقية أخرى لاستجاب وهلك وحمل معه احتمال بذرتي إلى الفناء، لكن النذاهة لم تعرف كيف تُلحن اسم «عارف».

أما اسمي فكان من الدرجة القاتلة.. ولسنوات ظل جدي يحذرنى من صعود البيرة ودلدلة رأسي هناك: لا تُدَلِّ رأسك في البئر يا «إسماعيل»، ستسقط. فأجيبه مطمئنًا: لا تخف يا جدي، لن أسقط. يواصل جدي تحذيراته ولا يأبه بتطميناتي: ستزل قدمك، الرأس أثقل من الجسد. ثم صارحني ذات يوم بمخاوفه: الأصوات يا «إسماعيل»، لو عكفت على الاستماع لها ستصيبك بالجنون.

أوامر جدي كانت صارمة، والفضول أقوى، في الأوقات التي أمنت فيها من رؤيته ذهبت فغمست رأسي في سكون البيرة، رأس مدلى كقارعة في ناقوس جرس من حديد، لا يصخب الجرس إلا إذا صخب القارعة، عندما يصيبني الملل أصرخ في البئر: هوووووه. فيفط صوتي من الآبار الأخرى، أتحمّس فأصرخ صرخة أخرى، ما بين صرختين

وذات مرة سمعت الصوت: زقزقة عصافير.. ظننت أن انحسار منسوب الماء أغرى بعض العصافير فدخلت في القنوات وتبللت أجنحتها، ومع الزقزقة توهمت سماع خفق أجنحة مبللة في الماء، تريتُّ وأنصتُ أكثر وعندئذ زال الوهم، انثالت الأصوات ككثيب من رمل، لم تُكنْ صوتًا واحدًا، سحرنى تنوعها، موسيقى تروح وتجيء كالموج، وتُتف من خطبة زعيم ميت من القرن الماضي في شعب من الأشباح المحبطين، وامرأة تغني، وصراخ طفل رضيع، وخفقات أجنحة ملايين من الفراشات، وصوت كطشطشة الأرز في الزيت عند تحميره، ودق كأنه دق ملاعق خشبية في قاع مليء بالماء، وكأن أشباح الماء تلعب في مؤشر راديو كوني ممتد في التاريخ، أهذا هو الصوت الذي جعل جدي ينزل؟

نزل جدي إلى البيارة أول مرة في ظهيرة يومٍ ما قبل أن أولد، عندما حكى لي لم يكن قد نسي اليوم ولا اللحظة، ارتعاد يده وانزلاق قدمه مرة تلو أخرى، ورائحة الماء، منسوب الماء في النيل كان أقل من مستوى السحب، يوم من الأيام النادرة التي لا تدور فيها مضخة السحب البعيدة، والصوت في البيارات يكون مضخمًا وأوضح ما يكون قبل أن يعبئها الماء.

كم مرة حاولت أن أتمثّل إحساس جدي الذي عجز عن وصفه لي، رائحة الماء وارتعاد ظهره من الخوف، والسكون الذي تُضخمه جدران البيارة، في وجود ماء تشربّ بلايين الأصوات وهو يجوب الأرض: الابتهالات واللعنات، الصرخات والتهديدات، الماء الذي حمل البرودة والحرارة وغسل البشر وطهرهم من خطاياهم ثم صعد إلى الله في السماء، كصفحة بيضاء، لا وشاية ولا رقابة.. في البيارات، راودت جدي أكثر الأسئلة جنونًا وأقل الإجابات شفاءً للصدر: لماذا تخلق الله عن البشر؟ لماذا كرههم؟ وهل طلب من المسجّلين أن يطووا دفاترهم ويصعدوا، الصحف التي تسجّل الذنوب والحسنات؟ هل

صار البشر عددًا، يُضافون ويُطرحون، بينما الحياة فيهم لم تعد إلا مجرد دوائر متداخلة: دائرة التنفس، دائرة الدم، دائرة الهضم، والموت حيوان قبيح يخرج من باطن الأرض فيلتهم جزءًا من دائرة فيهم فيسقط الإنسان صريعًا، يتركه يتعفن على وجه الأرض، والتعود فقط هو الذي يجعل الناس مستمرين في وضع أمواتهم تحت الأرض في توايت أو أكفان؟!!

اللحظة الكافية لخلق كبدرة في ظهر جدي لم تكتمل بنزوله إلى البيارة، بالفزع الذي نجم عن تذكُّره أنه وحده، كنقطة من الحبر في بحر من الصمت الأبيض، لا ملائكة ولا شياطين، ولكن في زاوية بعيدة من قلب جدي وُلدت شفقة على الأسماك التي أخذت تضطرب وتضرب قدميه بذيلها وتعضه في جنون بعد أن حبستها قلة الماء وانحساره، وكادت تختنق، ولا علاج لذلك، تقريبًا، إلا ما فكر فيه للتو ووضعه حيز التنفيذ.

انحنى جدي وأخذ ينتشل الأسماك ويقذفها خارج البيارة. محاولاته الأولى لم تكن بالقوة والمهارة الكافيتين، كانت الأسماك تصطدم بالجدار وتعود إليه، إلى وجهه وعنقه وصدره، تسقط أسفل قدميه في مخاضة الماء، فيعاود انتشالها.. عندئذ، أدرك جدي أن الحياة مستمرة، وابتهج لذلك، في لحظة البهجة الملتبسة تلك، طفوت من العدم إلى الحياة في ظهر جدي.

\*\*\*

سألني الدكتورة «عالية»:

- هل جربت النزول إلى البيارة؟

- لا، لم يسمح لي جدي بالتجربة، على الرغم من إلحاحي، في كل صباح توعك فيه أو تكاسل رجوته: دعني أنزل بدلًا منك إلى البيارات. كل شيء كان يتغيّر بيننا إلا رفضه.

- ولكنك نزلت يا «إسماعيل».

- في البداية حاولت أن أفلسف رفض جدي.

- كيف؟

- قلت لنفسني إن بقائي في الأعلى وإيماني أن لكل مكان أهميته جعلاني أكتسب معرفة جديدة، النوع الغالب في الأسماك التي تحتجزها البيارات رسالة من رسائل النهر، فعندما تكون القراميط كثيرة يكون منسوب الماء في النهر أقل مما يكون، قد يعلو منسوب الماء خلال ليلة واحدة، لكن إذا غلب الشبوط على بقية الأسماك فهذا يعني أن المنسوب يعلو باطراد وتثاقل، سمكة الشبوط، أو المبروكة كما يسميها جدي، أخت منسوبها، ماء قليل وقناعة بالحياة تشبه قناعة الفقراء، تمام على العشب بمجرد أن تفارق الماء، تقع في وهم الموت ولا يصدر منها نأمة واحدة، وعندما تتحرك تصدر منها حركة مريبة، مُضحكة في أغلب الأحيان، رأيت إحداها ذات مرة تقضم العشب بجانب فمها كبقرة صغيرة، سمك البوري لا يأتي إلا إذا وصل المنسوب إلى أعلاه؛ فهو لا يحب منسوب الماء القليل، ولو اخترت أن أكون سمكة سأختار أن أكون سمكة بوري.

ثم تهتدُ كأنني تعبت من الكلام فقالت الدكتورة «عالية» همساً:

- أكمل يا «إسماعيل»، أريد أن أسمعك.

- اختصار الموضوع: لا بُدَّ أن النهر عند بداية خلقه كان شيئاً زائداً على الماء، كما أن الكاتب شيء زائد على الطين، قال الله لهما كونا فكانا، لم يتوقف النهر عند كونه ماء فسبحت فيه الأسماك، والكاتب تجاوز كونه كلمة فخرجت منه الحكايات.

- متى نزلت؟

- كان متبقياً على اختباري مدة لا تزيد على شهر، وإذا لم أنزل إلى البيرة قبل هذا الشهر فلن أنزل في حياتي.. في لحظةٍ لا أنساها، قررت أن أضرب بتحذيرات جدي عرض الحائط.

وأنا أحي للدكتورة «عالية» بكلمات مختصرة، كان الصباح حاضراً في ذهني، ندى الفجر فيه يشبه الشيب على خصلات العشب الأخضر، وبركّلةٍ واحدة مني تناثر الماء لأعلى ورسم أقواساً صغيرة من ألوان الطيف، لم يحذّرني جدي كما اعتاد أن يفعل: هذا الماء أسوأ من الصابون يا «إسماعيل»؛ قد تتزلق. أوليته ظهري، لم يعد يشركني في طقوس خلع ملابسه، يأمرني أن أستدير ويخلعها ويرصها لنفسه على جدار البيرة الرئيسية لكي لا يبللها الندى.

بعد لحظات، أتي صوت جدي رناناً بارداً من داخل البيرة: مبروكة يا «إسماعيل»، مبروكة صفراء سميكة، وقراميط كبيرة.

ثم بدأت الأسماك تقع حولي وجدي يخرج مسرعاً من بيرة إلى أخرى، منحنيّاً يداري بكلتا يديه على عورته، ثم رأيت يهبط في البيرة الثالثة.

أهملت الأسماك وهي تنبض خياشيمها فوق العشب قلبي الواجب، خلعت حذائي وصعدت على سور البيرة بقفزة واحدة، نصف متر هو ما يفصل بين سور البيرة وأول درجة في السلم الهابط، تشبّثت بالجدار الزلق حتى أحسّت أصابع قدمي ببرودة حديد الدرجة الأولى، وظللت متشبّثاً لا أستطيع النزول ولا العودة، نصف المتر بدا لي الآن وكأنه يطل على هاوية، دقائق طويلة علمت خلالها أن الشجاعة ومهارة اليد لم تخلقاني بقدر ما خلقتني الخوف واللسان الملتاث، حسدت نصف دسته من الكائنات الزاحفة لا يصل وزن أمهرها في الصعود إلى وزن العرق الذي فاض به ظهري.

كيف صعدت؟ هل رأي جدي وأنا أخرج؟.. كلها أسئلة لا إجابة لها، ما أتذكره أنني وجدت نفسي مستلقياً على سور البيرة، ووجهي مغمور بالشمس، نزلت من فوق السور ومشيت، ترنحت، كدت أسقط لولا أن ملّت بجسدي الواهن بصعوبة إلى الخلف، تعامدت الشمس على ظهري وكأنها تدعمني، مثل كف مارِد طيب لزج الأصابع، رأيت

رعاش الماء يطير فوق رأسي عندما بدأت في الانحناء والهمس كأنما أصابني مس، نزلت من عينيّ الدموع بلا جهد، وشعرت بالراحة التي بُعثت في قلبي، وعندما صعد جدي مسرعاً رأني، لا يتحرك على مدى الرؤية إلا سمكة بلطي وحيدة تتقاذف حولي، أما أسماك المبروكة فمتناثرة تلفظ أنفاسها بين العشب والسماء، وكنْتُ أشبهها، أصفر اللون ألتقط أنفاسي بصعوبة، في سلام وبعينين شاخصتين.

لن أنسى أبداً هذه اللحظة، امتلكتها لعمر كامل، وتحوّلت فيها للأمام والخلف وكأنها بطول المسافة بين الشمس والأرض، الأصوات والروائح المصاحبة لها، كانت اللحظة لحظة تشغيل مضخات السحب، لكن الرائحة لم تشبه تجشؤ كائن مائي، بدا الأمر لي كما لو أن شخصاً ما أزيلًا فتح أمام أنفي صندوقاً مغلقاً مليئاً بأشياء العالم القديمة، الأشياء التي لم تتغيّر في هذا العالم ولا يمكن تغييرها أبداً، شممتُ أولى روائح البحار عندما حفرتها الجن لسيدنا «سليمان» وهو ميت فوق عصاه قبل أن تأكلها الأرضة، رائحة خشب شجرة بلوط حديثة القطع على كَفِّي حطاب مرهق، دهم قلبي عشق السنونوات للطرق الأسفلتية، وحميمية الأماكن التي تخبّي فيها الدبابير اللاسعة أعشاشها، شعرت بسرمديتي وقدمي، ليست سرمدية نجم أو شمس وليست سرمدية الكائنات الأولية في تشابها وتكرارها، بل سرمدية الدهشة في الأمور التي مهما تكررت لا تزال تدهشنا، كالمعارك الأزلية بين قبائل النمل، ورؤية ثعبان طائر فوق حصاد جديد لسنابل قمح في ظهيرة قانطة، ودهشة تفاصيل مطاردة ليلية.

\*\*\*

من الصعب أن أتمثّل جدي في عصر كالذي عاشه من دون كثيرٍ من الحيرة، والتردد.. أما المشاعر المباشرة، كالكرهية والحب، فقد تبقى منها مخزون هائل كان على الجيل الذي نشأ فيه أن يستعملها ويستنفدها، هذا يشبه أن تنفد الفكة من جييك ولا تجد في جييك

إلا المال ذا الفئة الكبيرة، بينما أنت مضطر للتعامل مع البضائع الصغيرة، لتأكل وتشرب وتعيش، الحيرة والتردد لازمان لنضع مشاعرنا في نصابها القديم، المتوارث، لنقول عن الكراهية إنها سيئة، وعن الحب إنه جيد.. لكني أجزم أنه لا أحد من جيلي يستطيع أن يصف مشاعره هكذا؛ فقد يقول عن الكراهية إنها ضرورية، كالمشروط وكالقلم الأسود، بنفس ضرورة وجود جلد البشر والصفحة البيضاء، فالكراهية هي ما استخلصتني من جدي، الأمر أشبه بالولادة، انتزع الضوء من شعلة بينما لا تزال دافئة حية.

تخيلتُ جدي مرارًا - لا أنكر ذلك - طافيًا في طرقات مدينته الصغيرة الغارقة في ذكرى الحبر والحروف التي هربت من الصفحات، العقول تتجه للهاوية عن عمد، والجميع قد انفتحوا أمام هواجسهم الصغيرة عندما وجدوا أن أكبرها لم يقتلهم، تُفتح نافذة مطلّة على شارع عمومي ويسارع جدي بين خطواته قبل أن تنهمر منها شتائم لا حصر لها، يصعد سائق سيارة الرصيف محاولاً دهس قطعة بلا داع، يسير رجل عارٍ تمامًا في وضح النهار ثم يجلس في ميدان الساعة ضامًا فخذيّه مبتسمًا للمارة وكأنه مؤسس المدينة.

لكن جدي ضرب هذه التصورات كلها في مقتل، أخبرني أنه بعد شهر واحد عادت الحياة في الشارع كما هي، وكان أي نقاش يدور حول الخراب نقاشًا يستفز الناس، على الرغم من الحقيقة الماثلة: القيامة ستقوم، غدًا أو بعد غد، العالم يرقد تحت جهاز التنفس الصناعي.

بدأت الأشياء تتغيّر بسرعة لدرجة لا تسمح باستيعابها، البرامج وقنوات التلفاز ورجال الدين وشكل الحكومات وحدود الدول الجغرافية وطعم الملح والمزاج العام.. حتى السماء تواطأت مع الأمر أو تواءمت، السحاب لم يعد متقنًا، مثل قطن أبيض مندوف مُلقًى على أرضٍ لم تذُق الماء منذ دهور، لم يعد يحاكي أشكال

الكائنات، بل بدا أكثر شبهاً بأثر ممسحة متسخة، وكأن من يُشكله حكم على أعين من تبقى من البشر بالجفاف العاطفي ولو حتى في سحابة عابرة.

لم يكن الأمر مجرد كتاب أو ديانة أو معتقد، كان الأمر متعلقاً بالاطمئنان، بانتظار جدي للموت كل ليلة وهو يوسّد رأسه، وباليوم الجديد الذي يهبه الله للبشر إذا أشرق الشمس، أحياناً كان يحلو لجدي أن يتخيّل نفسه على دين غير الإسلام، يهودياً أو مسيحياً، بالضبط كما لو كان زائراً عابراً مات بأزمة قلبية على أريكته وفي بيته، ولكن حتى هذا لم ينقذه من التورط؛ فحتى غير المسلمين أصابتهم الروح العامة، انجرفوا معها واعتادوا كما اعتاد الناس على الزهد في ممارسة الأمور الفرعية المبهجة، شراء الزهور وري أصص الزروع والجلوس في الشرفات.

أصاب جدي هوس شراء الكتب القديمة، وكأنه في مهمة مقدسة لا يعلم الغرض منها ولا متى ستنتهي، لم يستثن جدي نفسه من هذا الجنون، سار في طرقات المدينة باحثاً عن كتب قديمة ليشتريها، متحسّساً خطواته في طريق مزروع بالغام الكساد والخسارة، يعبئ قلبه بشكاوى بائعي الكتب: لم يعد الناس يشترون الكتب الجديدة.

تكدست الكتب في غرفته حتى ضاقت، لا يقرؤها، وما دام التخيّل في الديانة لم ينقذه فلينقذه التخيّل في القراءة، يتخيل نفسه قارئاً، متعة شراء الكتب تُشعره بآدميته، كأنها تفتح باباً خلفياً لمشاعره إلى مستقبل سيصنع لهذه الكتب أرففاً، ويجعل للأرفف غرفة صغيرة وكرسيّاً مريحاً، وعلى هذا الكرسي سيجلس ويدفع بقدميه في صدر العالم المترب ويقرأ.

يوميّاً كان يقوم بفرز رصيده من الكتب، يضعها حسب أحجامها في صفوف متساوية، ويفتّش بين صفحاتها عن زهور ذابلة وعملات ورقية وقصاصات قديمة وإهداءات وهوامش، عالم لا ينفذ يحتمليه

على مهل، وكأن الكلمات الجميلة من نصيب قارئ الروايات، والتأريخ أيضاً، والتعليقات المجنونة التي تهدم تاريخاً واضحاً لتبني عبثاً أو تهدم عبثاً وتمجد أطلالاً أثرية، الحياة على محك رواية، والكتب التي ظن كاتبوها أنها ستغير جميع المفاهيم ذهبت أدراج الرياح. في وقتٍ ما - أخبرني جدي - كان الناس يتهادون بالكتب ويؤرّخون حياتهم بشرائها: «بعدد هذه الورقات والكلمات والأحرف سنوات أعشقتك فيها»، «إلى ابنتي العزيزة.. لتعلم أنني لم أنس أبداً كاتبها المفضل»، «اشتريت هذه الرواية في اليوم الثاني من اعتصام التحرير (اعتصام الكرامة) في يناير ٢٠١١م»، «هذه الرواية كتبها نجيب محفوظ ليعلم القاصي والداني أن نجيب محفوظ لا يفهم في الرواية إلا كما يفهم فلاح مصري في الصينية أيام كونفوشيوس»، «هذه الرواية شهادة على عصر كامل» ثم علامة دهشة وبقلم آخر تعقيب آخر «لا أنصح بقراءة هذه الرواية إلا للابسي الحفاضات...».

حمل جدي هذه العلاقة المترددة بينه وبين الكتب إليّ، لأقول حُكمي، لأصرف لها الكثير من الحب أو الكثير من الكراهية، عشرة أجولة مبطنة بالمشمع المضاد للمطر، عثرت عليها في الدولاب القديم عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، مليئة بالكتب: كتب في اللغة وفي التفسير، كتب في علم الحيوان والنباتات والاقتصاد، كتب في الخطط الناجحة للفوز في لعبة الشطرنج والطقوس التي يجب عليك أن تمارسها لتصبح بوذيّاً، ومجالات أخرى.

قمت بفرز الأجولة، صرفتُ كثيراً من الحب للكتب التي تحتوي على حكايات، وكثيراً من الكراهية للكتب الأخرى، لم أجد مجالاً للتردد، نقلت الروايات إلى غرفتي ورصبتها أسفل سريري، وبدأت أقرأها خفية عن جدي.

عندما بدأت القراءة، اكتشفت أن هناك ما لا يقل عن عشر صفحات في البداية ومثلها في النهاية، انثُرعت انتزاعٌ يد قاسية، كأنها

يد جدي الذي اعتاد قص ذيول الأسماك، لم تشغلني البدايات كثيراً، البدايات يمكن تخمينها أو تجاهلها، لكن النهايات لا يمكن تخمينها، قص ذيول الكتب وزعانفها لا يجعلها تموت كالأسماك، إنها تترك أشخاص الحكاية متحركين بداخلي للأبد، حتى أقوم بتأليف نهايةٍ لهم بنفسي، كنت آنذاك بسيطاً، أشعر باللذة في إطفاء شمعة لإنهاء حديث بين شخصين منهكين، أو قتل شرير بين جماعة من الطيبين، أو قيادة جماعة من المغامرين للعثور على كنزهم.

وقد قمتُ بهذا كثيراً؛ فبعد كل مرة قرأت فيها أحد كتب جدي، هرعت إلى حيث البيارات العشرين، رقدت بظهري على العشب بحيث أستطيع أن أرقب جيداً تأثير النبض القوي لقلبي القلق في اهتزاز المراثيات حولي، وأتحيل النهاية، أولفها، متسائلاً بحماقة: لماذا انقرضت هذه المتعة من العالم؟ وما الذي دفع البشر لاحتقارها وتجريمها؟

\*\*\*

الجزء الأكبر من العلاج النفسي الذي أخضعوني له كان أشبه بتمارين الأطفال، صورتان متشابهتان تماماً وعليك أن تجد الاختلافات بينهما، الصور مرسومة باليد ويمثل معظمها تفاصيل من حياتي مع جدي: البيارات والبيت والطريق بينهما.. أحياناً كانوا يضعون شجرة الجميز العتيقة إلى يمين البيت لا يساره، أو يخطئون في عدد البيارات فيجعلونها أربع عشرة أو ست عشرة.. وعندما كنت ألفت انتباه الطبيب إلى هذه الاختلافات خارج إطار التمارين كانت تبتهج بشكل ملحوظ.

مع هذه التمارين، احتفظت الدكتوراة «عالية» بتفردِها، كانت تحمل لي يومياً نسخاً ملونة للوحات فنانين عالميين قائمة على أشياء في غير موضعها: سمكة تطير في الهواء، طيور تسبح في الماء، كائنات شريرة في مهد طفل، كأنها تستحثني للعثور على الشيء الغريب في

المشهد، وفي الحكاية.

كان هذا فكرًا عامًا، لكنني لم أفكر في الأمور بالطريقة نفسها التي يفكرون بها، أتذكر - والأحداث لا تزال طازجة في قلبي - كيف أن التشابه - لا الغرابة - لعب دورًا هائلًا في الحكاية، التشابه الذي هو دليل على الضعف العقلي للبشر، بمعنى آخر وكما قلت للدكتورة «عالية»:

- إن الله خلق حكاياتنا، وخلقنا لها، لكنه لا يؤمن بقدرتنا على النسيان؛ لذا فإنه يغيّر ديكور حياتنا من مأساة لأخرى.. وبمعنى آخر: إن كان لله - عز وجل - أن يكتب رواية فسيجعل طرق عذاب أبطالها بعددهم، ستكون الأماكن التي يعيشون فيها مختلفة باختلافها في الحقيقة، التكرار والتشابه صنعة بشرية.

قالت بحذر:

- هل تعتقد إذاً أن ما حدث لك كان مرتبًا كأنه حكاية من خيال كاتب روائي؟

- لا، أقرب من هذا، وإن كنت لا أنفي التدخل البشري.

- إذاً أنت تشك أنك تعرضت للخديعة؟

- لا، شيء أكبر من مجرد خديعة.

\*\*\*

بداية تفكيري بهذه الطريقة كانت عندما وصلت في حكايتي للدكتورة «عالية» إلى أمنية جدي بالقراءة وانتظار نهاية العالم جالسًا على كرسيه، نقاط التشابه، غرفة الضيافة في بيت جدي، غرفة الضيافة في القصر، وغرفة المكتبة بالمدرسة.

عادةً ما تكون الأماكن التي نُعدها لزيارة الآخرين لنا متسقة مع أجسادنا وملابسنا وطريقة تصرفنا مع الآخرين، لتؤدي رسالة نرجو منهم أن ينتبهوا إليها، وهذه الرسالة في غرفة ضيافة «إيلات» لم

تُكن تتكلم عنها، كانت موجهة إليّ لتخبرني بشيء عني.  
لا أنسى يوم أن جاءني «جبر» أول مرة وأخبرني أن «إيلات» تريدني  
أن أسلمها النص الذي كتبته بنفسني في غرفة الضيافة فذهبت.

ولجت إلى غرفة واسعة، غير مرتبة، مثل مجرى نهر في موسم  
الجفاف، مليئة بالأثاث الذي يدل على كونها غرفة ضيافة وطعام  
من الدرجة الأولى، منضدة كبيرة تكفي لجلوس خمسين شخصًا على  
الأقمل، المقاعد مرصوفة على جانبيها مثل ضيوف وقورين، في  
حضور مقاعد أخرى كثيرة مختلفة، مقاعد متنوعة مبثوثة في الجوانب  
تحمل وحي أمزجة مختلفة للجلوس، كثيرة في نهاية الغرفة، كما لو  
كان سيال الأمور بالغرفة حمل عددًا لا يمكن حصره من المقاعد  
المختلفة، خليج هادئ، وفي بداية الخليج كانت «إيلات» جالسة على  
مقعد هزاز من الخشب:

- ادخل يا «إسماعيل»، مرحبًا بك، لماذا تنتظر حولك كأنك  
مندھش؟

قلت في استغراب:

- أعترف أنني أول ما رأيت القصر هالني حجمه من الخارج، لكنني  
لم أتصوّر أبدًا أن تكون الغرف فيه بهذا الاتساع!

ضحكت «إيلات» بفخر وقالت:

- لا تخدعك هذه الغرفة؛ فغرف النوم ليست كبيرة كهذه، هناك  
قاعدة عامة تقول إن الطرق والممرات بالقصور أكثر وأوسع من  
الغرف، هكذا الأغنياء يا «إسماعيل»، يشغلهم الوصول إلى بعضهم  
البعض أكثر مما تشغلهم الإقامة مع بعضهم البعض.

ابتسمت ولم أجد ما أرد به، فقالت:

- أرجو ألا تضايقك عادي في ترديد اسمك كثيرًا في حديثنا، هذه عادة  
عندي لكي لا أنسى الأسماء الجديدة.

- لا عليك، هذا يسعدني.

- هذه الغرفة هي غرفة العائلة بأكملها، يأتون هنا في العيدين ورأس السنة ويوم السابع والعشرين من رمضان، يأكلون ويصخبون ويحملون ضغائن جديدة ضد بعضهم البعض وينصرفون، وعندما يريدون مناقشة موضوع ما مهم يأتون أيضًا: زيجة معقدة أو طلاق ناتج عن هذه الزيجة، بيع أسهم شركة ما.. يأتون ويتناقشون وتكون الضغائن مثل فوضى خلّاقة، لو أن بصيرتك حادة لأبصرت توابيت أشخاص عدة ولكنهم دُفِنوا في أماكن متعددة على الرغم من أنهم ماتوا هنا، كالغرق.

استغرقت في التفكير قليلًا ثم تابعت:

- في غير وقت هذه الاجتماعات الفلكية، سمحت لنفسي أن أستولي على هذه الغرفة، كتي وهذه المقاعد، والموسيقى الخاصة بي، إنه انتصار من نوع خاص على نظام القبيلة.  
ثم أشارت حولها:

- الكراسي كثيرة كما ترى، لا تحتاج إلى أن أشير لك إلى كرسي لتجلس عليه، أرجوك كُن على طبيعتك واجلس على الكرسي الذي يروقك.  
اخترتُ لنفسي مقعدًا مريحًا، ليس ثقيلًا، حملته لأجلس على يمينها، غير بعيد عنها، ابتسمت لاختياري وقالت:

- اخترتُ كرسيي المفضل عند قراءة الشعر، «نيرودا» و«محمود درويش» و«لوركا» وبعض المسرحيات الكلاسيكية لـ«أسخيليوس» وأحيانًا «شكسبير»، طبعًا لم تسمع عن هذه الأسماء من قبل، لا بأس، لم يعد أحدٌ يسمع عنها. على فكرة، الكرسي الذي اخترته، لا بأس باختيارك، على الرغم من أنه لا يتوافق معي، سأخبرك بأمري، لقد استدعيتُك إلى هنا للحديث معك في موضوع بعينه، لكن اختيارك للمقعد يُغيّر من خطة حديثي تمامًا.

ابتسمتُ في دهشة فضحكتُ هي وقالت:

- لا تندهش، أنا امرأة مزاجية، لا يهمني أن أصل إلى هدي في بقدر ما يهمني أن أسير في الطريق الصحيح، وهذا يأخذنا لاحتتمالات كثيرة؛ فقد أجلس أنا في المرة المقبلة على مقعد آخر وتجلس أنت على المقعد الصحيح، حينها لن يكون مناسباً أن أبدأ أنا بالسؤال عن الموضوع الذي أريد سؤالك عنه ما لم تتطوع أنت بالحديث.

ثم تنهدت وابتسمت كأنها أرهقت من الشرح الكثير:

- هل تفهمني؟ الحوار يا «إسماعيل» يشبه طريق سيارات في اتجاه واحد.

تطوعتُ قائلاً:

- هل تريد أن أقوم وأجلس على المقعد المناسب؟

- لا لا، بالعكس، أنا أستمتع بالأمر وأريدك أنت أيضاً أن تكون مسترخياً، العالم لا يتعجلنا، نحن بائسان لدرجة تجعله لا ينتبه إلي شخصين مثلنا جالسين في غرفة ضيافة لا يستطيعان بدء موضوع مهم بسبب اختيارهما للكراسي.

- ولكن هنا مقاعد كثيرة كما أرى، وهذا يجعل احتمال أن نصل إلى الموضوع الذي استدعيتني لأجله مستحيلاً، خاصة لو أنني نويت أن أختار هذا المقعد نفسه في المرة المقبلة.

- سيكون هذا تصرفاً ذكياً منك، ولكن لماذا ستفعل ذلك على أي حال؟

قلت عندئذ بلا حذر:

- ربما أحب الحديث معك فأسعى إلى ألا ينتهي الأمر سريعاً.

لكنها لم تُفاجأ بجرأتي بل قهقهت فغام قلبي في فراغ موجه:

- هذه حكاية من واقع عالم معاكس لعالمنا، لم يُخلق بعد ذلك الرجل الذي يمكن أن يحب رفقة امرأة أكثر منه خبرة بالحياة، وفوق

ذلك ذكية ومثقفة مثلي.

- وما الذي يمكن أن يحبه الرجل في المرأة إذا كانت خالية من هذه الصفات؟

فيما بعدُ سأعرف نوع المرأة التي تثير حماسها الخاطرة أكثر من الحب، منعًا للتأويل وإن كان مفيدًا لي في البداية، ولكن الاشتباك هكذا اشتباه؛ فمثل فنار أضاء وجهها خاطر سريع ثم انطفأ وقالت في ابتسامة تحمل من الخطر أكثر من الخبرة:

- «المحشي» يا «إسماعيل»، «المحشي» له تأثير عظيم على الرجال، لو صنعتها امرأة غبية حمقاء لعشقها زوجها.  
ثم استطردت:

- ولكن انتظر، ثمة امرأة في تاريخ الأدب استطاعت أن تجعل رجلًا يحب رفقتها ويؤجل ذبحها على يد سيافه على الرغم من تفوقها عليه بالعقل، وذلك عن طريق مسامرتة بالحكايات، لكني لم أصدق أبدًا هذه الحكاية، من يعلم! ربما أخفوا الحقيقة المتمثلة في أنه حتى «شهرزاد» كانت تصنع «المحشي» لـ«شهریار» أو ترقص له رقصًا شرفيًا تهزُّ فيه أردافها المثقفة، لكن الحكاية على أي حال تقول إن هذا الرجل ابتلع الطعام وتحول خلال ألف يوم من عشرتها من رجل ساذج أقسم ذات يوم أن يذبح جميع النساء لخيانة امرأة واحدة إلى نوع آخر من الرجال النمطيين يحب النساء والحكايات والأرداف المثقفة؛ لأن «شهرزاد» حصَّته بسكِّين حكاياتها، وهذه هي وظيفة الحكايات: أن تخصينا.

ابتسمتُ وقلتُ محاولًا تغيير الموضوع لأمنع موجة من الغضب بدأت تمس حديثها:

- على أيِّ حالٍ يمكنك أن تستدعيني متى شئت، هذا ليس خيارًا متاحًا لي، تحت أمرك في أي وقت.

- أكره هذه الجملة، لدرجة أنني لو كنتُ أعرف أنك ستقولها ما استدعيتك، أنت الآن خارج إطار وظيفتك يا «إسماعيل»، ألا ترى أنك منذ أتيت ونحن نتحدث عن الكراسي واحتمالات الجلوس؟! وكما ترى، ها هنا من الكراسي احتمالات أكثر مما يمكن أن يكون ما بين سيدة ثرية مطلقة مثلي وموظف عندها مثلك، لو أنني أعاملُكم كموظف لما طلبت منك الجلوس ولسألتك مباشرة.

كان هذا حوارًا مُرهقًا، بدت «إيلات» كبركان يريد أن ينفجر بأي طريقة، وكل ما كان عليّ أن أنتقل من الأماكن التي ستنفجر منها بحماقة، أن أسألها لأزيل أثر جملي السيئة:

- وما حكاية هذه المقاعد؟

نجح الأمر هذه المرة، تألقت عيناها وقالت:

- الكراسي مهمة جدًا يا «إسماعيل»، إن كرسيًا يستطيع أن يهينك أو يكرمك، الكراسي لا غنى عنها، حتى إن الله اختص لقدميه واحدًا منها، لكننا نحن البشر اعتقدنا أن الكراسي للراحة، ثم مسخنا تسميتها وسميناها مقاعد، قعد يقعد فهو بشر.

- إذاً هذه المقاعد كلها بحثٌ عن مقعد واحد لم تجديه بعد؟!

- بالضبط، أبحث عن كرسي وليس عن مقعد، هذا ولع غريب بعض الشيء، لكني لم أستجب له بشدة إلا بعد انفصالي عن زوجي، صرتُ أشتري الكراسي كما تشتري النساء القطط والكلاب والأحذية والشوكولاتة، محلات الموبيليا الشهيرة لديها رقمي الخاص، يتصلون بي عندما يأتيهم كرسي له شكل مختلف، قد أشتري صالونًا كاملاً من أجل كرسي واحد، لديّ هنا كراسي يكفي المال الذي دفعته فيها لإطعام عائلة متوسطة العدد حتى جيلها الرابع، لكن الكراسي أفضل من العائلة بكثير، الكراسي تعيد إلينا شخصياتنا الحقيقية والعائلة تسرقها منا وتمسخها؛ لذا فأنا أحرص على مزاج الكراسي وصحتها النفسية أكثر من حرص ربة بيت على عائلتها، أعرف أن هذا

جنون، الخادمآ يتهمني بذلك خفية عندما أطلب منهم أن يُخرجن الكراسي إلى الشمس كل شهر، ليس أسوأ على الكراسي من رطوبة غرفة واسعة كهذه.

ثم نظرتُ إلى وجهي نظرة طويلة فقدتني خلالها، فقدت اسمي والسبب الذي استدعتني لأجله، نسيتني ثم عادت وتذكرتني. قالت:

- المهم، لن نفوّت فرصة حوار جاد على أي حال، هذان الكرسيان مناسبان لسؤال لم أكن أنوي إطلاقاً أن أطرحه عليك، وهو: كيف جئتُ إلى هنا؟

- عن طريق المدرسة.

- أعلم ذلك، لا تخبرني عن المدرسة، أخبرني عن نفسك، كيف استطعت الصمود كل هذه الفترة في مدرسة «سمعان» حتى جئت إلى هنا؟

- في البداية كتبت قصة.

قهقهت «إيلات» وأرجحت المقعد بجسدها:

- هذا حديث شائق، بجد! كتبت قصة في مدرسة «سمعان الشنقيطي»؟ هذا أسوأ من التبول في قبلة مسجد مليء بالمصلين. - كنت أنوي مغادرة المدرسة حينئذ.

- ولماذا لم تغادرها؟

- أخذ الأستاذ «سمعان» قصتي فحاولتُ استعادتها، وفي أثناء هذه المحاولة حُبت.

- حبسك الأستاذ «سمعان»؟

- لا، مع أنه كان ليفعل لو عرف نيتي، اختبأت في مكتبته مع قدموم الليل ولم أستطع الخروج.

- وما الذي حدث عندما جاء الصباح؟

- تورطتُ في علاقة مع شخص ما.

- رجل أم امرأة؟

ترددتُ كثيرًا قبل أن أجيبها، خشيتُ أن أخبرها أن من تورطت معه هو «سمعان» ذاته، في هذه اللحظة وُلدت شخصيتي الروائية الثانية بعد «أبان»، وُلدت «هاجر»، فتاة الصف، قلتُ لـ«إيلات»:

- فتاة.

- أكانت تدرس معك هناك؟

- نعم.

- ما اسمها؟

- لا أستطيع أن أخبرك.

- لماذا؟

- لن يعجبها ذلك.

- جميل، في هذا الزمن الغريب يوجد رجل حقيقي يحب سيدة لدرجة أنه يخشى على مشاعرهما، ولكن دعنا من اسمها، كيف كنت تغازلها؟ ألم تقترب منها طيلة ثلاث سنوات؟ هيا أخبرني، لا تُخف شيئًا عني.

- لن أخبرك طبعًا.

وجمت قليلًا، ثم سرعان ما ابتلعت صدمتها واسترسلت:

- طبعًا لن تخبرني، لستُ صديقةً لك حتى لتخبرني عن اسم حبيبك ولا عن طبيعة علاقتك بها.

- ليست حبيبتي، علاقتنا كانت أشبه بالتعاون على احتمال الأمر، أنا أكتب لها وهي جمهوري الوحيد الذي يقرأ ما أكتبه، ويعجب به مهما كان، إضافة إلى أنني أصبتُ بكسر في ساقِي وظلت هي طيلة

أسابيع تواظب على دفعي بمقعد المتحرك من قاعة الدرس إلى مدينة الطلاب.

كانت هذه كذبة مركبة في طريقي لالتماس أسباب أقوى لعلاقتي الكاذبة، وكأني خشيت أن أبدو أمام «إيلات» شغوفًا بلا طائل، مقعد متحرك وفتاة تدفع فتى في مدرسة «سمعان الشنقيطي»، يا لها من فكرة مضحكة!

لكن الكذبة مرّت بسلام، قالت «إيلات» مستغربة:

- هذه الأخلاق غريبة على فتاة مصرية.

- مدرسة الأستاذ «سمعان» تستقبل الطلاب من جميع الجنسيات.

- ليست مصرية إذًا كما خمنت!

- أبوها مصري، أمها فلسطينية، الزوجة الثانية.

- البنت لأُمها كما يقولون، لعلها نابلسية، النابلسيات جميلات، ستخبرني باسمها وإلا خمنت، وهذا كفيل بإغضابها لو علمت أننا نداول عنها اسمًا مرادفًا، الفلسطينيين لديهم اعتزاز قوي بأسمائهم.

- خمني كما تشائين.

- سأفعل صدّقي، ولكن ليس الآن، في وقت آخر، أحتاج لمعرفة أمر آخر أعتقد أنك لن تخفيه عني، كيف أوقعتها في شباكك؟ هل كتبت لها نصوصًا رومانسية؟ لا يستطيع رجل أن يأسر امرأة فلسطينية إلا بالشعر أو الألغام، لكن الألغام انتهى زمنها، لم يبقَ إلا الشعر.

- لم تكن علاقة من أي نوع. كما أخبرتك؛ ساعدتني على تجاوز الأمر، وساعدتها على احتماله. أنت لا تعرفين كيف كانت الأمور في مدرسة الأستاذ «سمعان»، لم تكن ترقًا.

- هذا ما يجعلني شغوفًا بالأمر، قصة حب تنمو تحت سمع «سمعان» وبصره، هذا أكثر قوة من موضوع القصة التي كتبتها، ولكن دعنا من هذا، الموضوع مفتوح ولن نغلقه، ولكن إن أحببت

الكلام عنه في أي وقت فسيسعدني أن أكون لك آذانًا مصغية.

قلت في مكر محاولاً سلب ابتسامة منها:

- حتى لو جلستُ حينها على مقعد مختلف؟

لم تبسم بل ضحكت، ضحكت بأجمل طريقة يمكن أن تضحك بها امرأة، رفعت رأسها إلى السماء قليلاً وتناولت بشفتيها ضحكة دانية من شجرة خفية للمرح، ضحكة سريعة متألقة شغوفاً وقالت:

- ربما نجلس على الأرض حينها لكي لا نكسر القواعد.

\*\*\*

في هذه الغرفة - بعد هذا اللقاء - التقيت «إيلات» كثيراً، من دون أن أغفل عن أن طبيعة الضوء والظلال وارتفاع السقف هناك كانت قريبة من مكتبة الأستاذ «سمعان»، ولكني لم أخبر «إيلات» بذلك؛ فالأستاذ «سمعان» ليس موضوعاً مفضلاً ليكون بداية حديث في استدعاء لا أعلم سببه، الكتب والكراسي كانت عاملاً مشتركاً بين غرفة الضيافة في قصر «إيلات» ومكتبة «سمعان»، الفوضى والموت والحديث عن الموت المجازي لأشخاص مروا بهذين المكانين.

أما غرفة الضيافة في بيت جدي فكانت غرفة مهملة، كنا نسميها غرفة الأثاث القديم، نُقل إليها الأثاث الزائد كما هو ولم يتم تفكيكه منذ عَشيّ نظر جدي وصار يتخبط بالأثاث الكثير إذا استيقظ ليلاً فأراد أن يشرب أو يبول، الدولاب الكبير، والكراسي والكنب كلها وُضعت بشكل رأسي لتسع الغرفة الضيقة جميع الأثاث، كراسي كثيرة، لدرجة أنه كان من الصعوبة اكتشاف وجود شخص بداخلها من التكدُّس الطولي، كغابة من الأثاث المتأهب، غرفة لا زُور لها، وكراسي لا يجلس عليها أحد، كأنها فكرة أولية لغرفة الضيافة في قصر «إيلات».

الضوء في غرفة الضيافة ببيت جدي كان يشبه آخر ضوء في آخر

يوم قبل نهاية العالم، ضوء تخين يحبس ذرات التراب بداخله، مثل كائنات مرحلة مبهجة، كنت أتخيلها أحيانًا أسماكًا ملونة أو طيورًا بيضاء أراقبها من موقعي فوق السحاب تحوم حول محيط أزرق لإنهائي، هذا السلام هو ما جعلني أظن أن العالم الغريب لن ينتبه إلى وجودي، لن يضنَّ على أصابعي أن يظل قلبي ينفق عليها من دمه الخاص بلا وسيط، فلا يرسل العقل عماله ليردم تلك العروق القديمة ويمررها من خلاله، تاركًا الأصابع لفطرتها وغبوتها، لتورطني في كثير من المصافحات والتعهدات لأشخاص زائفين أو طيبين، أيدٍ مرتجفة محبة وأيدٍ واثقة منافقة، لا يمنعها هذا أن تحتفظ في ذاكرتها بذكرى ملازمة جلود أشخاص لا تربطني بهم إلا علاقة واهية في الحقيقة، لكن برودة العالم هي ما أجبرني على الالتجاء إليهم.

من داخلي، ظل كل ولائي لتلك الممرات القديمة، وفي لحظات معيَّنة كنت أتحمس تلك الممرات بين أصابعي وقلبي، أتبين هشاشة ما رُدم تحت وطأة مشاعر مُطلقة العنان، مشاعر لا تخص زوجة ولا حبيبة ولا أولادًا ولا شيئًا ملموسًا في الحياة، لا تتنقل تلك المشاعر من خلال اللمس ولا الشم، مشاعر خاصة بالكتابة، ولكن الآخرين يؤولونها لهم، وأدرك أن الكتابة، الكتابة فقط، هي الشيء الوحيد القادر على إعادة أصابعي لمسارها القديم الصادق.

في هذه الغرفة، حُبَّأت أدوات الكتابة، وأوراق، واعتدتُ أن أمكث طيلة وقت فراغي بعيدًا عن عينيَّ جدي، أقرأ وأكتب، وأمارس تأملاتي الغسقية، تمامًا كما كانت «إيلات» تفعل.

من سيسمع حكايتي، باحثًا عن التشابه، سيكتشف كنوزًا كهذه، في متن الحكاية تشابه، المطبخ في بيت جدي والمطبخ في المدرسة وفي القصر، مجرد مثال آخر، تشابه جعلني أرْتعد، ولم تخف ارتعادي إلا بعد أن كتبت إلى الدكتورة «عالية» في رسالة:

- لا، لم يكن وهماً ما مررتُ به، كانت رسالة يرجو مرسلها أن أكون

بالذكاء الكافي لانتبه إليها.

\*\*\*

## «حسين» - القاتل

بحث يقوم به رجل سيارة في المقام الأول، والسيارات لا تصعد السلالم ولا تدور في أروقة الحكومة، مكالمات تليفونية ومقابلات ومكافآت تُدفع بلا طائل، أبحث عن فتاة اسمها «إيلات»، أو رجل، أو مبنى، أو إله فرعوني قديم في فاترينة بمتحف رمسيس، حتى المدينة القديمة التي كان اسمها «أم الرشراش» ثم أصبح «إيلات»، لم تُعد «إيلات».

ليس رجل بحث، هذه موهبةٌ على «حسين» أن يعترف بالعجز عن اكتسابها، إنه قاتل حكومي، وهذه ميزة يجب عليه ألا يفقدها، الظرف والورقة يحلان إشكالات كثيرة؛ فهو لا يستطيع أن يقتل من دون ورقة.

فشل «حسين» في العثور على «إيلات» لم يكن واضح المعالم في أول توصيل إلى فيلا السادس من أكتوبر بعد انتهاء لقاءات المقهى، وعلى الرغم من ذلك لم يجرب «حسين» نبش الوجه الذي طالعه به «د»؛ فالطريقة التي عاد بها مرتدياً شخصيته القديمة أكدت لـ«حسين» أن الأمور لن ترجع إلى سابق عهدها أبداً إلا إذا نفّذ مهمته.

وقتها كان لا يزال تائهاً في الأسئلة البديهية الأولى، هل ما طلبه منه «د» تصفية حساب بين أفراد إدارة أقوياء وأفراد ضعفاء؟ مهمة غير رسمية أم مجرد ضغينة شخصية؟ هل الاختيار مجرد لعبة، و«سمعان» هدف عجوز استنفذ الغرض منه، أم أن تلك الفتاة كما قال «حسين» لـ«د» بحث عن عود كبريت منطفئ؟! هذه التخمينات كلها كانت تقوده إلى مربع واحد: استئجار قاتل!

نعم، فكرة استئجاره واردة بشدة؛ فكلمتا ترقى الإنسان في درجته الوظيفية صار عاجزاً عن القتل بيده، ولبعض التجرد يفكر «حسين»

أن ضمور قدرة رجل السلطة على القتل الفردي بنفسه ظاهرة مضحكة، وحتى في أشد سيناريوهات المستقبل إفزاعًا سيظل لدى الإنسان القدرة على التصحيح بواسطة القتل حتى لو صار حفنة من لحم أو عظام بسبب التلوث والعقاقير الغريبة، القتل ممكن في الأحوال كلها، والسلاح مناسب ما دام قد استنفرت عضلات القاتل، القلم والرفش والحامض والخنق وحقنة الهواء في الوريد والإبر الصينية والحد القاطع والسلاح الناري، ولكن في الوقت الذي يمكن للإنسان أن يقتل آلاف البشر بضغطة زر أو وضع إمضائه على ورقة تسجن أو تعلن حربًا يظل عاجزًا عن القتل المنفرد.

ومَن تكون تلك الفتاة؟ لو تُرك «حسين» للخيار الحر لقتل أي أنثى مقابل أي رجل يعيش، لكن الخيار الحر فُخٌّ لا يقع فيه إلا ساذج، عليه أن يعثر على الفتاة ويُقيّمها أولًا.

يعثر على الفتاة! ضحكة في الصفوف الخلفية لمشاعر «حسين» يُسكتها بنظرة عابسة، لقد لَحِصَتْ أُمُّه، ذات مرة، الوضع ببساطة تقترب من بساطة قارئ الكُفِّ والعَرَافَات: «ستفشل في العثور على فتاة يا (حسين) ولو كانت أمام باب شقتك». والوضع أنه كان يمكن لـ«حسين» الحصول على امرأة بشكل منتظم، لكنه لم يسلك إليها أبسط الطرق - فأَيُّ إنسان عصري يعلم عدد النساء اللاتي يمكن لـ«حسين» أن يحصل عليهن إن سار على قدمه أو تمهّل بسيارته في شارع من شوارع القاهرة الشهيرة - ولا أخطر الطرق أيضًا - لم يتزوج، لديه وظيفة، وحياة، وشاب خالٍ من العيوب الجسدية - لكنه لم يتزوج، لماذا يتزوج الناس على أي حال؟ للرفقة؟ لا يحتاج «حسين» إلى رفقة، لإفراغ الشهوة؟ هذا بديل كسول عن ممارسة الرياضة، ولن يقول «حسين» شيئًا آخر خارج قناعاته عن الزواج، الزواج بالنسبة لـ«حسين» يشبه شراء دابة حلوب ورعايتها لرجل لا يجبّد وجود كوب اللبن على مائدة إفطاره، كان آخر شيء قد يفكر

في فعله في هذا العالم: العثور على فتاة، سواء لنفسه كرجل أو لقتلها، وإن كان قتل الرجل يسبب مشاكل وثأراً، فقتل المرأة يسبب لعنة لا تنقطع.

الفتاة أم الرجل؟ الأنثى أم الفقيه؟ ما زال «حسين» مستمراً في تجرّده، تعج حكايات العُباد بالإناث اللاتي يغوينهم، والفقهاء الذين أعدّتهم إلى رشدهم الأول، وليس هناك أسوأ من الهرمونات لتوسيع الهوة بين الدال والمدلول، حتى إن جملة عفوية، مثل: «سأقتلك يوماً ما»، لا سبيل لفهمها إلا بمعرفة تاريخ «حسين»، الجزء الأكثر نصاعة منه، الذي تتبع كل خطوة فيه من حرية انتزعها «حسين» لنفسه بعد مشقة، انضمامه إلى جماعة غريبة تمارس الرياضة بأساليب شاذة، عكوفهم على أطعمة خاصة، وطريقة للحياة أهم مفرداتها رفض الزواج كمؤسسة ثنائية قائمة على استنزاف الرجل، ميثاق لم يعاينهِ «حسين» معاناة زملائه تجاه الجنس الآخر؛ فحتى المرات المحدودة التي كان مسموحاً له فيها بإفراغ إفرازاته المؤرّقة لم يستغلها.

قد تدهش إذا رأيت «حسين»، جسد لا يمكن وصفه إلا بالرجولة، والدهشة لن تدفع «حسين» إلى التبرير، باعتبار عزوفه عن الاتصال الجسدي هبة، والتجلي الأعظم للهبة عندما يكون البسط رقماً هائلاً والمقام صفراً، في الواقع يتساءل «حسين» كثيراً: كيف لم يفقد الإنسان الرغبة الجنسية كمرحلة تطوّر في التاريخ البشري، كولادة ثانية تعيده إلى مساره الأصلي ليكون لائقاً لخلافة الله في الأرض؟

يعلم «حسين» كم امرأة يمكن لرجل الحصول عليها وهو في سيارته لا يغادرها، لكن بالنسبة إليه هو، كم امرأة حصل عليها؟! امرأة واحدة، ومرة واحدة، ولم يكرّر التجربة، وكانت الرحلة التالية بسيارته إلى طبيب من هؤلاء الأطباء الذين يتقاضون مبلغاً هائلاً مقابل مهارتهم في وزن الخصية من دون أن يمسوها أو يضعوها على

ميزان حساس، قال له كلامًا كثيرًا عن الثقة بالأدوات، قال إنه من الخطأ أن يسميه مرضًا؛ لأنها حالة منتشرة بشكل يكاد يكون شائعًا، وقال إن الإحصائية المتاحة لحالته تتجاوز بكثير الأرقام المسجلة؛ لأن كثيرًا من الحالات لا يقوم أصحابها بتسجيلها حتى لو كانوا مصابين بشدة لأنهم ببساطة لا يعلمون، يظنون أن هذا هو الوضع الطبيعي للأمر، العالم العربي خاصة أخذ ركلة في خصيته بعد رفع الحروف.

اقتناع «حسين» بكلام الطبيب من عدمه لم يَكُن رهين الحجج الطبية المقنعة، بل وصوله إلى حد الكفاية من نقاش لن يقتنع به ولو استمر إلى نهاية العالم.. إذًا، ما مشكلتك يا «حسين»؟ ما الذي يجعلك عازقًا عن النساء، أم أننا لا يجب أن نسميها مشكلة على طريقة الطبيب؟ التسمية الصحيحة: مَآثِم، سرادق عزاء.. ولأن الفهم المبالغ فيه كثيرًا ما يكون جهلاً مطبقًا، فإن «حسين» لا يخجل من أن يقول إنه لا يفهم، كما خجل الطبيب الذي تقاضى مبلغًا هائلًا، شيئًا في هذا العالم يستطيع «حسين» أن يقول إنه لا يفهمهما، من دون ندم حتى: الانتصاب والمآثم، ولكن مآثم العضو الذكري مآثم طويل يبدو أنه إذا انعقد لا ينفض، حتى في مناقشة مع رجل له عقل كعقل الطبيب، ويتقاضى على الفهم مبالغ مالية من الناس.

لا يعرف «حسين» خداعًا قاد إليه الخيال والكلمات والوصف كما قادت الشهوة، الافتعال الغريب لطقوس أقل ما توصف بالبدائية، الموضوع نفسه عبثي، كيف يمكن قياس أمر كهذا؟ بدا هذا لـ«حسين» كنوع من تأطير مبالغ فيه، الظاهرة بأكملها مولعة في السادية، الشهوة سادية، ما فائدة أن تدس البذرة عميقًا بقبضتك في الأرض إن كان لديك الخيار أن تجد طريقة خالية من الجهد المؤلم والتأويل الحائق؟ ما متعة البذر المتكرر من دون جدوى؟ هذه الحماسة التي أولع بها العالم القديم لدرجة أنها أسقطت حكومات

وأقامتها.

لا، ليس العالم كله؛ ففي روما القديمة اقترنت أماكن الشهوة في أجساد البشر بالبلادة والبشاعة، لا دليل على ذلك أوضح من التماثيل التي خلّفوها، لا تكاد تظهر بها تلك الأعضاء التناسلية بقدر ظهور العضلات المنحوتة بعناية حتى يُخيّل للرأي أن ما بين أفخاذهم هو مجرد حبات من التين المجفف، كانت اللذة عندهم من المحرمات، لا يهتم بها ولا يتكلم عنها إلا العبيد الذين لا يُعدّون بشرًا كاملين، أما الأحرار فيتزوجون فقط من أجل إنجاب مواطنين أصحاء كاملين مثلهم، التقييل بين الأزواج كان محرّمًا لدرجة أن المرأة الرومانية الحرة كانت تستطيع أن تشكو زوجها للقاضي لو تعلّق بها بشكل شهواني طيني، أو حاول أن يدفعها إلى علاقة شبقية، لقد فهموا الجسد كما يجب على الإنسان العاقل أن يفهمه؛ الجسد نزوة، أداة اختبار فشل الإنسان في قيادتها طيلة قرون متطاولة، متعلّقًا بسوائل هذا الجسد التي لا وظيفة لها إلا إعداده للإنجاب فقط، حتى في معرفة الرومانيين للذة، فالمرأة تعلمت أن اللذة التي تتم على فراش الزوجية لا يجوز لها أن تشعر بها، يتم تدريبها منذ طفولتها على احتقار جسدها الشهواني؛ فقدّر المرأة الحرة هو الإنجاب، بخلاف المومس، التي تمارس الجنس كوظيفة، وكانوا يتعاملون مع شهواتهم تعاملهم مع الخراء في أجوافهم، يخصصون لها أماكن مقننة تزخر بالتماثيل الداعرة والفيسفاسيات التي تصوّر أوضاعًا جنسية طينية، حتى النقود التي يتم التعامل بها في هذه الأماكن ترفعوا عن تناولها والتعامل بها في أحوالهم الطبيعية، وجعلوا لها قطع نقد سكّت عليها أوضاعٌ فاضحة، أما اللذة الحقيقية عند الرجل الروماني فتركزت في الجلد، القبلة على الجلد فقط وحول الفم لا أكثر، وكأن الرغبة هي تبادل الأنفاس الناعمة العفيفة، من دون التورط في إفرازات والاختناق في سوائل وانهيارات درامية وخفوت وظلمة، ثم بحث عن معانٍ أخرى للاقتراب الحميمي، كالحب والأشعار والروايات وأمراض

المجاز.

لا يستطيع أن يفهم تاريخ قوم قادوا العالم بالرجولة إلا رجل حقيقي، ممارسة الجنس المتكررة للحصول على الذروة أشبه بالغوص في بحيرة من الطين للبحث عن لؤلؤة، أما رجل رياضي مثله فيستطيع أن يحصل على الذروة من طريق مختلف، ذروة أشبه بالكشف الصوفي الذي يحصل عليه رجل يعبد الله بالصيام التام عن الطعام حتى جف نخاعه، ولكن من منظور معكوس، مثل جرس مقلوب؛ فالجائع يصل إلى الكشف عن طريق الانزلاق، أما هو فيصل إليه عن طريق الصعود.

\*\*\*

كان من السهل على «حسين» أن يجد الخلاص من تأنيب الضمير في كل ما بدر منه من أخطاء مهنية - حتى تهديد «إسحاق» بالقتل تحت تأثير المخدر - فقط إذا وضع طلب «د» الغريب منه في حساباته النفسية، لكنه لم يفعل؛ ف«حسين» يصعب عليه أن يتصور نفسه شخصاً جائعاً إلى القتل؛ لأنه يقف على مسافة متساوية بين الكراهية والحاجة، وشهرياً كانت الأوراق الرسمية تجعله يقتل ما يزيد على نصف دسته من الأشخاص، يزيدون ولا ينقصون، ولو أن القتل يشبه الصداقة أو الحب لكان من الصعب على «حسين» حصر اللحظات المميزة لهذا العدد كله، الإيماءات والنظرات والحضور والتبدد والضياع.. لكن يبدو الأمر في النهاية كأنك قتلت شخصاً واحداً عدة مرات وبالطريقة نفسها، شخصاً تتحمل الحكومة مسؤولية إنهاء حياته، لهذا فلم يكن «حسين» على استعداد لإنهاء حياة شخص خارج توجيهِ الظرف الأصفر، فالخروج عن نطاق الظرف يُعد قتلًا حقيقيًا، حتى لو خرج أمر القتل من الأشخاص أنفسهم الذين يُحررون الظرف، وعندما طلب منه «د» أن يقتل خارج الظرف المعتاد فوجئ بتشكيلة معقدة من الأحاسيس كان أقربها الإحباط؛

فقد ظل يعتقد أنه يقتل بما يكفي لإنقاذ العالم من التدهور، والآن يعلم أنه حتى الموظف الذي يحرر الأظرف يرى أنه لا يقتل بشكل كافٍ؛ لأن الكفاية هي التخلص من آخرين عند آخرين، وإن لم يكن هذا التخلص قد تم بشكل تام يظل القتل بالنسبة للجميع فعلاً سيئاً، غير شرعي، دموياً.

في الليلة التي حصل فيها «حسين» على الاسمين، قام بتأجير صالة التدريب القريبة من فندقه طيلة الليل، ثم أخذ في أداء حركة واحدة في تمريناته الشاقة، حركة واحدة فقط، أرجحة الثقل بذراعه مئات المرات على مدار ساعة ونصف الساعة، ثم الذراع الأخرى، ويعود إلى الأولى التي أنهكها من قبل، الصالة الفارغة ترن فيها صرخات «حسين» التشجيعية لنفسه، وجملة «د» ترن في ذهنه أكثر من رنين الصرخات: كلنا قتلة يا «حسين»، بوجه أو بآخر، ولكن المنفذ للقتل واحد، غالباً ما يكون أكثر الناس بُعداً عن القتل.

عضلة الذراع تحرق الدهون فوقها، تحرق الغذاء الذي يحمله الدم إليها، تسحب من الجسد كمضخة صغيرة وتدفع إلى هواء العالم نواتج احتراق الطاقة، كأن العالم ينحني فوق ذراعه ويمتص جسده عن طريق أداء حركة واحدة، بلا نهاية، تلتحم الأبدية بجسده عن طريق حركة واحدة، للحظة، ثم يفصل «حسين» عنها مغموراً بالعرق والاستخفاف بكل آلامه ومعاناته، لقد نقل وهجه إلى العالم عسى أن يحرق البشر.

\*\*\*

طيلة أشهرٍ بحثٍ، لم ينهمك في التدريب كهذه الليلة، انتهى كل يوم فيها بأمل فاتر، وفي الليل سعى ليرطب حرارة بحثه بالتجوّل، بعيداً عن المدينة، لم يحب البحث في الزحام، خاصة في النهار، لا بُدَّ له من تَرَجُّل، وهو يكره أن يتَرَجَّل من سيارته، ويكره أن يفتح نوافذ سيارته فتُعَبَّأ بالروائح، لم يعلم السر في ذلك إلا عندما حاول

أن يفسر كراهيته، أي كراهية لديه لا بُدَّ أن يُسجِّبها ويُشرِّحها، وإلا أثرت على مهنته وحالة التسامي التي يصل إليها عبر تنفيذ مهامه، وللوصول إلى السبب لا بُدَّ أن ينغمس، وهكذا فعل، في شارع من أكثر الشوارع زحامًا من شوارع وسط البلد أوقف سيارته وفتح نافذته وأغمض عينيه، وحاول العثور على السبب الخفي لهذه الكراهية.

هجمت على أنفه رائحة المدينة، رائحة الملابس الجديدة المصبوغة والعطور والعرق، رائحة حبر عتيق في كتب الأرصفة والأطعمة المختلفة المبتوثة في المطاعم، رائحة البنزين المحترق والدخان الأزرق، رائحة الأخشاب الرطبة والسجائر المنقوعة في البول وحثالات أكواب الشاي والقهوة العطنة.. هذه الروائح كلها تفاوتت مشاعره في استقبالها بين التقزز والقبول، إلا رائحة واحدة كانت كراهيته لها سوداء: اللحم المشوي، رائحة الدم عندما يحترق، ويختلط بدخان الفحم، كانت الرائحة تحقّزه، تضعه في وضعية القتل من دون قتل فعلي؛ فعندما يطلق النار في جسد ضحيته بتلك الطريقة الدرامية التي ينتهجها يطفئ الدُمّ جمرّة الحديد الملهب بمرور الرصاصة فيه للتوّ، ورائحة القتل من دون قتل مثل أفيون مغشوش، لا يثيره بقدر ما يؤلم بطنه.

عاد إلى فندقه، كان مُرهَقًا، لم يصعد إلى غرفته على الفور، طلب قهوة وجلس في باحة الفندق الداخلية يحاول تحليل مشاعر الضيق التي انتابته للتوّ، ربما كان عليه أن يمر على صالة التدريب، الشبهات والصرخات والتشجيّعات ومرأى الأجساد اللامعة، ويخار الماء الساخن في الحمامات المشتركة.. هذا كله يفرغ ذهنه ويُخرجه من حالة القتل إلى حالة الحياة، كثيرًا ما كان يتساءل بينه وبين نفسه: في هذا الوقت من اليوم، ما الذي كان يفعله مقاتل روماني؟ أو ما الذي يمكن أن يفعله مقاتل روماني انتقل إلى هذا الزمن؟ بعد الدهشة، وبهذه المعطيات، والعناصر المخيبة، والإحباطات، ما

الجدول الذي سيتبعه لكي لا يترهل؟ ما القرارات التي سيتخذها في حياته قيد التنفيذ ليمنع نفسه من الوصول إلى نقطة الكسر؟ هل سيبحث عن وهم اسمه «إيلات»، أم سيكسر شوكتة أمام رئيس عمل غامض يكلفه بقتل عبثي؟

في روما القديمة، لم يكن الرجال يعودون من تدريبات القتال إلى بيوتهم على الفور، بل يمرون على الحمامات كمرحلة تمهيدية.. العري والترف وغيوبة البخار ولذة الحرارة التي تقترب من حرارة الجسد، فيسكت هدير الجلد الذي يعمل طول الوقت كمضخة للخارج أو للداخل ويتفرغ لاحتساء الراحة العذبة على حدود الجسد، مزيج خطير يُصَفَّى ما اختزنه المقاتل ورجل السياسة من ترهلات وترهات وهزائم مرت بيومه.

أغمض عينيه منتشياً وكأنه يرى النقش المكرس للإمبراطور الروماني «تيبيريوس كلوديوس»: النبيذ والجنس والحمامات تدمر أجسادنا، ما الذي كان يقصده الإمبراطور بهذه الكلمات؟ التدمير؟ الميوعة أم الفساد؟ ألهذا لم يكن للنساء وجود في حمامات الرجال؟ الرجال والخدم العبيد فقط، وفي هذه الحمامات كان المقاتلون الرومانيون يقومون بإفراغ إفرازاتهم في مؤخرات رجال مثلهم من دون التورط في إشكالية الجسد الطري، ولم يكن هذا يسمّى شذوذاً أو انحرافاً، كان المقاتل الروماني يمتطي الرجل العبد ويفرغ فيه إفرازاته المؤرقة ليعود إلى بيته بذهن أكثر صفاءً وجسد معتد بنفسه.

في هذه اللحظة تحديداً، قرر «حسين» أن يتوقف عن البحث وليذهب «د» هو وترقيته إلى الجحيم.

\*\*\*



## «إسماعيل» - الكاتب

صباح يوم الاختبار استيقظت مبكرًا، مشيت حتى محطة الباص، أفطرت في مقهى على الطريق، خبز هَشَّ بالسَّمسم وقطعتان مثلثتان من الجبن المطبوخ، كنت أشعر بالنعاس فطلبت كوبًا من الشاي الثقيل لم أستطع إتمامه من فرط مرارته، ثم استسلمت للنوم بمجرد أن تحرَّك الباص.

أمام المبنى المخيف، وقفتُ طويلًا في ظل أعمدة مكسوَّة بالرخام الأخضر، تفحَّصت وجهي في أرضية من البورسلين، فوجدته قلقلًا منتفخًا من النوم، وأمام الأبواب الزجاجية أعمدة نحاسية صغيرة تشبه الصولجانات يمتد بينها حبل أحمر، سألت نفسي: لماذا يضعون حاجزًا أمام مبنى مفتوح للجماهير؟

بالتأكيد مرَّ أي من هنا، ربما جدي، فكلاهما موظف حكومي، والقطاع العام ظل حارسه الأوحده هذه المباني ذات السمعة الأسطورية.

وقفت حائرًا في التصرف الأمثل أمام الحاجز المصنوع من الجبال، ربما يكون هذا من ضمن الاختبار، هل ينبغي أن أدور حول الأعمدة النحاسية أم أطوح بساقي فوقها وأعبر؟ الوصول من أقرب الطرق أم احترام قانون الأشكال الهندسية؟ في النهاية قررتُ، درت حول الصولجانات حتى أوصلني الدورانُ إلى منطقة ضيقة، قمت بشفط بطني لأمر ولاحظت بطرف عيني الكاميرا التي ترصَّدتني من أعلى، كانت الكاميرا موجودة بزاوية لا يكتشفها إلا من يعبر بهذه الطريقة.

الباب الزجاجي والأعمدة الرخامية والبلاط اللامع أفضت بي إلى صالة واسعة شبيهة بمعامل الكيمياء في المدارس الأساسية، طاولات عليها ألواح الرخام ومن فوقها أنابيب زجاجية ملتوية، زجاجات خضراء

كبيرة مفلطحة بأعناق ضيقة وسدادات من الفلين.

- جئت من أجل الاختبار، اسمي «إسماعيل»، ورقم بطاقتي...

هكذا قلت لرجل يرتدي بالطو أزرق على خلاف الجميع الذين يرتدون اللون الأبيض، ضيق عينيه وكأنه استغرب وجودي، ثم مسح يده في خرقة قماش وأشار لي أن أتبعه، سرت خلفه، سعدنا سالام في نهاية القاعة، أفضت السالام إلى ممر طويل، دفع رجل بالاطو الأزرق باب آخر غرفة على اليمين بعد أن طرقه وسمع همهمة ما، خلف الباب رأيت دكًا خشبية وديكورات على الحوائط كأننا في فصل دراسي، هذه مدرسة، تفتق المبنى المخيف عن مدرسة قديمة، وكان الشخص الذي سيختبرني جالسًا على منضدة المدرس والدك فارغة، ولن أندesh الآن إذا سهل جرس في مكان ما ودخل التلاميذ وبدأت حصة الفيزياء كما تشير الكتابات على السبورة خلف المدرس العجوز الذي أخذ يتأملني، ثم قال:

- اجلس يا «إسماعيل».

نظرت خلفي مندهشًا، كان الرجل الآخر قد انصرف، كيف عرف اسمي؟! ابتسم المدرس العجوز لدهشتي، وقال:

- لا تسأل نفسك كثيرًا عن الطريقة التي عرفت بها اسمك، ستعرف السر بعد قليل.

صافحني وقدم لي نفسه:

- أنا «د».

- «د»؟

- غير مسموح بتداول أسمائنا مع المختبرين.

ثم أشار لي بالجلوس وقال:

- استرح.

جلست حيث أشار، الدكة الأخيرة في جهة الباب، جلست طويلًا

بينما انشغل هو بتصفح كتابٍ ما في يده، ومن حين لآخر كان يرمقني بنظرة قريبة من السخرية أو العبث.

اضطّرت في النهاية أن أرفع صوتي لئلا يسمعني - كانت القاعة كبيرة - وأنا أسأله:

- متى سيبدأ الاختبار؟

وكأن السؤال إشارة البدء، دفع «د» مقعده ووقف، قال:

- أنت لا تتذكر شيئاً بالفعل يا «إسماعيل»، اسمح لي أن أندesh، على الرغم من تكرار الأمر، كل مرة أندesh، اسمح لي، ومع ذلك حتى لو طلبت منك أن تعصر دماغك قليلاً، وأن تنظر إلى وجهي، لنرى هل ستظل إجابتك كما هي: أنت لم ترَ وجهي من قبل؟

- هل ينبغي عليّ أن أكون قد رأيته من قبل؟

- لا، بالعكس، هذا يثبت كفاءة الاختبار.

ثم تنهد وألقى بقنبلته:

- لقد تم اختبارك بالفعل يا «إسماعيل».

للحظات ظللتُ أنظر إلى وجهه، بلا دهشة، محاولاً أن أنقب في جدار وجهه الصخري عن نائمة سخرية وعبث، كيف تم اختباري وقد دخلت من الباب لتوّي؟!

- طبعاً لم يحدث، أنا هنا منذ دقائق فقط.

- كنت أتوقع ردّاً أكثر ذكاءً يا «إسماعيل».

صحتُ متسخطاً:

- إن كان هذا أحد أساليب الاختبار فلن تخدعني به، فأنا أعرف ما أقوله جيداً، ولن أغيّره، لقد جئتُ الآن فقط، تاريخ اليوم كما هو، والساعة (نظرت عندئذ إلى ساعة يدي الإلكترونية) نصف ساعة بعد نزولي من الباص، هذا المكان أراه أول مرة، ووجهك يبدو كأى وجه آخر، لماذا يجب عليّ أن أتذكره؟

على الرغم من طريقتي القوية في نطق الكلمات بدأ وجهي يرتعد،  
تحديدًا منذ نظرت إلى أرقام ساعتني، فالفارق بين الوقت فيها وزمن  
نزولي من الباص أربع ساعات، أربع ساعات لا أتذكر أين كنت فيها،  
وكالغريق الذي يبحث عن قشة دار لساني في فمي حيث علقت حبة  
سمسم بين أسناني فهرستها بغيط، ودفعت مع ريقني المضطرب  
نكهة حبة السمسم المهروسة من فمي إلى حلقي، واستسلمت.

- وما نتيجة الاختبار الذي خضتُه من دون أن أدري؟

جاء «د» ناحيتي ووضع يده على كتفي، كان ثقل الوزن على الرغم  
من نحافته:

- أنت لا تصدقني؟

- هل تريدني أن أكذب عليك وأقول نعم؟! إن كان هذا سيجعلني  
أحصل على وظيفتي فأنا مستعد لذلك، أليس هذا ما جئتُ من  
أجله؟

قال «د» وهو يصطنع الأسف:

- يجب عليك أن تقتنع أنك مررت بالاختبار يا «إسماعيل»، هذا  
يتوقف عليه مصيرك.

نظر «د» عميقًا في عيني للحظات، ثم بدّل صوته ولهجته فجأة  
كأنه قرر أمرًا:

- حسنًا، سأحاول أن أساعدك، أخبرني، متى اكتشفت أن الكتابة  
قدرُك الذي لا مهرب منه؟

- إن كنت تقصد الكتابة الأدبية فأنا أكتب قبل أن يصبح عمري  
اثني عشر عامًا.

- أقصدها طبعًا، لكني أسألك عن حدث أكثر خصوصية من  
مجرد اكتشافك المبكر لموهبتك، حدث غير مفسر، خارج الحدود  
الطبيعية للمعقول، جعلك تشعر بأشياء خاصة بالكتابة لم تشعر

بها من قبل.

عندما قال «د» ذلك أدركت ما يقصده، إنه اليوم الذي فشلت فيه في النزول إلى البيرة، الرؤية المضطربة، فقداني الوعي للحظات، سرى تميل بسيط خلف عنقي، وتحول الضوء والصوت إلى أميما عملاقة هرستها قبضة ما على الحائط وتركبتها معلقة هناك من دون أن تسقط، تُشوَّش رؤيتي وسمعي فقط، ابتلعت ريقى قبل أن أقول:

- ماذا تقصد؟

- اسمعني جيداً يا بني، لا أعرف كيف تراني الآن، ولا بأي شكل أبدو لك، فأنا أختبر العشرات يومياً ولم أعد أسأل، لكني واثق أنك ترى الآن خلاف ما أنا عليه، وسأطلب منك ألا تُعوّل عليه، فأنت قد خُصِّت الاختبار منذ ساعات، وما تراه وتسمعه الآن جزء منه واقع تحت تأثير عقار غريب، ولكي أتجاوز أوهامك سأخبرك أنني لا أقرأ أفكارك، وأن ما أعلمه عنك قليل جداً، لا يكاد يتجاوز ما تخبرني به، ولنصل إلى نتيجة في نقاشنا أخبرني بما تذكره من أحداث هذا اليوم. استغرقت دقائق حتى أردّ بخفوت:

- كنت مع جدي، هو بداخل البيرة وأنا بالخارج ألتقط السمك الذي يقذفه.

- مثل كل يوم؟

- نعم، مثل كل يوم.

- هل حدث شيء غريب؟

- نعم، قبل أن يخرج جدي شعرت بألم، كدْتُ أقع، وقعت بالفعل، خرج جدي من البيرة وسألني ماذا بي، فكذبت عليه.

- وبعد ذلك؟

- جمعنا السمك من بين العشب، ثم جاءت المرأة التي تشتريه وأخذته وانصرفت.

- هل هي المرأة نفسها التي تأتي كل يوم؟
- لا، كان لهن ترتيب.
- أكثر من واحدة؟
- نعم، تشتري السمك منا أكثر من بائعة، ولكن كان لهن ترتيب، لا يبدلن مواعيدهن أبدًا.
- أخبرني، أي بائعة منهن أتت في ذلك اليوم؟
- البائعة الثانية.
- كان هذا يوم الأحد؟
- لا.. يوم الاثنين.
- وهل هذا هو اليوم الذي تأتي فيه بائعة السمك الثانية؟
- لا، الثالثة، لكن البائعة الأولى جاءت قبلها بيوم.
- كان يوم السبت؟
- لا، يوم الأحد.
- إذًا، لم تأتِ بائعة يوم السبت فجاءت يوم الأحد!
- لا، أتذكر هذا جيدًا، بائعة السمك الأولى جاءت يوم الأحد، ربما جاءت بائعة السبت مرتين، مرة في يومها ومرة في اليوم الذي يليه، على الرغم من أن هذا لا يحدث عادة.
- بالضبط، كما قلت يا «إسماعيل»، لم يحدث أبدًا، أكمل.
- عندما جاءت بائعة السمك الثانية كنتُ جالسًا على الأرض لأنني شعرت بدوار في رأسي.
- هل تذكر متى قمت مرةً أخرى؟
- طبعًا قمت، لا أذكر، لكني قمت وعدت مع جدي إلى البيت.
- تنهّد «د» وكأن صبره نفذ أخيرًا.
- لا تكن عنيّدًا، أنت لم تقم، وفي ذاكرتك هذه اللحظة لا تزال

مستمرة؛ لأن هذا يوم لا وجود له، هذا اليوم وهذا الحدث حصل قبل ساعة أو ساعتين في خيالك، لم تأتِكَ رؤيا بخصوص الكتابة في أي يوم من أيام حياتك، نحن من تسببنا في وجودها منذ قليل، طبعًا أنت لا تتذكر كيف جئت إلى هنا، ولا كيف مررت فوق جبل الأعمدة النحاسية التي وضعناها أمام الباب، وأسقطت واحدًا منها بحماقتك.

عارضته بعناد:

- لا، لم أمر من فوقها.

- قامت كاميرا المراقبة بتسجيل دخولك، ولدينا توقيعه على طلب بخوض الاختبار قبل ثلاث أو أربع ساعات من الآن، ستتذكر ولكن ليس الآن، بعد أن يصفو جسدك من أثر العقار.

- أي عقار؟ ما الذي تحدث عنه؟

دق جرسُ الآن بالفعل، انفتح الباب المزدوج وغمرنا طوفان من الطلبة، توقعْتُ أن ينهي «د» حوارنا، حوار كهذا يمكن أن يقف بي عند حافة الجنون إن لم يتم، لكنه لم يفعل.

- رأسك سقط، أنا أسندتك بنفسي وحملناك لتُتمَّ نومك في غرفة مجاورة، العقل يعمل بطريقة غريبة يا «إسماعيل»، إنه يرتق الفجوات لكي لا ينهار مفهومه للزمن، أكثر أعضاءنا إثارة للشفقة، لا يُعتمد عليه، لكنه خطر في الوقت ذاته؛ لأنه يتخذ من ضعفه هذا ذريعة للسخرية من العالم، هذه الرائحة التي تظن أنها فتحت لك طاقة قدرك ككاتب لم تشمها إلا منذ قليل، نتاج سنوات شاقة من العمل، جزء عبثي من أبحاث مضيئة لم يَكُن مقصودًا منها الاختبار، كان مقصودًا بها البلوغ، تحفيز مراكز البلوغ في المخ، حبة زرقاء سحرية فائقة الجودة طويلة المفعول، لكنها فشلت في القيام بوظيفتها، على الرغم من ذلك لم تخرج عن كونها معجزة هائلة، لقد رأيت أمورًا تفعلها هذه الرائحة لم أكن أظن أنها ممكنة، أمورًا

كالسحر، الشخص المرح الذي يقع تحت تأثيرها يتحوّل إلى مهرج، والمصاب بالكآبة جعلته يشم رائحة جبل المشنقة الذي سيعلقه لنفسه بعد عشرين سنة في سقف غرفته لينتحر، هذه الرائحة تكتشفك، تضع لك خط النهاية، وتترك أنت لتملاً الفراغات، ليس مجرد ترك، بل تملؤك بالولع والشغف لذلك.

- وهل يمكن خداع العقل ليخلق ما لم يحدث؟

- وهل يختلف هذا عمّا تفعله بكتابة الروايات يا «إسماعيل»؟ أحلام لتبرير العالم، هل تعلم لماذا يقضي البشر أكثر من ثلث حياتهم في النوم؟ ليس للراحة فقط، بل للتبرير، أحد الأشخاص وضع تحت قدميه زجاجة ماء ساخن فحلم أنه يتسلق قمة بركان إتنا، رشّة الماء على الوجه في أثناء النوم تتحوّل إلى هطول المطر أو تسرب الماء من سقف بيت في حلم، تسليط الضوء على الجفن النائم في مرحلة النوم تُحيله إلى حريق أو برق صاعق، حتى العضلات والعظام والأنسجة التي تنمو وتعالج نفسها في أثناء النوم يحاول العقل أن يبرر أفعالها بالأحلام، إذا صفعت شخصاً نائماً، أو ثار عليه ألم كدمة، سيخلق العقل حكاية كاملة في الحلم يفسر بها هذا الألم الطارئ، حكاية لا علاقة بها بما حدث، بينما يُقيد الذهن ما حدث في الحقيقة ضد مجهول.

- تصور لو أنك استيقظت من ألم كدمة خفيفة، أو لأن عضلاتك تنمو، أو لألم خفيف في عظامك.

- أتصور ذلك، وفي المقابل تصور أنت أن تظل نائماً طول حياتك، نومًا كأصحاب الكهف، ثلاثمائة عام وتسعة أيام، فكّر معي قليلاً، بماذا ستحلم في هذا النوم الطويل؟ هل ستحلم بأنك صرت نبياً واستطعت تغيير العالم، أم ستصل في أحلامك إلى حضارة الطائرات والصواريخ الحاملة للرؤوس النووية؟!

- أنت تسخر مني، لا أعلم كيف عرفت بموضوع الكتابة، لكنك

تسخر مني.

- سخرية مشروعة، لا أنكر أن المجاز مهم لحياة البشر يا «إسماعيل»، بشرط أن يظل مثل سحر القبعات والأرانب والشرائط الملونة التي تخرج من فم الساحر، يجب عليه أن يظل في طفولته وألا يكبر أو يفكر في أن بإمكانه تغيير العالم، المجاز مهم لراحة عقل مكدود بعد يوم حافل، لكنه ليس كافيًا لإنقاذه إذا أصيب بارتجاج أو صدمة.

- هل تفعلون هذا بكل المختبرين من أجل وظيفة؟

- ليس الجميع، جدك رجل عاقل، أعرف أن هذا سيُحبطك ويغضبك، لكننا نعلم منه حالتك منذ شهور، قرأنا بعض ما تكتبه أيضًا، في العادة يأخذ الشخص الذي نخبره جرعة بسيطة، لكن الحالات النادرة مثلك نعطيها جرعة مضاعفة، ليس من أجلك، إنما من أجلنا، من أجل مصلحة البشرية؛ فالاختبار بطريقته الأولى كان مجرد عبث، كرسي لكشف الكذب وأشكال مبهمة تراها لتطلق عليها أسماء، يقيسون خيالك بمساطر بدائية، كثيرون مروا بعد أن تم اختبارهم، تدرجوا في المناصب وصاروا جزءًا من قرارنا الرسمي الذي يحكم مستقبلنا قبل أن نكتشف الكارثة، هؤلاء أشخاص لا يُمكننا أن نعتمد عليهم، إنهم امتداد حي للفوضى، لكنهم يملكون القرار ولا يمكن إطفائهم بضغطة زر.

- وهل نجحت تلك التركيبة الكيميائية فيما فشلت فيه الطرق التقليدية للاختبار؟

- بالتأكيد، الكيمياء منذ بدء الخلق وهي تصل بالعقل إلى السقف دون أن تضره؛ لأنها تصطحب القلب معها في رحلتها، كرسي كشف الكذب كان يتعامل مع عقول البشر كصفحات الورق، كائنات ذات بُعدين، لكن عقارنا يترك لنا الخيار، يتنبأ بمستقبلك ويترك لنا الخيار.

- وبماذا أخبركم عني العقار؟

الآن صارت يد «د» ثقيلة بالفعل، تكاد ترض كتفي أو تخلعها من مكانها.

- لم يخبرنا العقار، أنت من أخبرتنا تحت تأثيره، هذه الرائحة لم تفشل قط، وإن اختلف مفعولها حسب قوة الواقعين تحت تأثيرها.

- وبماذا أخبرتكم أنا عن نفسي؟

- أخبرتنا أنك شخص خطير يا صديقي، لا أخفيك سرًا، اللجنة التي اجتمعت لمناقشة حالتك أوصت بتحييدك.

- لهذه الدرجة؟!

- بالطبع، منذ متى وأنت تكتب يا «إسماعيل»؟

- لا أتذكر، كل شيء مختلط في ذهني الآن.

- لا تقلق، ستزول هذه الآثار مع الوقت، أرح ذهنك قليلًا، احكِ لي عن جدك قليلًا، ما الذي تفعلانه معًا ليكون بينكما هذا التناغم والحب؟

- لماذا نكرهون كاتب الحكايات؟

- لا نكرههم.

- لماذا أنا إذاً رجل خطر في ظن لجنة التقييم؟

- لا تأبه بذلك، لقد أقنعتهم بأننا قادرون على تقييمك والاستفادة منك، أخبرني، أين نحن الآن؟

- في فصل دراسي بمدرسة.

- جميل، هل ترى التلاميذ؟

- بالطبع، ألا تراهم أنت؟!

- بالطبع أراهم، ولكن ليس كما تراهم، أنت لا تزال تحت تأثير العقار، وربما ظل معك بعض آثاره الجانبية بعضًا من عمرك،

أخبرني، هل يبدو لك اسم الأستاذ «سمعان» مألوفاً؟

ارتعدتُ عندئذ، وبذلت جهداً لاكذب عليه:

- سمعتُ عنه من قبل، إنه رجل دين.

- جميل، الأستاذ «سمعان» طرف أصيل في مناقشة أي حالة تشبه حالتك أو قريبة منها، منذ قليل وأنت نائم انعقدت اللجنة التي ناقشت حالتك، انعقاد صوري في غرفة محادثة سرية على «الويب»، حضر الأستاذ «سمعان» متأخراً، دائماً يحضر متأخراً، لكنه منحني الوقت لأخرس كل من نادوا بتحريكك من اللجنة، أتعرف كيف فعلت ذلك؟ لقد طرحت اسم الأستاذ «سمعان» نفسه لعلاج حالتك، إنهم يرون أن الإحالة إلى الأستاذ «سمعان» أسوأ من القتل، لكني لا أراه كذلك، إنه رجل دين إسلامي كما قلت، سليل عائلة لا تعترف بالمدارس الحكومية منذ قرون من الزمان، يعترفون بنظام الكتابات والتلقين، الصياح في الأذن يثبت المعلومة في الرأس، حتى نساء العائلة كن يُعلمن، يحفظن الشعر لا لأجل الشعر ولكن لأجل استنباط فقهيه أو تثبيت قاعدة في اللغة، الأستاذ «سمعان» شيخ عجوز ولكنه صلد، تقاريره الطبية كلها تقول إنه سيموت خلال خمس سنوات على الأكثر، وللأسف ليس له تلاميذ نجباء، أو فلنقلها بصراحة: ليس له تلاميذ نرضى عن أدائهم. ربما يكون هو راضياً عنهم بطريقته؛ لأنه عاش تجربة مريرة لا أعتقد أنها ستتوافر للجيل الذي يريه الآن، وهو بحماقته يُجنّب تلاميذه ما مر به ويميزه ظناً أن فيه ما يشين، جزء كبير من خبرة الإنسان أن يقع في الخديعة وينجو، أما أنت فلا تحتاج للتجربة لتكون مثله بل أفضل، أنت واقع بالفعل في الخديعة والشهوة ولكنك في ظني تستطيع أن تنجو، وتحذر الناس من الإغراء، أنت يا «إسماعيل» تستطيع أن تفعل الكثير إن صح ما أتوقعه منك وما أقنعت به اللجنة.

- ولو رفضت؟

- لو أنك تفكر في هذا جدًّا فدعني أخبرك عن معنى كلمة «تحييدك»: سيقتلونك، لدينا سلطة بفعل ذلك، ولن يلومنا أحد. سكت «د» قليلًا ليلتلع ريقه، ويرى الأثر الذي خلفه تهديده على وجهي.

- ستخرج من هنا الآن، أعرف أنك غاضب، ولكن صدّقي، أنا واثق أنك لا بد أن تجد الجراءة يومًا على أن تحمد الله وأن تشكرني، وأريدك فقط أن تعلم أن الحوار الذي دار بيننا الآن على مسؤوليتي الشخصية، اللجنة خيّرتني بين أن أخبرك وألا أخبرك، وأنا اخترت أن أخبرك، ستحتاج للمعرفة هناك، عند الأستاذ «سمعان»، لتستمر وتحمل.

رفع يده من فوق كتفي ولكن الثقل ظل كما هو، أولاني ظهره ومشى حتى وصل إلى مكانه الأول، أشار لأحد التلاميذ فهرع لمسح السبورة، بعد أن انتهى جلس «د» على منضدته، لم أتحرك من مكاني، على مدار ساعة لم أتحرك، ولم يتحرك أحد، لا التلاميذ ولا «د»، ظل منهمكًا طيلة وجودي في مطالعة صف من الملفات ذات الأغلفة الملونة، لدرجة أنه لم ينتبه لخروجي.

\*\*\*





لم أمر بسلسلة مرهقة من الإجراءات الروتينية لأحصل على ورقة الترشح لمدرسة «سمعان الشنقيطي»، أعطوني إياها على الفور، ظللت ممسكًا بها في يدي وأنا أشتري حقيبة كبيرة للسفر من محل للجلود بجانب المحطة، ثم وضعتها في قاع الحقيبة الفارغة على ساقى عندما جلست على مقعدي بالباص.

عدتُ إلى أرض البيارات لأعبي حقيقتي في صمت، كنت غاضبًا من جدي، تجاهلت إلحاحه بأن أخبره بنتيجة الاختبار، ألقى ورقة الترشح على المنضدة ليقراها كأنني أمارس طقوس انتقام خفي لا أعرف سببه ولا تيجته ولا إلى متى سيستمر، في البداية يبدو المصير وكأنك تستطيع أن تهتم الآخرين بالتسبب فيه، ولكن متى مر الوقت عرفت أنه كان حتميًا، وأن مدرسة الأستاذ «سمعان» كانت في نهاية كل الطرق التي كان بوسعي أن أطرقها، المدرسة ذاتها كانت طريقًا حتميًا إليها، إلى «إيلات»، وإلى «حسين»، وإلى المقبرة.

لم أطلب مالاً من جدي، كان لديّ حسابي في البنك الذي يُحال إليه معاش أبي منذ أن توفى، وبمزحة قدرية اكتشفت أن المبلغ الموجود كافٍ لأسلك الطريق المخالف، وكأنني مخير، بدلاً من الانضمام إلى المدرسة المخيفة كان المال كافياً لأنفقه على إقامة كاملة لمدة ثلاث سنوات في مدينة شرسة حتى أعثر على طريقي الخاص، عرفت المسمى الوظيفي لأبي لأول مرة في حياتي وأنا أملأ الأوراق التي تُثبت نسبي إليه: سائق درجة أولى بشركة توصيل، أي أزمة وجودية يمكن أن تثيرها مهنة كهذه؟! أي قيمة يمكن أن يخلّفها وجودٌ كهذا؟!

وأنا أكتب الرقم الضئيل في خانة الصرف، قمت بنسخ اسم شركة النقل الخاصة التي كان يعمل فيها أبي على ورقة، لماذا قمتُ بذلك؟! وكأن ضياع جدي بوشايتيه بي جعلني أبحث عن هويتي الأقرب.

من تليفون خاص بالزبائن في استقبال البنك حصلت من الدليل

على رقم الشركة واتصلت بها، باعتباري زبونًا:

- أريد سيارة لنقلي إلى مدرسة الأستاذ «سمعان»، المكان وسط البلد، أتمنى لو كان بإمكانكم إرسال سائق على ضمانته شركتكم، سائق قديم، نعم، معي حقيبة خفيفة ومبلغ نقدي كبير أخاف عليه، وأعاني فوبيا القيادة المتهورة والشباب الذين يتعاطون، بوسعي الانتظار، نعم، لم أتعامل مع هذا الاسم من قبل، ولكن هل يعمل معكم منذ ما يزيد على عشر سنوات؟ جيد، أقبله، أشكركم على الخدمة الجيدة.

نجحت خطتي مبدئيًا؛ فالسائق الذي أقلني من أمام البنك أخبرني أنه يعمل بالشركة منذ أربعة عشر عامًا وثلاثة أشهر ويومين وثلاث عشرة ساعة ونصف الساعة، لكنه لا يتذكر اسم أبي ضمن العاملين بالشركة، قال هذا بثقة تقترب من البرود، وبروح أقرب إلى روح المدينة التي لا تأبه لأحد، لكن عقدة لسانه انفكت بعد أن غادرنا المدينة المزدحمة، اتصل بزميل له في الشركة يعمل على كمبيوتر يُتيح له البحث الدقيق عن الأسماء، فتح السماعه الخارجية ليُسمعي الحوار، أكد الموظف أن هذا الاسم لم يسبق تعيينه بالشركة في أي مجال بغض النظر عن قيادة سيارة، وأن الاسم الوحيد المشابه له في اللقب الأول هو شاب يعمل بالنظافة بالمكتب الرئيسي ويكنس الآن الممر بمقشة.

في النصف الأول من الطريق إلى المدرسة مررنا على مدينة مَلاهٍ ضخمة، وصوامع غلال مخروطية الشكل تعطي إحياء كأنها سلال مصنوعة من الغاب، من وقتٍ لآخر تمر السيارة بجانب باصات الرحلات المدرسية الصاخبة، ثم تتباطأ أمام المطاعم السريعة التي تقف أمامها تلك الباصات لترييض الطلاب وشراء المشروبات الباردة، وأمام مدخل مدينة الملاهي كان الزحام ثقیلاً كشارع في مهرجان سنوي، والصرخات تأتي من أشباح الألعاب الخطرة البعيدة، صرخات

ريفيه حقيقه كأن جنازه خرجت لتوها من مسجد.

باقي الطريق كان مريحاً وباعثاً على النوم كأنني في مطبخ عائلي، مصانع البطاطس المقلية والصلصات والمربي والأجبان والمكرونة، السيارات الفان الصغيرة تدخل وتخرج ملوَّنة بالكامل كخفساء احتفالية بإعلانات منتجاتها، بداخلها سائقون مكفهرين يقضمون شطائر بنوع من التصميم والتعاسة ويعيونهم على الطريق كأنهم يزعون فتيل قبابل يدوية ويبحثون عن مارة ليلقوها عليهم.

ثم بدأت حرارة الصيف تأخذ طابعها الصحراوي والطريق الأسفلتي يلتصق من شدتها ويتموج تحت الإطارات الكاوتشيه، السيارة تتأرجح وتتماوج وتهدهديني كأنني في مركب نيلي، ومن وقت لآخر يلوح مبنى حجري صغير مهتدم لنصفه، أو تمر من فوقنا أسلاك الضغط العالي ذاهبة إلى مدينة بعيدة، ثم بدأت روح المدرسة الخاصة تلقي ضوءاً كائياً من بعيد وبنوع من التآمر المعماري على العزلة، حتى بعد أن اقتربت لم يكن واضحاً عليها أنها كافية لتؤوي حياة واحدة، ملأت تقييم الرحلة للسائق الممتن للبقيشيش الجيد ثم نظرت إلى ساعتي، استغرقت رحلتي ساعة وربع الساعة، حملت حقيقتي وشكرت السائق وأشهرت ورقة الترشيح للحارس الأسمر.

\*\*\*

في مكتب شؤون الطلبة سجلت اسمي وتاريخ حضوري، وبعد قليل من التقاطهم صورتي على كمبيوتر المدرسة، سلّمني بطاقة انتماء ملوَّنة، الصورة المنعكسة لشاشة الكمبيوتر على النافذة الزجاجية خلف موظف التسجيل أظهرت بجلاء الرمز الفخم للمدرسة على نافذة الدخول إلى أرشيف المدرسة، ما لم أفهمه هو رمز وزارة الداخلية المجاور لرمز المدرسة، كان هذ يعني أن مدرسة الأستاذ «سمعان» تابعة للداخلية وليس لوزارة التعليم العالي.

المبنى السكني لم يكن بعيداً عن مبنى شؤون الطلاب، لكنني

دُرْتُ قليلاً في الممرات الباردة أستكشف المبنى مستمتعاً بالتخفف من حقيبتي الثقيلة، كانت الممرات مُظلمة ولكن الأصوات والروائح أعطتني صورة للمكان، في جزء من الممر سمعت تكتكة ماكينة خياطة ورأيت ظل خياط منكفئ يرتق ثوباً في غرفة تفوح منها رائحة ملابس قديمة، ثم مررت بصالة واسعة لغسل الملابس وكيها عن طريق غسالتين أوتوماتيكتين ومكواة تعمل بالبخار، بعدها رأيت نافذة قوطية صغيرة بالكاد تمرر قطعة تفوح منها رائحة المطهرات، مكتوباً فوقها بخط نسخ بديع «الصيدلية»، عرفتُ فيما بعد أن الطبيب يأتي مرة واحدة في اليوم لمدة ساعة، تقله سيارة الموظفين النهاريين للمدرسة وتعود به، وأن مكتب الطبيب داخل الصيدلية، الدور السفلي كان به استراحة المشرفين وغرفة التلفاز وغرف الطلبة المعاقين، التي يسميها طلبة الأبنية الأخرى بنوع من السخرية المُهينة «كهوف الزواحف».

خرجتُ إلى الشارع الداخلي، كانت الأبنية مقسمة ومسماة على أسماء الخلفاء الراشدين: أبو بكر الصديق، أول مبنى بعد مبنى شؤون الطلاب مباشرة، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، وهو المبنى الذي يحتوي دوره السفلي على المطعم، ثم علي بن أبي طالب، يلوح مبنى واحد للفتيات بعد مباني الفتية، عرفتُ فيما بعد أن الفتيات كُنَّ أقل عدداً على مدار سنوات؛ لذا فلم يخصصوا لهن أكثر من مبنى واحد، سُميت أدواره بالنظام نفسه على أسماء أمهات المسلمين: خديجة بنت خويلد، سودة بنت زمعة، عائشة بنت أبي بكر، حفصة، جويرية.

رُشِحتُ للسكن في المبنى الأول (أبي بكر الصديق)، بناء على ترتيب اسمي الأبجدي، أعطوني وسادة طويلة محشوة بالقطن وبطانيتين وصينية من الاستانلس، وقبل أن يحل المساء كنت راقداً على سرير في غرفة صغيرة، غرفتي، وبشفتين مزمومتين بدأت على الفور

في تدريباتي النفسية، محاولاً استجلاب ألفة لم أستطع الحصول عليها في جولة وصولي القصيرة، الأرق كان نتيجة طبيعية للمشاهد التي ازدحمت بها عيناى بعد سفر مرهق، زحام هائل تحت جفني كان كافياً لتأريق قبيلة كاملة من البدو الرحل الذين اعتادوا النوم في العراء.

خارج جدران غرفتي، ظللت أسمع نداءات متتالية، كلها أسماء تبدأ بحرف الألف: «أحمد»، «أمجد»، «إبراهيم».. لم ينادِ أحدٌ باسم «إسماعيل»، شعرت بالعزاء الخفيف لذلك وحمدت الله إذ إن نداءً واحداً باسمي كفيل بإيقاظي إذا نمت.

كانت هناك أصوات أخرى لم أفهم معناها في وقتها، أقدام تمشي في الممر، أقدام حافية في شبشب مبللة تغرغر مع كل خطوة، وصوت طقطقة في الجدران وصيحات وضحكات وأبواب تُغلق وتفتح، فيما بعدُ عرفتُ أن اليوم هو الأول في جدول الاستحمام الأسبوعي، يوم الاثنين، غلي الماء يتم في مرجل الماء عند المبنى الأخير ويتم ضخه في مواسير بالمباني من بعد صلاة الظهر وحتى قبل الغروب بقليل.

أتذكّر أول لقاء لي مع حبر العقاب كلقاء مع رجل شرير قاسي اللحم، حتى ذكرياتي مع الكارديوم تتضاءل إلى جوارها، بعد أن أنقذني من أرق ليلتي الأولى بالمبنى السكني طالب من طلبة السنة النهائية دق علي الباب ليصطحبني إلى مخزن المبنى، هناك قام بصرف كتب لي وصندوق مغلق من ورق الكرتون المقوّى ظل يخشخش وأنا أحمله ضمّاً إلى صدري.. وعندما لاحظ طالب السنة النهائية حيرتي الناتجة من جهل جغرافيا المكان تبرع بتوصيلي حتى غرفتي، هذا كله من دون أن يتبادل معي كلمة زائدة على الحاجة، وضعت الكتب على المنضدة الوحيدة بغرفتي، فتحت الصندوق بحرص، أطلّ عليّ من قاع الصندوق ثلاثة أقلام بيضاء فارغة وثلاث

زجاجات مليئة بالحبر، تركتها وحملت الكتب مثل كنز صغير إلى سريري، الاحتفاء بالكتب عادة ملازمة حتى لو لم تكن الكتب التي أحبها، خاصةً إذا كانت مطبوعة حديثاً ومُجلدة بجلد سميك، ظهر جلدتها يحمل عبارة واحدة غريبة «الجهل يستوجب العقاب، أما المعرفة فتستوجب القتل، الجهل ليس عذراً شرعياً هنا».

كان مع الكتب ثلاث أجندات فخمة ومذهبة الحواف، على أولها مكتوب بخط أندلسي «ما يُكتب ليُمحي» وعلى الثانية «ما يُكتب ليُحفظ» أما الثالثة فُكتب عليها «الصف الثالث النهائي»، رقدت قليلاً على ظهري أتأمل صفحاتها، وأقرأ الأحاديث النبوية المطبوعة على طرف كل صفحة من أعلى، ثم خطر لي أن أكتب اسمي على الكتب والأجندات ليسهل العثور عليها إذا ضاعت.

قمت، جذبت زجاجات الحبر ورصصتها بعناية أمامي على النضد، كانت زجاجات كبيرة، تكفي الواحدة منها لملء عشرين خزانة من خزانات الحبر التي يضعها جدي في لوحة التحكم، ومن السهل فتحها، فتحت الأولى، عبأت أحد الأقلام منها وأغلقتها، ثم فتحت الثانية وعبأت منها القلم الثاني وأغلقتها، ثلاثة أقلام وثلاث أجندات وثلاث زجاجات من الحبر، لا يحتاج الأمر لعبقرية، من كثافة الحبر خَمَّنت نوعه، لا بُدَّ أن أحد نوعي الحبر من السهل محوه، والآخر ثابت كما تشير العبارات المكتوبة على الأجندات (ما يُكتب ليُمحي) و(ما يُكتب ليُحفظ)، ماذا عن دواية الحبر الثالثة، الخاصة بالصف الثالث النهائي؟ فككْتُ الغطاء، وبمجرد أن كشفته فاحت من الزجاجة رائحة عفن خانقة وانتشرت في الغرفة على الفور وكان لها مفعول غريب على أعصابي، أخذ قلبي يدق بشدة كأنني ارتكبت خطأً فادحاً، أحكمت رباط الغطاء بسرعة وقمت بتشغيل مروحة السقف على سرعتها القصوى وفتحت النافذة الوحيدة على مصراعيها وعدت إلى منضدتي.

بعد أن هدأت عدت للاستلقاء وأخذت كتابًا لأتصفحه، فونت  
الخط مقاس ٧٢ تقريبًا، بحيث لا تتسع الصفحة إلا لعبارة أو عبارتين،  
عبارات وُضعت للصياح والحفظ، وكان هذا الخاطر هو آخر ما  
جاءني قبل أن أستسلم للنوم.

\*\*\*

لم تُكن إلا فكرة ذهنية، راودتني في الليلة الأولى بمدرسة الأستاذ  
«سمعان» بعد أن خَفَّت قبضة العقار الذي سمم ذاكرتي، ملخصها  
أن ما أخبرني به رجل الاختبار كان حقيقيًا، أغمضت عيني متمثلًا  
الفكرة، استيقظتُ في ذاكرتي بصورة حقيقية صورة الأعمدة النحاسية  
والجبل الأحمر الذي يربط بينها، وقفتي هناك في ضوء الشمس،  
وعلى بلاط البورسلين اللامع رأيت وجهي المرهق، كان الأمر شبيهًا  
بشبح حياة أخرى تتجول بداخلي حاملة حدثًا واحدًا يتكرر بدأب  
من دون أن أصل لنهايته، وفي هذا الحدث كنت أتساءل: هل  
سأطوح بساقي فوق الجبل من دون أن أسقط الأعمدة النحاسية أم  
سأعبر كما حكى لي رجل الاختبار مسقطًا إياها بحماقة؟ فكرت أن  
أطوح ساقي بسرعة وعاليًا لأستفيد من القصور الذاتي لثقل قدمي،  
تنفست بقوة في الحقيقة لأفعل فنجحت في خيالي، الآن صار نصفي  
خلف الحاجز والنصف الآخر خارجه، والآن أعرف أنني أوقعت أحد  
الأعمدة النحاسية بالفعل، لم يُعد ثَمَّة مجال للعودة الآمنة ولا  
للتقدم والفوز، فتحت عيني ولكني ظللتُ عالقًا في فكري، أفتح  
عينيَّ وأغلقهما، بينما الجبل الأحمر يشق كيس الصفن كما يشق  
بلطجي حلق رجل خائف بمطواته مطالبًا إياه بكل ما يملك، وما  
الذي في جعبتي على أي حال؟! هل سيدعونني لأكتب إذا عبرت من  
فوق الجبل من دون أن أسقط الأعمدة النحاسية في حُلْم يقظة  
سخيف بينما أنا متورط بكليتي في الحقيقة؟ أي سخافة؟! فتحت عينيَّ  
بقوة من دون أن آبه برنين الأعمدة النحاسية التي سقطت، وعندما  
عدت لإغماضهما نمت بلا أرق وبلا أحلام.



## الفصل الثاني



«الجهل يستوجب العقاب، أما المعرفة فتستوجب القتل، الجهل ليس عذراً شرعياً هنا»..

مع عبارات أخرى استقبلتني ممرات المدرسة العتيقة، عبارات مكتوبة فوق لوحات خشبية خضراء ومعلّقة في المسافات بين الفصول، هنا أريقت أطنان من الرضا والخضوع والدهشة والأمل، صياح الطلبة وهم يرددون معاً عبارات مُدغمة منغمة أفزعني وآلمت قلبي، على الرغم من أنها لا تفزع العصفير الغاطسة برأسها في حوصلتها تتأمل الوارد الجديد، في بيابي عيونها التي لا تتجاوز حجمها حجم الخرزات رأيت أوراق خميلة ملتفة الأغصان على الرغم من أنه لا شجر في الفناء إلا الشجرة التي يقفون عليها، أهذا ما جعل العصفير تصمد للبقاء هذه القرون كلها؟ الأمل مرسوم في عينيها على الرغم من أنه ليس موجوداً في الواقع، هل تشبه هذه الخميلة خميلتي التي طالما حلمت أن أصنعها بكلماتي؟

بشبق استنشقت رائحة الحبر مع هواء الصيف الساخن وأغمضت عيني محاولاً أن أتخيل أرفف الكتب والأوراق البيضاء التي تكتسي بالحروف كما تكتسي الأشجار بالأوراق الخضراء، لكنني كنت مضطراً أن أفتح عيني على اتساعهما مرة أخرى لأرد على اتساع عيون الآخرين وهم يراقبون خطواتي، لم أستطع تمييز العبارات التي يرددونها، فحاولت أن أسقط عبارات لافتات الممر على صياحهم: «الجاه لو يستو جبو العقابو» هذه العبارة بالذات كانت منتشرة أكثر من أي عبارة أخرى: «الجهل يستوجب العقاب».

المدرس المشرف عليّ أخّرني إلى ما بعد طابور التمارين الصباحية ودخول الطلبة إلى فصولهم، ثم أرشدني إلى فصلي الدراسي، كان به طلبة أصغر مني سنّاً، لكنهم عاملوني بحكمة قلّ أن أجدها عند الكبار، وعلى الرغم من أنني لم أستطع إلا اللحاق بنصف حصة

فإن الجالس بجواري تبرّع بشرح النصف الأول لي بمجرد أن انتهت الحصة.

لم يكن بالمدرسة جرسٌ لتوقيت الحصص، كانت سماعات داخلية في الفصول تنادي دُبْرَ كل حصة: «الله أكبر الله أكبر.. الله أكبر والله الحمد»، صوت هادئ لرجل، أخبروني أن هذا هو صوت الأستاذ «سمعان»، سألت مَنْ تبرع بالتبيان لي بصوت قريب من الهزل:

- هذه مهمة عظيمة للأستاذ «سمعان» ولكن لنفترض أن الأستاذ «سمعان» غفل عن نهاية الحصة، كان يأكل، أو يقضي حاجته.. كان غائبًا باختصار، أليس هناك من يحل محله؟

لكن التلميذ خلفي لم يلاحظ السخريّة، قام نصف قومة واعتمد بكوعه على ظهر الكرسي وأجابني هامسًا وبسرعة بينما تلفح أنفاسه أذني اليسرى:

- الأمر ليس كما تظن، لو أنك متبّه لرأيت الرسم التوضيحي أمام غرفة الأساتذة.. مصدر الصوت هو المئذنة العالية الموجودة في طرف المدرسة، في داخلها ساعة تعمل بنظام التروس القديم، كل ساعتين - وهما مدة الحصة - يتم تعشيق منظومة تروس الساعة أوتوماتيكيًا في أسطوانة حديدية من البرونز لا يزيد قطرها على خمسة سنتيمترات، وطولها ثلاثون سنتيمترًا، سطح الأسطوانة مليء ببزز كالشوك القصير الغليظ، عندما تدور الأسطوانة ببطء فيلامس ورقة من المعدن مثبتة أعلاه، الورقة عبارة عن شرائح متجاورة مرنة تدفعها البزز وترفعها وتهبط بها فتصنع جرسًا قريبًا جدًّا من الصوت الآدمي، هذا الصوت يمر من خلال رقين غشائيين بينهما ماء مشبع بفلز نادر، يعمل الماء منقيًا للصوت، فينتج عنه الصوت الآدمي الأصلي الذي تم على أساسه بناء وإسقاط البروزات والشرائح على الأسطوانة والورقة المرنة.

ثم عاد الطالب للوراء وأسند ظهره إلى مقعده قائلاً في انتصار:

- وهو صوت الأستاذ «سمعان».

- لماذا هذا التعقيد كله؟

كان هذا سؤالاً عن الشرح الطويل، أجابني الطالب باستنكار:

- لأن الجرس من شعائر النصارى في الكنائس، والبوق من شعائر اليهود.

- لكن هذه المنظومة تشبه صناديق الموسيقى، هل تعرف تلك الصناديق؟ تفتحها فتظهر فتاة الباليه وترقص وتدور بينما تُعزف الموسيقى.

- نعم، رأيته في محلات الساعات.

- بالضبط.

ما بين الحصتين الثانية والثالثة أُتيحت لي الفرصة لأتأمل رفاق الفصل، لهجات مختلفة من اللغة العربية وملابس وإن توحدت نوعاً ما إلا أنها وشت ببلدان مختلفة، كنا كمجموعة من البيغاوات النادرة التي حبسوها في قفص واحد بعد أن أتوا بها من غابات مختلفة لتؤدي أغنية واحدة، أغنية لا تُفهم فيها.

ثم بدأت الحصة الثالثة بدخول المدرس المفاجئ، على الفور ودون إضاعة وقت كتب على السبورة الخضراء بخط عريض «فقه»، ثم أسفل منه «باب الطهارة»، ورص مجموعة من العبارات بخط كبير واضح، وبمجرد أن استدار، ودون مقدمات، بدأ الطلبة في ترديد العبارات بهتاف وتزامن معاً وبنغمة لا تخطئها الأذن، في أول دهشتي لم أردد العبارات معهم، بل ربما احتشد قلبي باستياء خافت حتى بدأ المدرس في تصفح وجوهنا وجهاً وجهاً، ليس الوجوه، بل الشفاه تحديداً، وفي أثناء ذلك كان البشر يضيء وجهه والغضب يطفئه. تدريجياً أخذت شفتاي في التقلقل، وبدأت أردد مسحوباً خلفهم بهدير الأصوات الصارخة، وكان المدرس يصيح إزاءنا مشجعاً من

وقت لآخر في لهجة جادة تمامًا لا مسرحية فيها:

- أريد هذه الجدران أن تتشقق، وهذا الباب أن يُخلع من إطاره، أريد أن تفجروا بأصواتكم نبع ماء من تحت أقدامكم.

وعلى الرغم من أنني لم أفهم غالب الكلمات فإنني شعرت براحة في الانجراف مع الشلال والصياح: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»، «إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث»، «دباغ جلود الميتة طهورها»، «العين وكاء السّه»، وكان المدرس العابس النشط يتجول بين المناضد ويراقب الأقواه وينحني بأذنه قريبًا منها، حتى إذا تشبع بالصوت أشار كمايسترو ليتوقف نصف الفصل عن الهتاف فيبذل النصف الآخر أقصى ما في طاقته للحفاظ على مستوى الصوت، ثم يسرع إلى السبورة ويقوم يمسح جملة من أعلى ويكتب جملة أخرى جديدة، وهكذا انقضت ساعتان، عندما غادر المدرس وساد الصمت شعرت بحالة طفو وخفة فائقة وتذكرت وصف جدي لصعود ملكي اليمين واليسار إلى السماء.

\*\*\*

انتهى اليوم الدراسي قبل صلاة العصر بقليل، تخللته فسحة للترفيه لم أخرج خلالها من الفصل، لم أحب الاختلاط بالطلبة، وحتى عندما قال صوت الأستاذ «سمعان» عبر السماعات إيذانًا بانتهاء اليوم: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، نستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه»، انتظرت حتى خرج جميع الطلبة من الفصل ثم خرجت خلفهم، عبرت الممر هابطًا سلالم الدور الثاني من بعده، وسرت في الفناء، رأيت المئذنة بزاوية عيني اليمنى وأنا أسير، استعدت الوصف الغريب للطالب عن منظومة الصوت، فقلت في نفسي:

- ها هنا شخص ما حضر رفع الحروف، تَوَرَّقَهُ فكرة نهاية الزمان، مثل جدي الذي يحتفظ بالكتب في أجولة مبطنة بالمشمع، وهذا

الرجل، لا أعرف من هو بالضبط، ربما كان الأستاذ «سمعان» أو من وظفه هنا، بأسطواناته البرونزية التي تحفظ الأصوات بطريقة لا يمكن تشويها إلا بمطرقة حديدية..

هذا الخاطر أتاني بلا جهد وبلا تأمل، لكنني كنت أحتاج للجهد والتأمل لتحليل أحداث يومي المتشابكة، للفهم على المستوى الأساسي السطحي لما درسته وهتفت به طيلة نصف نهار كامل، وللهم على المستوى المرادف، ما الذي أفعله هنا؟ بجوار كل هؤلاء الطلبة ومدرسيهم السادرين في غيابهم عن العالم، نعم، فقد صرت الآن أكثر ميلاً لتصديق حكاية جدي عن نهاية العالم إن كانت هذه هي الطريقة الأفضل للحياة، التي اختارها العالم لمن هم مثلي، فنهاية العالم قريبة بالفعل، هذه الأفكار كلها تركت رأسي وهبطت تحوم كغربان سوداء في فضاء معدتي الخاوية، تذكرت جوعي، إن كان بي فضل طاقة على التفكير فلأنفقتها على تذكر الطريق إلى مطعم الطلاب كما وصفوه لي.

\*\*\*

- خَمْن، ما نوع الطعام الذي سيقدمونه لنا اليوم؟

في طابور مطعم الطلاب، سألني طالب يقف أمامي، أدار نصف وجهه ورمى السؤال من دون أن يبذل جهدًا ليخفي فخره بذكائه ومكره وأقدميته، كيف عرف أنني طالب جديد؟ كان يفوقني طولًا، يلقي عليّ ظله بينما نحن واقفان في طابور طويل، الطابور تحكم حركته جدران لا تصل إلى أسفل الصدر، تصميم الجدران يشبه متاهة لاستيعاب أكبر قدر من الطلبة في مساحة صغيرة بأقصى قدر من النظام، أول أفراد الطابور الذين بدؤوا بتسلّم طعامهم والانتشار في ردهة المطعم الواسعة كانوا بعيدين جدًا عن وقفنا، سألني الطالب فاستنشقت رائحة الطعام المنتشرة في الهواء، هذا سمك مقلي، حشوة من الثوم والكزبرة المطحونين، هذه الرائحة لا تخطئها أنف رجل عاش في البيارات، نصف طعامه سمك بجميع وصفاته.

وقبل أن أجيب قال الطالب:

- لم تعرف بعد، لا عليك، اليوم عدس، عدس وأرز وبيض مسلوق.  
- ولكن الرائحة...

قاطعني وكأنه يعزيني:

- لا تقلق، لم يخمّن أحد من أول مرة أبدًا، لا بُدَّ من مرتين على الأقل وقدرة فائقة على الملاحظة لتجيب عن السؤال.

هذا القدر الهائل من الثقة وراءه حكاية، كما أن وقوفنا الآن حفاة في طابور الطعام وراءه حكاية؛ فبعد انتهاء الدراسة، عندما سعدت إلى غرفتي ووضعت الكتب بعد أن خلعت ملابسني، تأبطت الصينية المعدنية ووضعت الملعقة في جيب سروالي القطني، نزلت سالكا طريق المطعم، اندهشت، وكلما اقتربت زادت دهشتي، كل الطلبة

الذين يحملون الصينية مثلي حفاة، عداي أنا، لدرجة أنني لم أجد صعوبة في الوصول للمطعم، فقط تتبععت خيط الطلبة الحفاة.. على باب دخول المطعم، رأيت أحد العاملين وفي يده مسدس من البلاستيك يلصقه بالمعصم الأيمن للطلبة ويضغط الزناد فتصدر منه تكة خافتة ويمر الطالب، المطعم ليس «بوفيه» مفتوحًا، تُقدَّم فيه وجبتان طول اليوم هذه إحداهما، والمسدس يطبع تاريخ اليوم والوقت بحبر يزول بعد ساعات، نظر عامل المسدس لحذائي منبِّهاً بخشونة:

- حذاءك يا شيخ، اخلع حذاءك.

شيخ! على كُلِّ، خلعت حذائي ووضعتَه تحت إبطي معتقدًا أن المطعم من الداخل مفروش بالأبسطة، والطلبة يأكلون جالسين على الأرض كما ينبغي لشيوخ الفتة والثريد، لكنني فوجئت عندما دخلت: أرضية المطعم وأرضية ممرات الطابور التي أسير عليها ليس عليها قطعة حصير واحدة، بل عشرات الطاولات والكراسي الخشبية.

- لماذا تسIRON حفاة؟

سألت الطالب الفخور بأقدميته عن السبب فأجابني:

- يا زميلي الجديد، ألم يخبرك قيِّم المبنى؟ كان يجب أن يخبرك.

- لا، لم يخبرني؛ فأنا جئت منذ الأمس فقط.

- ولو، هل ستنتظر جائعًا حتى يخبروك؟

ثم تنهد وقال:

- صالة المطعم كانت مسجدًا فيما مضى؛ لهذا فنحن مُلَزَمُونَ بتناول الطعام حفاة مراعاة لسابق تاريخ المكان، تمامًا كما فعل سيدنا «موسى» مع الله - عز وجل - في الوادي الطاهر بسيناء «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ»، المكان الذي يُقَدَّس لا ينبغي لأحدٍ من البشر أن يخلع عنه قدسيته.

ظلت هذه العبارة ترنُّ في رأسي، أكثر من رنين ملاعق الطلبة على الصواني المعدنية، تحرَّك الطابور بسرعة، وبمجرد أن وصلت إلى الكاونتر المفتوح فعلتُ كما فعل الطالب الذي سبقني، لقمْتُ طرف صينيّ لفتحة الكاونتر فسحبته مني يدٌ لا أراها، وبعدها كان عليّ مطاردتها وهي تنتقل من يد لأخرى بينما توضع فيها أصناف الطعام تلاحاً صغيرة، ثم انفلتتُ إلى فضاء ردهة الطعام الواسعة. العدس كان دافئاً، ثخيناً جداً واستقر على الصينية المسطحة من دون أن يفقد شكل المغرفة التي وُضع بها، لم يخذلني الشكل الهندسي في تنقُّلي من مائدة لأخرى باحثاً عن مكان فارغ لأتاول طعامي، ثم اضطررت في النهاية إلى ترصد طالب كاد ينهي وجبته منتظراً إياه حتى يُخلي مكانه، وعندما جلست صار لديّ وقتٌ للتأمل، نظرت حولي وأنا أمضغ ببطء فرضه عليّ التكتّم والخلج من أن أفتح فمي أمام الغرباء وأنا أمضغ طعامي، لا شك أن القائمين على المطعم لم يفكروا في تهئية الجو المناسب، ولا حتى تركوا هذا الجو فارغاً، ثم وجدت نفسي أتخيل الحكاية بشكل هزلي، أفراد اللجنة وهم يطوفون في المطعم حفاة قبل افتتاحه، وبعد أن أرسوا قواعد كل شيء، كل شيء تقريباً، اكتشفوا أنهم أهملوا شهية الطلبة في هذا الجو الصحراوي، ومع وجبات كالعدس والبيض المسلوق كان من المستحيل وضع زهور على الموائد كفواتح للشهية في هذه المعجنة البشرية، فضلاً عن جلبها من المدينة القريبة يومياً، هل سنطعم الطلبة أم سنشتري زهوراً؟ ربما فكروا أن يضعوا على الجدران لوحات تصور مناظر طبيعية، لوحات جمادات ليس فيها شبهة، الشواطئ والأشجار والسماء والأقمار، ثم انتهوا إلى قرار لا بُدَّ أن الأستاذ «سمعان» هو من اقترحه.

دُرت بعينيّ على الجدران متسائلاً بيني وبين نفسي بسخرية: ما نوع اللافئات التي توضع لطلبة مجدين في نهاية يوم دراسي لتساعدهم

على الهضم؟ لافتات تعليمية لا تختلف عن لافتات الردهة «الجهل يستوجب العقاب، أما المعرفة فتستوجب القتل، الجهل ليس عذراً شرعياً هنا»!

وربما كان لذلك فائدة غير تزيين الجدران العارية، الفائدة التي أشرقت في ذهني وأنا أقرأ اللافتة الوحيدة فوق الكاونتر حيث يتم تسليم الطبق الرئيسي (العدس)، المكتوب عليها «مَنْ بَقُلْهَا وَقَتَّائَهَا وَفُومَهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا» اتسعت عندئذ ابتسامتي الخفيفة وكادت تتحول إلى قهقهة عالية، هذا هو سر الطالب الفخور إذًا: لا بُدَّ من مرتين على الأقل وقدرة فائقة على الملاحظة، إنهم يُسقطون النصوص على مفردات حياة الطلبة، ليس هناك حرص أشد من هذا الحرص على أن تختلط القواعد الأساسية بدمائهم ولحمهم.

\*\*\*

كان الوقت ليلاً، قبل منتصف الليل بنصف ساعة، عندما أيقظني طالب السنة الأولى الذي تبرع لي بشرح منظومة الصوت في الفصل:  
- يا «إسماعيل»، يا «إسماعيل»!

لم أدرك في البداية كيف دخل إلى غرفتي، قمت نصف قومة، كان في يده كشاف صغير ساطع من النوع الذي يُعَلَّق في سلسلة المفاتيح وكان يكتم ضوءه بكهف يده فيشف الشرايين الرقيقة في أطراف أصابعه الحمراء، همس:

- هل استيقظت؟

- ماذا تريد؟

- تعال معي، لا تُصدر صوتاً، ارتدِ ملابس ثقيلة، وسأنتظرك عند المشاية أمام باب المبنى.

أطفاً الكشاف وسمعته يتلمس طريقه في الظلام، فُتحت شريحة من الباب وانصب منها نور الممر وانفلت منها مثل سمكة.

أيًا كان ما يحدث فهو غير شرعي، لكنني لن أخسر شيئًا.. ارتديت فوق ملابس النوم الجاكيت الجلد وارتديت سروالًا إضافيًا وخرجت حافيًا وحذاءي تحت إبطي، أمام باب المبنى كان الطالب واقفًا يتلوّى من الانتظار، بمجرد أن رأيته أشار إليّ أن أتبعه وسار في الناحية الأخرى من البوابة الكبيرة سالكا المساحات الفارغة خلف المباني السكنية، توقّف أمام خزان السولار القريب من السور وصعد سلمه الحديدي وصعدت خلفه، وقف على حافة الخزان وقفز منه إلى السور وسرعان ما اختفى في الناحية الأخرى، فعلت مثله فوجدت نفسي أهبط على أرض رملية وتفسّح بصري في ظلام الصحراء المقمر، وكان في الظلام خمسة أشباح إضافية غيرنا.

صاح أحدهم:

- هل هذا هو الطالب الجديد؟! لماذا أتيت به؟! كان يجب أن تخبره أولًا!

زام رفيقي، وتجاهل الملاحظة، ولم يصر عليها الآخر، ثم بدؤوا بتعريف أنفسهم:

- «أحمد»، «أشرف»، «إبراهيم»، «أدهم».

وقال رفيقي: «أبان»، وقلت أنا: «إسماعيل»، وقال فتى أكبر منا جميعًا: «أحمد».

كان واضحًا أن «أحمد» هو قائد المجموعة، طالب من السنة الثالثة أو الثانية، وأن الجميع من مبنى حرف الألف، جلست على الأرض وارتديت حذاءي، كان الرمل رطبًا، فركت يديّ بالرمل لتخلصا من رائحة السولار التي علقت بهما.

سارت القافلة الصغيرة بسرعة ولم يُضَيَّ «أبان» كشافه إلا بعد ربع ساعة من المشي في الصحراء المقمرة، وعلى أثر إضاءته أضيئت كشافات مختلفة الحجم والقوة من أفراد القافلة وتقاطعت خطوط أضوائها في السماء وكأنها أضواء كاشفة ساعة غارة جوية.

همس «أمجد»، أو «أشرف» في أذني:

- هل تعرف أن ضوء الكشف إذا سلطته في عين ذئب يجمد حركته؟

- لا، لم ألتق ذئبًا من قبل.

توقفنا بعد أن ابتعدنا عن سور المدرسة مسافة كافية، وفي مكان مطروق جلسنا القرفصاء على شكل حلقة، ثم اعتدل «أحمد» وجلس على ركبتيه جلسة التشهد في الصلاة، وقبل أن يتكلم أخرج من جيبه طاقيّة بيضاء وكبسهها على رأسه:

- بعد الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف الخلق، فما اكتمل أمر إلا بالحمد والصلاة على النبي المصطفى، لا يخفى عليكم جميعًا، وأتم من أتم! زبدة الصفوة من طلبة مبنى أبي بكر الصديق، هذا المبنى الذي حمل على عاتقه طول السنوات المنصرمة مهمة حمل الراية، نحن الأزهريون الجدد لا نرضى عن أداء أستاذ «سمعان» ولا رضوخه لطلبات الحكومة، ونريد أن تكون مدرستنا نقطة انطلاق حقة إلى التحرر من سطوة «الداخلية» على مدارسنا، أنا «أحمد» طالب بالسنة الثالثة، وأعمل في أطروحتي الفقهية: هل الأصح هو النزول لجلسة التشهد في الصلاة بالركبة أم باليدين؟ وهي أطروحة من الصعوبة بمكان، ولكن دوري كرجل دين وكزميل قبل كل شيء يحتم عليّ استقبالكم وإيضاح الأمور لكم بشفافية قد لا تجدونها من مدرسينا ومشايخنا. أي أسئلة؟

رفع «أبان» يده فسمح له «أحمد»:

- هل صحيح ما يقال من أن أحد طلبة المدرسة يهودي؟

- هذا سؤال شائك يا «أبان»، ولكن سأجيبك بقدر ما يسمح لي احترام مدرسينا. نعم، صحيح ما قلته، اسمه «يوسف»، إدارة المدرسة تعرف ذلك، جميع طلبة الصفين الثاني والثالث يعرفون، إنه دسيّسة وضعته الحكومة لنا بطلب من حكومة إسرائيل لتبرهن لها على أن التدريس بالمدرسة خالٍ من معاداتهم.

- ولماذا لا يطالب المدرسون وطلبة الصف الثالث بطرده؟  
- لا تتعجل التمكين يا «أبان»، من الضروري أن يفهم الطلبة أولاً أن مناهج التدريس تُبعدهم عن الانشغال بالقضية الرئيسية، والاهتمام بقضايا فرعية لا طائل من ورائها.

رفع «إبراهيم»، أو «أدهم»، يده فأجازه «أحمد» للحديث:

- لماذا تتخفى؟ ولماذا لا نعقد اجتماعاتنا بغرف المدينة الجامعية؟  
- نتخفى لأننا ضعفاء، والأستاذ «سمعان» يتعامل بحزم مع كل ما يسبب له الإحراج مع الحكومة، وهذه نقطة يجب أن نفهمها جيداً، أستاذ «سمعان» مضطر ويجب ألا نلومه. نقطة أخرى: ما يحدث في الغرف وما تنفّوه به هناك يصل إلى «الداخلية»، يجب علينا أن نتوخى الحذر، أشد الحذر.

رفع طالب آخر يده وقال:

- لماذا طلبة مبنى أبي بكر الصديق دون بقية المباني؟

- هذا سؤال ذكي، يوجد طلبة آخرون من المباني المختلفة، لكنهم كامنون، لا يعرفهم أحد، وفي حالة اكتشاف أمرنا سيتم تصعيدهم ليحصلوا على فرصتهم في تبيان الحق للطلبة الجدد.

قلت عندئذ:

- وما الهدف من هذه الاجتماعات السرية؟

نظر إليّ «أحمد» باستياء منبهًا:

- ممنوع المبادرة بالكلام من دون إذن يا «إسماعيل».. الهدف كما قلنا: إيضاح الأمور الملتبسة، شرح ما يطرأ من أحوال وما مضى من أكاذيب، وسنبدأ بأحداث المحنة الكبرى والكارثة التي تم تزويرها عمدًا في التاريخ، المسماة رفع الحروف القرآنية المقدسة، وما تتفق عليه وما نختلف فيه مع السلفيين الجدد من نقاط وبيان تهافت التفسير الساذج الذي يُروّج له لرفع القرآن.

ثم قال في عجلة:

- هل من أسئلة أخرى؟ حسنًا، لنُعد الآن؛ فالوقت تأخر، وأخاف أن يمر المشرفون على الغرف بعد منتصف الليل في تفتيش مفاجئ، سنعود غدًا، هيا بنا.

تحركت القافلة الصغيرة عائدة إلى المدرسة.. قبل السور بقليل، أشار «أحمد» بيده فتوقف الجميع، ثم قال:

- حمدًا لله على سلامتكم يا شباب، سنعود بترتيب خروجنا، وسيظل «أبان» و«إسماعيل» للنهاية، هيا.

انتظرنا، تسلق رفاقنا السور اثنين اثنين، ما بين كل اثنين فترة كافية لدخول المبنى السكني، وعندما ذهب آخر اثنين انحنى «أبان» لأقفز فوق كتفه ثم جذبته، سرنا صامتَيْن وافترقنا من دون تحية، لم يكن الحديث ليتحمل زيادة على ما قيل.

\*\*\*

نمت نومًا متقطعًا خلط أحداث الليل بالنهار، ولولا ابتسامة «أبان» المتأمرة في الصباح لاعتقدتُ أن أحداث الليل كانت حلمًا ثقيلًا، مرَّ اليوم بصعوبة بالغة، تئاءبتُ أكثر مما رمشت بعيني، وكلما تئاءبت دسَّ النومُ العنيد قبضته اللينة في فمي وأبى أن يُخرجها، تعرفت على بعض رفاق الليل في فسحة التريُّض، وسألت «أبان» عن الطالب اليهودي: «يوسف»، أين هو؟ فأجابني أن «يوسف» طالب يرسب عمدًا، ولا يحضر الحصص.

نزلت إلى المطعم مبكرًا عن ميعاد الأمس، حافيًا متأبطًا صينيَّ كأيَّ طالب عتيد، وقفت في الطابور، في أثناء دوران الطابور قرأت المكتوبَ على اللوحة أعلى نافذة الطبق الرئيسي: «حتى الحيتان في الماء يستغفرون لطالب العلم رضا بما يصنع»، كانت الوجبة سمكًا مقلّيًا بحشو الثوم المهروس والكزبرة الخضراء.

وجدت مقعدًا فارغًا من دون انتظار، وبينما تمتلئ المناضد حولي بسرعة هائلة ظل الطلبة محتفظين بوتيرة حماسهم الشديد، بينما ترفع الإثارة أصوات نقاشاتهم درجاتٍ أعلى من المسموح بها، حتى الطلبة القدامى الوقورون أدلوا بدلوهم في المسألة بحكم أقدميتهم؛ فالسّمك وجبة محظورة عليهم؛ لأنها تسبب النوم ورائحتها لا تزول بسهولة وتنتشر الفوضى في المدينة السكنية، حتى في المرات النادرة التي قدموا فيها سمكًا كوجبة أساسية، كان يُقدّم مشويًا وباردًا، غير ناضج أو محترقًا، وهذه هي المرة الأولى التي يُقدّم فيها سمكٌ مقلّي، وأيضًا محشوٌّ بالخلطة!

لقد توقعتُ هذه الوجبة في الحوار الذي دار بيني وبين الطالب القديم بالأمس، اللفظ الأدق لم أتوقعها بل تتأبّت بها، ولم أتنبأ بها اعتباطًا، الرائحة ملأت رثتي.

طار الكسل والرغبة في النوم، وسرت بداخلي الإثارة التي سرت في الطلبة، ربما كان هذا أحد الأعراض الجانبية للعقار الذي اختبروني به، أن أشم روائح الغد على حقيقتها، ثم فكرت ساخرًا: لو استمر الأمر معي على هذا الحال لاستطعتُ أن أتكسّب من هذه الموهبة الطارئة بدلًا من العمل كفقيه في زمن لا يحتاج الناس فيه إلى الفقه، ومن يعلم؟ ربما استطعت إدهاش هؤلاء الطلبة السلفيين في الفصل بتوقعاتي عن الوجبة غدًا، ولن يندهشوا فحسب، بل سيهتزّ إيمانهم بالقدرة.

رفعت أنفي عن صينيّتي واستنشقت، محاولًا النفاذ من خلال ندف الرائحة الحقيقية المحيطة بي للسّمك المقلّي، باحثًا عن الرائحة الأخرى المجازية، ربما كان عليّ أن أكرر ملابسات الأمس نفسها، كنتُ حينها بعيدًا عن ردهة الطعام، ليس بعيدًا ولا قريبًا، الرؤية والمعرفة كلتهما كانت خامة لم تتشكل، وربما عليّ أن أغمض عينيّ وأصفي ذهني، حتى لو ظنّ بي الطلبة الجالسون بجواري الظنون،

كفأت وجهي وأغمضت عيني، أتت محاولاتي بنتيجة مبدئية مشجعة، لم أعد أشم رائحة السمك الآن، هناك رائحة أخرى، لكنها ليست رائحة طعام، الصباح حولي أشد من أن يجعلني أرّكز، وددت لو بإمكانني أن أصبح فيهم ليتوقفوا عن الكلام، ثم دهمني الدوار بعد أن عثرت على الكلمات التي تصف ما علق بأنفي، الرائحة تشبه رائحة شيء أولي ولكنه نتج في أحوال غير طبيعية، رائحة عرق مختلطة بطعام طُبَخ سلقاً، الدوار جعلني مرهقاً، أفقدني شهيتي، جعلني محتلاً ببساطة لدوامه أخرى من الأفكار والرغبات التي لا صبر لي عليها، رغبة آثمة إن صح القول، معي الحبر والورق والأقلام والفكرة وخلوة طويلة ليلة لن يقاطعني فيها أحد، والأهم من ذلك كله فكرة أول قصة سأكتبها من وحي مدرسة «سمعان»، ألتهم نصف سمكتي بالكاد وأحمل بملعقتي النصف الآخر إلى طبق جاري المندهش قبل أن يشكرني على هديتي، وغادرت المطعم.

\*\*\*

بدأت الكتابة بعد عودتي من مطعم الطلاب مباشرة، وبعد أن فكرت ملياً، لم يكن باب غرفتي مزوداً بما يؤمن دخول أحد بشكل فجائي واكتشاف أمري، فكرت في أن أضع مخدتي الطويلة خلف الباب وأعضدها بالمقعد وأستعمل السرير كمقعد بعد أن أسحب منضدة الكتابة إليه، ولكنه مجرد دفاع وإيه سيثير الشك أكثر مما يمنع الاقتحام، ثم جعلت وضع جلستي على المنضدة بحيث يتيح لي رؤية الباب عندما يُفتح بشكل طبيعي، هكذا يتساوى المتسللون بخفة والذين يصخبون في دخولهم.

جلست وفتحت أجندة «ما يكتب ليُمحي» في منتصفها، عددت أوراقاً فارغة رجوعاً لأبدأ الكتابة قبل المنتصف، هكذا سيكون من السهل عليّ أن أنتزع الصفحات التي كتبتها دون أن أترك أثراً، لكنني تحيرت بأي القلمين سأكتب، الحبر المتطاير أم الحبر الثابت! الحبر

المتطايير سيتيح لي الفرصة أن أنقح قصتي في الغد، أما الحبر الثابت فسيستهلك أوراقًا قد أحتاج إليها فيما بعد، واستقر قراري سريعًا أن أكتب بالحبر المتطايير حتى حين، لديّ الليل بطوله.

بدأت في الكتابة، دون أن أضع عنوانًا لقصتي، ومن منتصف الأحداث مباشرة، كما اعتدت قراءته في الروايات ذات الصفحات المنزوعة، عن رجل ذي جدول مزدحم بالأعمال في مدينة يعتمد ناسها على أنف متنبئها للكوارث، سميته «أبان»:

«يقولون في المدينة إن حريقًا لم يشب في مكان إلا إذا كان خاليًا، وإن بيتًا لم يقع إلا إذا كان فارغًا من سكانه، وإن أحدًا لم يمُت بالمفاجأة، كما أنه لا يوجد مكان لم يزره (أبان)، البيوت الفخمة ومخازن الغلال والبنوك ومحطات الوقود والمطارات وغرف النوم، فإذا سعل ودمعت عيناه كان هذا دليلًا على أن حريقًا سيشب خلال أيام، أما إذا وضع منديلًا على أنفه ولم يستطع التنفس ودمعت عيناه من غبار لا يراه المرافقون له، فإنهم يبحثون عن الشروخ وتاريخ بناء المبنى والأسباب التي تجعله آيلًا للسقوط.

كان (أبان) تعيشا جدًّا بموهبته، وكثيرًا ما كان يحتاج إلى التسرية من وقت لآخر، وانتزاع رثتيه وأنفه من المستقبل والتغلب على نوبات الصداق والاكْتئاب الحاد، فكان يزور ثلاجات الموتى، المكان الوحيد الفارغ من احتمالات الموت؛ لأنه أسهم بموهبته في إفراغها، وهناك كان يتشمم الأدراج الفارغة التي كان مقدّرًا لها أن تفوح برائحة الملح واليود لأنهم أغلقوا الشاطئ، والأدراج الأخرى التي كانت ستعَبّق برائحة لا تُحتمل من زيت الفرامل ووقود السيارات المحترق لأنهم أغلقوا الطريق السريع في اليوم السابق، وكان يشعر بالضياع الذي تسبب فيه بزوال الموتى، يشعر برعدهم ووحدهم لأنهم أصبحوا كائنات عديمة.

يومًا بعد يوم، بدأ يشعر بالسخرية من موهبته ويفقد تصالحه

الشخصي مع القدر، وبعد أن جمع (أبان) ثروة طائلة صارت ثقته بموهبته لا تُحتمل، ولم يُعد يستطيع التعامل مع نبوءاته بجدية بل ويفسدها عمدًا، وبدأ في اتخاذها صفة هزلية له، لعبة مسلية، وكرّب أسرة كان يعرف قبل أن يتغوط طفله بساعات فيفسد الفرصة على الخراء أن يُتلف الحفاضة الرخيصة، ويخبر زوجته بثقة أن تسرع إلى المطبخ لأنه لا يحب الأرز المحترق.

كان المستقبل، قبل ولادة (أبان) وفي جزء كبير من حياته، قابلاً للتغيير، بمعنى أن البشر لو تمكنوا من قراءة المستقبل بطريقة ما لن يصبحوا أسرى لقالب الزمن المصمت، بل سيكون بإمكانهم أن يتحركوا في عشرات المسارات المرادفة للحياة بمجرد تنبؤ (أبان) بفشل المسار الأساسي؛ فالمكان الذي سيحترق أو يقع سيحترق أو يقع، ولكن يمكن إخلاؤه، وزوجته يمكنها أن تجهز أرزًا آخر غير الذي احترق قبل أن يحترق ولا تتأخر في إعداد الغداء، غضب القدر من ثقة (أبان) ولم ينزع منه الصفة لكي لا يصبح شهيدًا أمام الناس، لكنه أفسد الاستثناء، أصبح المستقبل غير قابل للتغيير ولا فَرارًا من قلبه الذي صَبَّه اليد العلوية، وتحولت موهبة (أبان) إلى كابوس، على الرغم من أنه امتلك بالعجز قدرات نصف إله إن صح القول، وأصبحت الحقائق الثابتة حقائق مطلقة حينئذ، الحقائق المطلقة صفر في المقام، ومهما كانت بساطة الحدث كان لا نهائيًا مرعبًا، وتأقلم (أبان) مع التعديل الجديد في موهبته مع كثير من السخرية، فبدأ يداعب زوجته عندما تسأله: ماذا تريد على الغداء غدًا؟ بأن يخبرها بأنه يريد كذا ولكن لا مفر لأنها ستطبخ كذا رغماً عنها، وأخذ يسلي نفسه بأحاديث أخيرة مليئة بالسخرية مع الأموات المستقبليين الذين تفوح منهم رائحة عفونة مبدئية، خاصة إذا كان الصيف حليفه، وانتقل من الطرق البطولية لجمع ثروته بإقناذ الناس إلى طرق ماكرة لجمع ثروة أكبر من بيع اطمئنان الغد للقلقين، مرضى المستشفيات الذين لا أمل في شفائهم، والمسافرين على الطائرات،

والبحارة الذين يودعون زوجاتهم على الشواطئ المهلكة، ثم اختفى (أبان) من المدينة ذات يوم حاملاً ثروته الطائلة، لقد أصبح بوسعه أن يبنّي مملكته الخاصة وأن يهرب من موهبته للأبد.

وفي قرية بعيدة جدًّا عن المدينة، احتشد مهندسون وعمال مهرة لبناء قصر ريفي كبير لشخص غامض وتدور حوله الشائعات، يتحدث الناس عن ذلك الغني صاحب القصر ومصدر ثروته، وعن الأبهة المبالغ فيها في تجهيز القصر، وعلى الرغم من الشائعات المفزعة فإن أهل البلدة الريفية انتظموا في طابور طويل بمجرد أن طلب صاحب القصر خدمًا وموظفين وسائقين للعمل عنده، فقد كانوا فقراء لدرجة يُرثى لها.

وبعد أن انتظم العمل في القصر، وسكن (أبان) الغرف العالية فيه مع زوجته وأولاده، وأوكل إدارة الأمور إلى رئيس خدم قلق، ولم يأمره إلا بشيئين: أن يظل حريصًا على تعطير جميع الغرف والصالات بالعطور الفاخرة أولاً بأول، وأن يلتزم الصمت التام والسرية تجاه بعض الزيارات من أناس غامضين بملابس فاخرة، التي تنتهي بخروجهم باكين أو فرحين، أما الباكون منهم فلا يعودون مرة أخرى، وأما الفرحون فيعودون مرارًا وتكرارًا.

وكانت الحياة مستقرة لعام كامل، إلّا أن (أبان) أحس ذات مساء بالملل، وبمجرد انبلاج الصباح طلب من كبير الخدم أن يجمع له موظفيه كلهم، والمكان: ردهة القصر الواسعة.

البستانيون وسائقو السيارات والطباخون والحلاق الخاص، وحتى الفلاحون الذين يزرعون حقول السيد الثري، قائمة طويلة مرهقة كان على كبير الخدم أن يجمعها قبل الظهيرة ويتعامل معها بحيث لا يضر دخولهم وخروجهم أبهة القصر وأبسطه الفاخرة، وفي هذا الجو البارد أخذ العرق يتصبب منه وهو يروح ويجيء، لكن مهمته تمت بنجاح ومن دون خسائر تُذكر، وكعادة كل الفقراء في

الدنيا كان أول تخميناتهم توجَّسًا بالشر، سرى بينهم همس خافت أن السيد الثري يفكر في تصفية ممتلكاته وطردهم، كان القلق يأكل قلوبهم وتعلقت وجوههم بوجه رئيس الخدم الشاحب الذي أكد شحوبه ظنونههم على الرغم من أنه لا علاقة له إلا بخوفه من إفساد أحذيتهم لأبسطة القصر، لكن وجوههم لم ترتفع إلى السيد الثري عندما ظهر أعلى السلم الرخامي هابطًا بتؤدة وثقة بالغتين.. ثم فجأة، وكأنه قرر ألا يقترب أكثر، توقَّف في منتصف الدرج وبدأ يتكلم، قال إنه يمتلك موهبة نادرة، أو هبة من الله، إن لم تُرد إغضابه بالتعدي في القول؛ فبإمكانه أن يعرف متى سيموتون، وبأي طريقة، إن كانوا سيموتون على أسرَّتْهم وبين أهليهم أو في حوادث الطريق أو محترقين أو في مبنى متهدم أو غرقًا أو بالزلازل أو... «هذا جنون»، صرخوا بها في داخلهم وإن نطقوا وجوههم بالدهشة المصطنعة والإعجاب، وما الذي تطلبه أيها السيد الثري مقابل هذه الخدمة المريعة؟ لا شيء، كل ما أطلبه من الشخص الذي سأخبره بموته أن يزور كل بيوت القرية ويخبر ساكنيها أنه سيموت، وأن من تتبَّأ له بهذا هو سيد القصر.

وقبل أن يصعد السيد الثري الدرج عائداً، وقبل أن يشير إليهم بيده الناعمة لينصرفوا، أشار لمساعد البستاني الجديد، وهو فلاح شاب التحق بالعمل حديثاً، شاب مخلص وجاد لدرجة أنه استطاع أن ينهي تشذيب أشجار القصر كلها في أسبوع، وكانت طقطقة مقصه لا تهمد لدرجة أزعجت الجميع، وأقلقت نومهم.. أشار إليه (أبان) قائلاً في لهجة عادية وكأنه يخبره أنه تمت ترقية بسبب خدمته:

- وأنت، نعم أنت أيها الشاب، ستموت غداً، لكني أعفيك من الثمن الذي طلبته من الجميع، فقط لأن وقتك ضيق.

وعلى الرغم من عدم تصديقه فإنَّ الوجوم ضرب وجهه بالاصفرار، وكأن جزءاً من سقف الردهة اختاره من بين الجميع وسقط على

رأسه، بدأ الجميع في الانصراف عدا الشاب، وبينما ينبّه رئيس  
الخدم بزعيق هامس أن:

- حذارٍ أن تلامس ملابسكم الكراسي المذهبة، لا تمرروا أصابعكم  
القدرة على الجدران وأصابع البيانو والكؤوس والمزهريات واللوحات  
الفاخرة.

بينما باطنه يهتف:

- ما هذا العبث؟ تَبَّأ لهذه الأموال التي تجعله فخورًا واثقًا عابثًا  
بالناس لهذه الدرجة، كان يمكنه أن يأمرني أن أجلب له فتاة ريفية  
ليعبث معها، لن أعير في بلدي بمخدوم شهواني بقدر ما سأعير الآن  
بجنونه.

بينما في جزء خفي منه يهمس له رئيس خدم آخر غيره، حزين  
ويتكلم بفحيح وفزع كأنه يعيش في اللحظة الأخيرة من كابوس مريع:  
- سيموت الرجل، الآن علمت لماذا ينقطع الناس الباكون عن  
العودة ويعود الآخرون مرة بعد مرة حتى يغيبهم البكاء.  
ثم وكز مساعد البستاني صارخًا فيه:

- هل ستظل طول النهار هنا، أو ربما تفكر في أن تموت هنا عقابًا  
لنا؟! هيا، تحرك من هنا، خذ باقي اليوم إجازة، وتعال من الغد،  
أو أقول لك: لا تأت في الغد، غدًا إجازة أيضًا، لا يمكنك أن تموت  
وتعمل في الوقت نفسه.

تهلل وجه مساعد البستاني؛ فحتى لو كان سيموت غدًا، فإن يومًا  
ونصف يوم إجازة وبأجرٍ أمرٍ يستحق الفرحه، وتهلل وجهه أكثر  
عندما أخرج له رئيس الخدم جنيهين من جيبه: خذ خذ، اشترِ  
لنفسك طعامًا جيدًا تشتهي، لا أريدك أن تموت وأنت تشتهي شيئًا.  
كاد الشاب الفلاح عندئذ يلقي بنفسه في أحضان رئيس الخدم من  
شدة الامتنان، لولا أن تأخر خطوتين للخلف بسرعة وهو يشير له أن

ينصرف، بينما يغالب دموعه التي انبجست بمجرد أن أعطاه مساعد البستاني ظهره».

\*\*\*

عند هذا الجزء، وضعت عنوانًا لقصتي «نبوءات سيد القصر»، واستعدت قراءة ما كتبته منها، ثم شعرت بعينيَّ يغزل فوقهما خيط الوسن عنكبوت لا أراه، وأخذت أرمش لأزيح ما يغزله العنكبوت، لكنه كان أقوى وأكثر نشاطًا من مثابرتي على إتمام القصة للنهاية، ثقل رأسي وتمغنط إلى سطح منضدة الكتابة حتى التصق، ولو استمررت نائمًا في هذا الوضع لكنت قد استيقظت في الصباح بألم هائل في الرقبة والظهر وعضلات ذراعي، ولكن ما حدث أنهم دخلوا، انزلق الباب ودخل أولاً الرجل العجوز ذو اللحية البيضاء المتراخية، بينما انفرد من خلفه عقد أربعة رجال واحتلوا الغرفة، النور مضاء ورأسي منطرح فوق ما كتبته، اضطروا لتحريكي وحملوني إلى سرير، حيث مدّدوني برفق، بينما احتل الرجل العجوز مقعدي أمام أجندي المفتوحة، وبدأ يقرأ بعناية شديدة المكتوب فيها حتى أنهاه بسرعة، ثم قرّب الصفحة الأخيرة من أنفه وتشمم أسطرها وأخرج بخاخًا صغيرًا من جيبه وصوّبه تجاه الصفحات التي كُتبت، صفحة تلو أخرى، كل صفحة ينتظر حتى يجف رذاذ البخاخ ليقرب الصفحة التالية ويكرر الفعل، ثم أغلق الأجندة ودسها تحت إبطه وهو يقوم مشيرًا للطلبة أن يسبقوه بالانصراف، وبخفة بالغة تحركوا، ومدّ الرجل العجوز يده ليغلق نور الغرفة وأغلق الباب بعناية خلفه.

\*\*\*

إن كان هناك شيء تالٍ سأظل أذكره عن أستاذ «سمعان» بعد قسوته التي تتخذ طابع الملل فسيكون طريقته البوليسية في التعامل مع الأمور، يبدو الأمر في البداية مؤلمًا ثم يتخذ طابع الهزل، بعض الناس لديهم سادية في ذلك، وحتى لو ظن أنه يقدم لك الحق

المطلق في كوب من الماء سيكون حريصًا على أن يُسقط بعضًا من هذا الماء في طوق قميصك، عقل مختلف عن عقل الأستاذ «سمعان» يمكنه أن يخطط لمئة طريقة لمفاجأتي قبل أن يصل إلى الطريقة التي فاجأني بها، طبق بسلة أخضر وباب مغلق وغريب عجوز ظهر فجأة من العدم.

استيقظت على هجمة الرائحة على أنفي، الرائحة نفسها التي استنبطتها من ردهة المطعم بالأمس، شيء أولي ولكنه نتج في أحوال غير طبيعية، وعندما فتحت عيني لم أستطع أن أحدد، هل الرائحة صادرة من الطبق الموجود على منضدي، رائحة أقرب لثمرة خروع مهروسة على الرغم من أن المحتويات بسلة خضراء وجزر، أم أنها صادرة من العطر الثقيل للرجل الغريب العجوز الجالس خلف منضدي ينتظر استيقاظي بدأب، أم رائحة الخوف الذي اجتاحني عندما لاحظت اختفاء الأجندة وأدوات الكتابة، أم أن هذه كلها مختلطة بشكل يصعب التمييز بينها، في لحظة لطمتني الحقيقة، صاح بها الفزع في غرف نفسي الداخلية وتردد صداها صوتًا خافتًا ضعيفًا شعرت بالخزي حياله:

- أستاذ «سمعان»!

بالضبط كما تخيلته، أشبه بإصبع وسطى في يد كتوم، لحيته تبدو كنهاية ظفر مقصوص، بينما العينان والأنف والفم والجهة لا يسبق أحد منها الآخر بالبروز، مثل صف في طابور تفتيش جيش نظامي، ظللت وجهه ابتسامه فخور لجزء من الثانية عندما نطق باسمه ثم عاد له عبوسه ونظراته الحادة.

كان صوته شبيهًا بصوته في ميكروفون الفصل.

- الحكاية التي كتبتها جميلة يا «إسماعيل»، ولكن كيف جاءت فكرتها؟ أي جزء من دراستك معنا أوحى لك بها؟

اعتدلت وقمت، فكرت أن أغادر سريري، لم يكن بالغرفة إلا مقعد

واحد احتله أستاذ «سمعان»، قلت متصنِّعًا الحيرة:

- أي حكاية؟

- القصة، الأجندة التي أعطيناك إياها لتكتب فيها دروسك فكتبت فيها نبوءات سيد القصر.

- آه.

- أي جزء من دراستك أوحى لك بها؟

- كتبتها بالحبر المتطاير، لم أكن أنوي الاحتفاظ بها.

نظر إليَّ في غضب كأنني سخرت منه:

- ولكني أنوي الاحتفاظ بها، أفعل هذا دائمًا، أحتفظ للآخرين بآثارهم قبل أن أرشدهم، عندما أنتهي سأعطيها لك لترى الفارق العظيم بين ما كتبه وما ستكون عليه.

الأستاذ «سمعان» ليس لديه وقتٌ يضيِّعه في اللف والدوران، الصفة الثالثة من صفاته، التي اكتشفتها عندما قال ذلك، ما شجَّعني أن أدخل في الموضوع مباشرة مثله.

- كيف يمر على وجودي عدة أيام فقط وتضعني تحت المراقبة والاستجواب؟ هل تضع جميع الطلبة تحت المراقبة نفسها؟!

- ربما.

- ياله من أمر مرهق، ولكن سيسعدني أن أريحك من مؤنتي، لم أعد أرغب في إتمام الدراسة هنا، لم أعد أرغب في الوظيفة، سأغادر المدرسة، حتى دون أن أتناول طبق البسلة هذا.

- أرني كيف ستغادرها دون الشهادة التي تم إرسالك من أجلها، إلا إذا كنت تخطط للقفز فوق السور والسير في الصحراء ثلاثة أيام على الأقل!

غادرت سريرى ودرت حول المنضدة، المساحة ضيقة واضطرتني للقرب منه منفلاً إلى النافذة القريبة، كنت جائعاً، ولكن ليس لدرجة

أن أتناول طعاماً أُعدَّ بطريقة مسرحية، غير أنني كنت أرغب في أن أظل في طرف الغرفة الآخر، ليس نفوراً، بل لإيجاد نوع من التوازن الشكلي مع الأستاذ «سمعان»، كأننا نقف على كفتي ميزان بينما نتبادل إضافة أثقال، كُلُّ في طرفه؛ لنرى أيُّنا سيرجح في النهاية، لا عداوة ولا بغض، فقط إضافة أثقال، والجسد كان الثقل الأول في المعادلة.

- سأحاول أن أتكلّم باللغة التي تفهمها، لغة الحكايات، هناك حكاية قديمة عن شاب في مقتبل عمره مثلك، ذهب بطريقة ما للخدمة في قصر مليء بال دراويش الباكين، الدراويش من شدة البكاء لا يستطيعون النهوض ولا لإطعام أنفسهم حتى، أعطوه مفاتيح غرف القصر كلها، مئة غرفة، وحذروه بشدة: كل غرف القصر ملك لك عدا الغرفة المئة، لا تفتحها فتشقى، بدأ الشاب في فتح الغرف، وكلما فتح غرفة وجد خلف بابها متعة لم يحلم بها أبداً، حتى أنهى الغرف كلها، لم يعد متبقياً إلا الغرفة الأخيرة، هل يمكنك أن تتوقع باقي الحكاية يا «إسماعيل» بصفتك كاتب حكايات؟  
لم أرد، فتطوع هو بالإجابة:

- الشاب فتح الغرفة الأخيرة فأصابه الشقاء حتى موته، هل تظن يا «إسماعيل» أن هذا الشاب كان محقاً؟  
- ستقول إنه ليس محقاً لأنك أنت من يحكي الحكاية.

- أخطأت فهمي يا بني، هذا الفتى كان محقاً في ظني، لقد تم استدراجه بشكل لا يمكن له مقاومته، وضع قدمه على أول السلم منذ فتح أول غرفة حتى انتهى إلى الغرفة التاسعة والتسعين، سلم طويل، إما أن يعود وإما أن يتمم صعوده، فاختار الأيسر والأقل جهداً، لا تحكمه المتعة، كما قد يقول الكثيرون، ولكن يحكمه التسلسل، فقد ذاق من المتع أصنافاً لا حصر لها في الغرف الأخرى، أترى؟ هذه هي الإشكالية الحقيقية، استنساخ الحق مرة بعد مرة

حتى يؤدي إلى الشفاء وإلى الباطل، حتى يستحيل عليك العودة إلى الحقيقة من كثرة ما تعدد المجاز، هذا الشاب لو كان لديه خياران فقط أو ثلاثة، ثلاثة أبواب وقيل له ادخل بابين ودع الثالث لكان الأمر يسيراً عليه، ولاستجاب لمقولة الدراويش الباكين: «لا تفتح الباب الثالث»، أو فلنقل بعد أن تنتقل إلى حقيقتنا هنا..

ثم استدار أستاذ «سمعان» إليّ وهو يتسم بمرارة:

- لا تفتح دواة الحبر الثالثة.

- وماذا كان في دواة الحبر الثالثة؟

- رائحة المجاز الحقيقية يا بني، الرائحة التي لا يشمها أحد، في هذه المدرسة مسموح لك بكل ما ترغب فيه، حتى كتابة الحكايات، ولكن بالروائح الحقيقية للأشياء.

- ماذا تسمون هذا الحبر؟

- حبر العقاب.

- أراهن أنكم وضعتُم فيه نوعاً جديداً من غاز الأعصاب.

ابتسم الأستاذ «سمعان» لدعابتي ولم يرد فقلت:

- أنت تقول إنه لم يكن عليّ أن أفتحها، والأمر ينسحب بالتالي إلى الدواتين الآخرين، ما كان عليّ أن أفتحهما بالتالي، هل أنت واثق من أن معظم تلاميذك المطيعين ما كانوا سيفتحون أي دواة منها إلا بعد أن يؤمروا بذلك؟

- بالضبط، هذا بالضبط ما أود قوله، لو لم يفتح تلاميذي دواتهم ما كان هناك حاجة لهم في التعلم، العلم يورث الحكمة والسلوك الذي لا يضر بصاحبه ولا بالآخرين.

ثم أشار إلى الطعام وقال:

- تناول طبق البسلة قبل أن يبرد يا «إسماعيل»، هذه أولوية يجب أن نحافظ عليها، ألا نُضرب عن الطعام لاختلافنا في الآراء، الجوع لا

يحل مشكلة.

عدتُ وجلسْتُ على سريرِي وإلى منضدِي، أمسكت الملعقة التي كانت ملفوفة في ورقة بيضاء وفضضت الورقة من فوقها، دسست الملعقة في طبق البسلة رأسياً مثل فلاح يغرس رفشاً في أرضه، ومن دون شهية ظاهرة قلبت الملعقة إلى فمي وبدأت أمضغ، كان مزيجاً دبقاً وحمل الشبع إلى جوفي على الفور.

لم يرفع الأستاذ «سمعان» عينيه من على وجهي، كان يتسمم وكأنه انتصر في معركة صغيرة تؤهله لمعركة أكبر.

- «أبان» هذا طالب السنة الأولى، أليس كذلك؟ ما الذي فعله «أبان» لك ليحظى بشرف وجوده في حكايتك؟

- كيف عرفت أنني فتحت الدواة الثالثة؟

- لماذا تهرب من الإجابات على الرغم من أنني لا أفعل ذلك معك؟

ثم تنهد:

- أحد قوانين «نيوتن» تقول: إن لكل فعل رد فعل مساوياً له في القوة، ربما كان هناك ممّن مر عليّ في هذه المدرسة من هو أذكى منك، ولكنك أكثرهم بهجة يا فتى، أعرف ذلك لأنك قد خذلتني، خذلتني وشحذت همتي بشكل لم يسبق لي حدوثه منذ أعوام، وأتوقع أن أحصل منك على نتيجة جيدة، كلُّ كلِّ، أمامك طريق طويل، مرحباً بك في مدرسة الأستاذ «سمعان الشنقيطي».

\*\*\*

ظلمت حبيساً في الغرفة بإرادتي بعد انصرافه، جالساً على فراشي وقد فقدت الرغبة في الحركة، نمتُ عدة مرات واستيقظت، على رجع صدى الأصوات الآتية من الممر حاولت تحليل موقعي وعدّ فرصي المواتية وغير المواتية، يتحرك الصدى بخفة مثل مزولة شمسية، في البداية كان بلورياً أشبه بصخب مجموعة من السكرين الأغنياء

الخُرس الذين يستعوضون عن الكلام والعراك بتهشيم كؤوس الشراب الرقيقة، وفي الظهيرة أصبح نحاسيًا ترتد عليه أصوات قيّم المبنى ومساعديه من عمال النظافة وهو يتمم غلق أبواب الغرف وانصراف الطلبة إلى المدرسة، لم يلمس باب غرفتي مع ذلك، كأنه يعرف أنني بالداخل، وبعد العصر صار خشبيًا يدق عليه عجيح الطلبة وهم ينزلون ويصعدون الدرج ويتوزعون في غرفهم ذهابًا وإيابًا إلى المطعم ومنه، أما في المساء فكان أشبه بالصدى: صياح ساكنين جدد في شقة شاسعة فارغة وكانت روحي أنا أقرب إلى روح شبح ساكن قديم، شبح خائف من إخافة السكان، شبح لا يستطيع أن يسترد روحه وإحساسه بالهواء إلا في الليل العميق عندما أصبح الصدى حجريًا.

في الصدى البلوري خشيت من مجرد الوصول إلى قرار، خشيت من العواقب، وعند تغير الصدى من مرحلته النحاسية ومرحلته الخشبية قررت البقاء، وما بين الصدى الذي يشبه الصدى والصدى الذي يشبه الحجر وصلت إلى أسوأ قراراتي ثم عدلت عنها، ثم شعرت بامتنان لأستاذ «سمعان» على طبق البسلة، لم يبد لي الآن استعراضًا، لقد مرّ بهذا الموقف من قبل، ليس كمريض وإنما كطبيب قاسٍ لا ينفى عنه تقطيع جلدك بالمشروط دعوى رحمته بك. صباح اليوم التالي، غادرت غرفتي متأخرًا عن الطلبة، ظهرت لي المدرسة بعد أن خلعت تنكرها، الطلبة كانوا يمرون بي مسرعين وهم يخفضون أصواتهم كأنهم يخلون عليّ بفحوى حواراتهم الحميمة، حتى تأخري عن وجبة الإفطار لم أجد داعيًا للاعتذار عنه، أفسح لي عمال المطعم الطريق ولو لم أخلع حذائي تلقائيًا لربما تركوني أدخل متعلاً إياه، تمددت أمامي متًا اختيار للجلوس في مطعم فارغ يطارد فيه العمال الوسخ بجرادل ماء من الصاج ومسّاحات تروح وتجيء مثل رؤوس شريرة لساحرات مختبئات تحت الأرض،

أعطوني خبرًا متقصفا الأطراف، لكنه طازج، وجُبْنًا وحبّة طماطم واحدة وخيارتين ذابلتين، وعندما شرعت في الأكل استأنف العمال عملية النظافة الصباحية وكأنني لم أعد موجودًا، فقط من وقت لآخر يطلبون مني أن أزحج قدميَّ ليمسحوا تحتهما، وكنت أفعل ذلك دون أدنى شعور بالذنب، لقد اقتحموا كواليسي وأثاروا فيها الفوضى فلا أقل من أن أثير الفوضى أنا أيضًا في كواليسهم.

وأنا جالس هناك، مرّ عليّ أحد الموظفين وهو يحمل لافتة صغيرة مكتوبًا عليها «كلوا من طيبات ما رزقناكم ومما أخرجنا لكم من الأرض»، قام بتعليقها مكان لوحة الأمس

ومما أخرجنا لكم من الأرض! الآن تحوّلت لعبة التنبؤ إلى لعبة لحل الكلمات المتقاطعة، من فوق الأرض أم من تحتها؟! تحتمل المعنيين، وبما أنهم أكلوا بالأمس بسلة خضراء وجزرًا فلا بد أن طعام اليوم بطاطس (مهروسة أم مقلية؟) مقلية، مر أحد العمال منذ قليل بجواري حاملاً زجاجة زيت ضخمة..

نُرى، ما الذي كان مكتوبًا في لوحة الأمس يدل على البسلة والجزر؟ بعد أن انتهيت من الإفطار توجهت إلى المدرسة، انتظرت حتى نهاية الحصة الأولى ودخلت إلى الفصل في بداية الحصة الثانية، عندما دخلت التفتُّ إلى الطلبة فأفسحوا لي مكاني السابق في رهبة، اختلّطت بهم، ظلّوا يعاملونني بحذر وود غريبين طول الحصص الأولى، وفي فسحة التريُّض خرجت معهم.

- «إسماعيل»، يا «إسماعيل»!

ناداني «أبان» في ممر الفصول ولم يَكُن صوته وديًا وإن تكلف ابتسامة صغيرة متشككة، تمهلت حتى جاورني ثم قال:

- سر ونحن نتحدث.

سرت معه حتى خرجنا للفناء واختلّطت أصواتنا بصخب الطلبة:

- ما الذي حدث؟

- ماذا؟

- لماذا زارك الأستاذ «سمعان» بالأمس؟ كل طلبة الألف رأوه في الصباح خارجًا من غرفتك؟

- لكنهم على الرغم من ذلك لم يروا اقتحام الأستاذ «سمعان» غرفتي في الليل!

- لا أستطيع أن أخبرك يا «أبان»، ليس مسموحًا لي أن أخبرك.

- إياك أن تكون قد أخبرته عن اجتماع الصحراء.

- لا طبعًا، لم يسألني، لا يعرف الموضوع.

- وحتى لو سألك، لا تخبره.

ثم ابتلع ريقه ونظر إليَّ في خوف:

- كيف الأمر معه؟ هل هو كما يحكون عنه؟

- تقصد الأستاذ «سمعان»؟

- ومن غيره؟ قد لا تعرف يا «إسماعيل» لأنك جديد في المدرسة، ولكن أنا هنا منذ شهر تقريبًا، وما رأيته أن كثيرًا من الطلبة الكبار يحبون الأستاذ «سمعان» أكثر مما يحبون آباءهم، طلاب مبنى أبي بكر الصديق سيظلون طول العام يفتخرون بهذه الزيارة على الرغم من أنهم لا يعرفون لماذا زارك من الأساس، وعندما أسألك هل أخبرته عن لقاء الصحراء أسألك ليس لخوفي من الطرد من هنا، ولكن لخوفي من سقوطي من نظر الأستاذ «سمعان» إن علم أنني قمت بعمل ضده، أخاف هواني عنده.

- إذًا فلماذا فعلت شيئًا تخاف من رد فعل الأستاذ «سمعان» إذا عرفه؟

سكت «أبان» قليلًا، تفرّست ملامحه في أثناء ذلك، كان يمكنني أن ألتمس له العذر لو قال إنه غير راضٍ عن أداء «سمعان»، أو يود

معرفة الحقيقة، أو المشاركة في نشرها بين الناس، لكنه قال:

- هناك احتمال كبير أن تكون مجموعة الأزهريين الجدد تعمل خفية تحت إشراف الأستاذ «سمعان»، ولا يمكن معرفة ذلك إلا بالترقي، «أحمد» نفسه قد لا يعرف، هذه فرصة لاكتساب احترام الأستاذ «سمعان».

بعد فسحة التريُّض دخل مدرس الفقه الفصل وبحث بعينه حتى استقر بصره عليّ وناداني:

- «إسماعيل»، تعال هنا، أنت متأخر نصف ساعة كاملاً عن حصتك الحقيقية، ألم يخبرك أحد بمكان الحصة ولا ميعادها؟!!

وقبل أن أفتح فمي، أشار المدرس إلى طالب يجلس في الدكة الأولى فانقذف ناحيته، همس له في أذنه بكلمتين ثم ضرب على كتفه محفزاً، والتفت إليّ قائلاً:

- اذهب معه، سيرشدك إلى المكان.

وقف المدرس خلف منضدته منتظراً خروجنا، لم يحدث شيء جديد حتى واراننا الباب، سألت الطالب الصغير وأنا أسير خلفه عن المكان الذي تتوجه إليه.

أجابني دون تردد:

- إلى مكتبة الأستاذ «سمعان».

وسادت لحظة من الصمت في الممر ثم انفجر الصياح الهادر الجماعي من خلف الباب الذي غادرناه.

\*\*\*

لن أكون مبالغاً إن قلت إنني لم أر كل هذا العدد من الكتب في حياتي حتى في الصور الفوتوغرافية التي تَوَرَّخ للعالم القديم، ولا في أحلامي، عاد الطالب الذي اصطحبني تاركاً إياي لدهشتي أمام باب المكتبة، للوهلة الأولى أخذ بصري اتساع المكان وعلو سقفه عندما

ولجت، هذا المكان يخترق ثلاثة أدوار متتالية كرمح، يُختتم هذا الاختراق في الدور الثالث بدائرة من النوافذ الكبيرة العالية الكافية لإضاءة المكان في ساعات النهار، بينما تنسدل تحتها أرفف خشبية تدور وتلف مع الجدران، عامرة بالكتب لدرجة تحبس الأنفاس.

لم أكن قد انتبهتُ بعدُ إلى الزاوية اليمنى وما تحوي، خمسة طلاب في أعمار مختلفة يجلسون إلى مقاعد لا مناضد أمامها، يمتد من ذراع المقعد اليمنى رفٌّ صغيرٌ يتسع لاتكاء ذراع تحمل قلمًا وكراسة، ينتظرني كرسي وحيد فارغ عليه كتاب وكراسة وقلم، ألقى التحية فأجابوني بهمهمات، أمام الطلبة يقف الأستاذ «سمعان»، أشار لي فجلست ثم بدأ يتكلم في هدوء وبلغة فصحي:

- بداية من اليوم، ولثلاثة أيام كل أسبوع، ستلقون دروسكم في هذا المكان بعد حضوركم الحصص الثلاث الأولى، ما يعني أن الحصص هنا مسائية..

ثم تأمل الوجه قليلاً قبل أن يتمتم بجملته منقطعة:

- معظمكم هنا يعرفني بشكل شخصي.

ثم رفع نبرة صوته قائلاً:

- كما تعرفون، المدرسة متخصصة في تدريس الدين الإسلامي بشكل خاص وما يتعلق بفهمه من أدوات اللغة بشكل عام، وسنعتمد هنا تدريس رسالتين بشكل مستفيض ووافٍ خلال ثلاث سنوات، الرسالة الأولى عن دفع إيهام الاضطراب عن القرآن الكريم، والرسالة الثانية عن منع المجاز وهدم دعوى وجوده في القرآن الكريم، مبادئ كلتا الرسالتين ستختلط اختلاطاً تاماً بما تظنون به أنكم متميزون به عن الآخرين.

أريدكم أن تعلموا أن كثيراً من الأهداف سينبني عليها هدف تدريسينا هاتين الرسالتين، وإلا اعتُبر إنفاق وقتنا هنا عبثاً، ولتفهموا الأمر عليكم أن تعرفوا أن كثيراً من علماء الدين لم يجرؤوا على

تحريم الأدب لمجرد ظنهم الكاذب بوجود المجاز في القرآن، وهذا الظن تسبب في كارثة امتلاء تاريخنا بالعبث وإنفاق أطنان من الحبر والورق على ما يقال عنه أدب، من مسرح ورواية وقصة وخلافه. وليس بالأمر المهم ما ضاع من الحبر والورق بقدر أهمية ما ضاع من أعمار وعقول، ومما قد يخفى عليكم من شطط وجنون وما تسبب فيه هذا الضياع من غضب الله - عز وجل - على البشر. أريدكم أن تعلموا أن المتكلم لا يلجأ إلى المجاز إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير، وذلك محالٌ على الله تعالى؛ فالحقيقة واسعة يمكن لنا أن نقول بها ونقولها بأي شكل وأي صورة من دون اللجوء إلى الكذب لتبيانها.

مكتبة المدرسة متاحة لكم للاستعارة، ولدينا قسم كامل من الكتب التي تناقش هذه المسائل باستفاضة، لكننا سنعتمد في تدريسنا ثلاث آيات في القرآن بنى عليها المخالفون ببيان ظنونهم وأوهامهم واعتمد عليها العلماء وغيرهم في هذه الدعوى الكاذبة، الآية الأولى: «جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ»، والثانية: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»، والثالثة: «وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ».. هذه الآيات سنناقشها بعناية فائقة ونبين من خلال مناقشتها تهافت حجج المخالفين لنا في أمر المجاز. ثم سكت الأستاذ «سمعان» وكان سكوته فرصة لي أن أتصفّح الكتاب والوجوه، عنوان الكتاب «منع جواز المجاز في المُنَزَّل للتعبد والإعجاز»، كان مخطوطة إن صح القول، عدد جميل من الأوراق المخططة باليد بخيط سميك بني اللون، تصفحتها، مكتوبة بخط يد منمنم صغير واسع الهوامش، أحببت الكتاب في الوقت الذي يجب عليّ فيه أن أكرهه، لا لشيء إلا لعدم وجود التحذير المعتاد خلفه: «الجهل يستوجب العقاب، أما المعرفة فتستوجب القتل، الجهل ليس عذرًا شرعيًّا هنا»، الطلاب الخمسة الموجودون كان منهم أنثيان، أحد الذكور الثلاثة أصلع، تفحصت الاثنتين بوجه

خاص، الأقرب إليَّ جميلة على الرغم من ملابسها الذكورية، وعلى الرغم من ارتدائها غطاء رأس نسائيًا فإنه أظهر شعرها كثيفًا يضرب حتى كتفيها وطريًا كعُشب في مكان ناءٍ، أما الأخرى البعيدة فلم تُكن جميلة، أنثى شبحية كما يروق لي تسمية هذا النوع من الإناث، سمراء خافتة نحيفة كظل، حتى وهي بعيدة عني بزَّهم ثلاثة ذكور.. حتى وهي جالسة كان النبل يفوح منها، وكانت ترفع يدها كل دقيقة في وجه الأستاذ «سمعان» لتسأله فيشير إليها أن تصبر.

- الآن إلى مقدمة الكتاب، أرجو أن تفتحوا الكتاب على الصفحة الثالثة وستتناوب القراءة.

للحظة خششت الصفحات وهي تُقلَّب وقال الأستاذ «سمعان»: اقرئي يا «بثينة» بداية من السطر الثالث. قرأت «بثينة» - الأنثى الجميلة - بهدوء وثقل يليقان بأنثى واثقة من أن هذا كله هذر:

- إن القرآن كله حقائق، وكيف يمكن أن يكون شيء منه غير حقيقة، وكل كلمة منه بغاية الكمال جديرة حقيقة؟! إنه لقول فصل وما هو بالهزل، أخبره كلها صدق، وأحكامه كلها عدل، والمقصود من هذه الرسالة المختصرة نصيحة وتحذير من نفي صفات الجلال والكمال، التي أثبتها الله لنفسه في كتابه العزيز، بادعاء أنها مجاز؛ لأن المجاز يجوز نفيه، وهذا من أعظم وسائل التعطيل، ومعلوم أنه لا يصف الله أعلم بالله من الله، ومن أصدق من الله قيلاً؟

- كفى يا «بثينة»، اقرأ يا «إسماعيل»، وأرجو أن تقرأ ببطء أكثر من «بثينة» (تناهت ضحكة مكتومة دغدغت القبة الصارمة التي فرضها أستاذ الأستاذ «سمعان» فأسكتها بالدق الغاضب على منضدته)، اقرأ يا «إسماعيل» بداية من السطر الخامس في صفحة الرابعة.

- المجاز أصلاً مختلف على أصل وجوده؛ فمن قائل إنه لا مجاز في اللغة أصلاً، ومن قائل إن المجاز غالب على جميع اللغات، ولكن هذا كله عندنا أسلوب من أساليب اللغة العربية؛ فمن أساليبها

إطلاق الأسد، مثلاً، على الحيوان المفترس المعروف، وأنه ينصرف إليه عند الإطلاق، وعدم التقييد بما يدل على أن المراد غيره، ومن أساليب اللغة أيضاً إطلاق لفظ الأسد على الرجل الشجاع إذا اقترن بما يدل على ذلك، ولا مانع من كون أحد الإطلاقين لا يحتاج إلى قيد، والثاني يحتاج إليه؛ لأن بعض الأساليب يتضح فيها المقصود مباشرة فلا يحتاج إلى قيد، وبعضها لا يتضح المراد منه إلا بقيد يدل عليه، وكل منهما حقيقة في محله، وقس على ذلك المجازات كافة.

- كفى يا «إسماعيل».

تهدت متخلصاً، ودُرْتُ ببصري خفيةً في المكان، ومع دوران بصري لاحظت شيئاً غريباً، أرفف المكتبة محرمة بسور من الحبال الممدودة بين أعمدة رفيعة من النحاس مثبتة في الأرض، سور يدور مع دوران زوايا المكان، المنفذ الوحيد خلف ظهر الأستاذ «سمعان» حيث يقبع مكتبه الأبنوسي، وكأنها مكتبة ليس مسموحاً بتصفح الكتب فيها إلا لأستاذ «سمعان» فقط، على الرغم من أن كل عناوين الكتب القريبة فيها واضحة كالشمس من خلال كعوبها، أكثر وضوحاً من صوته وهو يشرح، الكلام يدعو إلى التأوب، وصوت الأستاذ «سمعان» الهادئ يخطوبي إلى النوم على الرغم من أنني استيقظت للتو، ولولا عيناه المسلطتان على طلابه لنمتُّ من دون خجل.

- وعلى هذا فلا يمكن إثبات مجاز في اللغة العربية أصلاً، أما أهل اللغات الأخرى فيمكن لهم اكتشاف ذلك بسهولة إن توافر لذلك علماء في اللغة مهتمون..

انتبهتُ، رفعت يدي وتكلمت على الفور.

- كيف أمكنك أن تجزم بعدم وجود مجاز في اللغة العربية، هذا إن سلمنا فعلاً بعدم وجوده في القرآن؟!

- أولاً: ألومك على الكلام من دون إذن، ثانياً: وجود المجاز في اللغة وجود نقص لا وجود كمال، ومن أوجه الاكتمال أن تنزع النقص.

- لن أجادلك في رؤيتك الشخصية لكي تنتقل للنقطة الأخرى، عدم وجود مجاز في اللغات الأخرى تأكيد يحتاج إلى برهان.

- البرهان الأكبر أن اللغة العربية هي أم اللغات، ولغة أهل الجنة ولغة سيدنا آدم قبل الهبوط وبعد التوبة، ولغة أهل السماء، الكشوف الأثرية تقول ذلك، بعد اللغة الأيقونية، أو ما يسمونها اللغة بالرسم، بداية من لغات الكهوف وتطورها إلى اللغة الهيروغليفية، كانت أول ألف باء في التاريخ هي ألف باء الفينيقيين، وهي ذاتها ألف باء قريش؛ بالتالي فأى نقص يدخل على كمال اللغة العربية هو نقص في بقية اللغات المشتقة منها.

ثم صاح لينهي الحوار:

- اقرأ يا «محمود»، وانتبه معي يا «إسماعيل».

قرأ «محمود»:

- ثم إن القائلين بوجود مجاز في اللغة العربية اختلفوا في جواز إطلاقه في نصوص القرآن، وأبرز دليل على ذلك إجماع القائلين بالمجاز على أن كل مجاز يجوز نفيه، ويكون نفيه صادقاً في الوقت نفسه، فالذي يقول لمن قال: «رأيت أسدًا يرمي الرمح» ليس هذا أسدًا، وإنما هو رجل شجاع، فيلزم من ذلك بأن نقول لمن قال إن في القرآن مجازاً: ما ردك على أن في القرآن ما يجوز نفيه كهذا المثال الذي ذكرنا؟

- ولماذا نفترض أن النفي هو التكذيب، وأن النفي إن جاء مقترناً بالقرآن يُعد نقصاً؟

لم أكن القائل، بل أحد الطلبة الذكور، تهتد الأستاذ «سمعان» وقال:

- يبدو أن عدوى «إسماعيل» قد انتشرت سريعاً، وإجابة عن سؤالك: لو جاء قائل وقال: إن الآية القرآنية «جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ» هي

كذب لأن الجدار ليس له إرادة، ولا يتهدم من تلقاء ذاته، والفائدة الوحيدة لهذا المجاز الكريه هي تقريب الصورة ليس إلا، فكيف سترد على هذا القائل لتدفع عن قرآنك تهمة الكذب؟  
ثم صاح الأستاذ «سمعان» فجأة وكأنه يوقظ النائمين:  
- أسئلة؟

على الفور رفعت الأنثى الشبحية يدها فأجازها بإشارة من يده، فانطلقت تتكلم، كان الأستاذ «سمعان» معجبًا بأسئلتها، واتفقا أن إجابة الأسئلة التي طرحتها عليه ستكون موضوع الحصة المقبلة، وكنت منشغلًا بتأمل أرفف الكتب عندما قال:

- الفرض المنزلي سيكون بحثًا عن آيات المجاز التي يفترض البعض وجودها في القرآن، سيحضر لي كل واحد فيكم آية واحدة في المرة المقبلة، آية واحدة مختلفة عن الآيات الثلاث التي سردتها في بداية الحصة، آية واحدة مقابل جائزة عظيمة، فلو عثر أحدكم على آية بها مجاز لا أستطيع أن أبين تهافًا فيها سأجيزه للتخرج في المدرسة على الفور (همهمة مندهشة ثم صمت قليل وصوت تقليب ورق).  
- في الواقع، كنت أود أن أنهي الحصة الأولى سريعًا لما أرى من تتأؤيكم، لكنكم معاقبون بذنب زميلكم اللذين تحدثا من دون إذن، وعقابكم هو فرض منزلي إضافي.

ثم عاد الأستاذ «سمعان» بظهره خطوتين بشكل استعراضي واستدار في خفة فائقة والتقط من فوق مكتبه الأجندة ولوّح بها عاليًا، ثم استأنف حديثه:

- زميلكم «إسماعيل» المتفاني في الدفاع عن المجاز لا يتفاني من دون سبب، بل «لغرض في نفس يعقوب»، والغرض مرض كما يقولون، مع أن «يعقوب» كان نفسًا زكية، زميلكم «إسماعيل» ارتكب عدة أخطاء، ليس أولها الكلام من دون إذن، كتب قصة في ملزمة المدرسة، فصار لزامًا علينا أن نحرمه منها، وتعتمد المجيء للحصة

متأخرًا فصار علينا أن نعاقبه بقراءة بعض من فقرات الحكاية التي كتبها لنا.

لم أرفع رأسي وإن أيقنت أنني صرت ملتقى نظراتهم جميعًا والأستاذ «سمعان» يستأنف:

- والمطلوب أن تركزوا جيدًا وأنا أقرأ، وتسجلوا في كراس «ما يكتب ليُمحى» كم مرة كذب «إسماعيل»، وكم مرة اضطره الكذب إلى الكفر ليكتب حكاية خالية تمامًا من أثر العقل الذي كَرَّمنا الله به، لا هدف له ولا غاية إلا أن يكون مسليًا؛ فالحكاية مسلية جدًّا، وهذا شيء أراهن عليه شخصيًا، ومع ذلك أرجو ممن يُصاب بالملل أن يرفع يده فورًا لأتوقف.

هنا رفع الشاب الأصلع ذراعه على الفور، فلم يضحك أحد، ولكن الأستاذ «سمعان» تضحك..

بدأ الأستاذ «سمعان» في القراءة، كانت هذه هي المرة الأولى التي يُقرأ فيها شيءٌ كتبته أمام جمهور، قلت لنفسي إنه ينبغي عليّ أن أكون فخورًا؛ حيث إنني الحي الوحيد في المكتبة الذي يستطيع كتابة نصٍّ بهذه الطريقة، لا ليس المكتبة، المدرسة كلها، بل ربما مصر كلها، أنا شخص نادر بالموهبة التي أمتلكها حتى لو كانت النادرة التي وسمها البشر بالاحتقار، لكن الأستاذ «سمعان» بدا وهو يقرأ كأنه يخلع عني قطعًا عشوائية من ملابسني، إنها رقصة استريتين ينتقي فيها فقرات تبعث على السخرية ومن دون أن تغادره لهجته الجادة، وكلما قرأ فقرة تحركت الأقلام تسجل نقاطًا وأرقامًا.

ضربت الحُمرة المضطربة وجهي وشعرت بها، وكلما زاد إحساسي بها تكاثرت عليّ، مثل قبيلة من أسماك البيرانا المتوحشة تجمّعت على ضفاف ملامحي يزيد لون الدم من شراستها، كان من الواضح أن الأستاذ «سمعان» لن يصمت إلا بعد أن يترك وجهي عصبًا وعظمًا فقط دون مزعة لحم.

وعندما انتهى الأستاذ «سمعان» من قراءة الفقرات التي انتقاها شعرت بالامتنان اللحظي والإنهاك الشديد.

- هيا، انصرفوا الآن ولا تنسوا ما اتفقنا على إنجازه: آيات المجاز والجائزة العظيمة، وأيضًا عدد كذبات قصة «إسماعيل» المسلية.

\*\*\*

غادرنا المكتبة قبل خروج الطلبة من الحصة الأخيرة للفصول الدراسية، أمرنا الأستاذ «سمعان» أن ننتظر الفتاتين حتى تخرجا، لكن الفتاة الشبحية أدارت حوارًا خافتًا معه عند المكتب الأبنوسي فأشار إلينا أن ننصرف، تناولت طعام الغداء مبكرًا جدًّا، وصعدت إلى غرفتي، وبمجرد أن وجدت نفسي وحيدًا هجمت عليّ مشاعر الغضب والاستياء.

لقد أهنئت بشدة، وسأكون مرشحًا لمزيد من الإهانة إن لم تتغير أولوياتي، فإن كان مقدَّرًا لي أن أتلقي المهانة عمَّا أكتبه فلن ألتقاها في معمل مدرسي كعينة اختبار، كل هؤلاء الطلبة أصغر بكثير من أفكاري والرغبة التي احتشدت بها عروقي، ولا يشعرون مثلي بهذا السور والفراغ الصحراوي من حوله وكأنه يُحرّبي إلى مكان لا أرغب في الذهاب إليه، عليّ أن أقفز إلى الماء بينما الشاطئ لا يزال قريبًا، ورثاي تمتلكان بعضًا من الهواء.

شعرت بقبضة باردة تعصر قلبي عندما تذكرت مصير ما كتبته ليلة أمس الأول، القصة التي سُلبت مني، مر هذا الخاطر كالومضة في ذهني، كأنني رأيت صديقًا قديمًا فجأة في الزحام على أرض غريبة، ثم غيَّبته الوجوه، أولًا: يجب عليّ أن أحصل على أجنديتي التي أشعر الآن أنها أقرب إليّ من أي وقت مضى، بل وأشعر بالندم أنني عرضت ما كتبته فيها للمحو بحماقة باستعمالي الحبر المتطاير، أما الآن وقد عرفت أن ما كتبته لا يزال باقياً بطريقةٍ ما فيجب عليّ أن أحصل عليه وأتمه، ولكن كيف أحصل عليه وهو في المكتبة، وأنا

لا أعرف متى سيكون الأستاذ «سمعان» هناك؟! لا بُدَّ من المخاطرة على أي حال، خاصة أنه ليس بإمكانني التجول في هذا الجانب من المبنى ليلاً دون إثارة الشكوك، لتُكن خطتي أن أذهب إلى هناك بعد قليل من بدء حصته، سأذهب إلى المدرسة غداً وبعد غد، وأحضر الحصص بشكل طبيعي، لكنني لن أذهب إلى حصة المكتبة بعد الحصص الأولى، سأصعد الدرج وأختبئ في الدور الذي يقع أعلى المكتبة، أظل كامئاً حتى بعد غلق بوابة المدرسة ثم أنزل وأحاول أن أفتح باب المكتبة ولو اضطررت إلى فك الكالون بالكامل لاستلاب ما يخصني، وفي الصباح الباكر أحزم أمتعتي وأغادر المدرسة إلى الأسفلت لأي سيارة مارة فتأخذني إلى غير رجعة.

أغمضت عينيّ محاولاً استحضار حالة روحي وأنا أهرب بعيداً بعيداً، ولم أفتحهما عندما سمعت صوت باب غرفتي وهو يُفتح ويُغلق دون أن يطرقة الداخل، ظللت ساكناً أحاول الإحاطة بوجود محبط ويائس، أتى ناحيتي متردداً حتى وضع يده على كتفي وقال: - «إسماعيل».

كان «أبان».

\*\*\*

إن كان هناك شخص يمكنني أن أشك في وجوده بحكايتي فلن يكون إلا «أبان»، لم يُكن «أبان» إلا شخصاً يحاول أن يغرق على الشاطئ في شبر ماء بينما أنا منشغل بالهرب إلى البرية، ولقد حاولت في هذا اليوم أن أوسع له صدري قدر استطاعتي، لكنه ظل مصرّاً على تضيق الخناق على نفسه، وشنق شرايينه شرياناً شرياناً في هواء غرفتي الصغيرة، بدعوى أنه لا خيار له في ذلك، وكما قال، أو كما ظل يقول طيلة ساعتين:

- أنا الولد الأصغر في عائلة كبيرة، أبي تاجر ميسور الحال جداً، كل إخوتي الذين سبقوني حاولوا الالتحاق بمدرسة الأستاذ «سمعان»

لكنهم لم ينجحوا، أنا أمل أبي الوحيد يا «إسماعيل»، ويجب أن أنجح.

- اسمح لي يا «أبان»، قبل أن أجيء إلى هنا يبدو أنهم خدعوني، أخبروني أن المدرسة عقاب، وها أنت تقول عكس ما يعتقد الناس بالخارج.

- هذا وهُم يبيعونه للناس يا صديقي، شهادة المدرسة في يدك وسيلة سريعة للتوظيف والترقي في المناصب بلا حد ولا سقف، إنهم يسمونها هنا إجازة، هل تعلم ما معنى إجازة في اللغة؟ أنت مُجاز، أي أن جميع الأبواب مسموح لك العبور خلالها.

- حسناً يا «أبان»، سأدعي أنني أصدقك لتتجاوز هذه النقطة إلى النقطة الأهم، ما المشكلة في رغبتك بالانفصال عن حركة الأزهرين الجدد؟ الانضمام أو الانفصال قرار شخصي لا يستطيع أحد أن يلومك عليه.

- جئتُ إليك من أجل أن ترشدني، لو فكرت بشكل عكسي، قد يكون الأستاذ «سمعان» على معرفة بهذه اللقاءات السرية، لو فكرت بشكل أعمق، فقد يكون هو من أنشأ هذه الجماعة لتمييز الطلبة الملتزمين عن الطلبة الذين لديهم استعداد للشغب.

- لماذا يدور الكون كله حول الأستاذ «سمعان» يا «أبان»؟! لماذا أنت مفزوع لهذه الدرجة من رد فعله؟!

- ليس خوفاً، سمّه احتراماً زائداً، تبيحلاً.

- حسناً حسناً، يبدو أنه لا توجد طريقة لإقناعك بعكس ما في رأسك، لماذا تخبرني أنا بذلك، أنا بالذات؟

سكت «أبان» قليلاً وهو ينظر إلى ملامحي كأنه يستنطقها عن السبب ثم قال:

- لأن في استطاعتك أن ترشدني يا «إسماعيل»، هذا ما أومن به ولن

يتغير اعتقادي هذا أبدًا.

- وما الذي حملك على اعتقادك هذا في؟

- أنا أحسدك يا زميلي على تواضعك، وعلى فكرة جميع طلبة الصف الأول يحسدونك مثلي.. زيارة الأستاذ «سمعان» هنا، واصطفاؤه لك للتدريس في المكتبة..

- اصطفاؤه؟! انتظر، هل تظن أنني على علاقة بالأستاذ «سمعان»؟

- طبعًا أنت غير مجبر على أن تخبرني بها، لكن الأمر واضح، ولماذا تنكر هكذا؟ كأنني شتمتك!

- هذا أسوأ من سبة يا «أبان»، والرد عليه سبة مثلها، أنت تحاول إرضائي لأنك تعتقد أنني جاسوس للأستاذ «سمعان».

- حاشا لله أن أقول ذلك، الأستاذ «سمعان» ليس غيبًا ليزور طالبًا يُعده جاسوسًا أمانًا جميعًا، ما أقوله إنك مميز، وعلاقتك به خاصة جدًا، الطلبة يقولون إن الأستاذ «سمعان» يُعذك لتكون خليفته الأول، ولو لم يكن، أنت قريب منه لدرجة تمكّنك من أن تفهمه وترشدني لأفضل الطرق للوصول إليه.

فتحت فمي لأستنكر، لكني لم أنطق، مكتشفًا ببساطة أن كل ما سأقوله سيزيد من بهائي أمام «أبان» وسيستمر في طريقته في التفكير، لم يكن هناك مفر من أن أهزم غروري في تلك المرحلة الطرية قبل أن أجد نفسي عرابًا بالكذب، لم يكن هناك مفر من أن أبتلع ريقِي وأقول من دون أن ترتعد ملامحي:

- ما تقوله جيد يا «أبان»، جيد في ظاهره، لكن هناك تفاصيل أعتقد أنك لو عرفتها سيتغير رأيك تمامًا، وأكثر ما أخشاه أن يتغير إلى النقيض.

- أنت لا تعرف «أبان» جيدًا، تكلم ولا تحف.

- حسنًا، الموضوع وما فيه أنني لست مميزًا، بل معيب، وفي وجود

هذا العيب قد يتعاطى معي العالم كله أولاً قبل أن يفكر الأستاذ «سمعان» في التعاطي معي.

- لماذا تقول ذلك؟

كانت هذه نقطة اللاعودة؛ لأنه من المستحيل ألاَّ يصدقني «أبان»؛ فليس من دفع المديح عن طريق التواضع أن ألطّخ نفسي، لا بأس إذاً من تأثّق المحكوم عليه بالإعدام، أبتسم له فتنجذب لابتسامتي ابتسامة مشابهة على فمه، أرسم بإصبعي دوائر على المنضدة بينما فتتعلق عيناه بما أرسمه وكأنني أسرد عليه سر الكون، جميل هذا التبجيل، هذا الاحترام الذي يضوي في عيني «أبان» كدموع الفرح، جميل وشهي ولا يُشَبَّع منه أبداً، مثل مملكة ذاتية من النظرات؛ فنظرة تؤرجح مروحة الريش فوق رأسك ونظرة تدلك لك رقبتك بعناية فتشعر بالراحة من دون أن تمسّك إصبعك، ونظرات أكثر خصوصية وحميمية تحني لك ظهرها لتركبه فتصبح مطيتك الدافئة التي تحملك إلى عوالم حمراء، وها أنا ذا أقوم بكل ما من شأنه إطالة الوقت الذي ستظل فيه هذه النظرات تلتمع في عيني «أبان»، قبل أن أهوي على رقبة هذا الاحترام بالمقصلة، ليس صعفاً ولا رمياً بالرصاص ولا باحتساء السم، بل بالمقصلة.

\*\*\*

كان جدي أول إنسان أخبرته بأنني أكتب، لا أنسى رد فعل جدي أبداً، لم يفزع، لم يمتعض، في زمن يعطي فيه التبوّل في فم فردٍ من عائلتك الأثر نفسه الذي يعطيه اعترافك لهم أنك تكتب روايات؛ لأنها حرفة سيئة السمعة، توقفوا عن تسميتها موهبة، حتى كونها هبة من الشيطان، بل نوعاً من العجز، الآفة، كأن يكشفوا أنك وُلدت برئة واحدة.. لا، بل بشيء مُخزٍ، كأنك وُلدت بخصية واحدة.. وُلدت مهتوگًا، بلا بكاره، شخص ما أو شيء ما أتى وفصّأها لك بإصبعه، ولا يمكن أن يشبه هذا الشيء

في القبح إلا الكتابة، كنت ممتنًا لرد الفعل الذي أبداه جدي.. ثم «أبان»، وما بينهما عرف كثيرٌ من الناس دون أن أنطق أو أعترف، موقرين عليّ مؤنة إخبارهم، بعد «أبان» أخبرت عدة أشخاص آخرين، وعلى تنوع الاحتقار والنبد والامتعاض يتفوّق «أبان» ويأخذ الدرجة الكاملة.

في البداية، كان الأمر أشبه بسقوط ثعبان من السقف على ساق «أبان»، بلا مقدمات، ولأنه ليس ثعبانًا فعليًا لم يستمر الفزع، انتقل «أبان» إلى المرحلة التالية، الامتعاض، كأن حذاء وجوده اندعس في خراء كوني لا يراه أحد، فصار يحكه ويضربه بالأرض ليتخلص منه، لكنه ملتصق، ملتصق كلعنة، ملتصق كوجودي أمامه بواقع أن الغرفة غرقتي، ثم توقف «أبان» عن تنظيف حذائه من وجودي ليقوم بأغرب أمر على الإطلاق، قام من مكانه مصطحبًا المقعد الذي كان يجلس عليه، حمله كأنه اشتبك بيده ثم أسند به الباب وأحكم إغلاقه وعاد فجلس إلى جوارى، على الطرف الآخر من سريري، ودس يده في قميصه وأخرج سيجارة إلكترونية وقداحة، أدارها على محورها ليضبط نكهتها على طعم التوت البري، ثم أشعل مقدمتها وهو يمتص وينفخ حتى توهجت فأطفأ القداحة بغلقها ثم نظر إليّ وابتسم.

- هذا السيجار الإلكتروني صناعة أمريكية؟

- لا، فرنسي، به عشرون نكهة، إشعال حقيقي وينطفئ ذاتيًا بعد انتهاء الزمن الفعلي للسيجار الحقيقي، ويمكنك أن تطفئه في طقوقة بدعسه وستجد أنه ينثني ويُعاد استعداله، والأهم من ذلك كله...

ومهدّ «أبان» لمفاجأته بصمت ابتسم له بغموض:

- نُسقط رماذًا حقيقيًا على ملابسك.

- لا بُدَّ أنها غالية بهذه الإمكانيات الخطيرة.

- جدًّا، كبسولة النكهات وحدها تتجاوز قيمة ما تنفقه عائلة ميسورة الحال في عام كامل.

ثم ابتسم ابتسامة ذات مغزى وأردف:

- أو عامين.

- وما الفارق بين كبسولة العام وكبسولة العامين؟

- الحشيش، المخدر يا زميلي.

ثم دفعها إليّ وقال:

- هل تريد أن تجرب؟

- لا يا «أبان»، أريد أن أنام.

- حسنًا، سأنهاها وأنصرف.

- لا، الآن، قلت إن بإمكانك أن تطفئها.

أخذ يفتش في وجهي عن شيء غير الضجر وغضب خفيف لم يختمر فلم يجد، أطفأ السيجار بدعكه في كعب حذائه، ودسه عميقًا في جيب قميصه، ثم قام وسوّى ملابسه ومد يده ليصافحني، لكنني لم أمد يدي.

- متأكد يا «أبان» أنك تريد مصافحتي؟

- طبعًا، هل تشك في ذلك؟

- بعد ما أخبرتك به؟

- يا «إسماعيل»، أنت شخص جيد، ولولا أنك أخبرتني بأنك كاتب لظلمت طول حياتي لا أجد تفسيرًا لما أحس به ناحيتك، الأمر يشبه أن تحب إنسانًا في الظلام، تتخيله وتتخيله.. وعندما يأتي النور تجد شخصًا آخر تمامًا بصفات تستطيع أن تحبها أيضًا، أنا أحبك يا «إسماعيل» وأتمنى أن يجمعنا مكان آخر غير هنا.

بقيت مندهشًا للحظات، وعندما شدَّ يده من يدي وفتح الباب

وانصرف استلقيت بملابسي، كنت أشعر بال ألم في عظامي كأنني سقطت من هاوية، ونمت على الفور.

\*\*\*

غادر «أبان» المدرسة بعد أسبوع من حديثنا، الطريقة التي غادر بها ألفت بظلالها المتشنجة على حياة شهرين لي في المدرسة؛ ففي اليوم التالي قام «أبان» بتقديم طلب اعتذار عن عدم استئناف الدراسة في شؤون الطلاب، فقاموا برفع الطلب إلى الأستاذ «سمعان» الذي استدعاه إلى مكتبته ودار بينهما حوار لم يعرف أحدٌ فحواه، في اليوم الثالث جاء والد «أبان»، والتقى أولاً مدرسي الحصص ثم طلب لقاء الأستاذ «سمعان»، وانصرف من دون أن يأخذ «أبان» معه أو يطلب رؤيته تاركاً الطلبة يتحدثون طويلاً عن عطوره وسيارته الفخمة.. في اليوم الرابع، اختفى «أبان» من المدرسة والمدينة الطلابية، ثم عاد في صباح اليوم الخامس بعد أن تسبب في ابتلال الملابس الداخلية لستة مشرفين ما بين قيّمي المبني والحراسة والمطعم والنظافة، وبمجرد أن عاد أغلق على نفسه غرفته ودق في حلق الباب الخشبي ثلاث عوارض غليظة انتزعها من مُلّة السرير، استعمل في ذلك مطرقة ومسامير بطول عشرة سنتيمترات، في تلك الليلة المشهودة فاح الممر برائحة التوت والتفاح والخوخ والمانجو والأناناس والجوافة والبرتقال والفراولة والتين، وعدة روائح أخرى كان الطلبة يتصايحون عبر أبواب الغرف بتخمينها، في الصباح الأخير له في المدرسة قام «أبان» بضرب «يوسف»، الطالب اليهودي، أمام باب مبني علي بن أبي طالب، وهو المبني الذي يسكن فيه «يوسف»، ترصده وبعد حوار قصير قام بتكجيل عدة لكمات في وجهه وذراعيه حتى أدمى وجهه وأصاب ذراعيه بشلل مؤقت، ثم ألقاه وعجن بقدمه في أحشائه حتى ضاع منه صوته الذي يستغيث به، وعندما أمسك به المشرفون وكَتَفوه قام «أبان» بتوجيه ركلة غير شريفة في

خصية «يوسف» أفقدته الوعي، تم تحويل «أبان» إلى التحقيق في العاصمة بسرعة ربما قبل أن يتم تحويل «يوسف» إلى المستشفى. نتائج التحقيق فاحت روائحها سريعاً في المدرسة، سبب اعتداء «أبان» على «يوسف»، تفاصيل اللقاء بينه وبين الأستاذ «سمعان» ومطالبته بطرد الطالب اليهودي، إنكار الأستاذ «سمعان» لوجود طالب يهودي أصلاً، قام «أبان» بكشف سر الأزهرين الجدد واجتماعات الصحراء.

انقطعت أخبار «أبان» تماماً بعد ذلك، ويقال إن أباه الثري دفع مالاً طائلاً لرشوة السفارة الإسرائيلية لسحب دعاوها ضد المدرسة وضد «أبان»، كانت هذه بمثابة قبلة الحياة لشفّي الأستاذ «سمعان» الباردتين المزرقتين طيلة أيام التحقيق، عاد من هواجس الموت والمنع أكثر عنفاً، قام بتعليق السور من ناحية الصحراء، ولم يَكُن هذا كافياً لطمأنته، اكتشف الطلاب ذات صباح وجود طبقة جديدة من الخرسانة بُنيت بها شظايا حادة من الزجاج ورؤوس مسامير غليظة قائمة ومدهونة بدهان ضد الصدأ.

وفي بداية الشهر الثالث، بعد حادثة «أبان»، استأنف الأستاذ «سمعان» حصص المكتبة.

\*\*\*

- «أبان»، كان اسمه «أبان»؟

سألتني الدكتورة «عالية»، فأجبته:

- نعم.

- «أبان»، «إسحاق»، «سمعان».. ألا تظن أنه يوجد سرٌّ في هذه الأسماء؟

- كما أخبرتك من قبل، التشابه.

سكتت قليلاً وكأنها تبهر بتحليلي في بحر الحكاية كلها، ثم تنهدت

وقالت:

- وهل ظلت علاقتك بـ«سمعان» جيدة بعد أن ترك «أبان» المدرسة؟

- لا، أستاذ «سمعان» كان منقراً بطبعه، أُنسأَل أحياناً: كيف استطاع أن يقنع الناس بفكرته عن المجاز ورفع القرآن؟!

- تقصد الفكرة أم أسلوب توصيلها؟

- الاثنين.

- «سمعان» خطيب مقنع على المنبر، ومدرس قوي يا «إسماعيل».

قالت الدكتورة «عالية» كأنها تلومني أو تنزه نفسها عن الوقوع في ذمه.

\*\*\*

أول قاعدة في حضور حصص الأستاذ «سمعان» بأقل قدر من الأضرار أن تبتعد عن البهتان، والبهتان كما يُعرّفه الأستاذ «سمعان» بنفسه هو التصرف بشكل مختلف عن الطبيعي، أقل درجة من البهتان هي أن تتكلم من دون إذن، وهي درجة يمكن له أن يسامحك عليها مع عقاب خفيف، الدرجة الثانية أن تذكر له اسم كتاب لا يعرف مؤلفه، أي كتاب خارج نطاق الأدب، لو ثبت أن الكتاب غير موجود مُنعت من الحديث لثلاث حصص متتالية، أما لو ثبت أنه موجود حقيقة فقد صرت من المقربين للأستاذ «سمعان» ولو إلى حين، الدرجة الثالثة من البهتان أن تتكلم من دون تأصيل، بمعنى أن تتكلم برأيك الشخصي من دون أن يكون لرأيك تاريخ، وهذا لا يُستثنى منه حديث، سواء أكان رأيك في علم الأحياء أم مسألة جواز رفع اليدين للدعاء في خطبة الجمعة، وهذه الدرجة من البهتان تستدعي السخرية والعقاب البدني المؤلم بلا إهانة.

الدرجة الأخيرة من البهتان أن تأتي برأي من كتاب لم تقرأه من

الجلدة للجلدة، كما يقول، حتى لو كان كتابًا في تصفيف الشعر، يقول: الاجتزاء باب من أبواب الشيطان؛ فالشيطان يكره الجلوس في المكتبات ونبش بطون الكتب، وهذه الدرجة عقابها الطرد من الحصة.

مع ذلك لم تخلُ نهايات الحصص من ضحكات، المحاولات الحثيثة لـ«هاجر» - الفتاة النشيطة - للحصول على الجائزة التي وعد بها الأستاذ «سمعان» إذا أنت بآية بها مجاز يعجز عن تفنيده، والإجابات التأثبية لأستاذ «سمعان»، وعلى الرغم من حرصي ورطّتي «هاجر» في إحدى محاولاتها.

صاحت فجأة قبل نهاية الحصة:

- قول الله تعالى: «وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا».

- ما بها يا «هاجر»؟

- أي مجازية، الاشتعال للنار، وتمت استعارته هنا للشيب في الرأس.

- أين قرأت هذه الآية؟

- كان جدي يقولها باستمرار، ويقول إن أحد الأنبياء قالها عن نفسه.

- نعم، نبي الله زكريا، عليه السلام، لكن الآية غير مجازية، وإليك السبب: الاشتعال لا يخص النار فقط؛ ففي اللغة يقول العرب: أشعلت القربة إذا سال مأوها. ويقال: أشعلت جمع الناس أي: فرقته، وأشعلت الطعنة إذا سال وخرج دمها متفرقًا، وأشعلت العين إذا كثر دمعها، فهمت يا «هاجر»؟

هزت «هاجر» رأسها بخيبة أمل، واستعد الأستاذ «سمعان» لإنهاء الحصة فرفعت يدي.

- تكلم يا «إسماعيل»، أراك مؤدبًا منذ زمن، وهذا شيء مقلق.

- في الواقع أعترف أنني لم أقنع بالبرهان على نفي المجاز عن آية «جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ».

- وما السبب؟

- لا أقتنع أن الجماد له إرادة وروح.

- وماذا في ذلك؟ المنبر توجّع عندما فارقه النبي، صلى الله عليه وسلم، كما أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان يعرف حجرًا بمكة يلقي عليه السلام.

- ولكن هذا من قبيل المعجزات، أن ينطق الجماد واليابس للنبي صلى الله عليه وسلم.

- المعجزة في السماع وليس في النطق يا «إسماعيل»؛ لأن كل الموجودات تحدث، والدليل على ذلك قول الله تعالى: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا لَيْسَ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ».

- هذا خروج عن الموضوع، قد يكون للكائن الحي لغة يسبح بها، أو للجماد حتى، لكن الإرادة موضوع آخر، الإرادة تخص الإنسان فقط، ولهذا هو معاقب على إرادته، «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ»، الأمانة هي الاختيار والإرادة؛ لهذا فلا ينبغي للجدار أن «يُرِيدَ أَنْ يَنْقُصَ»؛ لأن هذه الإرادة تخرجه من كونه جدارًا حتى لو كان حيًا إلى كونه كائنًا ذا إرادة يتفوّق بها على البهائم وسائر المخلوقات الحية.

- الأمانة في الآية ليست الإرادة كما تفضلت وخمنت يا «إسماعيل»، بل هي التكاليف الشرعية وما يتبعها من ثواب وعقاب.

كاد الأستاذ «سمعان» يُنهي الحصة عندما طال صمتي بعد عبارته الأخيرة، ولم أدرِ إلا وأنا أقول في استياء:

- لماذا نقوم بكل هذا المجهود المضني يا أستاذ «سمعان»؟ لننفي عن القرآن وجود المجاز فيه؟ لننفي عن الله - عز وجل - صفة الكتابة كما يكتب البشر، لدرجة أنك تصر على تسمية كتابة الشعر نظمًا، وتنفي وجود تأليف كامل، نظم وجمع وترتيب وتحقيق واستقصاء،

ولكن التأليف ليس كلمة تحبها؟ أليس كذلك؟!

سكت الطلبة عن هممهم، وقرض الأستاذ «سمعان» شفته بأسنانه، وكانت هذه عادته إذا غضب:

- سأتجاوز عن لهجتك في مخاطبتي، وعن استيائك وحنقك على مسألة نفي المجاز لأنك تقف في جانب الأدب والمجاز.

- لا، ليس هذا هو السبب؛ فعلى الرغم من عدم اقتناعي بمسألة إرادة الجماد لم أكن أنوي التصريح بهذا، لكن نقاشك مع «هاجر» حفّزني، «اشتعل الرأس شيباً» تبدو لي أجمل بكثير بمجازها عن حقيقتها، وأرى أن نفي المجاز عن القرآن نفي لجزء كبير من الحسن والجمال فيه، وهذه إساءة لله - عز وجل.

- الآن نتكلم عن الإساءة، هذا انتقال شائق، سأخبرك أنا عمّن أساء إلى الله تبارك وتعالى، عندما قال الله تعالى: «يد الله فوق أيديهم»، قالوا: هذا مجاز، واليد تعني القدرة والغلبة، وعندما قال الله تبارك وتعالى: «فإنك بأعيننا» قالوا: هذا مجاز، والعين تعني حفظ الله ورعايته. ادعاء أن المجاز ممكن في القرآن جعل أصحاب المجاز يتوسعون ويعبدون ربّاً بلا يد ولا عين ولا وجه، يعبدون عدماً، ونسوا أن الله - تبارك وتعالى - قال «ليس كمثله شيء»، وأن صفاته غير صفات المخلوقين، ولا يمكن تصورها.

هذا الوقت بالذات خرج الطلبة من فصولهم، ساحوا في ساحة المدرسة، وحقتهم الرغبة في الخروج عبر البوابة الواسعة، الضيقة أمام أعدادهم، في هذا الوقت تمنيت ألا أكون في المكتبة، ربما في الساحة، أو أفضل من ذلك، بعيداً خارج السور، في الصحراء، وقررت تنفيذ خطة الهروب القديمة.

\*\*\*

في حوار لروائي اعتزل الكتابة قال: «إن أفعال البشر تنقسم إلى نوعين: الفعل الأول اضطراري، كالتنفس والعطاس، والفعل الثاني اختياري، كالترئُّض والشراء والأكل وشراء أنبوبة الغاز، تبقى الكتابة الأدبية فعلاً ثالثاً، فعلاً قائماً على توجيه وصرف الكلمات إلى القارئ، القارئ بمثابة الإله الذي يعبد الكاتب، ولكي يخرج الكاتب من هذا المطب الشعوري فإنه يكذب، يحاول أن يقلب الصورة، يتساوى بالخالق، يخلق الشخصيات ويحركها، يقتلها ويحييها، وأفضل الشخصيات التي يبرع الكاتب في تصويرها هي شخصية قارئ لا يجد طريقه، قارئ لا يستطيع أن يمارس الأفعال من الصنفين الأول والثاني إلا بحاجته إلى الفعل الثالث من شخص الكاتب، لكن الحقيقة أن الفعل الثالث في أحسن أحواله لا يعيش إلا معتمداً على الأفعال الأولى والثانية، كالبيع والشراء واستمتاع الآخرين بها، قيمة الكلمات على الورق مرهونة بمن سيقروها، عدا ذلك تُعتبر الكتابة جريمة، إفساداً لورق أبيض بلا جدوى».

هذا الحوار وحوارات أخرى كثيرة وثَّقت حالة جماعية من اعتزال الكتابة الأدبية بعد رفع الحروف وقبل ظهور «سمعان» بفتاواه الشاذة، لم تأتِ فتاوى «سمعان» من فراغ إذًا، الروائيون هم من هدموا عالمهم بأنفسهم من شدة الذعر، بعد أن فقدوا الوعد بخلود كلماتهم إلى النهاية.

هذه الحوارات كانت منشورة في كتاب صغير أعطته لي «إيلات»، اسم الكتاب «داء المجاز»، جمع وترتيب وتصنيف العبد الذليل إلى ربه «سمعان الشنقيطي».

اليوم الذي أعطتني فيه هذا الكتاب كان يومًا استقبلتني فيه بلا زينة، كأرملة في الأسبوع الأول من حزن مصطنع، بوجه مغسول كالرخام بعد مطر طويل، سألتها:

- أي هذه الكراسي تريدني أن أجلس عليه؟

ردت في انشغال من دون أن تنظر:

- كما تشاء، احتجت لرؤيتك لأطرح عليك سؤالاً لا يوجد له مقعد هنا، فاجلس على أي المقاعد شئت.

ثم رفعت رأسها ونظرت إلى وقفتي المندهشة:

- اجلس يا «إسماعيل»، بعد أن أفرغ من حاجتي معك الآن سأعيد ترتيب أولوياتنا؛ فالحاجة مفسدة للرؤية الصافية.

ثم تنفست بصوت مسموع وارتدت روحاً جديدة وسألتني:

- ماذا تعرف عن الأحلام يا «إسماعيل»؟

- إنها طريقة الجسم لتفسير إفرازاته البيولوجية عندما تنعدم الرؤية المفسرة.

- اسمح لي أن أقول لك: تفسرك وقح.

- هذا ما لديّ عنها.

- قصدت في سؤالِي الأحلام الصافية أو الجلية، التي يقول «أرسطو» عنها: يحدث كثيراً عندما يحلم الشخص أن يخبره شيء في وعيه أنه في حلم ليس إلا، والمعنى أن تستيقظ في حلمك يا «إسماعيل»، تكون واعياً أنك تحلم وأنت تحلم.

- هذا بائس.

- بالضبط كما تقول، بائس، هل تعرف يا «إسماعيل»؟ هذا الشيء الواعي موجود لديّ باستمرار في أحلامي، يفسد حالة التورط اللذيذة التي تجعل الناس يستمتعون بأحلامهم، أنا على العكس منهم، حتى الكوابيس لا أتورط فيها، حتى حينما أكون مريضة أو مُحِبَّة، مقابل هذا أتمتع بموهبة أعتقد أنها استثنائية، موهبة أعتقد أنها تُخرجني من نطاق البشر إلى نطاق الآلهة؛ فأنا أستطيع أن أقطع أحلامي وأستأنفها، ليلة بعد ليلة، هل تعتقد أن هذا طبيعي؟

- وهل تحلم الآلهة؟ بفرض أن لفظ الآلهة لفظ صحيح.

- تحلم بنا، نحن مجرد حلم، هل تعتقد لو أن الله - عز وجل -  
تعَمَّد خلقنا لأصبحنا بهذا الضعف والتعاسة؟

لم أِجِر جوابًا، وحتى لو حاولت، كانت «إيلات» تحدث نفسها،  
إنها تحتاج فقط إلى النظر لوجهي من وقت لآخر وهي تتكلم،  
وعندما صممتُ أردتُ أن أعطي الحديث دفعة في اتجاه آخر:  
- أخشى أن تكون بعض نصوصي التي أرسلها قد أغضبتك.

- لا تستطيع، لا تستطيع يا «إسماعيل».  
تجاهلت الإجابة الجافة وقلت مؤكدًا:

- هل تعجبك النصوص؟

- لا.. معظمها لا يعجبني، لكن لماذا تسأل عن الإعجاب؟ هذا  
الكرسي يعجبني، لكنه مجرد خشب وقماش، لا يستحق حتى لقب  
كرسي، وهل تريد الحقيقة؟ حسنًا، ها هي: أعترف أنني أكره بعض  
نصوصك.

- لماذا لم تقولي ذلك عندما سألتك إن كانت بعض نصوصي قد  
ضايقتك؟

- بقدر ما تفصح عن كراهيتك للأشياء تهبها الحياة يا «إسماعيل»،  
وأنا حريصة على ألا أهب الحياة لشيء أكرهه؛ لذا فأنا أقاوم رغبتني  
في أن أمزق الورقة التي تكتب عليها هذه النصوص وأرمي فتاتها في  
وجهك، فلو فعلت سيتملكني النص أكثر مما فعل.

كان هذا قاسيًا، كأن «إيلات» تعاقبني على مقاطعتها في حديثها عن  
أحلامها الخاصة، لقد استدعتني وأخبرتني أنها تحتاج إليّ، ثم ها أنا  
ذا، لا أهتم سوى بربايها في نصوصي.

- قل لي يا «إسماعيل»: هل تفكر وأنت تكتب نصوصك أنك  
ستنشرها يومًا ما؟

- نعم، أعتقد أن أي كاتب يفكر مثلي.

- لم يُعد في العالم من يفكر في نشر ما يكتبه يا عزيزي، حتى الله  
كف عن هذا، وسحب نسخ كتابه الأخير من الأسواق.

اتسعت عيناى من جرأتها:

- لو عرف الأستاذ «سمعان» أنني سأسمع هذا الكلام هنا ما  
أعطاني شهادة التخرج.

- دعنا من «سمعان» وقل لي، هل تعتقد أن ما تكتبه سيعيش  
بعدك طويلاً؟

- آمل ذلك.

- إذًا فالنص أهم من الكاتب يا «إسماعيل»؟

- لا توجد إجابة نموذجية لسؤال كهذا، ولكن لو افترضنا وجودها  
ستكون: نعم، النص أهم بكثير من الكاتب.

- يعني لو طُلب منك أن تُؤخذ نصوصك كلها على أن تُنشر في كتاب  
لن يُوضع اسمك عليه، هل ستوافق؟

- إن كان سيُنشر بلا احتقار ومن دون أن يُنسب لشخص آخر،  
سأوافق.

ظلت «إيلات» تنظر إليَّ وكأنها على وشك أن تخبرني بالغرض الخفي  
وراء أسئلتها الغامضة ثم عدلت رأيها ونسجت أسئلة أخرى من  
قماشة مختلفة:

- كم نسبة ما تفكر أنك ستشره وأنت تكتبه يا «إسماعيل»؟

- معظم ما أكتبه.

- وما تكتبه هنا، النصوص التي ترسلها إليَّ، هل هي من هذا  
المعظم؟

- نعم.

- ولا نص واحد خارج المعظم؟

- كلها داخل المعظم.

- إذاً أنت تخونني يا «إسماعيل»، خيانة ذهنية، وأنا لا أحب ذلك، عندما أطلب منك نصوفاً أرجو أن تكتبها لي، ولي أنا فقط.

- لكن هذا غير ممكن ببساطة.

- لماذا؟

- لا توجد نصوص خاصة بشخص، النصوص على هذه الشاكلة تسمى نصوص حب، لا يمكن أن يكتب رجل لامرأة نصاً متجرذاً من نظر الآخرين إليه إلا إن كان نصاً في الحب.

- إذاً اكتب لي نصاً في الحب يا «إسماعيل».

كانت هذه هي المرة الأولى التي قالت فيها هذه العبارة، قالتها باعتيادية، تفرست في وجهها حينئذ فأدهشني ما استخلصته منه، كان وجهها متعباً، كوجه ممرضة وحيدة في الهزيع الأخير من ليلة وقعت فيها حادثة هائلة، وهي المكلفة بجمع النظرات الأخيرة للموتى ومسح الدماء وتسكين الصرخات، وحدها، كان وجهها يستطيع أن يمرر عشرات الجمل الشبيهة بجملةتها الأخيرة «اكتب لي نصاً في الحب يا (إسماعيل)، أحبني يا (إسماعيل)، تعشق في يا (إسماعيل)» من دون أن يفضي إلا إلى معنى واحد: أنا متعبة، كلها ستكون درجات من المعنى نفسه، حتى لو قالت: أنا أعشقك فلن تعني إلا: أنا متعبة بشدة.

ثم استطردت تشكو:

- نحن نقرأ جنون الآخرين يا «إسماعيل»، ثمالتهم، وزجاجات خمرهم، وفي كل مرة كنت مضطرة أن أتمم قراءتي أجد نفسي وأنا أتحمّل نزق رجال كتبوا ولم يكونوا في كامل وعيهم ولا حتى نصفه، الروايات التي قرأتها كلها كانت ملآنة بزجاجات الخمر الفارغة، ولأنك رجل ربما لا تشعر بذلك، ربما لم تقرأ كثيراً، لكن المعول الأكبر

على أنك رجل، لا يشعر بنزق الرجال إلا امرأة كاملة مثلي.

ثم زفرت وكأنها تستيقظ من كابوس وأردفت بلهجة مرحة:

- لذا دعنا نحمد الله أنني وُلدت في هذا العصر حيث يمكنني أن  
أطلب النصوص التي أرغب في قراءتها، على الأقل النصوص التي  
أشعر أنها كُتبت من أجلي، لهذا سألت يا «إسماعيل»، فتحمل  
سخافتي.

- لا عليكِ يا «إيلات».

ابتسمت فانتبهت أنني خاطبتها باسمها مجرداً، وكأنها أرادت أن  
تكافئني على جرأتي فقالت:

- أنا أكتب أيضاً يا «إسماعيل»، ربما لم تكن تعرف هذا عني،  
ولكن بالنسبة لنصوصي فهي تناس لا أكثر.

- تناس؟

- أقصد أنني لا أخلقها من العدم.

- الأستاذ «سمعان» كان يقول: إن الله - تبارك وتعالى - وحده من  
يستطيع أن يكتب نصاً من العدم؛ لأن صفة الكتابة فرع على ذات  
الكاتب، والله خالق والبشر مخلوقون؛ لذا فإن كتابات البشر يعثرها  
النقص والأمراض.

- أختلف مع «سمعانك» تماماً، لكن دعنا نُجارِه في افتراضه، هل  
أخبركم كيف يكتب البشر إن لم يخلقوا نصوصهم من العدم؟  
- إichاءً من نص لآخر، كل نص معتمد على جسد نص سابق..  
وهكذا.

- هذه إحالة وليس تناصاً، ولو أن «سمعان» يقرأ الأدب ولا يُحرِّمه  
لعرف أن بعض البشر استطاعوا كتابة نصوص من العدم.

- ما الإحالة؟

- سأشرح لك بمثال: التناص هو أن يكون لما كتبه أساسٌ في حياتك

الواقعية، الشخصية التي تخلقها في نصك يجب أن تكون موجودة في مكان ما بعقلك، في وعيك، أو ما وراء الوعي منك، ملامحها الجسدية أو النفسية. أما الإحالة فهي أن تتأثر بنص آخر في أماكن معينة منه بشرط أن تذكر هذا في نصك وإلا اعتُبر سرقة أدبية.

- يملكني الفضول لقراءة هذه النصوص البشرية العدمية.

- أشم رائحة سخرية، لكنني لن أرد بمثلها، بل سأحاول أن أشرح لك: النصوص العدمية كما تسميها يا «إسماعيل» عليها اختلاف، تمامًا كالرسالات السماوية: مؤمنون وكفار، متعصبون ومعتدلون، قد تقرأ نصًا اعتبره أنا مخلوقًا من العدم وتعتبره أنت هراءً، تمامًا كما يسجد المسلم لآيات يعتبرها اليهودي كاذبة والعكس.

- السؤال الذي يدور ببالي الآن: هل تستطيعين التمييز بين نص كتبه الله - تبارك وتعالى - ونص عبقرى كتبه شخص من العدم؟ - لو لم أكن قادرة على التمييز ما أتعبت نفسي معك، اطمئن، أستطيع ذلك، وأضف إلى هذه القدرة معرفتي بأنك يومًا ما ستكتب هذا النص، ولكن ليس اليوم، ليس الآن، ليس بهذه الحياة التي تعيشها.

- لكن هذه الحياة مناسبة جدًا لي لأخلق نصًا من العدم عن شخص في العدم، مشاعرنا التي نبذلها من اتجاه واحد ولا ننتظر مقابلًا لها، أليست إلى شخص في العدم؟

ابتسمت «إيلات» من تغييري لموضوع المناقشة، ومسدت على ركبتيها ثم مسحت باليد نفسها على شعرها، سريعًا وكأنها تتأكد من وجود جسدها في موضعه ليس إلا، جسدها الذي كان الموضوع الأوحى لكل نصوصي، ثم قالت:

- كفاك مراوغة يا «إسماعيل»، لن تستدرجني إلى مثل هذا الحوار بهذه الطريقة، أنا أدير حوارًا مهمًا هنا وأنت منشغل بالتسلل إلى دهاليزي الخلفية، أنا امرأة قديمة يا «إسماعيل»، لا تترك المظاهر

تخدعك، لديّ حزن مقيم في عظامي، لدي عینان حزینتان علی الرغم من مظهری المبهرج، لا تأبه بی، بظاهری أقصد، فلو خلعت ملابسی الملونة المزهوة هذه الآن أمامك لن تبصر جلدًا أبيض ولحمًا يتنفّس، هذا إن كنت تمتلك البصيرة الكافية، كل الذين حاولوا التقرب مني اعتقدوا أنني بعيدة عنهم كالسما والنجوم والكواكب، وأن كل ما علیهم هو الصعود إلى فوق؛ لذا كانوا یلوّحون بدفاتر شیکاتهم دلیلاً علی أنهم یمتلكون المال الكافی لامتطاء صاروخ یصعد بهم إلى الفضاء، لكن الحقیقة لیست كذلک، لی یتملکني أحدهم یجب علیه أن یحفر کثیراً، لا أن یصعد، یحفر ویستخرج جثتی المدفونة تحت طبقات کثیرة فی الأرض.

استغرقها التشبیه، لدرجة أنها أمسکت مسند مقعدها وتنفست بصوت مسموع:

- هذه المرأة القديمة الملیئة بالخدوش والطعنات تخبرک الآن وعلیک أن تصدقها: أنت یمتلك القدرة علی إنقاذ العالم إذا ما واصلتَ الكتابة، هذا ما أبصره الأستاذ «سمعان» فیک، هذا ما عرفته اللجنة، وإرسالک إلى هذا القصر لیس أكثر من معالجة تافهة لوجودک، غادرَ هذا المكان یا «إسماعیل»، هذا المكان سیضرک أكثر مما سیفیدک، وتذكر أنني نصحتک.

- كأن المعول فی خیاراتی هو الضر والفائدة!

- نعم، ذهابک إلى مدرسة «سمعان» دلیل علی ذلک.

- ذهبت إلى هناك مُجبراً، وبقائی فی المدرسة دلیل علی الخوف، وإن کان لديّ مبرر لهذا الخوف، لكنی لا أرغب فی أن أقوله بتلك الطریقة. أشارت بیدها فی ضجر:

- حسناً حسناً، لا أتهمک یا «إسماعیل»، لیست نقیصة أن أقول إنک بحاجة إلى أن تغادر القصر، هل تعلم؟ أنا أيضاً بحاجة إلى الخروج من هنا.

- يمكنك أن تحققي ذلك في أي وقت تشائين.

- ليست هذه المغادرة، بل حلم بالمغادرة، رجل يأخذني من هنا، بعيدًا جدًّا، بعيدًا عن الشرق كله، بيت ريفي وسط مزرعة، نعيش معًا على أرجوحة، أضع رأسي على فخذه ويداعب شعري ويقرأ لي، أتمنى أن يقرأ لي «أليس في بلاد العجائب» و«ألف ليلة وليلة»، يعانقني بقسوة حتى أتهمد ويخرج من جوفي هذا الهواء العطن الذي أتفسه هنا، وفيما عدا هذا الحزن القاسي فهو رقيق رائع. كانت هذه مرة نادرة تحدثت فيها «إيلات» عن مشاعرها الحقيقية، ولو نظرْتُ إليَّ حينها وهي تتكلم عن الرجل الذي تشتهي، لو نظرت إليَّ إذ جاءني خاطر ضئيل أن يكون هو أنا، أنا الرجل المشتَهى، كل ملامحي التي كانت على وجهي مثل جُزُرٍ ناتئة، صدغي ونتوء ذقني أسفل لحيتي وجبهتي، وأنفي، حتى أنفي.. كلها غرقت الآن في دم أحمر ملتهب، وكان قلبي يدق، ومع دقائقه كانت الألوان المبهجة تنفجر في عيني.

لكنها لم تلاحظ، كانت غارقة في رؤياها، مطرقة الرأس وهي تُلحّد أمنيّتها بتمتّات خافتة:

- لكنه حلم، مجرد حلم.

- وما الذي يمنعك من تحقيقه؟

رفعت رأسها وابتسمت بمرارة وهي تقول:

- لقد فقدت قدرتي على الحب يا «إسماعيل»، لا قلب لي في الحقيقة، قلبي وضعته في رأسي، قربي من رجل واحد سحق كل رغبة لديّ في الرجال، الرجال كائنات جميلة جدًّا يا «إسماعيل»، وعلى الرغم ممّا حدث بحياتي من لغبطة بسبب فشلي في التعاطي معهم، فإنهم ضرورة شهية.

ثم انتبهت أخيرًا إلى تصرُّج وجهي وابتسمت:

- يا الله! إن وجهك يحمر عندما ذكرنا الحب، هل تذكرتها؟ ما اسمها؟ لم تخبرني باسمها، دعني أنا أضمن ما دُمت لا ترغب في إخباري بعد: غيداء، وسماء، رهف، فيحاء، هدير، ليلي، غيد، رغد، أهذاب.

- «هاجر».

نطقت الاسم ببطء كأنها تتذوّقه:

- «هاجر»، أعترف أنني لم أكن لأتوقعه، هذا أول الفيض يا «إسماعيل»، قطرة، لكني لا أطمع في أكثر من ذلك اليوم، يمكنك أن تنصرف الآن إن أردت، أو تبقى، لكني لن أتكلم، لم تعد بي قدرة على الكلام، لقد أرهقتني هذه الاعترافات التي لا طائل من ورائها.

\*\*\*

النصوص التي كتبتها إلى «إيلات» ضاعت في رحلتي الأخيرة، كثيرًا ما أتخيل أنني نسيته في القصر، وأن «إيلات» ستجدها وتحفظ بها، النص أهم من الكاتب، وليس هناك مكان أجمل لحفظ النص إلا في معية الإنسان الذي كُتب له.

لكن حرصني على أوراق نصوبي يُنبئني أنني لم أنسها، وأنها ضاعت، فمن أجل «نبوءات سيد القصر» كدتُ أهلك نفسي، أقصد قراري باستعادة أجندي الخاصة قبل هروبي من مدرسة «سمعان»، كان جنونًا، لكنه الشيء الذي جعلني أومن بالقدر في حكايتي كلها.

حددت لذلك يومًا لم أحضر فيه الحصص الأولى، اصطحبت معي كتاب المجاز وكراسي وقلمي، وخبأت مفكًا في كراسي، مفكًا صغيرًا كنت أستعمله في أعطال الكهرباء ببيت جدي، الروائح المبكرة لطهو الطعام في أثناء مروري بالمطعم هيّجت جوعي وذكرّني أنني لم أذُق طعامًا منذ استيقاظي وجعلتني أفكر: ربما كان عليّ أن أنفذ خطتي بعد وجبة الغداء، لكن بوابة المدرسة ستكون مغلقة حينئذ ووجودي فيها سيثير الشبهات.. منفلتًا من بوابة المدرسة إلى الفناء،

صعدت الدور الأول والثاني والثالث، ثم سرتُ في ممر الدور الرابع باتجاه الناحية الأخرى من المبنى، سرت بسرعة لكي لا يظن بي طلببة الفصول أو مدرسوهم الظنون، معظم أبواب الفصول كانت مغلقة على الطلبة، باب واحد فقط كان مدرسه منشغلًا بنوبة عطاس مفاجئة، يده ممسكة بالباب نصف فتحة ورأسه منحني لأسفل ينتظر مداهمة النوبة التالية.

باق من الزمن حتى انصراف الطلبة نصف ساعة، مشيت بحذر، صعدت الدور الرابع ثم جلست على أولى رخام السلم البارد وغرقت في تأملات غسقية لم أُنْتبه منها إلا على صوت انصراف زملائي الخمسة، ثم ساد الصمت، انتظرت ساعة أخرى حتى فرغت المدرسة تمامًا من موظفيها.

في أثناء هبوطي الدرج، كنت أسمع صوتًا لا يشبه صوت البشر، الأبواب مغلقة، ولا أحد في المدرسة، لكن خشب الدكك يئنُّ ومصاريع النوافذ يخرج منها صوت كالحفيف، إنَّ صخبًا كالذي يصنعه التلاميذ لا بُدَّ له من وقت حتى يتسرب خارج الجدران لتستعيد طبيعتها الصامتة.

لدهشتي كان باب المكتبة مفتوحًا، ليس بالكامل، بل مُوَارَبًا، تنصَّتُ، لا صوت، سأدخل الآن، ولو فوجئت بوجود الأستاذ «سمعان» سأعذر له عن تفويتي درس اليوم.

دخلت من انفراجة الباب الصغيرة، كان الأستاذ «سمعان» بالداخل كما توقعت، وعلى الرغم من ذلك اضطربتُ، جالسًا خلف مكتبه البعيد، كرسيه الفاره مقلوب بزواية تسمح له بالتحديق في السقف، القبة الزجاجية التي يقع خط المنتصف فيها بالضبط فوق المكتب، والمكتب في طرف المكتبة البعيد؛ حيث يزوي آخر ضوء للشمس على الرغم من أن وقت الغروب لم يحن بعدُ، شعاع الشمس الهابط من القبة كان عفيًا، والأستاذ «سمعان» ليس نائمًا، مُفَتَّح

العينين في هذا الضوء كأنه يود إحراقهما، كأنه يؤدي صلاة خاصة، أو يؤدي طقسًا يشبه الطقوس التي تقوم بها القبائل الوثنية لإثبات شيء ما، المشي فوق الجمر أو الجلوس على وسادة من المسامير الحادة.. ثم لاحظت الدموع، دموعًا تسيل من عيني الأستاذ «سمعان»، بكاء صامت بلا نشيج ولا همهمة، فكرت أن أعود بظهري للوراء بهدوء وأغادر، لكن المشهد كان أكبر من قدرتي على أن أخلع عيني عنه، ظللت واقفًا حتى انسحب شعاع الشمس من القبة وبقي الضوء، ثم انحنى الأستاذ «سمعان» فانحنى معه المقعد بثقله، كان على المكتب زجاجة ماء كبيرة، صب منها في كوب وشرب، ثم جمع بعضًا من أوراقه وقام ودار حول مكتبه وجاء ناحيتي. لا يراني، هكذا خمنت؛ حرارة الشمس لا تزال حية في عينيه ولن يراني، على الرغم من ذلك تحركتُ إلى زاوية مظلمة محافظًا على المسافة بيننا، متزحزحًا داخل المكتبة أكثر، وعندما وصل الأستاذ «سمعان» إلى الباب وخرج أغلق الباب خلفه.

\*\*\*

وقفت في المكتبة وحيدًا، بحثت عن زر إضاءة بلا جدوى؛ فالمكتبة في ضوء العصر كانت قريبة من الغروب، وبدخلي نما مزيج من الخوف لا أعرف له سببًا، ولم تُقدني شهيتي إلى الأرفف لتصفُّح الكتب، بل الخوف هو ما قادني لهزيمته في عين العاصفة، الخوف خدعني، درت حول مكتب الأستاذ «سمعان»، جلست على مقعده، انقلبت به في الوضع الذي رأيته عليه الأستاذ «سمعان» منذ قليل، تمعّنت في زجاج القبة باحثًا عن شيء يدعو لإمعان النظر، ثم أرجحت المقعد وعدت مستقيمًا في جلستي، عبثت بأصابعي في الكتب المتناثرة أمامي باحثًا عن أجندي، ثم بدا لي أن أشرب، ملأت نصف الكوب، رفعته إلى فمي وأملت، لكن رائحة الماء لم تدعني أشرب، وبحركة لا إرادية رفعت الكوب إلى الضوء الخافت لأجد به كدرًا

عالقًا خفيفًا، فاحت رائحة الحبر أقوى، كان الماء أسود، كان كوب ماء أسود من العالم القديم..

\*\*\*

الحقيقة لا تشبه إلا نفسها، مهما اختبأت أو التمسناها في المتشابهات: كوب ماء أسود ومكتبة محرمة على القراءة، وكنت أهذي وأنا أفتش في أدراج المكتب الأبنوسي، أهذي وأنا أعيد فتح زجاجة الماء وأقربها من أنفي وأشم، أهذي وأنا أحتسي قطرات من الماء الأسود وأحاول ابتلاعه وأبصقه.

ثم أتوجّه إلى أرفف المكتبة بساقين لينتين، ساحبًا جزءًا من الكتاب الأول، كتاب في الحديث أم في التاريخ؟ «سير أعلام النبلاء» لا شيء مريب، ثم سلسلة أجزاء «تفسير الظلال»، لم يكن الأمر مزريًا إلا لمدقق، وانتقلت إلى مجموعة أخرى: «تفسير القرطبي»، فبدأت المساحات البيضاء تطعن في عيني كلما تصفحت.

الرفع كان كاملاً، حتى الآيات الموجودة في سياق الكتابة رُفعت، الرفع كان كاملاً وقويًا، ولم يستطع أي شيء إعادة الحروف إلى أماكنها، حتى الأستاذ «سمعان» نفسه وفي مكتبته، وعلى الرغم من أن الدولة أهدمت الكتب التي تبقت فإن الأستاذ «سمعان» استطاع الاحتفاظ بكتبه كاملة، حتى الحبر الذي تخلف عنها أذابه في الماء وها هو يشربه لغرض لا يعلمه إلا الله.

بآلية لا تفكير فيها، أخذت أنتقل من رفٍّ لآخر، ألتقط الكتاب، أتصفحه سريعًا، أعيده بحرص وأنتقل إلى غيره، البياض يوغل في صدري قليلًا قليلًا، بينما تعصر القلب قبضةً باردة، وعندما كفت عن اعتصاره دبّت فيه حرارة الدموع، بكى قلبي قبل أن تبكي عيناى، عدت إلى الخلف مصطدماً بالحبال التي تصنع حرماً حول الأرفف وجلست، وجدت نفسي أتساءل: هل هذه الفراغات البيضاء كفن أم شرنقة؟ وكأن إجابة السؤال يتوقف عليها مصير الكون: هل ما

يعيشه العالم بداية جديدة أم نهاية؟

أيًا ما كانت الطريقة، ثَمَّة يدُ إلهية مرَّت من هنا، نثرت جرادًا سماويًا فالتهم الحروف المقدسة في الكتب، التهم الجذور وترك الفروع تجف والأوراق تيبس عليها، ربما ملائكة رففوا بأجنحتهم النورانية وهم يتصفحون الكتب بسرعة خارقة، بينما توقَّف لهم الزمن وانداح لهم البُعد، ليحققوا النبوءة أو يوقعوا اللعنة، فيعود العالم إلى ما قبل الاتصال مع السماء.. لا، ليس بالضبط، لقد ترك البقايا العالقة، ترك مريدين وأشرارًا، ترك مشايخ لا يعرفون كيف يدقون مسامير إطارات صورهم المقدسة على حائط من هواء.

كل هذا القَدْر من الرؤية كان أكبر من أن يتحملة قلبي، كان لزامًا عليَّ أن أغادر المكان بأي طريقة، حتى لو اضطررت إلى كسر الباب، من دون أوراق قصتي، لم أعد أرغب في الحصول عليها، لا أرغب في شيء إلا أن أغادر هذا المكان، طرف العالم البائس، ليس فقط، بل أرشيف البؤس، بحثت عن مفاتيح، بحثت في أدراج المكتب وعلى الأرفف القريبة من الباب، بحثت تحت الأبسطة، أغمضت عيني في ألم، ومثل وحي هبطت فكرة الهروب..

\*\*\*

كانت هذه هي الحادثة التي حكيْتُ لـ«إيلات» عنها، سقوطي من فوق أرفف المكتبة، وثلاثة أسابيع من الألم لم يتخلَّف فيها قيَم مبنى أبي بكر الصديق يومًا واحدًا منها، يأتي ليصحبني إلى الطبيب، نهبط الدرج، أستند على كتفه العفيفة بذراع، وكف الذراع الأخرى أنقلها على جدار الدرج وأنا أنقل ساقي المصابة من سُلَّم لآخر، يعرفني الممرض والصيدلي باسم «الفتى الذي سقط في المكتبة» فيقدّمونني على سائر الطلبة، يفحص الطبيب الورم ومدى انحساره عن ركبتَي ويعطيني حبوب المضاد الحيوي فابتلعها وأخذ جرعة المساء وأنصرف.

في اليوم الأول الذي تمكنت فيه من السير من دون مساعدة القيّم تحررتُ منه، سرت على قدمي ذهابًا وإيابًا، ولم أمكث في غرفتي طويلاً بعد عودتي، نزلت أترَيضُ وحملتني حركةُ الطلبة المتوضئين إلى المسجد، صليتُ، وعندما أردت أن أخرج بعد انتهاء الصلاة لم أجد حذائي، كان عليّ أن أنتظر بالمسجد؛ فكثيرًا ما يأتي الطلبة مباشرة من زياراتهم للخارج فيستعيرون أحذية المصلين الخفيفة القابلة للبلل بدلًا من أحذيتهم الجلدية الثقيلة، خاصة في أثناء صلاة العصر، دفعني الانتظار إلى أن أستعير كتابًا ما من فوق الرف، ما اسمه؟ ما اسم الكتاب؟ لا أتذكر، ما أتذكره أنه كان في علم الحديث، أسندت ظهري ومددت قدمي الحافيتين في اتجاه غير اتجاه القبلة وبدأت أقرأ، كنت أشعر بحواسي - ليس بسبب القراءة ولا طبيعة المكان - وكأنها تمر بهذا التغيُّر الذي تمر به الحواس عند البلوغ وتغيُّر الفصول والحب الأول والتعصُّب، قلبي متفتح كزهرة حمراء قانية على سطح بحيرة قديمة؛ حيث كان كل شيء أوليًا، والكتاب البارد يشغفك، كم مرة في حياة المرء يمكن أن يشغفه كتابٌ في علم الحديث، أو الجغرافيا، أو النسبية، أو أسماء النجوم في المجرة ومواقعها.. رائحة نضج الفول المعدّ للعشاء في مطعم الطلاب تثير جوعي، ثم نمت، نمت بعمق لا أستطيع أن أبرره، وحلمت، رأيت نفسي بالحلم في ثياب فتى عربي نائم أسفل نخلة عتيقة، استيقظت - في الحلم - وعندما استيقظتُ استيقظتُ بداخلي ذكريات رحلة كاملة مُدهشة ومُرهقة للبحث عن أصل مثل عربي قديم، كان المثل يربط بين علو النخلة وطيب الثمرة وقوة سعفها، وكانت فيه صفة تغفر لصفتين، أو صفتان تغفران لصفة، بشرط أن الصفة الجيدة ليست هي الثمرة الطيبة، وكان معنى المثل العربي منصرفًا إلى الإباء والترفع، لكن روح الحلم كانت غارقة في الاندثار والتبدد، والوحشة التي كانت بداخلي تشبه الوحشة التي تولدت في نفسي أول مرة حكى لي جدي فيها عن محو الحروف المقدسة.

لم يكتمل الحلم؛ فقد أيقظني منه آخر شخص كنت أتوقعه:  
أستاذ «سمعان الشنقيطي».

\*\*\*

خارج مكتبته، كان الأستاذ «سمعان» مفرط الطول، مبتسمًا على الدوام، كثيرًا ما فكرت أن ابتسامته تلك ابتسامة عامة، لا تخص أحدًا ولا حدثًا ولا ذكرى، ابتسامة على حدود عائمة تضع خطوطًا على إطار الوجه: هنا الفم، فوق الأنف، تحته اللحية الخفيفة الهائشة، لكن ابتسامته لي في هذا اليوم كانت ذات مغزى، الكتاب لا يزال في يدي المتراخية مثل ريق نائم، أخذه مني وأغلقه وأعطانيه فدسسته تحت إبطي، ولم ينظر إلى عنوان الكتاب كأنه رسالة إلهية لا ينبغي عليه أن يتلصص عليها، قال:  
- تعال معي يا «إسماعيل».

قلت:

- لكن حذائي ضائع، وهذا سبب بقائي في المسجد.

ابتسم وأخذ حذاءه فوضعه تحت إبطه وخطا خارج المسجد حافيًا فتشجعت وتغلبت على خجلي، وخرجت معه.

مشينا على أسفلت الطريق حافيين، الأسفلت يخزن حرارة الظهيرة، لكنه لا يلسع الجلد، بينما يسرد الأستاذ «سمعان» متن أحاديث نبوية كان فيها الرسول، صلى الله عليه وسلم، حافيًا كان كل من يمر بنا من الطلبة يحيينا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. يرد الأستاذ «سمعان» تارة وأرد أنا تارة أخرى؛ رد السلام فرض كفاية، دُرنا حول الأبنية السكنية، مررنا بنوافذ المطبخ العالية خلف مبنى علي بن أبي طالب، أسفل النوافذ وعلى العشب يتمدد الجسد البرميلي لمرجل الماء الساخن الذي يعمل بالسولار، كان خامدًا؛ فاليوم ليس يوم الاثنين ولا الخميس ولا الجمعة، أيام الاغتسال الجماعي. غير بعيد عن سور الأبنية السكنية للطلاب، يوجد المبنى المنفصل لذيّل

الكهرباء الاحتياطي، والباب الصغير الذي يؤدي إلى المدرسة، عبّر الأستاذ «سمعان» من الباب الصغير وعبرْتُ خلفه، لم أكن أعلم أن عبوري هذا الباب خلفه سيبدّل حياتي للأبد، الأستاذ «سمعان» ذاهب بي إلى المكتبة، لكنني استمررت في السير خلفه، أشعر باتكاء قلبي على عظام صدري خفيفًا، وانضغاط قدميَّ على الأرض خفيفًا، وضمة إبطي للكتاب تحت ذراعي خفيفًا، والأستاذ «سمعان» يسير أمامي تعرف قدماه الطريق جيدًا على الرغم من صداد الظلام الذي يكسو البصر الحديدي، واللحظة خارج السياق، كل ما يحدث بعد استيقاظي من نومة المسجد خارج السياق، ولولا ممر الحصى الذي بدأت تنوءاته تشيك قدمي لظننت أن الحلم مستمر، ولولا بقايا الكدر الذي ظل عالقًا بقلبي تجاه الأستاذ «سمعان» لظننت أنه نؤمني وسار بي.

ثم بدا لي كل حدثٍ مفسّرًا بدقة ومبررًا بشكل تلقائي، السرية والكتب والصفحات المنزوعة في كتب جدي والصفقات التي تتصيّد لحظات تفتّح القلب، إلا رغبة الأستاذ «سمعان»؛ إذ جعلني أحفظ بكتاب علم الحديث الذي استعثرته من رف مكتبة المسجد، وكنت أعلم أنه يقودني إلى إجابة ما في مكتبته وأن تعجلها يفسد التراتبية والتلقائية والبساطة التي بدأت الأمور تصير إليها بيننا، فسرت خلفه.

\*\*\*

عندما أضاء الأستاذ «سمعان» ضوء المكتبة، تحولت أشباح الأرفف العالية إلى واقع كئيب، تحولت من أشباح مفرطة في المعنى إلى أجساد بلا روح، سحبت كتاب علم الحديث من تحت ذراعي ووضعتَه على مكتب الأستاذ «سمعان» وجلست حيث أشار لي، وعندما أبصرتُ أصابعي أدركتُ كم أنها لم تعد تشبهني، ونظرت إلى أرفف المكتبة وأدركتُ كم أنها أصبحت مخيفة لي، ونظرت في داخلي فأيقنت: كم غيّرتني تلك الليلة التي بُثّها في المكتبة!

قبل أسبوعين فقط كنت هنا، وكنت «إسماعيل» آخر.

قال الأستاذ «سمعان»:

- هذه السقطة كان يجب أن تكسر ساقيك، لكن الحمد لله على ما قدر وفعل.

قلت:

- الحمد لله.

- هل لي أن أعرف كيف سقطت وما الذي كنت تبتغيه من الصعود إلى ما خلف الأرفف؟

- كنت أريد أن أصل إلى مكان الباب في الدور الثالث المطل على الدرج لأخرج منه.

- وكيف كنت ستخرج منه وهو مغلق؟

- كنت سأنبش مكان الكالون بمفك معي.

- ولماذا لم تفعل هذا بباب المكتبة من دون أن تؤذي نفسك؟

- ظننت أن بإمكانني إصلاحه فيما بعد من دون أن تتبّه.

تنهد الأستاذ «سمعان»:

- هل يمكنني أن أعرف ما الذي كنت تفعله في المكتبة بعد انصراف الطلبة وكلف المدرسة ثمن جبيرة لساقك؟

- كنت أسرق الأجندة التي أخذتها مني من دون وجه حق.

- لماذا؟

- لأنك أهنتني وأهنت ما كتبته فيها.

قلت من دون أن أخشى سخريته، قلته وأنا أسأل نفسي: لماذا أنت متيقن أن الأستاذ «سمعان» لن يكون على سجيته الدائمة، وأنه لن

يقول الآن: «هل تعتقد يا (إسماعيل) أن الكلمات جزء منك، صفة من صفاتك؟» ثم يسعى ليسفّه منها.

قال الأستاذ «سمعان»:

- حسنًا، لا أريد أن أكون عبئًا عليك أكثر مما تحتمل، ولكن كان يجب أن يدور هذا الحديث بيننا على أي حال، ها هي أجندتك، خذها وانصرف.

ثم التقطها وألقاها أمامي فهبطت على المكتب، الهواء الذي هرب من سقطتها جعل عينيَّ تطرفان، ولم أمد يدي لأخذها، وبقيت جالسًا.

طول الأسبوعين اللذين مكثتهما في غرفتي أدير هذا الحوار بيني وبين نفسي عشرات المرات، الحجج والبراهين والاتهامات، مرة أنتحل عقل «سمعان»، وأخرى أنتحل شخصيتي التي سأبدو بها أمامه، وكأنني لم أنو الهرب بعد ما اكتشفته بالمكتبة، هل كان الأستاذ «سمعان» قادرًا على مساعدتي في تجاوزه، بعد أن ألقى الأجندة وأعطاني الخيار في المغادرة فبقيت، بقيت لأسمعه وهو يزيح الغطاء عن جثة حدثنا المشترك ويسألني:

- ما الذي تعرفه عن نسخ القرآن يا «إسماعيل»؟

- أعرف أنواع النسخ، قد يُنسخ الرسم والتلاوة ويظل الحكم والمعنى، وقد يُنسخ الحكم والمعنى ويظل الرسم والتلاوة.

- اثبت على معنى النسخ الأول ولنناقشه، أن يُنسخ الرسم والتلاوة، أي يغيب اللفظ من رسم القرآن في المصحف فلا تتلوه فيما تتلو من قرآن، ولكن يظل حكمه موجودًا، مثل آية الرجم للزاني المحصن، هل تعرفها؟

- نعم، كانت الآية موجودة ثم مُحيت وبقي الحكم.

- هل تستطيع أن تخبرني لماذا يظل حكم آية مُحيت في الأساس من القرآن؟

- لا.. لا أعرف.

- لهذا اليوم يا «إسماعيل»، لتفسير المعجم بيننا، ولنجد راحة صدورنا حتى لو عرفنا ما لا يعرفه الناس، إن القرآن لو مُحي كله من المصاحف سيظل حكمه موجودًا بيننا ما دُمنا أحياء.

- ولكني لم أجيء معك إلى هنا يا أستاذ «سمعان» لأسألك عن هذا.

- إذا فلماذا جئت؟

ألقى سؤاله وانتظر إجابتي، لكنني لم أجبه؛ ففي هذه اللحظة وقبل أن أفتح فمي تغيرت حياتي للأبد، وبوعي لا يمكن خداعه، كنت أرى ما لا يمكن لأستاذ «سمعان» أن يراه، مصيري في أن أسير خلف العميان لأتلو عليهم أناشيدي، ليس طمعًا أن أشفيهم بها، كان مصيرًا محيطًا بي يشبه أكثر ما يشبه حدقة عين عمياء مفتوحة على آخرها لترى، من دون جدوى، وفي هذه العين كنت أرى نهاية قصتي.

\*\*\*

## الفصل الثالث

### يوم الخروج

ما حدث بعد حادثة «أبان» بثلاث سنوات



كانوا يخرجوننا معاً، إلى الساحة المغلقة، أنا و«حسين»، مرة واحدة قبل أن يحاول «حسين» قتلي، أسقطني ووضع ركبتيه على صدري وشرع يُحكم كلتا قبضتيه على عنقي، في أثناء ذلك لم أقاوم، في جزء من إقامتي هنا أردتُ أن أموت ولكني لم أجروُ على فعل ذلك بنفسي، تجربة كهذه لا بأس بزخمها، أن يقتلك أحد دون أن تشغل نفسك بالدفاع، تبدأ في النظر إلى تجعّد ملامح وجهه وعينه اللتين يأخذ بياضهما في الازرقاق بفعل الاختناق، تراقب الكراهية وكيف تدفع كالحبر السام من تلك الأبواب الهدبية التي تُشكل القزحية، وتغذي إنسانيّ العينين لتتجسد فيهما الكراهية كالرمح، لكن نظراتي الحائرة فكّكت قبضتيه من فوق رقبتني قبل أن يجذبه الحارس، بعدها عرفت أنهم خصصوا له من وقت الصباح إلى الظهرية وخصصوا لي وقتاً من بعد القيلولة إلى الغروب. لماذا يكرهني «حسين» بهذه القوة وأنا لا أعرفه، ولم ألتقهِ إلا مرتين فقط؟ المرة الأولى التي التقيت فيها حسين يوم تخرجني من المدرسة، لا أنسى أبداً هذا البطء والأعصاب الباردة، وأنا أنثر أشياء تمهيدا لنقلها إلى الحقيبة: فوق المقعد، على سجادة الصلاة، وبسطح منضدة المذاكرة، سجّيتها مثل رفاق قتلي في معركة ضارية، وكأنه لا ينبغي دفنها بكل ما تحمل من ذكريات هادرة من دون تأبين لائق، وإن كان تأبيناً أخرس، حتى الوارد الجديد على أشياء: شهادة ورقية ملونة، «إجازة» كما هي مُعنونة، وجدت تأبينها المناسب أيضاً، ماتت قبل أن تولد، ماتت ولحقت بالموتى رفقة لا انتماء.

اغتسلتُ بينما مرأى الشهادة الملونة عالق كالمديّة في حلق عيني، منذ سلّمها لي الأستاذ «سمعان» قبل يومين وهي توغل برفق في نسيج اطمئناني، كان من المفارقة أن يتم تكريمي بورقة في مدرسة مؤسسة على تجريم الكتابة الأدبية، سلّمها لي في مكتبته بعد أن ختمها بشعار المدرسة، بإحكام قبضة تستوثق من انقطاع النفس

عن ضحيتها بعد خنقها، ثم نظر إليّ لمدة دقيقة وكانت هذه أطول نظرة تبادلها معي طيلة ثلاث سنوات إلا أشهر، ثم أعلمني أن عليّ الانتظار حتى تأتي السيارة لتأخذني:

- سترسل لك الحكومة سيارة غداً أو بعد غد لتأخذك إلى مكان عملك.

سألته:

- هل عندك علم بالمكان الذي سألتحق بالعمل فيه؟

- لا أعرف بالضبط، المكان اللائق بك ستحدده اللجنة التي ستناقش درجاتك.

اللجنة، الاختبار، الكلمات التي ذكرتها بالأيام القديمة، كأنني أفيق من حلم طويل.

- ألسنت عضوًا في اللجنة؟

- بلى، لكني لا أستطيع أن أكون كذلك فيما يخصك، أنت تلميذي، هناك رابط بيني وبينك يؤثر على حياديتي.

كان يكذب، الأستاذ «سمعان» يكذب ببساطة؛ لأنه لا شيء في العالم يمكنه أن يؤثر على حياديته، ولا حتى مصيره الخاص، والجميع يعلمون ذلك، كل رجال الحكومة القديمة والجديدة، لو كانت حياة الأستاذ «سمعان» بين الحد الفاصل للقرار وحياديته لن يتردد في قطع الخيط دون أن تطرف عينه.

لا بد أن الأستاذ «سمعان» قرأ أفكاره حينئذ، فعيناي كانتا سهلتي المنال؛ لذا فقد قال وهو يقص بعناية الأعشاب الضارة للقلق التي نبتت حول يؤبؤي العينين:

- أخبرني على أي حال، ما الخيارات المتاحة أمامك: أن تعود إلى بيت جدك؟ البيت ملك للحكومة ستأخذه يومًا ما بعد أن مات جدك، هذا غير أن الاحتمال الكبير أن تأخذ اللجنة موضوع سكنك

في الاعتبار وتوفير لك عملاً وإقامة معتمدة عليه.

كان هذا كثيرًا جدًا من الكلام الذي من عادة الأستاذ «سمعان» أن ينطقه، كثيرًا لدرجة أنني بدأت أشعر بإرهاق وريبة؛ فدائمًا ما كان الأستاذ «سمعان» صامتًا فيما يخص الأحوال، ثرثارًا فيما يخص مواضيع الدراسة الأثيرة لديه، ولو أنه صدق في العناية بحالي لأخبرني أنه من غير المعتاد أن تأتي سيارة لاصطحاب الطلبة إلى العمل الذي رُشِّحوا له، قليل جدًا من الطلبة من أنت السيارة لتأخذهم، ندرتهم جعلتهم أساطير بلا معاصرين لوجودهم يروون عنهم، لكن الحكايات اتفقت على شيء واحد، كلهم كانوا مميزين، مميزين بعقولهم، ومميزين بطبائعهم.. وأنت مميز أيضًا يا «إسماعيل».

بعد أن اغتسلت ورتبت أشيائي في حقيبتي، رقدت على ظهري، تمامًا كما فعلتُ في أول ليلة لي في مدينة الطلاب، من دون غطاء وبلا وسادة، نمتُ كمومياء فرعونية؛ فالمستلزمات التي كنت قد تسلمتها منذ ثلاث سنوات نصحني قيّم المبنى أن أعيدها، لكي أوفر على نفسي الخوض في إجراءات عقيمة وانتظار مجيء الموظفين من بيوتهم، كان ينبغي عليّ في ليلتي الأخيرة بالمدرسة أن أتدبر الأمر، أمر نومي على فراش جاف وأمر الأرق، ولكن لماذا هاجمتني هذه الألفة الغريبة؟! حاولت التماسها طيلة ثلاث سنوات فلم تأتِ، كنت أحاول هزيمتها في هذه الليلة لأصبح غريبًا عن المدرسة وأنا لم أغادرها بعد، مثل زوبعة حزينة في مكان خرب طافت ذاكرتي بالمطعم والفصول ومدينة الطلبة وسطح المكتبة ذي القبة الزجاجية والحديقة الصغيرة، متعسرًا بصعوبة بالغة في غرفة الاستماع، حاشدًا قوتي لأهزم حيني إلى أرفف المكتبة، حتى حيني إلى العبارة المفزعة التي ألفتها وألفت التشوه التي صنعته بداخلي: «الجهل يستوجب القتل»، كانت ليلتي الأخيرة التي لن تُحل فيها إشكالات سنوات ثلاث، أغمضت عيني وأسندت ساعدي الأيمن إلى جبيني وحاولت أن أنظم أنفاسي، غدًا

لديّ سفر آخر لن أدفع نفقته، إلى جهة لا أعلمها وعليّ أن أصدق أن الأستاذ «سمعان» أيضًا لا يعلمها.

لكن، كم مرة قال الأستاذ «سمعان» عن أشياء «لا أعلمها» وهو يعلمها! لا يكذب في ذلك، لكنه يُعرض، وفي المعارض مندوحة عن الكذب، مع أنه قال إن الصدق واسع، يسع كل شيء.

\*\*\*

في الصباح، وعندما أخبرني قيّم الدور الثالث في مبنى أبي بكر الصديق بمدينة الطلاب أن السيارة تنتظري بالخارج تحيرت في التصرف المناسب، هل أذهب مباشرة حاملاً حقيتي، أم أمرّ على الأستاذ «سمعان» لأودعه؟! فأنا غادرت مكتبه بعد أن سلمني الشهادة دون أن أضافه حتى، لم يكن الأستاذ «سمعان» يحب المصافحة، فضلاً عن المعانقة، وإذا اضطر لمصافحة لا يشد على يد ولا يرخيها، يمسكها مسكاً لا مشاعر فيه ويدفعها في صدرك كأنه يطلب منك أن تكفكف من مشارك الفياضة تجاهه.

كانت الكتابة هي ثالثنا دائماً، كالشيطان، ولكن ليس للإغواء، بل للتحريش، ولكن في هذه المرة الأخيرة لم تكن الكتابة هناك، بدا الأستاذ «سمعان» منطفئاً، عجوزاً مألوفاً وكأنه لم يقل ذات ظهيرة بعيدة زاعقاً بملء فمه:

- أنا لا أسعى لإثبات أن الكتابة ذنب، بل أسعى لاعتراف المجتمع بها كمرض، الذنب أن تُخفي مرضك، وأول واجب عليك أن تؤديه تجاه هذا المجتمع أن تقول: أنا كاتب، حتى بائع الخضراوات والبقال والبواب وجامع القمامة يجب أن يعرفوا أنك كاتب، ليس كمجنون ولا كني، بل كمرض يجب عليك أن تحمله في جسدك عوضاً عن جسد مجتمعك دون أن تمرض به أو تنقله لغيرك، المجاز سيظل موجوداً ولن يموت أبداً، قل ما قلته مرة أخرى يا «إسماعيل»، بلفظك أنت، اختصر وقل:

- الكتابة الأدبية هي المجاز، المجاز مرض، ولكن حامله ليسوا مرضى.

- صفّقوا لـ«إسماعيل» على إجابته.

كان ردي ساخرًا بقدر موضوعيته، ويصعب الفصل بينهما إلا لخبير في اللهجات، خلال سنوات دراستي تعلمت ألا أنكر الكتابة كصفة ملازمة لي، لكن هذا لا يمنع أن أثقب من خلالها ثقبًا لمراقبة الآخرين والتعامل مع سخريتهم وشفقتهم وعدائهم، وأن أبادلهم السخرية والشفقة والمعاداة، كأنهم أشخاص في حكاياتي التي أكتبها في السر. قيّم الدور بمدينة الطلاب، الذي ودعني بمصافحة باردة على الرغم من علاقتنا الطويلة، ومدير المطعم الذي ظل طيلة ثلاث سنوات مُصرًا على جعلي أكل طعامي وأنا حافي القدمين، أو حتى الأستاذ «سمعان» الذي طلب من الطلبة أن يصفقوا لي على إجابتي، صفقوا بين التردد والدهشة، كان الأستاذ «سمعان» حاد الذكاء، وساخراً مثلي ويحب التعليم بطريقة إيقاع الآخرين في الأخطاء ثم تبيان الخطأ؛ فبعد أن هدأ التصفيق أظهر الحكم الشرعي، قال إن التصفيق جُعِل للنساء للتنبيه إلى الخطأ ولم يُجعل للرجال؛ لذا فقد أخطأ الذكور مرتين، مرة عندما صفقوا وكان عليهم تبيان الخطأ ومرة عندما صفقوا كالنساء، ولكن «هاجر» و«بثينة» أصابتا في تصفيقهما. ثم قال:

- أخطأ «إسماعيل» كثيرًا في اختصاره؛ فالكتابة الأدبية ليست هي المجاز؛ فالمجاز مرض عارض عليها، لكنه عارض طبيعي، تمامًا كالعُشب بين النباتات المفيدة والزنابير اللاسعة مع النحل والمطر إذا وقع على الأرض بعيدًا عن النباتات فانعجن بالتراب وأعاق السير فيه.

وددت حينئذٍ لو أخبرت الأستاذ «سمعان» بأنني أحب العشب والزنابير اللاسعة وما يفعله المطر والتراب بالسائرين عليه إذا

اجتمعاء، وودت لو أخبرته بما أظنه حقيقة عن الكتابة، الكتابة التي هي الشخص الثالث بين اثنين لا يوجد تفسير معقول لعلاقتهم، كالحب أو الكراهية من دون أسباب أو مقدمات، الكتابة التي جعلتني أقرر البقاء في المدرسة ليلة المكتبة بعد أن أطلق سراحى.

لذا فبمجرد أن دخلت السيارة التي ستنقلني إلى مكان عملي اندهشت، ففي علاقة عابرة كعلاقتي بسائق السيارة الحكومية لم يكن ينبغي أن تكون الكتابة هي الشخص الثالث بيننا، الكتابة تؤرخ للمسافات البينية في المجاز، ومع سائق السيارة حتى المسافة الحقيقية بيننا كانت مشغولة بمسند المقعد اللامع المنتصب والهواء الساخن بضراوة حرارة هذا الوقت من العام وهذا الوقت من النهار.

عندما ولجت في السيارة، شعرت أن الكتابة تجاهلت الفالس الحزين لوداع مدرستي، ولم تنظر للخلف، بل للأمام، لظهر السائق، ونظرت مثلها فبعثرتني روائح لا علاقة لها بالمكان الذي لا بُدَّ سأقصده الآن، أريج تفاحة، وعطر نسائي شرس، وهواء مكتوم تسلُّقه الشمس في مكان مغلق، ورائحة العشب الأخضر عند البيارات، وكأنها نبوءة لا معنى لها إلا أن لديَّ يومًا حافلًا، يومًا أخيرًا.

شعرت أن هذا السائق سيكون الفصل الأهم في روايتي التي لم نُكتب بعدُ وأن الروائح التي اجتاحت أنفي منذ قليل كانت متن النهاية المقدرة لحياتي.

منساقًا بقوة القلب الوحشية لتنفيذ نبوءتي استسلمت، مسندًا ظهري إلى مقعد السيارة وهي تتحرك بي بعيدًا عن المدرسة بصحبة «حسين» وأغمضت عيني..

## «حسين» - القاتل

لم يتسلَّم الظرف هذه المرة من المصدر الذي سيُقل منه الزبون، بل من مكتبة لبيع الكتب، الوجهة التي وجهها إليه مَنْ سلمه الظرف جعلته يمكث لأكثر من ساعة في سيارته لاهثاً، مستعيداً الكلمات الهامسة كلمةً كلمة، بل حرفاً حرفاً: مدرسة أستاذ «سمعان الشنقيطي»، القرية السكنية للطلاب، إلى هناك يجب أن يقود سيارته، ويتوقف في انتظار من صدر ضده حكم القصاص.

هل عدلوا عن فكرة قتل «سمعان» بقتل تلاميذه، قص جناحيه؟! لدهشة «حسين» اكتشف أن هذه هي المرة الأولى التي سىرى فيها مدرسة أستاذ «سمعان الشنقيطي»، على الرغم من أنه كثيراً ما تبادل هو وعمه الأحاديث الشائقة عنها، لدرجة جعلته يتمنى أن يزورها بعد عودته من الصعيد، لكنه لم يفعل، ربما بسبب فشله في الالتحاق بها من خلال الاختبار، أو مهنته التي لم يتوقعها والتي تبدو له بعيدة كل البعد عن المجال الذي أحبه: الفقه والتدريس، ظلت لمدرسة الأستاذ «سمعان» قدسيته الخاصة التي لا يستطيع أن يلوثها بمهنته على الرغم من قناعته بسموها.

عندما أخبر حارس المدرسة بمقدمه لم يتمالك مشاعره، ترك زجاج النافذة مفتوحاً مستنشقاً رائحة الحبر والورق، التي عادت به إلى أيامه القديمة، أيام غرفة النسخ في بيت عمه.

كان عمه الأزهري يتكسَّب عيشه من بيع سور القرآن الورقية، مستعملاً حبراً مخففاً بماء قديم مقروء عليه آية الكرسي لتثبيت الحروف المقدسة، حبراً خفيفاً جداً لدرجة أن الكتابة به لا تكاد تظهر إلا تحت ضوء ساطع، كتب عدة سور من حفظه ثم قام بتعليم معظم أطفال العائلة كيف يكتبون القرآن من هذه النسخ،

كيف يرسمونه، وما زال «حسين» يحتفظ بأروع خط على الإطلاق من كثرة ما التحم بنانه بالحروف المقدسة، كتب مئة مخطوطة قبل أن يتعلم القراءة والكتابة، وخمسين بعد أن تعلم القراءة والكتابة، تصوير الكتابة أثقل عندما تعرف معاني الكلمات التي تكتبها.

لذا، فإن «حسين» يمتلك هواية غريبة بعض الشيء، تصحيح أخطاء رسم الأسماء في أطرف الإعدام التي يتسلّمها، يصحح الاسم قبل أن يحرق الظرف فوق الجثة التي يدفنها، بل إنه نوى - عندما يُحال إلى المعاش وقبل أن يُسلّم كتيب الإرشاد لمن سيأتي بعده - أن يضيف قاعدة مهمة أسفل قاعدة «إنه ينبغي على المحكوم عليه بالإعدام معرفة تهمة»، قاعدة تقول: ينبغي أن يُكتب اسم المحكوم عليه بالإعدام بالرسم الصحيح ودون أخطاء، لكي تصعد روحه إلى السماء وتجد طريقها بسهولة إلى خالقها.

هذه قاعدة لا تقل أهمية لو يعلم موظف تحرير الأطرف خلف مكتبه، القتل بهذه الطريقة يكون تبيدًا، عبثًا، طقسًا همجيًا من طقوس الفراعنة القدامى، عندما كانوا يفتحون مقابر أعدائهم ويطمسون أسماءهم من فوق قوارير الأحشاء كيّدًا لهم ليتوهوا في سرايب الآخرة.

عندما قام موظف تسجيل المواليد بكتابة اسم «حسين» كتبه بطريقة خاطئة: حسين العدوي، وليس العدوي، أكثر من نصف أفراد العائلة سُوّت أسماءهم بالطريقة نفسها، وانتقل الخطأ من شهادة الميلاد إلى جميع أوراقهم الرسمية.

قال «حسين» لعمه:

- عندما أعود للعاصمة سأقدم طلبًا حكوميًا لتغيير الحرف الخطأ في اسمي.

- عندما تعود إلى العاصمة يجب أن تجعل أولى أولوياتك أن تلتحق بمدرسة «سمعان»، بعدها يمكنك أن تفعل أي شيء، ميراث الدين

أهم من ميراث العائلة.

على كثرة الأوقات التي جمعتهم، لا يتذكر «حسين» حوارًا وديًا دار بينه وبين عمه إلا هذا الحوار، وهو الحوار الذي جعل عمه يأخذ عليه تعهدًا بأن يلتحق بمدرسة «سمعان»:

- أنت حزين على اسمك الذي تشوه، وماذا عن كلمات الله، الكلمات التي تشكل عقيدتنا يا «حسين»؟

ثم قال بعد صمت طويل:

- جدير بك أن تختبر وتحاول أن تلتحق للدراسة بالمدرسة ومن ثمَّ العمل فيها، أستاذ «سمعان» ينقّي اللغة من أدرانها هناك، لا توجد كتيبة للحق في هذا العصر أكثر بركة من هذه الكتيبة.

عندما عاد «حسين» إلى شقة أبويه بالقاهرة، قام بتقديم ستة طلبات حكومية لتغيير الحرف الخطأ في اسمه، كان متعجلًا ليحصل على ميزة الاسم الخالي من العيوب قبل التقديم للمدرسة، الإجراءات الحكومية كانت ثقيلة روتينية، وبعد أن ظفر بوظيفته أهمل الأمر؛ ففوضى الكتابة طالت الموت، وما يجب أن يحرص عليه المرء في زمن كهذا أن يخرج ظرف إعدامه أو نعيه في الجرائد سليمًا، لتجد روحه طريقها إلى السماء بسلاسة.

\*\*\*

خرج من مدرسة الأستاذ «سمعان» شابٌ مُلتح، يعرج بقدمه اليمنى، يحمل معه حقيبة ملابس وشهادة ورقية مختومة بالتخرج في المدرسة، لم يكن فرحًا ولم يكن تغيصًا، لكنه كان أكثر زبائن صمتا، قال له عندما صافحه: اسمي «إسماعيل». لم يقل له بدوره: اسمي «حسين»، لم ترُق له يده الصغيرة ولا يحب تبادل الأسماء.

لم يسبق لـ «حسين» أن قتل طالبًا، وعندما قرأ في الظرف أن تسلّم زبونه سيكون من مدرسة «سمعان الشنقيطي» توقع مدرّسًا، لكن

هذا لا يغيّر من القواعد شيئاً، الظرف له أمنية أخيرة، كتيب التعليمات نسج صفحتين كاملتين في الفصلين الأول والثالث حول ذلك مشدداً عليه، الزبون الذي يتسلّم له ظرفاً لا بُدَّ أن يطرح عليه أمنية وينقّذها: مطعم يأكل فيه أكلته الأخيرة، مكان يحب زيارته.. وفي هذا يجب على الزبون أن يشعر أنه سيقتل بعدها، الطريقة التي يُقال بها ذلك تُرك الخيار لـ«حسين» ليمارس إبداعه فيها، أحياناً كان يقول: لقد دفعوا لي نقوداً من أجل مشوار إضافي لك، أو الطريق عالق الآن، وبدلاً من أن نتنظر في الزحام أو نتوقف في الطريق، قل لي مكاناً تحب أن تزوره، اطمئن، لن أجعلك تدفع أجراً إضافياً.

في كتيب «لا تكره» تقول القاعدة: الطمأنينة هي العامل الأهم في مهمته، إن شك المحكوم عليه بالإعدام فيجب أن تعود به من دون أن تنهي مهمتك.

الأوامر مهمة، يجب ألا يعرف الزبون أنه سيقتل إلا بعد وصوله، لو هرب قبل ذلك لا تطارده، فشلت مهمتك وستزيدها فشلاً بتلك المطاردة.

لكن الفتى ليس من النوع الذي يهرب، إنه ممتلئ بالأمل مثل ذيل حوت قاتل يصفع الماء، كأنه ابتلع في جوفه قطعة من قمر قديم، مبهج، والأمل شيء نادر في هذه الأيام، ولأنه شيء نادر يجب أن يعود إلى الأرض، هذا الفتى على الرغم من بؤس حالته يختزن بداخله جزءاً من سعادة البشرية، وجه مشع، لو أبصره في الزحام لرآه مضاءً كوجوه قتلاه، وهذه حالة شاذة، والشاذ يجب أن يحتويه قبل أن يستفحل..

بعضهم كان يطلب الذهاب إلى مطعم فاخر، أو متنزه صاحب بالناس، يعتبرون أنها مجرد التفاتة صغيرة في الطريق، لا يعرفون أن مقابرهم في النهاية، بعد النفق، وأن رصاصة تحت قدمي السائق الذي يُقلهم قد حجزت مكاناً لها في صدورهم من الآن، ما فائدة

النزهة الأخيرة لمن لا يعرفون أنها أخيرة؟! ظل «حسين» يسأل نفسه هذا السؤال طيلة سنوات عمله الأولى، ثم اقتنع، الميت يعلم أنه ميت، حدس غريب، لكنها حقيقة.

- اسمع.. القائمون على المدرسة أعطوني مالا لنزهة إضافية لك في أي مكان تريد الذهاب إليه، فما رأيك؟

نظر «إسماعيل» إلى وجهه في مرآة السيارة الأمامية مندهشاً، لوهلة ظن أنه لن يرد، ثم قال ببطء:

- لا أريد شيئاً، اذهب بي إلى المكان الذي أخبروك أن تحمليني إليه.

- لا، لا يصح أن آخذ هذا المال من دون وجه حق.

- أعطني المال الذي أعطوه لك بزيادة وخلص نفسك من تأنيب الضمير.

كاد «حسين» يقهقه لولا أنه تذكر مهمته.

- إذًا سأقترح أنا المكان.

بدقة شديدة بدأ «حسين» يقترح على زبونه أماكن للزيارة، مطاعم فاخرة، متزهات، وظل الآخر صامئاً ثم قال فجأة:

- خذني عند قرية السد، سأصف لك الطريق.

وصف «إسماعيل» الطريق فقال «حسين»:

- لكنها بعيدة.

- يمكنني أن أدفع لك الفارق.

ولماذا؟ سنجد نفقاً ما في الطريق، وبعد النفق كل الأماكن مقابر، لا تكن نمطيّاً يا «حسين» ونفّذ للرجل رغبته الأخيرة.

- حسناً، كما تشاء، سنذهب إلى هناك، وإليك المفاجأة: من دون أن تدفع لي.

\*\*\*

لا يترجّل «حسين» من سيارته عندما يصل، ولا يفتح النوافذ، الهواء الذي عبأ سيارته لبرهة نتج من اللحظة التي فتح فيها «إسماعيل» الباب ونزل، ثم أغلق الباب خلفه، يشم «حسين» الرائحة، رائحة الماء الآتية من عند السد والعشب والطين، هذا مكان جيد للموت. مشى «إسماعيل» إلى بيت قريب، بيت على الطراز الحكومي من دور واحد يقيمونه لعائلات موظفيها الذين يقيمون في أماكن بعيدة عن أماكن السكن، بجانب البيت كشك من الخشب، محل سمك كما تدل اللافتة، تجلس أمامه امرأة عجوز، اضطر «إسماعيل» أن يصفق بيديه لتنتبه، وأن يتحدث لتعرفه، هذه المرأة ليست من عائلته، ولكن بمجرد أن عرفته بكت، أخذت تبكي والزبون يربت على كتفها، الزبون أيضاً بدأ في البكاء كأن الدموع فاضت من المرأة فملأته حزناً، البكاء جيد، خاصة عندما يكون على أمور تستحق، البكاء يغسل الروح، ولكن للأحياء، عندما يبكي زبون قبل أن يقتله يرجوه ألا يبكي، ما فائدة أن تبكي يا أحمق؟! ستموت، اترك البكاء لمن سيفقدونك. أشارت السيدة البدينة إلى جهة ما وهي تمسح دموعها، تشير إلى قبلة ما بكى من أجله، إنهما يبكيان من أجل شخص يفتقدانه، هيأ «حسين» نفسه لنوم طويل، الآن سيزوران مقبرة ما، ويتمان عندها بكاءهما، أغمض عينيه لدقيقة، دقيقة واحدة، ثم سمع دقاً على زجاج النافذة، فتح عينيه، كان «إسماعيل»، جذب «حسين» قفل الباب، دخل «إسماعيل» وكأنه يفر من شبح، قال بصوت مبحوح يستحثه: هيا بنا، هيا بنا من هنا.

\*\*\*

الزبون هذه المرة كان هادئاً، لم يكرهه «حسين»، بل يجرؤ على القول إنه أحب صحبته، وهذا يجعل مهمته مثالية، نظيفة إلى أبعد حدٍّ ممكن، إن قتل هذا الشاب قد يعيد بعض التوازن إلى العالم، التوازن للفوضى الناتجة من مقاطعة القتلة بعد أن يكونوا قد شرعوا

في أداء مهامهم ، لقد رأى هذا مرات ومرات على الشاشة في الأفلام القديمة، عندما يلف «عشماوي» حبل المشنقة حول رقبة ضحيته يأتي ساع من بعيد، يهتف: أوقفوا الحكم. لا بُدَّ أن هذا كان يحدث، ليس بالصورة الهزلية القديمة نفسها، لكنه حدث، وهذا ما اتجه بالعالم إلى الفوضى، وهذه مرة من المرات التي سيُعاد فيها ترتيب هذا العالم، قتل رجل لا يكرهه البتة، بل يوشك أن يحبه.

مرت ساعة طويلة من الصمت وصوت حفيف العجلات يتسرَّب من الخارج إلى جو السيارة المكيف.

- ماذا كنتم تدرسون في مدرسة الأستاذ «سمعان»؟

لماذا سأل هذا السؤال، بادئًا بتورط غبي في حياة الزبون، مؤملاً أن يفلح سؤاله في تمرير مشروع الدموع التي أوشكت على التفطر من صخري عينيه دون خسائر، يكره بكاء الزبائن في سيارته.

- لغة، فقه، حديث، تاريخ الأدب.. وأشياء أخرى.

- وما زالوا يدرسون هذه الأشياء؟

- طبعًا، على مستوى العالم، في مدارس شبيهة بمدرسة الأستاذ «سمعان».

- كنت أعتقد أن الأزهر فقط هو ما يقوم بتدريسها، على طريقته الخاصة طبعًا، الطريقة القديمة أقصد.

ضحك «إسماعيل» ضحكة عصبية قصيرة:

- لا توجد طريقة أقدم من طرق الأستاذ «سمعان».

- كان لي عم أزهرى، مثل الأستاذ «سمعان»، يعتقد أنه يجب على طالب العلم الشرعي أن يكتب الصحاح أكثر من مرة خلال عمره بخط يده لينال بركة الحروف.

- على الرغم من أن الأستاذ «سمعان» لم يدرس في الأزهر كما تعتقد، فإنه مثل عمك، فكل ما يُدرس في المدرسة يكتبه الطلاب

بخط أيديهم.

- حقًا؟! بالأقلام؟

- فعلاً.

ساد الصمت:

- بما أنك درست هذه الأشياء، سأسألك سؤالاً أتمنى أن أجد إجابته عندك.

- تفضل.

- هل خلق الله اللغة؟

- نعم، خلقها على لسان البشر، لكنه علّمه أسماء الحيوانات والطيور والأشياء، وأعتقد أنك تدرك أن اللغة أكبر من مجرد أسماء ما دُمّت سألت سؤالاً كهذا.

- في الواقع، سؤالٍ هذا تمهيد لسؤال آخر، سؤال فقهي، ماذا لو أخطأنا في اللغة ونحن ندعو الله؟! هل سيستجيب الله لنا على الخطأ، أم سيستجيب على نية القلب؟

- يجب علينا أن نلتزم بالكلمات التي خطّها لنا الله وأرسل بها أنبياءه.

- وماذا لو دعونا على طريقتنا الخاصة وأخطأنا؟ هل ستجد الكلمات طريقها إلى الله؟

- طبعاً.

تذمّر «حسين» من الإجابة المتساهلة:

- كيف تقول ذلك وأنت درست في مدرسة الأستاذ «سمعان» ثلاث سنوات؟! أليست ثلاث سنوات؟

تجاهل «إسماعيل» السخرية والتنمر، ولم ينظر حتى في المرأة ليتبيّن جدية «حسين» من عدمها.

- أقوله لأنني مقتنع به.

- وهل اقتناعك بما تقول كافٍ لجعله صحيحًا؟

- طبعًا، في هذه الدنيا على الأقل.

رد «إسماعيل» باسمًا، لكن «حسين» ظل على جديته.

- وفي الآخرة؟ ألم تفكر فيما ستجلبه عليك قناعاتك في الآخرة أيضًا؟! ملوك الفراعنة فهموا ذلك أفضل من فتواك؛ لذا فإنهم كانوا ينتقمون من أعدائهم بمحو أسمائهم من على قوارير الأحشاء، وها أنت تقول بكل بساطة إنهم كانوا أغبياء.

فيما بعدُ سيفكر «حسين»، كان هذا أول الانهيار، هذا الحديث في السيارة، وحتى باعتبار «إسماعيل» مشروع جثة هامة لم يكن ينبغي عليه أن يكلمه في هذا الأمر، كان هذا أول الانهيار.

- بالفعل أغبياء، ما علاقة الاسم ومحوه بعثور الفرعوني على أحشائه بعد أن يُبعث؟

- من السهل عليك أن تقول ذلك لأن اسمك «إسماعيل»، لا مجال للخطأ فيه، أما أنا فيخطئون في اسمي يوميًا، وتعرف أيضًا، أحيانًا أصحح الصحيح بالخطأ المتعارف عليه ليتعرف أرشيف الكمبيوتر عليه، وكل ما في الأمر أن شخصًا ما سجل اسمي في يوم ميلادي حسين العدوى وليس حسين العدوي.

قال «حسين» ثم أخذ يلوم نفسه: لماذا تخبره بذلك؟ وكأنه سيفهم!

- هذا خطأ شائع يا أستاذ «حسين».

جفل «حسين» عندما نطق «إسماعيل» اسمه وأدرك أنه أخطأ، لكنه خطأ من السهل التعايش معه، سيذهب زبونه هذه المرة إلى قبره باسمه كاملاً، هذا خطأ من السهل التعايش معه، جره إليه خطأ ليس من السهل التعايش به، وخطأ واحد يرتكبه الناس في

حقه بدأب كفيل بجعله يتساءل: كيف أمكنه أن يعيش في هذا العالم حتى لو كانت مهنته القتل؟ كيف يمكنه أن يعيش في عالم تبلدت حساسيته بتلك الطريقة حتى فيما يخص اللغة؟ ويستمر موظفو تسجيل المواليد في تعمدهم الكتابة بالخطأ وكأنهم يضمنون نقاطاً مشرفة إلى ملفاتهم أو يُسدون خدمة لأوطانهم، على العالم أن يتحمل فوضاه إذًا، فوضاه وبؤسه، وعليه هو - «حسين» - أن يصمت، يستمر في القيادة ويصمت، أين «د» الآن؟ لن يفهمه إلا «د».

\*\*\*

الـ«جي بي إس» يعرف طريقًا مختصرًا إلى النفق من منطقة بيارات السد، ليثبت نظرية «حسين» الشهيرة أن الطرق كلها تؤدي إلى النفق، ليس مثل روما، عندما اختار مقبرته كان حريصًا أن تكون كل الطرق قريبة منها، ملك الموت يعرف الطريق أيضًا، لكنه سيتأخر، في كل مرة يتأخر، لم يعد الناس يموتون بسرعة.

قبل بداية النفق، أوقف محرك السيارة وتركها تنزلق مثل صقر حر يترصد فريسته، توقفت في نصف النفق، نظر في مرآة السيارة وهو يقول عبارته الخالدة:

- سأفحص السيارة، ثمة خطب ما.

قام ببحث تمثيلي عن المفك في تابلوه السيارة وسحب الظرف، ضغط زرًا فتنهد غطاء السيارة مرتفعًا بشكل جزئي، ترجّل، هذه اللحظة هي الأصعب على الإطلاق في مهمته، أصعب حتى من القتل والدفن، لحظة أن يستدير وينظر في وجه الزبون ليخبره: لا تقلق، لن آخذ وقتًا. يسلط نظره في عينيه مباشرة لكي لا تغفل منه نظرة إلى الظرف الذي يدسه في جيبه، يجب على كل حال أن يخبر الزبون بسبب قتله، سيعود إليه بعينين أشد ثباتًا، ويد مشتاقة وأصابع تتلمّظ لعناق سلاحه المنتصب عند الدواسة.

رفع غطاء السيارة وتنشق رائحة المعدن الساخن بشبق، يريد أن

يهزم توتره، فض الظرف، كان مكتوباً فيه عنوان، عنوان فقط دون تهمة، هذا يعني أنه لن يستعمل رصاصته، كيف سيفعل هذا؟ ما الكيفية التي سينفذ بها أمراً بالقتل دون قتل؟!

شتم، بصق على غطاء التاكيهات وأخذ يشم رائحة بصقته وهي تبخر، سيقته هذا الغموض يوماً ما، لماذا لا تكون الأمور واضحة منذ البداية؟! لماذا لم يرسلوا رسالة صفرية ما دام هذا الشاب يعرف من هو؟!

لكن هذا الشاب لا يعرف «حسين»، ليس من موظفي الحكومة، كما أنه تسلّم في حقه ظرفاً اعتقد أنه حوى أمراً للقتل، وصلته رسالة على جهاز المهمات ثم تسلّم ظرفاً، المهمة كاملة ولكنها أُحبطت، وهذا وحده كفيل بجعله على حافة نوبة غضب لن يفيد فيها أن يصوب رصاصته على الأسفلت أو غطاء محرك سيارته، إن هذا أسوأ من القتل من دون سبب، ومن كتابة اسم المحكوم عليه بخطأ في رسم الأحرف، مقاطعة قاتل من أسباب الفوضى، ولن تعود بالخير أبداً على هذا العالم، لو كان جده مكانه الآن لقتل الزابن مباشرة برصاصة في الرأس بدلاً من قتل الزبون.

قبل أن يطوي الورقة ويدسها في الظرف انتبه لعنوان آخر على ظهر الورقة، بجانب العنوان هذه المرة تاريخ، بعد سنتين من الآن، يجب أن يتم مهمته ويعود ليفهم، من كتب هذا الظرف إما أحمق وإما مجنون.

\*\*\*



## أول أيام القصر «إسماعيل» - الكاتب

إساءة الظن الأولى يتكفل بها الزمن في علاقتنا بالأماكن، وإلا ما كان قول الخادم العجوز: «ستجد المكان مريحًا» عبثًا بالنسبة لي، عبثًا وموغلًا في نمطية عبارات الاستقبال الأولى، الترحيب بلا رصيد من النوايا المُبَيَّنة، في مكانٍ لا دليل واحد على حميميته، بداية من أصغر تفاصيله: تفاحة خضراء، نصف تفاحة خضراء، احتاجت إلى أسنان عفية لترسم فيها وحشية قُضمتين متتاليتين، التفاحة راسية في طبق على منضدة عليها بقع ألوان وفرشاة، ومقعد خشبي صغير وشاهق أمام حامل لوحات فارغ، على اليمين باب غرفة صغيرة يطل منها سرير فردي لا يتسع إلا لجسد واحد، وزخرفة حمّام مبلط بالقيشاني الأزرق البحري، الغرفة أنشئت لاحتواء الحمام، والسرير وُضع لاستقبال ضيف لن تطول إقامته، وهذا كله يقع كجغرافيا ضئيلة الأبعاد أسفل سقف منخفض يُشبهه كمر خرساني عملاق يوحى بثقل الأدوار الثلاثة التي تعلو البدروم، ونوافذه الدائرية العالية بزجاجها الملون، والسلم الخشبي بدرجاته السبع، لماذا سبع درجات، كالصعود إلى السماء أو كالهبوط إلى الأرض؟!

- السيدة تأتي هنا أحيانًا لترسم.

قال الخادم مفسّرًا، لم أسأله: من السيدة؟ فلا بد أن لهذا القصر سيدة، وسيدًا، بل عدة سيدات وأسياد، ولا بد أن تكون للسيدة هواية ما، هواية بالأبيض والأسود، روماتيكية، تعزف البيانو أو ترسم اللوحات، أو تبصق على وجوه الخدم، إلا إذا كان السيد مولعًا بذلك، متحملاً عنها مؤنة الاحتقار الذي يدفعان ثمنه بالدولار في نهاية كل شهر، السائق الذي أتى بي إلى هذا المكان، «حسين»، قال

لي: ستقبض بالدولار، فخامة البناء توحى بذلك، لكنه لم يستطع تخمين العمل الذي سأكُلف به في هذا القصر على خلفية دراستي بمدرسة الأستاذ «سمعان».

لم يبدُ لي المكان كجائزة على أدائي الجيد ولا كعقاب على ما بدر مني من عصيان؛ فالغرفة لا تختلف كثيرًا عن غرفتي بالمدينة السكنية للطلاب.

شرح لي الخادم (اسمه «جبر»، في البطاقة «جبريل»):

- هذا البدروم له باب يؤدي إلى القصر عبر المطبخ وباب إلى الخارج، الباب الذي جئت منه منذ قليل، بإمكانك أن تخرج وتتجول في الحديقة الواسعة كما تشاء، شريطة ألا تقف عند الباب الرئيسي أو تصل في تجوالك إلى أحواض الزهور؛ لأنها تطل على غرف نوم السادة، خروجك من القصر لا بُدَّ أن يكون بإذن من صاحب القصر، اقض بالخارج ما تشاء من وقتٍ، لكن عليك أن تعلم أن وقت عودتك سيكون معلومًا، لا أريد أن يأخذ السيد عنك انطباعًا سيئًا في البداية، سيكون من الأفضل لك أن تستأذن في وقت لا يكون موجودًا فيه، ليس الصباح ليس المساء، بعد الظهرية وقبل انكسار حدة الشمس تعود.

غادر الخادم صاعدًا الدرج الخشبي، استلقيتُ على السرير بملابسي، لن أفصَّ حقيقتي الآن، سأدع ملابسي في وهم المدرسة وصخب الطلبة في الممرات، وأخذت في تأمل التفاحة المقضومة، تناولتها بحرص وأدرتها في يدي، أحمر شفاه خفيف عالق بها، ورائحة من عطر نسائي يخفق له القلب إذا تخيلتها ملتصقة بحرارة جسد، اكتملت نبوءة الصباح بالرؤية، أسنان تدل على فم صغير، السيدة تأتي هنا أحيانًا لترسم، ترسم وتأكُل التفاح وتترك بقايا موحية.

ليس الصباح ليس المساء، بعد الظهرية وقبل انكسار حدة الشمس تعود، كيف نطق الخادم بهذه الجملة الأثرية وفي هذا الزمن؟! ربما

دُرِبَ عليها، مثل ديك ساعة حائط قال العبارة وانصرف تاركًا إياي في حيرة.

\*\*\*

كنت سأسألهم ما تبقى من التفاحة الخضراء لولا أن دُعيت على العشاء، جاء «جبريل»، أو «جبر»، عبر السلم وناداني بعد أن نزل درجتين، صعدت أتبعه، وبعد أن عبرنا ممرًا قصيرًا ضيقًا لا يتسع لشخصين متجاورين انفتحت مسيرتنا على صالة شاسعة كشهقة فرح، ليس فيها من صفات المطبخ إلا رائحة الطعام وحرارة النار، عالية السقف مضاءة بضراوة وملئية بالوجوه المبتسمة على منضدة مستطيلة مليئة بالأطباق والخبز والملاعق اللامعة، جلستُ خجلًا على مقعد فارغ قريب من الباب، وأكلت طعامًا أفقده منذ ثلاث سنوات.

كان هذا عالمًا وسطيًا، في الضوء واللون والوجوه والمشاركة، وفي لحظة تكشف أيقنت أن روعي لم تزل هناك في مطعم الطلبة، تُلطِّح عيني ببقع وهمية على مفرش المائدة النظيف يايغاز من مفارش المناضد التي تركتها خلفي، وتخلط الوجوه والبسمات والإيماءات، أعلم أنني سأتخلص من الذكرى بالنوم والطعام والصخب، سيندفع جسدي القديم عبر ثقب بحلول جسد جديد، وكما فقدت عالم جدي من دون افتقاد، سأفقد عالم المدرسة من دون افتقاد أيضًا، وكانت هذه الفكرة كافية لأشعر بالتعاسة، كافية لاكل بنهم أكثر، ولأظل جالسًا بينما يتناثر الخدم من حولي حاملين أطباقهم، حاملين عني مؤنة رفع طبقي أيضًا، كحصاة في عمق خليج هادئ من الصخب والرزقة العائلية، حصاة تشرب الشاي وتدفع الابتسامة إلى وجهها إذ يضحكون ثم أعود إلى شرودي إذ يصمتون أو يتبادلون حديثًا عاديًا لا نبرة فيه.

ثم حان وقت انصرافهم، خلف كرفان تبادلوا الولوج لتغيير

ملابسهم ، يرتدون ملابس فاخرة، يضعون العطور ويرتدون أحذيتهم الملمعة، ثم يلقون عليّ تحية المساء وينصرفون إلى بيوتهم عبر باب البدروم، لم يعد متبقيًا إلا «جبر»، كان جالسًا على طرف المائدة البعيد، يقشّر شيئًا ما في طبق أمامه بطرف سكين صغير، ينظر لي من حين لآخر ويبتسم في ود وكأنه يشجعي على أن أطرح السؤال الذي يعرف أنني سأطرحه عاجلاً أو آجلاً:

- لماذا أنا هنا؟

## «حسين» - القاتل

لم تختلف الإجابة التي حصل عليها «إسماعيل» في المساء بغرفة الطعام، في خلفية من موسيقى خفية تنبعث من السقف، ودقات السكين عندما يفلت من أصابع «جبر» فيصطدم بالطبق، عن الإجابة التي حصل عليها «حسين» بعد أن دار في سلسلة مرهقة من الإجراءات والأسئلة، منفذاً نصائح كتيّب التعليمات بعناية؛ فبعد أن قام بتوصيل «إسماعيل» قاد سيارته إلى مكان المقبرة، ألقى السلام على الموتى، أفرغ رصاصته بحق في باطن الأرض، تنفّس بعمق حتى هدأ صرير أسنانه، ولجأ لسيارته، أخرج كتيب التعليمات الذي لا يفارقه، وبرفق قلب الصفحات، وصل إلى الصفحة التي يحمل طرفها العلوي الأيمن أثراً خافتاً لمعجون أسنان، أيقظت رؤيتها الرائحة المخترنة في ذاكرته، معجون أسنان أخضر اللون ولكن به لون الدم، فحينها وضع من معجون أسنانه على جرح نتج من حلاقة متهوره لذقنه، بعثت الرائحة الأصوات، أصواتٌ لشارع خلفي في شقة رخيصة وطعم شطائر من الجبن الرومي، هذه الصفحة بالذات ما زالت تحمل طعم اليوم الأول الذي قرأها فيه، تحت بند «عندما يحتوي الظرف على ميعادين»، قرأ بعناية الإشارة خافته المدلول المطبوعة في سطر واحد، التي كان نصها: «لا تتخلّص من الظرف إذا لم تنتهِ المهمة.. وللإستفسار اتصل برقم... عند فتح الخط اذكر رقم حالتك، الذي هو ٤٩»، يتصل «حسين»، رتبان ثم فُتح الخط ليذكر رقم حالته (٤٩)، يأتيه صوت أنثوي ناعم يحدد له مكاناً بوسط البلد كمحطة أولى:

- ونرجو تأكيد وصولك ليتم إعلامك بالميعاد.

\*\*\*

كان جائعًا عندما وصل إلى المدينة، اتصل بـ«إسحاق» وأخبره أنه قادم إليه ليتناول معه الطعام، وفي الطريق اشترى الحبوب المخدرة، لم يكن الوقت وقت غداء، لكن «إسحاق» أعد وجبة خفيفة باردة المكونات وتناولها، ثم انتقلا للجلوس في غرفة الضيافة عنده، ابتلعا الحبوب من دون ماء، لم تشتبك بالحلق ولا بالمريء، انزلقت سريعًا، وكان ضوء الشمس من الهلوس البصرية التي سببها المخدر، قال «حسين» فجأة ومن دون مقدمات:

- سأقتلك يومًا ما.

عندما انحسرت الرؤية، شعر «حسين» بآلام الانحسار: العرق البارد، وألم البطن، وارتباك نتج عن ذكرى غائمة لتهديد صديقه بالقتل، ثم اكتشف أن وجود الطبنجة الخاصة به على المنضدة بينهما حقيقة وليس هلوسة، أعادها إلى حقيته، وبينما يقوم بذلك كان عليه بطريقة ما أن ينهي الموقف من دون خسائر، كان أحمر، لكنه ليس قاتلاً، إنه موظف، والموظف لا يُلقى التهديدات جزافًا، حتى لو كان بحوزته سلاح ناري:

- هل سبق لك أن أحبطك أحد؟

- الجميع يفعلون.

أجابه صديقه بلسان فرح؛ فعروقه ما زالت تشبث بالمخدر، أدرك «حسين» ذلك فاطمأن:

- وما الذي تتمناه حينئذ؟

- أن أقتلهم.

- وهل ستفعل حقًا إن أعطيتك وسيلة القتل المناسبة؟

- بكل تأكيد.

- أنت قاتل حقيقي إذًا، صدقي، القاتل الحقيقي هو من يستطيع.

هذا هو المقياس الذي يجب أن تُقاس عليه الأمور، من دونه

يصبح القتل أمرًا عارضًا، كحادثة سير أو حريق شب في مبنى، هل يمكن اتهام النار التي تحرق أو السيارة التي تصدم بأنها قاتلة؟ الآن، والآن فقط، أدرك لماذا استطاع جده أن يصل إلى سمعته الأسطورية، قتل الزابن والزيون في اليوم نفسه، أما هو فيعاني الآن احتقان رصاصته، بعد أن قاد نصف نهار كاملاً بذلك الشاب الملتحي من مدرسة الأستاذ «سمعان» واثقًا أن رصاصته حجزت مكانها في صدره، نصف نهار كامل من القيادة والنتيجة: رصاصة محتقنة.

\*\*\*

على الدرج، وهو يغادر شقة صديقه، قال «حسين» لنفسه لا بُدَّ أن «د» هو مَنْ خطط لمهمة التوصيل هذه ليحبطه، لينبهه أن بينهما مهمة لم تكتمل، لا دليل على ذلك بقدر وجود زبونه في مدرسة «سمعان»، لا يعلم «د» أنه بحث عن الفتاة حتى أصابه اليأس، لكن ما الذي يجعلك يا «حسين» تظن أن «د» يراقبك أو يهتم بك؟

هل كان التهديد رؤيا، أم انحرافًا في ولائه المتزمت لوظيفته، ما من طريقة ليصل إلى الإجابة أو ليتخلص من التساؤل، للمرة الأولى منذ أن تسلّم عمله يفقد أعصابه، يفقدها بسبب البؤس في هذا العالم، الذي يجعله يكرّس نفسه لمقاطعة قاتل في أثناء أدائه مهمته، من دون أن يعلم أن مهمة القتل عملية كونية تأتي مقاطعتها بنتائج غير مرجوة، مقاطعة قاتل بعد شروعه في أداء مهمته ليست عملًا خيريًا كما يظن الحمقى، بل عمل شرير، يتلخّص شره في أنه يملأ الدنيا بكرهية غير مسببة تكون نتيجتها فوضى لا نفهمها؛ فالطيور التي تهجر بيضها قبل أن يفقس، والثمر الذي يسقط من الأشجار قبل أن ينضج، والنحل عندما يفقد مهارته في تسديس خلاياه الشمعية، حتى الدبابير التي تلسع بقسوة قد تميتها، والياء في نهايات الأسماء تُكتب ألفًا لينة، مرارًا وتكرارًا، مرارًا وتكرارًا، كلها تفاوتات تحدث

## نتيجة المقاطعة.

قد يُعفى ذلك إن كانت مهمة القتل رسمية، ليست الطريقة رسمية ولا الطقوس، لكن التكليف رسمي، وحتى لو كان تكليفاً رسمياً، يبقى القتل هو القتل، عندما يتحد بالإنسان يكون رغبة حارقة إذا بدأ يجب ألا تقاطعه، مقاطعة القتل عملية خطيرة أسوأ من القتل ذاته، يجب ألا يُسامح فيها القاتل أبداً حتى لو ادعى أنه لا يحب مهنته بقدر ما يحب إتقانها؛ فالإتقان هو الوجه الآخر للتلذذ بالفعل، والإتقان هو صورة من أنواع إبطاء التفاعل المتسلسل في عملية كهذه، والإبطاء ضروري إن كان العالم من بؤسه يرسل الإشارات في وقت مناسب لتقاطع القتل في أوج استوائه من دون أن يأبه بسلامة من يعيشون في هذا العالم؛ لهذا هو هنا الآن، لهذا سيصعد إلى غرفته ويضع في طبنجته رصاصتين، إحداهما للزابن والأخرى للزبون، حتى لو كان الزابن «د» بنفسه.

\*\*\*

موظفو الحكومة لا يعملون ليلاً، لا يقومون بمهام إضافية في غير الوقت الرسمي، حتى إن كانت تلك المهمة هي إلقاء الماء البارد على سلاح متوهج من احتقان رصاصة، إنهم ينتظرون الصباح، وفي الصباح التالي سيخوض «حسين» سلسلة من التأكيدات والأسئلة المرهقة، ساعياً إلى اختصار دمامله لأقصى درجة بالكشف عنها، الأمر يشبه طابوراً طويلاً من الأطباء يتناوبون على مريض واحد، كلهم لا يفهمون الحالة وإنما يحملون أرقاماً، من مكتب إلى آخر، لا يتغيّر إلا الرقم الذي يحمله كعنوان حالة، حالة يجب ألا تخرج للعالم إلا خرساء لكي لا يُسمع صوتها.

في النهاية، تمخض جبل الإجراءات عن فأر حكومي صغير جالس في مقهى شعبي، قال له الزابن:

- هذه سمة كل عصر يا صديقي: المحرمات.. كل عصر يزدهر

فيه شيء محرم، ولا تستبعد، قد يصبح هذا الشاي الذي نشربه الآن بأريحية تامة محرماً يومًا ما. إحم.. هذا لا يعني أنني أشكك في خطورة ما تحرمه الحكومة، بالعكس، أنا فقط أضرب مثالاً لك لتفهم، ما علينا. هؤلاء الكُتّاب يا صديقي، تعبنا، تعبنا منهم، لم تفلح مدرسة الأستاذ «سمعان» في تنظيف أدمغتهم، والقتل كما تعلم أمرٌ تفوح رائحته ولا متهم فيه إلا الحكومات، منذ سنتين اقترحوا استراتيجية جديدة للتخلص من مؤلفي الروايات، ينقلونهم إلى المنطقة الراقية في المدينة، نُلقِهم بعمل في قصور الأثرياء، كنوع خاص من الخدم، كأقلام الحبر العادية العتيقة، ونسخ ورقية من كتب قديمة للشعر، سيمفونيات عالمية، وحتى أمخاخ القردة، والخمور التي تم تحريمها بموجب قانون مطاطي لتطيب خاطر السلفيين الجدد والأزهريين الثوريين وكل هذه الجماعات التي لا طائل من ورائها إلا عرقلة الحكومة، هذا كله رائج هناك، وكذلك كاتبو الحكايات هؤلاء، بدلاً من قتلهم، نجعلهم مصدر بهجة وتميز لدى هؤلاء الأثرياء، والأهم من ذلك يكسرهم اكتساب المال بالكتابة والحياة المترفة، ونصنع لهم جمهوراً محدوداً يصفق لهم، الجميع يكسب كما ترى.

في هذا المقهى، كان «حسين» قد شحن مسدسه برصاصتين، لا يعرف كيف سيفعلها، على المنضدة مفرش أصفر له خفة ستائر صيفية في غرفة عاشقين انتهيا للتو من مضاجعة عنيفة، فوق المفرش الرومانسي كوبان من الشاي، وتحت المنضدة عند قدمه كيس أسود، الطبنجة راقدة فيه كقطعة من خراء عصر غريب، رخوة ولزجة، لا تنتصب، أي عصر تعيشه يا «حسين»؟! كل هذه الأمتار المكعبة من مني الرجال أريقَت قبل أن تصل إلى دورك، بشهوة ومن دونها، في الحرام والحلال، كان يمكن لُطفتك أن تقع في مرحاض عام لرجل مسافر وحيد، كان يمكن أن تحتضر مختنقاً في كينوتك المجهرية على ملاءات رجل أعزب أحرقتة الشهوة بعد أن هضم

وجبة ثقيلة، لكنها لم تقع، أنبتت، وهنا، في هذا العصر الذي لم تعد تثق فيه بأحد، ولا برجال الحكومة، فضلاً عن رجل الشارع، حتى للدرجة التي تجعلك مطمئناً على مصيرك كجسد - بيولوجيًا - بين أيدي الغرباء، بحيث يتكلف أحد مؤنتك، مؤنة الحفر والردم بطريقة تجعل الذئب آكلات الجثث تغفل عن رائحتك.

ما المكان الأنسب لوضع رصاصة قاتلة في جسد رجل أبله، سعيد بلا سبب؟! ربما يستطيع موظف الحكومة هذا أن يجيبه عن سؤاله، هذا لو سألته، هذا لو استطاع أن يقاطعه ويُسكته.. مسترسلًا في حكاية تلو حكاية، يميل عليه وكأنه يخبره بسر عظيم:

- أحد هؤلاء الكتاب، لا بُدَّ أنك سمعت عنه، الجميع يعرفون أنه يكسب مالا طائلاً من الكتابة، وأنه بجانب مرتبه الشهري الذي يأخذه من مخدمه يتكسب مالا إضافيًا من بيع ما يكتبه للقصور القريبة، الفتيات الثريات يحبينه..

هكذا قال وأنهى مقالته بقهقهة، بينما يفكر «حسين» في أن أنسب الأماكن لوضع رصاصته سيكون هذا الفم المقهقه، أي دولة؟ الآن يمتلك سببًا للحقد والكرهية، سببًا شرعيًا.

- أخبرني إذًا، هناك ميعاد آخر في الظرف، ما حكايته؟

قطع رجل الحكومة ضحكته وقال بجدية:

- ما دام هناك ميعاد آخر فلا بد أن المهمة لم تنته بعد.

- ومتى ستم المهمة؟

- اسمع، نحن نتفهم مدى قلقك وغضبك، لكن التهمة لم تُسجل على الرغم من خروج الظرف واستدعائك، اللجنة نفسها انعقدت وانفضت من دون أن تصل إلى قرار، البعض مُجمع على ضرورة التخلص من هذا الشاب، والباقون مصرون على تجربة المنظومة التي تُعالج بها هذه الحالات، تجربتها لأقصى درجة حتى لو أدى

ذلك إلى كسرها وإزالتها وبنائها من جديد.

- لا صلة لي بهذا كله، لماذا أقحتموني أنا في هذا الموضوع؟! هذه الرصاصة لم تعد باردة يا سعادة الباشا، رصاصة تُسخن الآن وتُطلق بعد سنتين أو لا تُطلق، رصاصة ساخنة هذه المدة كلها ستساوي حينها قنبلة لا تُبقي على أحد، لا يصح بأي حال من الأحوال أن تُدار الأمور بهذه الطريقة، مَنْ الغبي الذي...

الآن أدرك «حسين» أنه يخطئ، يتجاوز حدوده الوظيفية، كلتا ذراعيه تحيط بالمنضدة وترتعد بها من الغضب المكبوت، ترتعش حثالة الشاي الباردة المتبقية في الكوبين وكأن قطارًا يمر على الأسفلت القريب، الدم ساخن في عروقه، لكن سلاحه هامد مستسلم، هذا يحدث لأول مرة، أن ينتقل الغضب إلى عروقه، يعلم أن عاقبة هذا الغضب ستكون وخيمة، جزاء ١٠٠٪ من مرتبه، وقد يحرّمونه من الوظيفة، هذا إن كان في هذه الحكومة بعدُ من يفهم أو يُحسن اتخاذ القرارات، وهذا ما يشك فيه، وهذا الشك يحيله إلى جحيم من الرؤى والتوقعات المقبضة، ويجعله مستمرًا في غضبه مطلق العنان، هذا هو الظرف الأول، ومن يدري؟ ربما كان الأمر أول الانهيار، ربما يتم تعديل القتل إلى منفى سعيد ويتحول هو إلى سائق توصيل المنفيين لمنافيتهم، عندئذ سيصبح بحق قطعة من خراء هذا العصر اللعين.



## «إسماعيل» - الكاتب

نظير هذا الغضب الصباحي غضب آخر سابق عليه، غضب مسائي، غضب مختلط بالأسف بقدر اختلاطه بالحق، ترك «إسماعيل» تلك القبضة، قبضة الغضب لتفرغ كل انفعالاته أمام الخادم العجوز كما تفرغ قبضة قاسيةً ضرعَ بقرةٍ حافلاً باللبن.

نصوص! هل جاؤوا بي إلى هنا لأكتب نصوصاً بالقطعة، بالطلب؟! وظيفتي إضفاء الألوان على الهوايات الرومانتيكية للسيدة والسيد، أن أكون أنا والمهرج سواء، لن يطلبوا مني عجين الفلاحة، ولكن من قال إن عجين الفلاحة هو أسوأ ما يُمكن أن يُطلب من كاتب في هذا الزمن الغريب؟! الأسوأ هو ما بدأ الخادم في قوله:

- حاول ألا تخرج وتدخل كثيراً، ببساطة حاول ألا تكون موجوداً، هذه طريقة جيدة لتفاديهم، البية الصغير لا يوجد معظم الوقت، مسافر، لكنه يكون لطيفاً عندما يوجد، احذر منه فإنه إذا انتبه لك في ساعة سأم قد يطلب منك نصوصاً قبيحة المحتوى ليسخر منك، أما البية الكبير فلن ينتبه لك حتى لو مر من خلالك، مشغول معظم الوقت بعمله.

- والسيدة التي ترسم؟

- آه، السيدة التي ترسم، كيف عرفت أنها ترسم؟! على كُلٍّ، من الأفضل ألا تتذكر وجودك؛ فذوقها في النصوص التي تطلبها غاية في الصعوبة ولا ترضى عنها بسهولة، لكن إذا رضيت سيكون الحال أسوأ بكثير، ولتراع أنه سبقك إلى هذه المهنة ثلاثة لم يُطلب منهم كتابة نصوص إلا مرات تُعد على أصابع اليدين، فقط عند زيارات الأضياف المشاهير وفي استقبالهم، وإن أحسنت السلوك فستلقى مصيرهم الحسن، أن يتوسط لك سيد القصر للتوظيف في وظيفة

محترمة في ديوان من دواوين الحكومة.

قال «جبر» ثم تفحصني بنظرة لوم وكأنه يخبرني أن كشف الأسرار هذا لا بُدَّ أن يستأهل شكرًا، لكنني كنت أعرف، الفضل للفرار وللموسيقى المتشنجة الآتية من السقف.

دائمًا ما كنت أستعيد هذه اللحظة، اللحظات الأولى كلها، أول مرة رأيت البيارات مع جدي، وصيحات الطلبة في ممرات مدرسة الأستاذ «سمعان»، أول مرة رأيت المكتبة، وجلستي تلك في المطبخ والخادم المصاب بالنسيان يشرح لي طبيعة عمله، وكلما استعدت لحظاتي الأولى تلك بدا لي خوفي مبالغًا فيه، إلا هذه المرة، بدا لي خوفي ووحشتي أقل بكثير مما يمكن أن أصادفه وأعيشه، خاصةً عندما قال الخادم بحذر وبصوت تعمد إخفاض نبرته ليوحي بخطورة الأمر: - إياك أن تكون ممن يكتبون نصوصًا معقّدة، لو طلبوا منك أن تكتب فاكتب شيئًا واضحًا، مسليًا، وخيرٌ لك أن يكون قصيرًا، أن يطلبوا منك المزيد أفضل من أن يملوا منك سريعًا.

هكذا الأمر إذًا! قذفت بي ثلاث سنوات من الدراسة في مدرسة الأستاذ «سمعان» إلى هنا، متسولًا بالكلمات، متسولًا من دون كلمات حتى، لو أحسنت الاختباء فلن يُطلب مني عمل أنجزه، ولو كتبت شيئًا احتفاليًا باهتًا في استقبال الأضياف فسأحصل على وظيفة وحياة مستقرة.

هل كان الأستاذ «سمعان» يعلم؟ كل تلك السنوات من المقاومة كانت تُعدني لهذا المصير، لرمي في هذه المزبلة، لأستسلم لهذا المصير استسلامًا كليًا دون أن أخذل قرار اللجنة؟! أين الآمال العريضة التي نسجها للمطيعين وهو يقول:

- أتمم ضعفاء مرض المجاز الذي أصاب البشرية منذ الأزل، لكن هذا ليس عذرًا لتخرجوا من الصف، بل هذه فرصتكم لتجدوا تريقنا، أو تكونوا أتمم تريقنا، ومن سيستمر منكم للنهاية معي هنا

سيكون جنديًا مخلصًا للدين الحق ضد هذا الضعف؟!

\*\*\*

وينصرف عم «جبر»، يقف ويقطع فقرات ظهره، ربما قال كلمة ما ليستأذني، لكني لم أسمعها، ربما خيّرني بين إغلاق الضوء أو تركه مضاءً، ولا بد أنني اخترت، أصبح المطبخ مظلمًا إلا من لمبات صغيرة متناثرة لأجهزة طبخ وحفظ طعام لا أعلم كنهها، أزيز وأرقام تبدّل تزيد وتقص، ثم صمت يتلوه صوت انسحاب سائل كأنه يتم شفطه في محقن ببطء، ثم يُعاد ضخه في فضاء لا جاذبية فيه، فكرت: لا بُدَّ أن هذا ما حدث لذاكرتي منذ قليل عند انصراف «جبر»، الوميض، اختبأ العجوز خلف انضغاط ذاكرتي، فلم أنتبه لانصرافه إلا مع وميضها، ضغطت الصدمة ذاكرتي ثم تفككت في لا مبالاة عديمة.

المطبخ يُشبه ما صورته كثيرًا عن ليل غرفة التحكم في محطة رفع ماء اليبارات، الصمت ينتقل من جهاز لآخر، والهدير الخافت أيضًا، وكأن هناك اتفاقًا ضمنيًا بين الضوء والصوت على إعادة اكتشاف معزوفةٍ ما قديمة، تستمع الروائح فتشمل وتدور بصخب، خليط من روائح بهارات وجبن وفطيرة تفاح تتهد حرارتها في أنفي، هذا كله صار واضحًا الآن لدرجة أنني لم ألحظ الرائحة الدخيلة، لم ألحظ أن ضوء اللمبات الصغيرة لم يعد يرتعش، ماتت حدقاته على ضوء الثلجة التي فُتحت..

وكان أول انتباهي للعطر العاصف مع نسمة باردة أتت كموجة هينة من اتجاهها، وجعلتني ألثفت لأراها: فتاة صهباء تضم ضلعتي روب حريري بيد وتعبث بيدها الأخرى في أرفف الثلجة، كيف دخلت في صمت وفي الظلام ولم تُضئ النور ولم أنتبه لدخولها؟! حدثت فيها مستعيرًا روح لمبة من اللمبات المنتشرة حولنا، دون خوف من اكتشاف أمري أو اتهامي بالوقاحة، مرأى جلد ذراعيها الدولفيني

شد من عزم قلبي فصار مثل طبل أفريقي، لدرجة أنني خشيت لو اضطررت للكلام أن أفزعها بدويّ صوتي، في هذه اللحظة رأيت نهايتي، وفهمتها، صار كل شيء مفسّراً، ومتشابهاً، كدرج سلم يصعد إلى السماء، كرسم توضيحي لإنزيم من إنزيمات الوراثة، وفي اللحظة التالية صرْتُ مستعدّاً لغفران كل شيء مما سيحدث، غفران دفع عيني أن تدمعاً، وفي اللحظة الثالثة انغلق باب الثلجة وانسحب الضوء، لم يعد من مستقبلي الذي أبصرته منذ قليل إلا أضغاثاً، وقلبي الذي يدق ببطء بارد، وعاد ضوء اللمبات الضئيلة يغمز مثل أقمار صناعية بعيدة في السماء.

\*\*\*

ونمت.. النوم في بدروم القصر كان يشبه النوم في طريق عام، ينشط في ساعات الصباح، بمجرد أن ينتشر الضوء يبدأ سيال الخدم لا ينقطع إلا بعد تمامهم، بعد دخول الخدم يأتي البستاني ومساعدته، وأحياناً السائق، ثلاثة أيام في الأسبوع يحملان الفاكهة والخضراوات لداخل المطبخ، والأيام الثلاثة المتبقية يحملان بضائع مختلفة: سكر، زيت، دقيق.. يفطران ثم يحملان إفطار الحراس والسائق شطائر ملفوفة بعناية في أوراق الألمونيوم اللامعة التي تحفظ حرارتها.

كان البدروم فم القصر، والفم لا يتوقف عن الحركة حتى لابتلاع الهواء، ولا أستطيع أن أنام إن تملّكني أرْقُ خفيفٌ في بداية ليلتي، أخشى أن يسرقني النوم فيراني الخدم في مرورهم الصباحي.

علاقتي بالخادم «جبر» يسّرت لي الحصول على بطانية ثقيلة ومقعد خشبي مستقيم الظهر ونضد صغير لتناول الطعام والكتابة.. ومع الوقت تعوّدت على نظر الغرباء لي وأنا نائم، القاعدة الأولى التي تعلمتها أنه إذا أردت طعامي ساخناً فيجب أن أنتظره، فعدا الوجبة الأولى التي كانت للتعازف لم يعد الخدم يهتمون باستدعائي لأن

الميعاد كان يتقدم ويتأخر سابقًا في بحر الظهيرة، تتحكم فيه أمزجة ساكني القصر الثلاثة إن وُجدوا، ولم يَكُن ممكناً بأي حال من الأحوال أن تُنصب مائدة غداء الخدم قبل السادة، على الرغم من أن طعام المطبخ مختلف كلياً عن طعام القصر، لكن الأمر في الدرجة الأولى ظل أخلاقياً.

في المرات القليلة التي كنت فيها في المطبخ، اكتشفت أن الخدم يختلسون لقيمات تقيمهم حتى ميعاد الطعام العشوائي، وهذا لم يَكُن ممكناً لي ولا للبستاني ولا لحرس البوابة؛ لذا فقد خططت لنفسني القاعدة الثانية: إن أردت أن يكون طعامي كافياً فسيكون بارداً، أفوت ميعاد الغداء عن قصد فأحصل على طعامي مغلفاً لاأكل منه ما أريد وأحفظ الباقي عندي لأوقات الجوع.

بعد مرور أسبوع، اكتشفت طريقة جيدة لمغادرة القصر من دون أن أضطر لاستئذان صاحب القصر، صحبة الخادم العجوز «جبر» للصلاة، الذي كان هو الوحيد المسموح له بالخروج من أجلها، عند البوابة يمررانا كجسد واحد، جسد ومشروع عكاز لهذا الجسد، بعد الصلاة في مسجد منزوٍ نعود فوراً.

مع الأيام، استطعت أن أغري «جبر» بالاستغناء عن ورد التسييح عقب الصلاة، واستغلال هذا الوقت في التجوّل بالمنطقة التي تضم القصر، لم يُضف لي التجول نظرة أخرى إلى انطباعي الأول عندما أتت بي السيارة التي أقلّتني، بيوت فارهة منغلقة على أسرارها، وشوارع أسفلتية يلتمع عليها السراب حتى في الظل، كافيها تستعمل موائد مكسوّة بالجوخ ومقاعد فارهة على الطريقة الإيطالية، وتقدم أشربة غالية السعر معقدة في أسمائها، ولا توجد محلات منفصلة، بل مول كبير لم أتمكن من زيارته إلا فيما بعد.

انفجرت الصخرة عن قلبي لأول مرة في واحدة من هذه الرحلات التفقدية، في مقهى منزوٍ أردت أن أكافئ «جبر» باستضافته فيه، أمام

المقهى تردد العجوز، لم يكن للمقهى جدران زجاجية، بل نافذتان عاليتان موزعتان على طول الرصيف لا تنبعث منهما أصوات المقهى المعتادة، تردد العجوز كأنه يخشى أن يرانا أحد فيبلغ البيه الكبير، لكنني شجعتة على هزيمة تردده بأن قلت له:  
- لن تتأخر، لا تقلق، سنشرب شيئاً بارداً ونصرف.

دخلنا، مناخذ خشبية وكراسي خشبية، المقهى تحكمه قبضة خفية لطبيعة المنطقة، مشروبات عادية تماماً، غير مسموح بالتدخين إلا ما يحمله جيبك وتواريه أصابعك، تعمل خلف نهمك شفاطات هواء موزعة بإتقان.

طلب «جبر» عصير فراولة وطلبت عصير برتقال، وقبل أن يأتي طلبانا أخذت أتأمل يديّ المضمومتين المرتاحتين على المنضدة، أتأمل يديّ العجوز أيضاً، واحدة على المنضدة والأخرى على فخذه المشرعة أسفلها. جد نقاط التشابه بين الصورتين، ترتعد يدا العجوز قليلاً، أفرد أصابعي وأطويها، معاً وبالتتابع، لا ترتعد، أهز ساقي ويأتيني خاطر مضحك: الحيوانات والطيور والزواحف لم تضل الطريق إلى حكمة وجودها أبداً، عن طريق المخالب والأنياب والعضلات العاصرة، لكن الأصابع، أصابع اليدين، التي هي دليل على تفرّد البشر واختلاف بعضهم عن بعض، ضلت طريقها، حتى لو خلقها الله لتكون قادرة على أمور كثيرة غير الكتابة، لتقتل وتخدم وتخون ولتكون دليلاً على وجود خالقها وقسوة العالم، ولو لم يكن «جبر» خادماً لما كانت أصابعه لترتعد هكذا، إنه أصغر من جدي بسنوات، لكن أصابع جدي لم أرها وهي ترتعد قط، لقد اختزل «جبر» أصابعه، اختزل حكمة وجوده.. أضحك. أصابع الأستاذ «سمعان» لم تكن ترتعد أيضاً، أصابع الأستاذ «سمعان» مسؤولة عن اختزال حكمة وجود أصابع الآخرين، أصابع قاتلة، وأصابعي التي تشبه قلبي الآن يزحف عليها البياض، والبياض يمس

قلبك كالشيب إذ يمس رأسًا نتيجة الفرع، لا نتيجة الشيوخوخة.. لا، ما يمس قلبي هو الكفر. نعم، كنت أحتاج للإيمان، وإن كانت حصص الأستاذ «سمعان» كافية لتكسو قلبي كله بالشيب، نتيجة طبيعية تمامًا للسمع المتكرر لشفتيه الدؤوبتين وهما تفتقان وتلتقيان لتتحكما في زفير وشهيق عباراته الخالدة:

- المجاز وهم، مرضٌ أصاب البشرية، وأنتم ضعفاء هذا المرض.

ربما لو تركت وشأني لظللتُ مؤمنًا بالوجود الصحيح لله على الرغم من اختلافي عن البقية في تفاصيل هذا الإيمان، مختلفًا عن تلك البقية الذين يتحدثون بلسان الأستاذ «سمعان» على الخصوص، أتحمس قلبي فأجد أنه، وبشكل مطلق، قد غفر للجميع: جدي ومشرف المطعم في سكن المدينة، وحتى الأستاذ «سمعان»، ربما ظللت أكره ما كان يمثله، ولكن بنسبية الأحداث التي مررت بها في حياتي كان على قلبي أن يحب الأستاذ «سمعان» أيضًا، فلولا تعصبه وقناعاته الصلدة التي كانت جزءًا من وظيفته لما كنت هنا الآن، حيًا، أحتسي مشروبًا باردًا بثمرن كلماتي التي أبيعها.

ثم انتابني خفة روح فائقة بعد أن وصلت في تفكيري إلى هذه النقطة، لدرجة أنني طلبت مشروبًا آخر لـ«جبر» وكأنني أحتفل باستقبالي لحياتي الجديدة، وكانت هذه أول مرة أسأل «جبر» فيها عن سيدة القصر، كأنني أتأكد فقط من أن ما رأيته في مطبخ القصر بليلتي الأولى لم يكن وهمًا، وكانت مجرد الإشارة كافية ليسهب «جبر» في وصف سيدة القصر التي لا يصيبها الجوع إلا ليلاً، ثم تترك فوضى من الأطباق المتسخة وبقايا الطعام على باب غرفتها، معتكفها الذي يحتاج اقتحامه إلى شراسة أشد من شراسة صاحبه.

- ولماذا هذا كله؟

قال بعد نظرة طويلة:

- سأخبرك، ولكنك لن تخبر أحدًا، اتفقنا؟

هزرت رأسي فابتسم «جبر» ممتنًا:

- أعرف أنك لن تخبر أحدًا، الجميع يعرفون السبب، ولكن لا أحد يجروُ على التحدُّث عنه جهراً، السيدة مرت بتجربة زواج فاشلة، منذ سنتين فقط، الزوج السيئ مثل القدر، لا تستطيع أن تتخلص منه إلا بانتزاع اللحم الحي، وعلى الرغم من أن أباه محام انتزع حقها المادي من حبة عينه فإن حقها المعنوي كسيدة أهينت لا يستطيع إلا الله أن يوفيهما إياه.

- ولماذا لم تتزوج مرة أخرى؟

- لأنها كرهت الأمر، أصلاً لم تتزوج في المرة الأولى إلا عنادًا، كان لديها حبيب، رجل مناسب، الوحيد الذي كان مناسبًا لها في هذا المجتمع الغريب، هل تعرف؟ ربما كان الأفضل لـ«إيلات» أن تولد فقيرة.

كانت هذه أول مرة أعرف اسمها، بدا لي الاسم عبريًا:

- اسمها «إيلات»؟

- نعم.

- اسم غريب!

- اسمها أقل ما في حياتها غرابة.

- وما أكثر شيء غريب؟

- يوووه، لا تعدد، حتى ما بدا مناسبًا لها لم يكن مناسبًا، من أحبوها أكثر من عدد الأنبياء، لكن من وصلوا إلى قلبها أقل من عدد الرسل، سأضرب لك مثالاً على ذلك: حبيبها الأول، فارس ممتاز لفرس جموح مثلها، وحفلة خطبة كالأساطير، رقصا فيها معًا رقصة «فالس» حتى حبسا أنفاس الضيوف، وفي النهاية لم يتم الزواج.

- ولماذا لم يتم؟

- السبب الواضح هو أن «إيلات» اكتشفت أن خطيبها الهمام متزوج

من امرأة أخرى عُرْفِيًّا، أنت تعرف تعقيدات الزواج بين السادة الأغنياء، قد يستغرق الموضوع عامًا أو عامين، خلال هذا العام غلبته حمضية مائه، وبدلاً من أن يزني تزوّج امرأة مطلقة، عندما عرفت ثارت ثائرتها وكان يمكن أن ينتهي الموضوع بطلاق الأخرى إلا أنها رفضت بعناد غريب وفسخت الخطبة.

- والسبب الخفي؟

- أنه ألقى لومه عليها في هذا، لم تتحمل أن يخونها ويلقي اللوم عليها، وقبل مرور العام كانت قد تزوجت هذا الرجل الكريه.

- زوجها؟

- طليقها، كان اختيارًا متعجلًا على أي حال، ولم يكن مقدراً له أن ينجح.

ساد صمت جنائزي..

- سأخبرك بشيء لا يكاد يتذكره أحد، بعد فسخ خطبتها من الرجل الأول، تعرضت «إيلات» لحادث سيارة، مات السائق، أما هي فمكثت للعلاج في المشفى سنة كاملة، مريضة مهشمة الساقين ممثلة بالحياة، كل الممرضات والأطباء صاروا مقيمين بها، ويعلنون عنها كأنها حلوى مولد النبي، لا يفارق المشهد بصري، الممر المزدهم بباقات الورد كأن بائع ورد ضل طريقه وافتتح محلاً هناك، لم تحج عائلتها إلى شراء باقة واحدة، كلها لرجال وأمهااتهم أتوا لرؤيتها وخطبتها.. تصوّر هذا! ناجية من حادث تصادم يأتيها ما يزيد على عشرين رجلاً يطلبون يدها، لكنها كانت تريد رجلاً تُلقِي تراب هيبته في عين الآخر.

تنهّد «جبر» والتمعت عيناه وكأنه يسير في ممر المستشفى المليء بالزهور والساكن في خياله، ثم قال:

- انتهى زواجها بمحاولة انتحار فاشلة، فمكثت أسبوعاً واحداً في

المشفى نفسه، طاقم الممرضات كُنَّ يُجرّين القرعة على التعيسة التي ستسهر عليها، لم تُكن تنام، وهل تعرف؟ لم يأتها غير زائر واحد خارج عائلتها، فقط زائر واحد، أميرها القديم أتى حاملاً إليها بوكيه ورد سدّ به ممر المشفى، عرض عليها الزواج واضعاً إمضاءه على شيك أبيض، وبركبتين على الأرض تحت سريها طلب منها أن تضع المبلغ الذي تريده كمؤخر صداق، كان يمكنها أن تضع رقمًا يفوق ماله وتزوجه، وإذا فكر مجرد تفكير أن يلعب بذيله تضعه في السجن.

- دعني أأخمن.. لقد رفضت.

هز «جبر» رأسه متعجباً ولم يرد.

انشغلنا طيلة الوقت المتبقي بإنهاء مشروبنا الإضافي، نلوك ذكرى امرأة أهينت وعُذِّبت، على باب المقهى أمسك «جبر» يدي ونظر في عيني:

- إياك يا «إسماعيل»، إياك أن تقترب منها إن أُتيحت لك الفرصة، الجميع يقتربون ويعانون، لا أعرف نوع السحر الذي ابتلعتة هذه المرأة وهي صغيرة لتكون ملعونة وساحرة لهذه الدرجة؛ فهي ليست جميلة كأجمل بنات عائلتها، لكن الرجال يتهافون عليها، وينتهي بهم الأمر إلى الرضا بفُتاتها، صارت تعويذة بنات العائلة بهذه الطريقة، وأقرب حكاياتها أنها كانت في حفل زفاف إحدى قريباتها وكانت ترتدي فستاناً جديداً معدلاً من تصميم لـ«كارولينا هريرا»، هذا الفستان، يا إلهي! كانت مثل شمعة مقدسة بالضياء كُتب عليها أن تذوب إلى ما لا نهاية من دون أن تضحل، داخ نصف رجال الحفل، أما النصف الآخر فتماسكوا بالبلاهة والضحكات المذهولة، رجل واحد فقط استطاع أن يخوض في هالة سحرها حتى وصل إليها، وأمام الجميع ركع على ركبتيه في الشرفة وطلب يدها، مشهد خيالي يغسل القلب ويعود به سنوات ليصير شاباً، وأمام الجميع أيضاً وببساطة رفضت الرجل

كسيدة ناضجة ترفض الذهاب إلى رحلة مدرسية. وهل انتهى الأمر؟! لا طبعًا، في الأسبوع التالي، أعارت الفستان لابنة عمها فخُطبت بعد أيام، هل تعلم من خطبها؟ نعم، ظنك صحيح، الرجل الراكع في الشرفة نفسه، تصوّر، الرجل نفسه!

خرجنا إلى الشارع الطويل وقبل أن نعبر الطريق للناحية الأخرى أمسك «جبر» يدي كأني طفل صغير يحذره من التهور:

- هذه حكاية واحدة يا بني والبقية يتشابهون، لا يختلفون إلا في التفاصيل، يقتربون ثم يرضون بالفتات، هذا ما أخبرك به، ولا تقل إني لم أحذرك!

نزعت يدي برفق من يده وسبقته بالعبور، وكنت أخفي وجهي حينئذ عن «جبر»، أخفيه فزعًا؛ لئلا يرى بياضه الشديد وقد انسحب الدم منه، قبل أن يلمح بوكيه الورد الخاص بي وقد ازدحم به صدري المأتمى.

\*\*\*

سألتني الدكتورة «عالية»:

- هل أحببتها يا «إسماعيل»؟

- من قبل أن أولد.

صفّرت بفمها إعجابًا بإجابتي:

- هل أحبتك هي؟

- سيدة تختار مقاعدها بهذه الدقة لا بُدَّ أنها لم تكن تحب كاتبًا يكتب نصوصًا بالأجر.

- لكنك لست مقعدًا.

- ولست حبيبها بالتبعية.

- حتى الآن لم تخبرني باسمها، لماذا؟

- لديّ أسباي.
- هل طلبت منك ألا تُخبر أحداً باسمها؟
- ليست في حاجة لتقول.
- ضحكت ضحكة متوترة:
- لهذه الدرجة؟!
- كما تخفين عني أسراراً فأنا أيضاً أخفي عنك أسراراً.
- إذًا، سأقايضك، كم سرّاً تريدني أن أخبرك به وتخبرني باسمها؟
- أسرارك كلها؟
- عندما انفكّ أسرُ ضحكتها قلت:
- لا تقلقي، سيأتي الوقت الذي سأضطر فيه إلى إخبارك به.

\*\*\*

أتذكر نصي الأول الذي كتبته لها بالخلج، بالخزي، ليس مثل المرة الأولى التي أكلت فيها مضطراً أمام الطلاب في مطعم الطلبة، ليس مثل المرة الأولى التي قرأ فيها الأستاذ «سمعان» ما كتبته أمام زملائي باستهزاء، لا تشبه هذه المرة أول مرة من أي شيء، وكانت بطعم الشريط الأحمر الرسمي ملفوفاً حول وسط «جبر» الخادم العجوز.

بزغ بكامل أنفه وهو يهبط الدرجات السبع حاملاً طبقاً من الخزف الأبيض، عرفت أول ما رأيته أن لهجته وطريقته وملابسه الرسمية لا علاقة لها بحماس أول الصباح أو قيادة الخدم وتوجيههم في يوم مهم، وضع أمامي الطبق الخزفي على المنضدة، لم يكن على الطبق إلا ورقة وقلم، الورقة عليها كلمتان «أريد نصّاً». وضع «جبر» الطبق وجلس على المقعد الآخر وهو يتصفحني بعينه، سألته:

- ما هذا يا عم «جبر»؟

- لقد تذكروا وجودك للأسف.

لوّحت بالورقة في يدي:

- مَن صاحب هذا الطلب؟

- لا أعرف يا عزيزي، الورقة تأتينا في المطبخ تسليمًا باليد من إحدى خادMAT القصر وبالطريقة نفسها سنعيد ما تكتبه.

- على الأقل، أخبرني عن نوع زبوني لأفصّل له النص الذي يناسبه.  
هزّ رأسه في أسف قائلاً:

- لا أعرف، لكن اسمح لي أن أنصحك، لا تُعد الورقة فارغة، هذا أسوأ من سبة، اكتب أي شيء.

- لا أستطيع الكتابة بينما تراقبني.

تنهد الخادم العجوز وابتسم متفهمًا واستند بذراعيه على المنضدة وانحنى توطئةً لينهض، ثم عاد ونظر وهمس، ك لحظة خارج لحظاته الرسمية، مستعيدًا شخصية الصديق:

- انظر، إن كان هذا سيساعدك، السيدة هي من تطلب بتلك الطريقة، لا أحد غيرها، لكن لا تعتمد على ذلك كثيرًا، لا تعتمد على نوعها لكي لا تخيب توقعاتك، إنها سيدة صحيح، لكنها لا تفكر كسيدة ولا كرجل.

عندما عاد «جبر» لم ينظر إلى المكتوب في الورقة، أخذ القلم ووضعه بعناية على الطبق ثم انصرف.

ظلمت جالسًا، لم أصعد للإفطار، أرسلوا لي طبقًا من كعك الزنجبيل الساخن وكوب شاي، وكأنه بتوصية من «جبر»، أكلت واغتسلت وارتديت ملابس جديدة، وعندما خرجت من الحمام وجدت الخادم العجوز ينتظري وهو يتسم في أسف، أمامه الطبق وعليه ورقة جديدة وقلم، عاجلني:

- أنا واثق أنك لا تُقدر أزمك الراهنة، تستحم وتفطر، وأنت في

موقف من سبقوك تقيّؤوا فيه من شدة القلق، خُذ.

أعطاني الورقة، كان مكتوبًا عليها: «طلبْتُ نصًّا حقيقيًّا، لم أطلب نصًّا هزليًّا ولا صيائيًّا»، وكان تحت كلمة «صيائيًّا» خطوط كثيرة، لدقائق ظلت أتأمل الكلمات حتى استوعبتها، بينما تملكنتي فكرة واحدة خفق لها قلبي مضطربًا، أنا في طريقي للفشل مع أول قارئ حقيقي!

لكني كنت مُسيّرًا، مُسيّرًا للفكرة المتشائمة، ومُسيّرًا لجذب الذهن الذي خلفته فيّ، مثل موجة تسونامي، إما أن أرفض وأصرف «جبر» وأتلقى العواقب، وإما أن أعتصر رمل ذهني وأنا أنتظر الموجة المرتدة الهائلة.

قلبت الورقة وكتبت:

«قال لها: كتبت اسمي لكِ ذات مرة لتبصريه، كتبته على لوحة سيارة عتيقة لم تمر بالمدينة إلا مرة واحدة.

قالت: وأنا مرّرت وجهي على الرمل والشوك والصدف لكي تتغزل في ملامحي ولم تفعل!

قال: خُضْتُ هذا البحر لأصل إليك في الجانب الآخر.

قالت: كنت على هذا الجانب الذي قذفت نفسك منه أحقّق في السبب الذي جعل الغريق يقذف نفسه بالبحر في الصباح البارد. لم أكن أعلم أنه أنت.

قال: كيف يتواصل اثنان أحدهما يُغني والآخر يتلو نصوصًا مقدسة؟

قالت: ما زال الحب يتلو معجزاته.

قال: أنا حزين كمدينة غارقة لا تحبها الأسماك.

قالت له وهي تضمه: نِم الآن؛ فلا يزال في قلبي مكان لكلمات الصديق التي لا تُحسن قولها».

ما الطريقة التي تضع بها ورقة تحمل نصًّا فاشلاً في طبق من الخبز؟! ربما كان ارتعاد يدي وأنا أضع الورقة والقلم على الطبق الفارغ الطريقة الأنسب، انصرف «جبر» من دون كلمة زائدة، ولبثت جالساً فارغ الذهن تماماً، زحفتُ حلزونات الضوء وتوددت إلى ساقِيَّ، لكنني لم أعْرِها انتباهاً، دهمت قلبي صورة المرأة التي رأيْتُها منذ أيام في المطبخ، وحكاية «جبر» عنها في المقهى الصغير، وأدركت أنني أخطأت خطأ هائلاً بكتابة هذا النص إليها، بحثتُ عن قلمي وورقة، ثم جلست وكتبت:

«فواكهها الاستوائية ليست حارة ولا عذبة المذاق، لكنها زاهية الألوان، فواكهها من البلاستيك، تعضها بأسنانها وتغمض عينيها نشوة وترتعد، بينما يرش الخادم في الهواء الروائح خفية.. وبعد وجبتها الثقيلة يضع لها الطبيب سِنَّ الإبرة في وريدها، لتصعد فقاعات الوهم من دماغها إلى زجاجة الجلوكوز ويحل محلها محلول السكر».

عندما عاد «جبر» مرة أخرى عاد حاملاً الطبق وعليه قصاصات ورق، كانت «إيلات» قد مرَّقتها، وضعت بالطبق الورقة التي كتبتُ فيها النص الجديد، شعرتُ بحاجة للاغتسال مرة أخرى، انصرف الخادم العجوز ولم يعد مرة أخرى، كنت أعرف أنه لن يعود.

\*\*\*

للنوم ما يهره دائماً، خاصة إذا كان بعد كتابة نصٍّ حاولتُ أن أكون صادقاً فيه، نوم تحمله إلى أجفاني الرحمة المماثلة لتلك التي تبثت في ززانة رجل حُكم عليه بالإعدام ليلة إعدامه، كتابة النص الصادق أشبه بتعبئة السماء أو اختزان الشمس في عدستي نظارة شمسية، والنجاح في ذلك كالنجاة من طعنة باحتضانها.

سأعلم بعد ذلك أن النوم صرغني بعد انصراف الخادم العجوز بالنص الأخير، سأعلم أن رائحة العطر هي ما أيقظتني وليس

الجوع، صعدت الدرج مدفوعًا إلى المطبخ، كان يجب عليّ أن أعود أدراجي عندما رأيتهما جالسة على طرف المنضدة البعيد تأكل، مثل قطعة شرسة، كشخص غاضب من الطعام، ناقم على نفسه، ذراعين أشد نحولًا ممّا كانتا عندما رأيتهما في ضوء الثلاثة الخافت، قلت في نفسي: لشد ما تغيرت! كأنني أعرفها منذ سنوات بعيدة. دفعتُ إلى وجهي بابتسامة باردة عندما رفعتُ رأسها ورأتني، كأننا تلاقينا على باب مصعد عام، أو في طريق ضيق اضطرها إلى افتعال علاقة عابرة ولو بابتسامة لكي لا يُساء الظن بها، لا تأويلات ولا غضب، ثم بدأت تتكلم بحيادية، وبطريقة أشبه بطريقة معلق رياضي على مباراة غير مهمة:

- لا تختبئ في الظلام هناك، هيا، تقدم واجلس، أرنى وجهك، شاطر، جميل أن تسمع كلام الأكبر منك سنًا، والآن، ها أنت ذا، أنت كبير، لقد ظننتك... لكنك رجل كبير، لا بُدَّ أنك تجاوزت الثلاثين بسنتين على الأقل، أليس كذلك؟! هز رأسك إن لم تكن ترغب في فتح فمك، لا تترك تخميني معلقًا في الهواء هكذا، ليس من اللائق أن تترك سيدة تنتظر، بالفعل؟ بسنتين؟ بثلاث؟ حسنًا، عمرك إذا ثلاث وثلاثون سنة، السن القاتلة للرجال، السن التي تصبحون فيها أكثر بطئًا وثقلًا وغباءً، لكنكم أكثر إدراكًا لشهواتكم، تعرفون كيف تمتصون الدم من العروق النابضة مباشرة، عند الجلد الرقيق، مثل البعوض، يشق شقًا فوق العرق ويضع خرطومَه وينتظر دقائق القلب أن ترفع الدم إلى معدته النهمة ليملاها، من دون جهد، لكنكم لا تطيرون بعيدًا عندما تشبعون، تفتكون بضحاياكم، كضربة من ذيل حوت بالغ خشن قبيح تسكنه القواقع وآثار من ضربات الحراب القديمة التي اندملت، لا شيء يهزمكم.

يستغرقها التشبيه، متشبثة بشوكة الطعام وكأنها تقاوم الغرق في مساحة المطبخ الصغير وتنتظر ضربة من ذيل الحوت، ثم تنهدت:

- وعلى كُلٍّ، لا أستطيع أن أعاملَك حسب ما أظن، بل كما يبدو عليك، وذلك حتى تثبت إدانتك، وما يبدو عليك هو الجوع. ياغبائي! لماذا صعدت من البدروم إلى المطبخ على أي حال؟ لأنك جائع، عامةً لن أخبرك أن تحضر طبقًا من هناك وتملأه، ليس مستحبًا على أي حال أن ينقلب أول لقاء تعارف بيننا إلى حفلة طعام مشتركة؛ لذا فأنت مضطر أن تنتظري حتى أنتهي وأنصرف، وعندئذ عليك أن تغسل الطبق إن أردت أن تأكل، هذا ضروري لكي لا يشك بك الخدم في الصباح؛ فهناك شخص واحد يأكل ليلاً ويترك الفوضى، وهو أنا، «إيلات»، والخدم يعرفون ذلك ويعرفون أيضًا أنني لا أغسل الأطباق إذا أكلت.

ثم تصفحت وجهي قليلًا بعينين لم أستطع تمييز لونهما وسألت:

- أنت صامت أم مندهش أم أن هذه هي سحتك الطبيعية؟ دعنا نكتشف ذلك معًا، إليك سؤال يجب عليك أن تفتح فمك لتجيب عنه: ما اسمك؟

- «إسماعيل».

- جيد، هل رشحتك مدرسة الأستاذ «سمعان» للعمل هنا، أم مكتب «لجنة الاختبار» مباشرة؟

- المدرسة.

- معقول؟ أنت تكتب إذاً من قبل أن يلحقوك بالمدرسة، ليس كهؤلاء الفقهاء، لكنك لم تخرج سالمًا من هناك كما يبدو، حصلت على لحيتك هذه من هناك، «إسماعيل سماعيل»، تبدو كابن جيد له، أخبرني، هل كان يعتبرك كابنه؟ لا، لا، لا تقل، هذا مفهوم من دون أن تخبرني، أنت ابنه؛ لأنه أرسلك إلى هنا، المكان الأفضل.

- لماذا الأفضل؟

قهقهت بسرعة كصهيل فرس يضرب قوائمه بثقة في الصخر قبل أن

تنطلق وتقول:

- ما هذا السؤال الغريب؟ لأن «إيلات» هنا، أنا.

ابتسمت وقامت، تتسع ابتسامتها، وكلما اتسعت أخذت بجماع أنفاسي وضيقت الخناق عليه، مثل لص نبيل، واثق، يريد أن يستنزف قواك أولاً قبل أن يسرقك.

- بالمناسبة، نصك الذي كتبته مؤخراً جيد، عليك فقط أن تحسن رسم الكلمات، تعرف الفارق بين الألف اللينة والياء في نهاية الكلمة، ولا تهمل الشدة يا «إسماعيل»، الشدة حرف كامل، هذا ضروري لك ككاتب إن أردت أن تستمر في قبض راتبك على هذا الأساس.

قالت هذا وانصرفت، ألقت عليّ ختام ابتسامتها وانصرفت، وتركتني ألث فاعلياً، مُنْهَكًا ليس بوسعي أن أفكر في فعل شيء غير ما قالته لي، أغسل الطبق الوحيد، وأغترف لنفسني من الطعام وآكل، على الرغم من أنني فقدت شهيتي، آكل بالطريقة التي رأيتهأ تأكل بها، بنظرة العينين نفسها عندما رفعت رأسها ورأتني، متبّعاً حروف كلماتها التي قالتها أيضاً، وكأنني أحاول أن أفهم فقط كيف فعلت بي ما فعلته.

\*\*\*

## «حسين» - القاتل

هذا ما استفاده «حسين» من ثورته على رجل الحكومة في المقهى: اكتشافه أن النظام لا يزال يعمل، وأن الجسد الميت، خاصة لو كان بارد الدم، ستظل بعض سيقانه ترتعش، وتركل، وتدمي الأنف.

«التحويل للتحقيق».. هذا هو ظرف المهمة التالية الذي تلقَّاه بعد عدة أشهر، كلمتان فقط: «التحويل للتحقيق». جَوَّعه لعدة أشهر ثم ألقوا إليه عظمة مسممة، التحويل للتحقيق، نخر بأنفه فالتفت إليه المارة مستنكرين.

تحَمَّل «حسين» غضبه وارتعادَ وجهه، سار بخطوات مرتعدة حتى وصل إلى سيارته، أغلق الزجاج وقام بتشغيل التكييف على درجته القصوى، وبوجه لا يرتعد أخذ يصرخ بكل الشتائم القبيحة التي خطرت على باله، الشتائم صعدت وهبطت وكان مُقدَّرًا لها أن تتفرع إلى ما لا نهاية لولا أنها استقرت على مشتقات كلمة واحدة، كلمة واحدة، سمعها ذات مرة من فم أمه وهي تتضرع بها لأبيه في غرفتهما المغلقة، وسمعها من أبيه وهو يسأل أمه عن رغبتها به، ومؤخرًا سمعها من فم فتاة ليل وهو جالس على مقهى، عبرت من نافذة مفتوحة ذات مساء ربيعي وتسببت في انتصاب ما لا يقل عن عشرين رجلًا يشربون الشاي بالنعناع فطلبوا شايًا آخر بالنعناع لتعطير دمائهم التي تسممت بالشهوة، ولم يَكُن «حسين» منهم.

لم ينفث الغضبُ في عروقه حتى بعدما توقف عن الشتم، بل حملته دماؤه السوداء إلى الاسترسال في التخيل، وما الذي يجب أن يفعله وهو ذاهب للتحقيق، يرتدي بذلة رسمية سوداء، ورابطة عنق حمراء، هل سيصطحب سلاحه، كم رصاصة سيذخر بها طبنجته الهامدة، كم رأسًا يجب عليه أن يفجره قبل أن يظهر الداعر الذي

يدير منظومة كهذه، ثم عاد للشتم ولكن بألفاظ أقل تكشفًا. الصق «حسين» وجهه بفتحات الهواء البارد ليهدأ، ظل مُلصقًا وجهه هناك حتى ازرقَّت رؤيته، وصار لعبه في فمه ثقيلًا، ثم قاد سيارته والتحم بالطريق، وفي الطريق فكر في الاتصال بـ«د»، أن يضغط الزر الأبيض ويرى النتيجة، يدعك المصباح ويرى حجم الدخان، تأكد أولاً من قوة إشارة الإرسال وبطرف مدية صغيرة ضغط الزر الأبيض فصدرت صفارة خافتة، كانت هذه هي المرة الأولى.

طيلة ساعتين انتظر ولم يحدث شيء عدا أنه بدأ يشعر برغبة شديدة في الانفصال عن العالم، والانفصال يتطلب مخدرًا، والمخدر لا بُدَّ له من مشارك، وإلا وصلت الأمور للشطط والتعاطي المفرط، ولا صديق له إلا «إسحاق».

بعد ساعة، كانا مستلقين على الكنبه (الفوتيه) الوثيرة، يتأملان نجفة السقف، وقاد هذا التأمل عقل «حسين» إلى استنتاج قاله على الفور لصديقه:

- أشك أن هذه الشقة المفروشة يقتصر استعمالها فقط على الأوقات التي نكون فيها معًا.

اعترف «إسحاق» على الفور:

- العالم مليء بالمتع يا صاحبي.

- لن أسألك عن المتع التي جرَّبَتها في هذه الشقة، بل عن المتعة التي تمنيت أن تجربها ولم تفعل.

تظاهر «إسحاق» بالتفكير للحظات:

- لا أظن أن هناك متعة لم أجربها، على الأقل فرعًا منها، سأخبرك بسر، ليس سرًّا واحدًا بل اثنان في الواقع، ذات مرة ملأت البانيو بالطين.

- طين؟!

- نعم، طين فعلي، دفعت لشخص ما وأحضره إلى هنا معبأً في عبوات بلاستيكية بحجم عشرين لترًا، تطلّب الأمر سبع عبوات ليمتلئ البانيو للدرجة التي تغمر جسدي بالكامل.

قهقهه «حسين»:

- استحمت بالطين؟!

- نعم، وما الغريب في ذلك؟

- حسنًا حسنًا، لا شيء غريب، ما السر الثاني؟

- قمت بشنق نفسي بالجبل، هنا، علقت جبل المشنقة في هذا الجنش ولففته حول عنقي، ووقفت فوق مقعد ودفعته بقدمي وتأرجحت، كمشنوق حقيقي.

- ولم تمت؟!

- في الواقع تطلّب هذا مني عدة استعدادات، الطريقة النموذجية للشنق دون قتل: تجهيز جبل مشنقة يقف بي على أعتاب الموت من دون أن أدخل، قام بصنعه أستاذ فيزياء في الجامعة، بالاشتراك مع أستاذ آخر في خواص المواد، الاثنان معروفان على مستوى ضيق جدًا، لكنه كافٍ لهما.

لم يستطع «حسين» أن يقاوم إحياءً بأن «إسحاق» دخل من باب خلفي في رأسه، مر بالأمور البعيدة، والأمور التي تعمّد إبعادها، في مروره تعثر «إسحاق» بما لم يلحظه، تذكر «حسين» في هذه اللحظة أنه قرأ عن رجل بريطاني أعد رسالة دكتوراه عن الشنق، وليس لأن بريطانيا قامت بإلغاء عقوبة الإعدام رسميًا في التسعينات نبذوا رسالته، لكن لأن الرجل قرر أن يكون أكثر تطرفًا وشهرة، مزق ما نبذوه وكتب كتابه المترجم إلى لغات كثيرة، الذي صب فيه خبرته السرية كلها بعيدًا عن رسالة الدكتوراه، تصميم حبال المشانق

ومميزات الشنق عن طرق القصاص الأخرى، كانت قراءة كتابه موضة في وقتها، لا شيء إلا لأن قراءة كتاب شنق صاحبه نفسه فكرة مريبة، نحن نحب الكتب التي تقتل أصحابها حتى لو لم تتضمن كلماتهم الأخيرة، بل حماقاتهم، لم يكن كتابًا مميزًا، لكنه أرخ للفكرة، للحالة، يتذكر «حسين» أنه قرأ كثيرًا عن طرق القصاص خلال التاريخ: المقصلة والشنق والسم والصعق والصلب، هذا كله كان به شيء مقلق، كحصاة في حذائه، الشنق كان الطريقة الأقل إقلاقًا، وفي تاريخ ما قرأه «حسين»، كان هذا الكتاب هو الأكثر سذاجة، لكنه كان مُلهِمًا، يدخل القلب من اللحظة الأولى ويهمس فيك: كم أن العالم بسيط للغاية وجميل، حتى فيما يتعلق بالشنق!

- أخذنا مني مبلغًا محترمًا ليجهزنا هذا الحبل، قاسا طولي وضغط دمي على فترات مختلفة وطول الذقن مقارنة بطول الرقبة، وكان وزني أيامها خمسة وتسعين كيلوجرامًا فطلبنا مني أن أنزل به حوالي ٧ كيلوجرامات، نصف كيلو كفيل بإفشال الأمر، ذهبت إلى صالة جمنازيوم وجريت على السير الكهربائي ما يزيد على ثلاثة أميال لأصل إلى الوزن المثالي.

- انتظر انتظر، هذا الموضوع منذ سنتين تقريبًا؟

- بالضبط، كيف عرفت؟

- صالة الجمنازيوم التي فقدت فيها ٧ كيلوجرامات من شحمك الغالي هي الصالة ذاتها التي تعارفنا فيها يا صديقي المسطول.

- بالفعل، كيف نسيت هذا اللقاء التاريخي؟

لبثا قليلا ثم قال حسين منتقدا:

- كان يمكنك أن تبتلع جرعة غير مميتة من المخدر وتدفع لصيدي نصف ما دفعته لأستاذي الجامعة.

- أولًا: هذه أرزاق يا صديقي. ثانيًا: هذه الحياة علّمتني شيئًا واحدًا:

الفقراء هم من يموتون، وأنا أخاف من التشبُّه بالفقراء، من يدري؟ ربما اختلط الأمر على ملك الموت فظنني فقيرًا ما دمتُ أغيب عن الوعي بهذه الطريقة الرخيصة فقبض روعي بجرعة المخدر التي لا تقتل.

هذه المرة قهقه «حسين» طويلًا، لكنه سرعان ما قال:

- هذا تجديف وكفر يا صديقي.

- ولو!

وقفت على فمه كلمات كثيرة كان سيقولها بعد كلمة «ولو»، لكنه مضغها مع حبة «أبو فروة» مشوية يمتلئ بها طبقُ أمامه.

سأله «حسين»:

- هل كان الأمر يستحق؟

- تقصد الشنق؟

- نعم.

- بالنسبة لي، نعم، كان يستحق.

- ما الذي شعرت به؟

- شعرت بالاختناق فعلاً، ولكن بعد دقائق شعرت أنني أتنفس، أتنفس فعليًا ولكن من مكان غير الحلق.

- من مؤخرتك مثلاً؟

- لو قلت كلمة استظراف أخرى سأكف عن الكلام، «أبو فروة» هذا يستطيع أن يستظرف في فمي المغلق أحسن منك.

ضحك «حسين»، وتلملم «إسحاق» كأنه مُجبر على الكلام:

- الأمر لم يكن يتعلق بالاختناق فقط، قبل أن أقوم بتجربة الشنق كنت قد سمعت بها من أشخاص أعرفهم، أنت تعرف الهراء الموجود في مجتمع كهذا، هذه التجربة مرَّ بها صديقان قبلي، وهما

من دَلَّاني على أستاذي الجامعة.

قال «حسين» بجدية كأنه يشجعه على إتمام الحكاية:

- استمر.

- دعني أشرح لك الأمر، حبل المشنقة كان مُجهَّزًا بطريقة خاصة تضمن لك ألا تنكسر الفقرة العنقية الثانية، حبل مزدوج، لكن ازدواجه يضمن لك الاختناق والضغط المثالي على الشريان السباتي على جانبي الرقبة وتوقف الدورة الدموية إلى المخ للحظات، لحظات كأنها سنوات، تمامًا كعملية الشنق، هذا الضغط مع الاختناق يضمن لك كبشة من الرؤى التي تجعلني واثقًا وأنا أقول لك: الموتى شنقًا يذهبون إلى الله سعداء.

- لاحظ أنك تتحدث عن المشنوقين الأغنياء الذين يشنقون أنفسهم بحبل صممه أستاذة الجامعة، لا الحبل الذي يعقده «عشماوي».

قهقهه «إسحاق» عندئذٍ وقال:

- أنت مُفسِدٌ للسعادة المتجردة من الغرض يا صديقي، تصور أنني لم أنتبه إلى هذه النقطة قبل الآن، كمية السعادة التي ظلت ترافقني عندما اخترتُ الموت شنقًا، بعد أن تأكد لي أن آخر ما يراه المشنوق ليس النظرة الشامتة أو المشفقة في عينيَّ شائقه، وأن ما يختبره يجعله ينسى أصلًا أنه ذاهب للموت بل ويستعذب اللحظة.

- بغضّ النظر عن المشنوقين التعساء الذين تنكسر أعناقهم بالسقوط طويل المدى بعد أن يصل الحبل إلى نهايته، ما الذي حصلت عليه من التجربة؟

أشار بأصابعه وكأنه يستبعد فكرة أنه سيخبر «حسين».

- لن تصدق!

- جرّبي.

سكت للحظة، ثم تناول قبضة من السوداني المملح، وقذفها في فمه، وبينما يمضغ أخذت عيناه تلتمعان والذكرى تأخذ بأنفاسه: - لن تصدقني ولكني سأخبرك، ما حدث أنني حصلت على أقوى انتصاب حدث لي في حياتي، هذا الانتصاب مع الاختناق والضغط على الحبل الشوكي جعلني أقذف عدة مرات بالرؤى الخارقة، انتصاب جهنمي يا صديقي، ورأيت نفسي وأنا أعاشر فتاة من الجن، كتلة من الدفء والأثوثة والليونة والدلع.

ذهل «حسين» للحظات، ثم انفجر ضاحكًا، فجعد «إسحاق» وجهه في استياء بالغ:

- وها أنت ذا تضحك الآن، عامة أنا نادم على إخبارك بهذا.  
- لا، لا، ما أضحك عليه أنك قلت رؤى، لم أتصور أبدًا أن تكون رؤى جنسية.

- هذا ليس كل شيء يا صديقي، الانتصاب والقذف كانا بابًا إلى حياة كاملة عشتها، حياة كنت فيها شخصًا آخر، وبأدق التفاصيل، الروائح والأصوات وشعور الجلد، ثم انقطع الحبل وسقطت وغشي علي.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك استيقظت من غيبوبيتي واغتسلت وغيّرت ملابسني ونمت نومًا عميقًا.

ساد صوت المضغ والقرمشة، وطففت في الهواء ذكرى رطوبة مريحة، ذكرى جعلت عقليهما مبللين بالماء الذي تناثر من فعل الاستحمام والاقْدَام المطبوعة في الصالة ذهابًا إلى غرفة النوم، ثم أصبحتا خاملين بفعل إحياء نوم عميق لشخص ما في الماضي، قبل سنتين أو أكثر، وكان «حسين» وصديقه صامتين هامسين وكأنهما يخافان إزعاج هذا النائم، وبهذا الصوت الهامس سأله «حسين»:

- كيف كانت هذه الحياة التي عشتها؟

- مذهلة، لا أتذكر منها إلا شيئاً واحداً، ليس مكاناً ولا طعاماً من الجنة ولا، ولا.. بل فعلاً واحداً في الحقيقة، فعلاً واحداً فقط يا «حسين»، كلما فكرت فيه شعرت بأن الراحة القصوى يمكن الحصول عليها في هذا العالم، الراحة التي لم يجلبها لي حمام الطين، ولا معاشرة عشرات الفتيات، ولا الحبوب المخدرة التي ثقت معدتي من كثرتها، والمدهش أن هذا الفعل لم أخطئ له، لم أفكر في عواقبه، ولم أختبئ بعد ارتكابه.

- وما هذا الفعل يا ترى؟

- قتلْتُ شخصاً كرهته جداً في هذه المرحلة من حياتي، قتلته في وضح النهار وبطلقة مسدس مدوية في رأسه، دوي الرصاصة كان مفزعاً لدرجة أنني أسقطت نقطة بول في سروالي، على الرغم من ذلك خرجت أمشي بين الناس من دون أن يلومني أحد أو يفزع مني، وكانوا يعلمون أنني قتلته، ولم يعترضني أحد، وكأن ما قمت به أمر اعتيادي تماماً، بل إن بعضهم رد تحيتي التي ألقيتها عليه، هل يمكنك تصور هذا؟! لا يلومك أحد ولا يهزل لك، وكأن ما قمت به فعل عادي تماماً، وهذا ما جعل الرؤى مثالية.

شعر «حسين» برعدة وانقبضت أصابعه وكأنه على وشك توجيه كلمة إلى وجه صديقه، فأخفى يده وهو يسأله في هدوء:

- ومن هذا الشخص الذي رأيت أنك تقتله؟

- رجل شهير يا صديقي، ربما لم تسمع عنه من قبل، قابلته مرة واحدة فقط، لكنها كافية لأكرهه.

- ما اسمه؟

- «سمعان الشنقيطي».

\*\*\*

## الفصل الرابع

لا تحلم بجن الحكاية الذي سيأتي لها بخاتم الأمير البعيد النائم في غفلته، تمتلك للنسيان دأب امرأة عشرينية نزقة، تمتلك قلبًا مُلغَمًا بالذكريات التي تحترف القفز فوقها، في كل مساء ترتب كل استحالاتها المقبلة ترتيبًا تصاعديًا، ستنام على الرغم من انعدام شهيتها للنوم. تبتلع نومًا عطشًا سيصيبها في الصباح بإسهال من يقظة صدئة، بعد ذلك ستجرب أن تحلم حلمًا مشبَّعًا، وعلى الرغم من أنه لا أحد يتشاءب في الحلم ستشاءب حتى تدمع عيناها، في الحلم لن تبحث عن رؤيا، ستبحث عن مبنى عالٍ تقفز من فوقه، وتجاهد ألا تستيقظ فزعةً مبتلةً بالعرق فوق وسادتها قبل أن تصطدم بالأرض، سيفزع دويُّ سقطتها جنَّ الحكاية القديمة وسيأتيها، لكنها لن تطلب منه الخاتم، ستغني له أغنية لينام، ثم ستقتله، وفي الحلم ستنام للمرة الأولى، من دون أن تحلم بالخاتم المستحيل، وبأقدام كسيحة.

«إسماعيل» - الكاتب



في وحدتي التي فرضها عليّ الأطباء أفكر كثيرًا، لا أفكر إلا في «إيلات»، بعد أن انتهى كل شيء، أفكر أكثر مما يمكن لإنسان أن يفكر في إنسان آخر، متجاوزًا حيي لها، متجاوزًا اللحم والعصب، أفكر بطريقة يمكن أن تستدعي الأشباح والقتلة، وتُنبِت الزرع من دون ماء، وتضيف على السراب سرابًا، يزورني عطرها، المرة الأخيرة ظل معي ساعتين كاملتين لا يفارقني، وكأنه عصفور نادر اختارني من بين آلاف البشر ليقف على كتفي، أطرقت برأسي وظللت ساكنًا صامتًا كأني في صلاة، لا أريد أن أفزع الرائحة، ولم تُخَيِّب الرائحة ظني، ظلت ماثلة على كتفي حتى تضحخت بها، ونمت واستيقظت بالرائحة في ثمالة وعيي، وكأنها صارت في تعرق يدي وشعر لحيتي إذا حركت وجهي يمينًا أو يسارًا.

كلما فكرت فيها أكثر وصلت إلى نتيجة واحدة، أن «إيلات» تشترك في صفة واحدة مع الكائنات الأسطورية الغامضة، والالهة التي اخترعها البشر، والبراكين والصواعق، وهي أنه يجب عليك لتفهمها ألا تحبها؛ فالحب محاولة للفهم على النحو الذي نريده.

يصعب تحديد اللحظة التي أحبتُ فيها «إيلات»، هل كانت في المقهى عندما حكى لي «جبر» حكايتها، أم في غرفة الضيافة بعد أن حكى لي عن شغفها بالمقاعد، أم عندما حدثني عن أحلامها وطلبت مني نصًّا في الحب؟

وهل كتبت نصًّا في شيء غير الحب؟! منذ بدأت أدرك أنني أحبها، بشكل يومي كانت تطلب مني نصًّا، فإذا أعجبها النص تعيده مُصحَّحًا مُشكَّلًا لأعيد كتابته، وإذا لم يعجبها تعيده كما هو، اتعمد الخطأ في رسم الكلمات لتؤكد من قراءتها لنصوبي فأحظى بنفحة يدها ومباركتها فوق كلماتي.

ثم صرْتُ أكتب نصوصًا من دون أن تطلب مني، صرت أقطف من قلبي فاكهته أولًا بأول لكي لا تتقل فروعه فتتحطم، لكنني لا أرسل

النصوص القديمة إليها إذا طلبت نصوصًا، فعلى الأفرع دائمًا نص طازج، نص لا يشكك في وجودها ولا يستفزها، نص ملك لها وحدها دون شريك.

كنت أفتح عيني للضوء كل يوم في قصرها، أقول كأنها تسمعي: صباح الخير يا «إيلات». أعدُّ الأيام حرفيًا، اليوم هو اليوم «الثلاثون.. الستون.. المئة» لوجودي في القصر، أعدُّ النصوص التي كتبتها: ستة وثلاثون نصًا، لكني لا أستطيع أن أحصي المرات التي تحدثنا فيها؛ فالكلمات صارت خرساء في وجودها ثرثرة في غيابها، وكلما مرت الأيام تبينت حجم كارثتي، كيف وصلت إلى ما وصلت إليه؟ يعجزني الكلام بمجرد أن أراها، يتفكك الكلام إلى حروف، ثم تصوير الحروف مراكب تسبح في الهالة المحيطة بها، تتراص في الشكل الذي تريده هي، فأغرقها انتقامًا وأعادو الكرة، كانت حياتي قبلها فارغة من المعنى، لم أكن أومن بالمسميات البسيطة، والأفراح الصغيرة، والأحزان التي تخص أشخاصًا دون أشخاص حتى عرفتها، ثم أدركت كيف تبهج الضحكة إنسانًا، كيف يستيقظ كل صباح معتقدًا أنه صار مهيبًا لوجود من يحبه، ثم يعاوده اليأس كل مساء بعد أن يعلم أنه لا يستحق حتى الأثر المشع لوجود عنقه أو ذراعيه في هذا العالم، كانت «إيلات» أكبر من قدرتي على الحب، والشوق اللائق بها أكبر من احتمالي، ولا يصلح لها إلا رجل يستطيع أن يحتضن قنبلة تنفجر، أو رجل في لحظاته الأخيرة لم يمُت إلا من أجل قضية تؤمن بها امرأة مثلها.

لم يبق لي من أسلحة الرجال إلا هذا الخنوع، التودد بالنصوص، الاقتراب بالكلمات، خلق علاقة ما بالحروف مع امرأة الطريق إلى قلبها يشبه مسألة هندسية معقدة، الوصول فيها ليس بالدأب ولا بالتراكم، إنه أمر أشبه بالعبادة منه إلى الحرفة؛ فالنص الذي سيجعلها تستدعيني إلى حضرتها لن يكون النص الأجمل ولا الأصدق،

إنه النص الذي سيحتوي على الكلمات المواتية لقلبها إن كان مُشرعًا. كثيرًا ما كانت تستدعيني وقليلًا ما كانت تحدثني، ولا شيء يروي ظمئي إليها إلا الكلمات، وجودي بجوارها وهي صامتة يجفف ريقِي، يجفني، يخبزي، وتفوح رائحتي الشهية، لكنها لا تمد يدها لتناولني، تخفض رأسها في كتاب، أو تشرد في نافذة، وتركني أتأملها عضوًا عضوًا كأنني أتأمل سماء شاسعة باحثًا عن نقطة مطر، وفي إناء قلبي ينضج حبُّ يكفي ألف امرأة، لكنه لا يعجبها.

وكنْتُ أسألها بابتسامة عندما أدخل:

- أي هذه الكراسي تريدني أن أجلس عليه؟

فتبتسم، أو تضحك، أو تبتسم ثم تضحك، فيتناثر الضوء فزعًا من شدة ألق الضحكة بعد الابتسامة، ثم يعود إلى مخدعه يرفرف بود ويلجأ إلى ركبتيها وكأنه استمرأ الفزع، يريد لها أن تُفزع مرة أخرى.

كنتُ سعيدًا، كالضوء، سعيدًا لدرجة لا توصف، خاصة عندما تتزيّن، بالذات عندما تفعل، أحيانًا كانت تتزيّن كأنها ذاهبة إلى النقاط صورة فوتوغرافية، زينة مؤطرة، مثل حدود جغرافية لبلد هادئ، لكنه يملك جيرانًا مشاكسين، وأحيانًا تسمح للزينة أن تتداخل معها وتختلط بملامحها، مثل عاصفة من الألوان والبهارات والأنفاس الحارة، يحبها نسيج ذي يعرف كيف يقيم المعاهدات مع جسد لا يستطيع احتواءه.

هذه السعادة لم يكن مُقدَّرًا لها أن تستمر، كنت أعرف ذلك.

\*\*\*

ذات يوم، سلكت بي الخادمة طريقًا آخر غير الطريق المعتاد إلى غرفة استقبال الضيوف الواسعة، باب الغرفة الجديدة كان صغيرًا بالمقارنة بباب الغرفة الأولى، ضلفة واحدة بيضاء شاهقة البياض ومكسوة في منتصفه بتشكيلات من القطيفة الحمراء، فتحت لي

الخدمة الباب وتراجعت لأدخل.

لا أرفف، على الرغم من الكتب الكثيرة المتناثرة في أرجاء الغرفة، غرفة نوم نسائية من الدرجة الأولى، سرير وتسريحة بمرآة ضخمة عليها عدد لا بأس به من علب الماكياج ذات الخشب الفاخر، مرصوفة بأناقة هندسية على لوح من الرخام الأسود، أدراج كثيرة مفتوحة جزئيًا في فوضى جميلة، وكانت هي في الشرفة تتأمل شيئًا ما في الحديقة عندما دخلت.

أغمضت عيني، على الرغم من أن الشرفة قبلية فإن عطرها وجد طريقه إلى وجهي متجاوزًا الغرفة الواسعة، سمعتها تقول:

- هل تحلم وأنت واقف؟

فتحت عيني متفاجئًا مرتبكًا، كانت واقفة قريبًا مني تتأملني، من دون دهشة، ثوبها الواسع الذي يشبه جلد نمر مرقط يجمع مع حركتها وينفرد، لم أتألم من نبرة السخرية المفترضة، بل ابتسمت؛ فالنص الأخير الذي كتبته نال رضاها، وكان هذا كافيًا لأقف بثقة، لا أعرف كيف فسّرت ابتسامتي، لكنها قالت كأنها قرأت أفكاري:

- النصوص مغوية يا «إسماعيل»، تقوّي القلب، تمامًا مثل الحشيش، أليس كذلك؟

أومأت برأسي موافقًا.

- لا أفهم السر في النصوص، لكنها ليست مجرد كلمات.

قادتني إلى الشرفة وجلسنا، بيننا نضد صغير صُنع من جريد، قالت:

- وصف النصوص بأنها كلمات تمامًا كوصف الجسد بأنه حفنة من الشعر والجلد والعظام والأظافر، إنه حتى ليس إعادة الشيء إلى عناصره الأولى، لكن النص كينونة مبهمة، خاصة عندما يتعلق بي أنا، شخص قبيح كرهه مثلي.

- لستِ قبيحةً يا «إيلات».

- أعرف أنك تراني جميلة، هذه المرأة أيضًا تراني جميلة، كتمثال جميل من الشمع في متحف للحسناوات، لكن صدّقني، الجمال شيء مبهم، أكثر إبهامًا من النصوص حتى، بالنسبة لي على الأقل، أنا المرأة التي ما زالت تحمل قناعة طفولية أن النفوس القبيحة التقطت الوجوه الجميلة عندما كنا نسبح في العدم، بينما يتمتع جميع القبيحين في الجغرافيا والتاريخ بالنفوس الرائعة؛ لذا فعلى المرأة الحسناء اكتساب الحسن في أخلاقها بالتصنّع حتى يصير طبعًا، وهذا ما كانوا يلقنوني إياه في صغري، لكن عندما كبرت كنت أتعمد أن أكون خرقاء، لا تعلم قدر الشقاء الذي تعيشه امرأة جميلة وذكية يا «إسماعيل»، إنها معادلة كلاسيكية للغاية، يجب أن تنتهي بالسعادة، لكن الحقيقة غير ذلك تمامًا، هل تعرف فيما أفكر؟ كان يجب أن أكون قبيحة جدًا لأكون بهذا الذكاء.

- السعادة أيضًا مفهوم كلاسيكي، لا يقل حماقة عن حفل توزيع الأرواح الذي ذكرته.

- نعم نعم، هذا أفضل ممّا تمنيتُ أن تردّ به عليّ، أنت رفيق جيد يا «إسماعيل»، حوارك جيد ليس مثل كثير من نصوصك، أتمنى أن يدوم الحال طويلاً بيننا على هذه الطريقة.

ثم تنهدت وكأنها تنهياً لقفزة في حديثها، لكنها لم تقل شيئاً؛ فقد أتت الخادمة بالشاي ثم قامت بصبه، وضعت السكر في فنجاني، وتركت فنجان «إيلات» من دون سكر، لم تكن «إيلات» تحب الشاي المحلّى بالسكر الأبيض، تضع مكعبًا من السكر البني في فمها وتحسني عليه الشاي المر، تمصه.

- كلّ يا «إسماعيل» من هذه المخبوزات، مُد يدك، إنها أشياء لا نصنعها في مطبخنا، ولا يمكننا صنعها، أعلم أن طعام المطبخ لا يكفيك؛ فالخدم هناك مصاصو دماء بلا أنياب، لكنهم ضرورة لا

بُدَّ منها، لا يمكنني تصور كيف يقومون بعملهم، الطبخ عمل شاق.  
- جدي كان يفضّل قطع يده على أن يطبخ بها، ورثت هذه القناعة عنه، لكن في مدينة الطلاب تعلمت كيف أعد بعض الوجبات الخفيفة، ضرورة كما قلت.

قالت بابتسامة عابثة:

- هل تستطيع أن تقلي بيضة؟

- طبعًا، هذا من أسهل أمور الطهي.

أخذت «إيلات» شهيقةً عميقًا ثم زفرته فانتشر الشذى حولنا:

- أنا أحب البيض بجميع الطرق التي يُطهى بها، لكني لا أعرف كيف يكسره الناس، لا أحسن كسر كلس البيضة حتى مع استعمال مطرقة اللحم، أصابعي لا تمتلك تلك الرهافة التي تجعل تفريغ بيضة من محتواها ممكنًا من دون أن تؤذيني أو تخلط محتوياتها بالكلس المفتت.. أراك بتبسم الآن.

- نعم، أحاول أن أتصوّر كيف يمكن أن يؤذيك كلس بيضة، هل يجرح أصابعك؟

- لا أيها الساخر، وإن كانت الفكرة رومانتيكية للغاية، امرأة تبلغ من الرقة حد أن يجرح أصابعها كلس بيضة، أنا قوية يا صديقي، ليس عندي عضلات ولست ضخمة مثلك، لكن غلافي قوي، ولن أسرد عليك ترهات الولادة التي تسردها النساء لأقنعك، كل ما سأخبرك به أن حد موس جديد احتاج وقتًا ليخرج معصمي ويقطع الشريان، ولو كانت يد رجل لما استغرقت هذا الوقت بنفس القوة والدأب وانفصلت تمامًا من معصمها.

- كانت لديك الشجاعة لتقطيع شرايينك بالموس، لكنك لا تملكينها لكسر بيضة؟!

- نعم، أتقزز من أن يلمس مُح البيض النيء أصابعي.

طعم المقرمشات كان خرافياً، يذوب مع اللعاب، ويتحد طعمه مع طعم الشاي مخلّقاً مزيجاً برياً كطعم التوت، وبخلاف الطريقة التي تُتبّل بها «إيلات» حوارنا بالأسي كان كل شيء مثاليّاً، النهار كان صيفيّاً وظلّ الشمس من النافذة يدور في المكان كحلزون عملاق يلتمس الدفء عند قدميها، وعلى الرغم من أن البستاني كان يُتحفني يوميّاً بزهرة مختلفة في كوب ماء على منضدي فإن عطرها مختلط بأنفاسها وأريج جسدها الخاص كان أروع من رائحة أجمل زهرة شممتها في هذا الصيف، وكنت أود أن أخبرها بذلك، كم مرة يمكن أن يؤدي جمال امرأة إلى أن يثير في رجل كتوم رغبة طاغية في أن يخبرها بجمالها ولو أدى ذلك إلى كارثة! زفرة أخرى أو تهيدة أو كلمة خاصة مثل «مُح أو كلس أو أصابعي أو عضلات» بالطريقة التي تنطقها بها ستصل بمقاومتي إلى الانهيار، إلى الركوع على ركبتَي وعيناي تغرغران بالدموع البائسة وأنا أخبرها:

- أنتِ فاتنة.. لا، بل ساحقة الفتنة، وحتى لو لم تكوني قادرة على فعل أشياء كثيرة تُحسنها السيدات لكنك قادرة على فعل أمور لا يصلح لها سواك؛ لأنك لست اسمّاً ولا رسماً.. بل حدث.

«إيلات» حدث، نعم، أنت لا تلتقيها ولا تراها، لكنها تحدث لك.

كفكت هذه الخواطر الجريئة كلها من فوران مشاعري، وأعطتني ثقة إلى أن أتصفح ملامحها الفاتنة بهدوء وتأنٍّ، باحثاً عن النجاة في علامة واحدة خافتة الجمال، من دون جدوى، لا ملمح واحداً من ملامحها ألقى بي إلى شواطئه المهلكة، بل عادي مراراً وتكراراً إلى الموج والغرق، وكلما جدت النظر فقدت عالمي، حتى أفكاري عن نهاية العالم ورفع القرآن انقلبت إلى فكرة مقبولة شكلاً وموضوعاً، الجلسة كلها تعطي إحساساً أقرب إلى ما وراء كل شيء، نهاية العالم والدخول للجنة أو التلظّي في النار مع الشياطين، لكني لا يمكن أن أخطئ الرؤية مع تلك الشواهد كلها، هذا مخلوق علوي الذي

أجلس معه، لم تكن هناك أصوات للبلع ولا للمضغ صادرة منها، وربما لا توجد فضلات أيضًا، طعام كهذا قد يكون مجرد طعام خفيف لي ولكنه بالنسبة إلى «إيلات» غذاء مكتمل، يحدث له وميض عند بداية الأمعاء وينشع إلى الدماء مباشرة، ولا يترك فضلات، بل سيفوح مع العرق والبول وينكّه الأطعمة الأخرى الدنيوية التي تسيء الأدب مع أمعائها باضطرابها إلى الهضم.. نعم، كان يمكنني أن أفكر في أمعائها وفضلاتها بالوله نفسه الذي أفكر به في منحنيات جسدها وعطورها، لا شيء مظلّم بهذه المرأة، كلها مضيئة.

قالت:

- قل لي يا «إسماعيل»، كيف تتصور «إيلات» وقد وقعت في حب رجل لدرجة أن تُعد له طعامه؟

- هذا أمر بديهي، حتى من دون حب، قد تضطرين إلى فعل ذلك من أجل نفسك، وفي أحوال معقدة كال فقر والحرب، كلاهما يعطيك اضطرابًا يشبه اضطراب الحب، وربما أقوى.

- كيف سأفتقر؟ لديّ مال أكثر من أن أعلم عنه شيئًا، ولماذا سأتزوّج من رجل فقير يجعلني أقلّي البيض؟! أما الحرب فلا أحد لديه الوقت حينها ليتفرّغ لقلّي البيض. هل حكيت لك عن جد جد جد أمي؟ كان يحرس متراसा على قرية فلسطينية هو ورفاقه، نفذ منهم الطعام وظلّوا اثني عشر يومًا لا طعام لهم إلا الماء والبيض النيء خوفًا من إشعال نار تدل على مكانهم، يثقبون البيضة ويمصونها كالشعابين، ربما أكون قد ورثت حبي للبيض من هذا الجد البعيد.

ثم فرقت بأصابعها أمام وجهي وكأنها توقظني: أين رُحّت مني يا «إسماعيل»؟

- في الواقع رُحّت عند البيارات، حياة كاملة عشتها مع جدي هناك لم يُشعل فيها نار المطبخ بنفسه إلا مرة أو مرتين، ومع ذلك لم

نأكل قط طعامًا نيئًا أو باردًا، أعتقد أن جدي لو كان مع جد جد جد أمك في هذه الحراسة لاستطاع تدبر الأمر ولعاشا حياة الملوك. ابتسمت من دون أن تعترض ثم قالت:

- على ذكر الحرب والقتل والمستحيلات الشخصية، أرى أن الطبخ بالنسبة لي كالقتل بالنسبة إلى كاتب مرهف مثلك، يعني مثلًا: لديك كل إمكانات القتل، قوة وأعصاب، حتى نظرات عينيك، نظرات قاتل، بالضبط كما أتمتع أنا بإمكانات الطبخ، الرهافة والرقّة وذراعين بضتين بيضاويتين كالحليب، فهل إذا قامت الحرب ستقتل أنت وسأطبخ أنا؟

- تتحدثين وكأن الكتابة لا تُعد جريمة مضمرة في هذا الزمن، وأن باب قصرِك هو الذي يمنع عني غضب الحكومة المترصدين، الكتابة بكل ما وضعوه حولها من محاذير جريمة يعاقب عليها القانون، وهذا أمر خطير يشبه القتل.

- أنا أيضًا أكتب، ولا أستطيع أن أنظر للأمور بهذه الطريقة الدرامية.

- وأنا أيضًا لا أستطيع أن أفعل، أعتقد أي مسالم.

- لا تقرر ذلك حتى تجرّب نفسك في موقف حقيقي، نحن نمارس الجريمة بداية من أبسط الأمور كالطبخ، وحتى أشدها تعقيدًا كالكتابة، لكن القتل يحتاج إلى دافع، الجميع يستطيعون القتل إذا توافر لديهم دافع.

عندئذٍ، حاولتُ أن أعطي الحديث دفعة في اتجاه آخر، بعيدًا عن القتل والانتحار، فقلتُ ممتنًا لها:

- يمكنني أن أقتل لأحصل على صندوق من هذه المقرمشات.

لدقائق نظرت إليَّ وكأنها تلومني على تحويل الحوار بهذا الشكل، ثم تقمّصت شخصية المضيفة التي تلقت مديحًا من ضيفها، رسمت

ابتسامة باردة على فم ساخن وتزحزحت عدة مليترات على مقعدها بعيدًا عن النضد، وكأنها على وشك مغادرة الحديث إلى عالم آخر، وقالت:

- هل أعجبتك؟ إذًا لقد أحسنتُ صنعًا بإحضارها لك.

نجحت خطتي، على الرغم من أنها تسببت في غضبها والتفاتتها إلى طبقها وفنجانها، أنهيتُ طبقي سريعًا إلا قطعة واحدة وأبقيت ثمالة الشاي، أخفيتُها مبقيا كفي اليمنى محيطة بالفنجان، وكأنني أعطي قبلة حياة لجلستنا التي أوشكت على الغرق، من وقتٍ لآخر وبسحر ما تختفي قطعة من طبقها، وكأن ملتهم خفيًا قرر التعامل مع طبقها، لكن الملتهم الخفي لم يَكُن جائعًا، وكنت أشعر بالامتنان له.

- أعتقد أن علاقتنا تمر بمنحنى لِيَن يا «إسماعيل»، هل تعرف لماذا؟ لأن تجربتي التعيسة لوَّثني، جعلتني لا أفرح بالتسبب في سعادة الآخرين، لكنني سعيدة الآن، تصور!

- تستحقين السعادة يا «إيلات».

- ربما، أتفق معك في السعادة العابرة التي يوزعها الملائكة الطيبون على جميع الناس بحكم وجودهم في الأماكن الصحيحة أو امتلاكهم الأسباب، كالمال أو البلاهة.

- وهل توجد سعادة أخرى؟

- بالطبع، السعادة التي تستحي الملائكة منها، السعادة الاستثنائية، أن يغامر شخصٌ ما، أن يأتي لك بسعادةٍ ما عصية من قرينها، هذا مستحيل معي.

- لماذا مستحيل؟ جرّبي ذلك، اطلبي من أي رجل أن يفعل وسيفعل.

- لقد طلبتُ سلفًا يا «إسماعيل»، طلبتُ سلفًا ولم أحصل إلا على ندبة في معصمي ولترين من دمي امتصتهما الطحالب في المجاريير

العمومية، والشيء الوحيد الذي يمكن أن يُسعدني الآن أن يقتل أحد زوجي السابق، يقتله من أجلي أو بعيدًا عني.

هذه الخيبة، التبدد، الندبة التي استيقظت ذكرها الوقحة في المسافة الفاصلة بيننا، فوق النضد والأكواب وطبقي المقرمشات، تنزف ثم تلتئم وتضمحل كقطرة ماء كبيرة وقعت على صفيح ساخن، لا تختفي ذكرها مع الاضمحلال، بل تخطف عيني إلى معصمها باحثًا عنها، فأراها، كأنني رأيت أحد أجزاء جسدها عاريًا، نسيجًا أكثر بضاعة من جلدها، نسيجًا تحوّل من طور المراهقة والدم إلى طور الرغبة والإغراء، مثل عضّة صغيرة شرسة في قلبي، هذه الندبة جعلتني أدمع يومها، جعلت كل شيء في جسدي بإمكانه أن ينقبض، ينقبض ويكز ويصدر منه صرير، حتى قلبي، جعلتني الندبة - مجرد ندبة - أكره رجلًا كاملاً لا أعرف اسمه ولم أر ملامحه.

وكنت مستعدًا أن آتي لها بهذه السعادة التي تريدها ككبش عصيّ، مؤهلاً لذلك حتى لو طعنني بقرنيه في صدري وأمعائي، بلا مقابل ومن دون أن ترجوني فتبدد الضوء وأكسجين التنفس من عينيّ وأنفاسي بصوتها المبحوح وهي تقول في ضراعة أذهلتني وسحقت صوابي:

- هل يمكنك أن تقتل من أجلي يا «إسماعيل»؟ هل تحبني للدرجة التي تجعلك مستعدًا لقتل رجل من أجلي؟

\*\*\*



## «حسين» - القاتل

لدقائق شعر «حسين» بثقل في معدته، ولم يكن هذا وارداً في الأثر الجانبي للمخدر الذي تناوله ولا حتى مع التهام كميات كبيرة من اللوز والكستناء والفلول السوداني التي فرغت أطباقها تقريباً أمامهما. ومثل سعة يحاول أن يطرد بها شيئاً طراً في حلقه سأل «حسين» صديقه:

- كيف يفترض بك أن تعرف «سمعان الشنقيطي»؟

لم يكن «حسين» يقصد ديانة صديقه؛ فهما منذ ثلاث سنوات يتعاطيان معاً تلك الحبوب المخدرة ولم يخطر بباله أبداً أن يسأله عن ديانتها، بل افترضها بالشبه؛ ف«إسحاق» بحروف اسمه الخمسة - التي يشترك معه في حرفين منها - لا يمكن إلا أن يكون يهودياً أو مسيحياً على الأقل، أما «حسين» فلا يمكن إلا أن يكون مسلماً، علاوة على ذلك أنه ذات مرة - بل مرات كثيرة - رأى ذكر صديقه، مرة بال فيها في الحمام المفتوح واقفاً واستدار من دون أن يغلق سحاب سرواله ليستنحي، ومرة كان يرتدي فيها «شورت» من ألياف صناعية يخترقه الضوء ويشف الماء القليل عمّا تحته، وبالإضافة إلى دغل الشعيرات الكثيف كان «إسحاق» مختوناً، وهذا دليل قاطع على يهوديته.

هذا كله لم يأت لتفكير «حسين» إلا عندما ذكر «سمعان الشنقيطي»، هذه الرؤى والذكريات كلها كانت مثل مواد أولية متجاوزة جنباً إلى جنب في مختبر هادئ، ثم جاءت جملة صديقه وخلطتها بعنف فسببت فرقة ودخائاً ورائحة كرائحة البيض الفاسد، لا، ليس صديقه هو الذي خلطها، بل اسم «سمعان» الذي صار يتردد كثيراً، أولاً «د»، ثم «إسماعيل» هذا المتخرج في

مدرسة «سمعان»، والآن «إسحاق»، صديقه باعتبار المسرة، صديقه اليهودي.

لكن حتى هذا الافتراض - افتراض يهودية «إسحاق» - لا يجعل معرفته بـ«سمعان» مستحيلة؛ لأن مدرسة «سمعان» تستقبل الطلبة من جميع الديانات بعدد محدد سلفًا، كنوع من الدعوة، وبشرط عدم الإفصاح عن أنفسهم بشكل أو لباس معين، لكن ما قصده «حسين» من استنكاره هو: كيف؟ كيف بنمط معيشة «إسحاق»، وأفكاره، أن تتقاطع حياته يومًا ما مع «سمعان الشنقيطي» حتى لو كان يهوديًا؟!

قال «إسحاق»:

- منذ عدة سنوات، وفي مدرسة «سمعان»، قام طالب في الصف الأول اسمه «أبان» بضرب فتى يهودي ضربًا كاد يفضي به إلى الموت، حوّلوه إلى المستشفى، أما الطالب نفسه فقامت المخابرات باستجوابه وتعذيبه، حتى أيقنوا أن الأمر ليس إلا فورة حماس أحمق، واستطاع أبوه، بعلاقاته، أن يُخرجه بعد أن أخذوا عليه تعهدًا بآلا يقترب من المدرسة ولا أي مكان يمكن أن يوجد به يهودي في هذه البلاد.

قال «حسين» ساخرًا:

- هذا يعني نصف الأماكن المحترمة تقريبًا.

- بالضبط كما قلت، لكن القبض على «أبان» بهذه التهمة وتعذيبه لم يمرًا ببساطة على الجماعات الطلابية الناشطة، خلال أسابيع تحوّل «أبان» إلى أيقونة طلابية، ورُفعت صورته في المسيرات الإسلامية والمظاهرات المناهضة لليهود، أصبح بطلاً بلا بطولة، ومُلهِمًا لكثير ممن يستطيعون التسبب في أرق للحكومة، وبلعبة بسيطة استطاعت المخابرات أن تسرّب معلومة كاذبة لوالد «أبان» جعلته يرتعد، أن الشاب اليهودي الذي ضربه «أبان» شُفي ولم يغادر القاهرة وأنه التحق بمهمة أخرى في مكان آخر، وأن معظم

تحركاته خارج مهمته تشي ببحثه عن «أبان» لينتقم منه، وبعد أن تركوا الخبر يطبخه قليلاً حتى نضج استدعوه مرة أخرى وجعلوه يستمع إلى مكالمة لليهودي الشاب وهو يهاتف شخصاً من المدرسة ويتوعد بقتل «أبان»، عندئذ أُسقط في يد الرجل، ولم يعد لديه إلا أن ينفذ نصيحة رجال المخابرات حرفياً، خلال أسبوع واحد حصل «أبان» على تأشيرة سفر إلى أمريكا، وأقام هناك عامّاً كاملاً تساعده أموال أبيه واستعداده الفطري في الحياة بشكل بوهيمي، ولم تفعل المخابرات إلا أنها التقطت عدّة صور لـ «أبان» في عدة أماكن لتضعها تحت أعين القيادات الطلابية لإسكاتهم بها، النهاية السعيدة كانت من نصيب الجميع في النهاية، المخابرات والطلبة الذين ذهبوا يبحثون عن أيقونة أخرى، و«أبان» الذي مكث في أمريكا حتى عاد من هناك بهوية مختلفة.

- هوية مختلفة؟

- نعم، قام بتغيير اسمه.

- هل تقصد أن «أبان» ظلّ خائفاً منك لدرجة أنه قام بتغيير اسمه حتى بعد عام كامل من اختباء كان كافياً لانقطاع أثره؟

- ليست مسألة خوف يا صديقي، كل ما في الأمر أن تغيير اسم «أبان»...

وكان «إسحاق» راقداً على ظهره حتى الآن، أما «حسين» فكان جالساً نصف جلسة يفكر في رؤياه التي مرت عليها أشهر، عندما قال لـ «إسحاق» سأقتلك يوماً ما، الآن فقط عنده سبب ليقتله، لكنه لن يقتله، ليس هكذا ولا بتلك الطريقة، صحيح أنه بدأ في كراهيته منذ قليل، كراهية فطرية ليس إلا، لكن الكراهية الفطرية يجب أن يؤخذ على يدها حتى تستقيم، صحيح أن «إسحاق» ظهر له الآن يهودياً بشكل جليّ، وبطريقة تسمح لـ «حسين» بإسقاط كل المُسلّمات التي تصفهم وتذمهم، فهو من يشاركه في التعاطي، وهو من حكى له

عن المشنقة، وحمّام الطين، هذا كله لا يمكن أن يقوم به مصري، فضلاً عن مسلم، لكن القتل، القتل على طريقة «حسين» يستدعي أكثر من هذا، هل يمكنك يا «حسين» أن تقتله، تقتل مواطناً إسرائيلياً أو أمريكياً، بالرخصة التي أعطتك الحكومة إياها بشكل سري؟ لا طبعاً، لقد أفسد «إسحاق» رؤياه، أفسد صفاءها، وبشكل مؤسف.

لكن «إسحاق» اعتدل وقد امتقع وجهه، ظن «حسين» أن حبة فول سوداني علقت في حلقه، لولا نظراته الغاضبة الغليظة وهو يقول بصوت مختنق:

- ما الذي قصدته؟ ماذا حسبتني؟ ألا تفهم؟ هذا كله ولم تفهم! كيف لك أن...

وكان صوته قد بدأ يعلو، والدموع تتكوّن غشاءً رقيقاً على عينيه:  
- أنا لست «إسحاق» الذي تظنه، لست يهودياً، أنا لست يهودياً يا «حسين»، أنا مسلم، هذا الوقت كله ولا تعرف ديانتني! ما الذي حدث لك؟

فوجئ «حسين»، وشعر بخفة وطميش، بينما استدرك صديقه قائلاً:  
- أنا «أبان» يا «حسين»، «أبان».

\*\*\*

قال «أبان» أو «إسحاق»:  
- لقد وُلدت بهذا الاسم، «أبان»، لكنني اضطررت لتغييره إلى «إسحاق»، ليس خوفاً من اليهودي، الحكاية أن أبي استطاع الحصول على استثناء لإدخالي مدرسة «سمعان الشنقيطي»، تفوّقت في الأيام الأولى ووجدت لذة في الدراسة وصحبة الطلبة هناك، بل وفزت بريادة الصف الأول على مستوى الفصول، كانت أياماً جميلة لولا ما حدث، ضربت هذا الشاب اليهودي ووضعتني رهن الاعتقال،

الذل الذي عاناه أبي كرجل أصولي في محاولاته لإخراجي صَبَّه على رأسي أضعافًا مضاعفة بعد ذلك، قام بحبسي في هذه الشقة وألزم بمراقبتي الخادم الذي يخدمني، عشت أيامًا سوداء لم يخفف منها أن استطعت تسوية أموري مع الخادم الصارم والإنفاق من المال الذي ترسله لي أُمِّي سرًّا على متعنا المشتركة، وعندما سافرت إلى أمريكا لم أعد من هناك إلا بعد أن تلقَّى أبي عدة تأكيدات أن الفتى اليهودي عاد لبلاده.

- ولماذا قمت بتغيير اسمك إذا ما دام قد عاد لبلاده؟

- في أثناء وجودي بأمريكا، ذهب أبي إلى الأستاذ «سمعان» وحاول إعادتي إلى المدرسة، لكن «سمعان» أشهر له ورقة المخابرات التي تحذره من إعادتي وإلا أغلقوا المدرسة.

- إذا، اتفق أبوك مع «سمعان» أن يقوم بتغيير اسمك لمغافلة المخابرات وإعادتك للمدرسة؟

قهقه «أبان» عندئذ:

- لا، ولا هذا، الحكاية غريبة، يلزمك أن تقرأ قليلًا في علم الحديث لتفهمها، علم الجرح والتعديل خصوصًا.

- أفهمني أنت.

- «أبان ابن أبي عياش»، الذي سماني أبي على اسمه، كان راوي حديث من الطبقة الخامسة، وهذه الطبقة تضم صغار التابعين، يقال إنه كان رجلًا صالحًا وكان يرى هلال شهر رمضان قبل الناس بليتين، لكنه كان متروك الحديث، بمعنى آخر: سيئ الحفظ أو يعتمد الكذب ليزرع في الناس ما يراه أخلاقيًا، لا قيمة له في ميزان الرجال المحدثين.

- ما علاقة هذا بتغيير اسمك؟

- «سمعان الشنقيطي» يا صديقي، عفريت المرحلة السيئة من حياتي، قبل أن يُنهي لقاءه أبي، أخبره أن السبب الأساسي في فشلي

هو تسميتي بهذا الاسم، صُدم أبي، قال له «سمعان» إن المرء يحمل نصيبًا من اسمه، وإن اسم «أبان» كان فألاً سيئًا على حياتي.

ثم سكت «إسحاق» قليلاً وقال كأنه يعالج ذكرى سيئة:

- أما «إسحاق بن راهويه»، فهو رجل أشهر من الشمس، زهد وورع، أثنى عليه جميع العلماء، وروى عنه أقرانه «أحمد بن حنبل»، ومن تلاميذه «محمد بن إسماعيل البخاري»، و«النسائي»، اسم له سيرة تجرُّ جبلاً من الخيبة إلى النجاح، وكان الذي اختار لي هذا الاسم هو «سمعان الشنقيطي».

- حكاية شائقة يا «إسحاق»، لكني أراك متصالحًا مع اسمك.

- فعلاً، لا فارق بين اسم واسم عندي، كنت أحب «أبان»، لكن «إسحاق» اسم مميز أيضاً.

- لا بُدَّ أن أباك له علاقات ثقيلة فعلاً، تغيير اسمك بالكامل ومع كل الشبهات التي تدور حولك يُعد معجزة في هذا الزمن الإلكتروني، أسألي أنا، حاولت كثيراً تغيير حرف واحد من اسمي ولم أستطع. - ليست مسألة علاقات ثقيلة فقط، كانت رغبة من الحكومة أيضاً.

عاد «أبان» لوضع الرقود على ظهره وساد سكون مريح، ثم قال «حسين» فجأة وكأنه اكتشف أمراً غريباً:

- وعلى الرغم من ذلك يبدو لي حلمك بقتل «سمعان الشنقيطي» غير مفهوم ومبالغاً فيه، ربما سيكون مفهوماً إن كنت قد قتلت هذا اليهودي، أو الخادم الذي استغلك، أو حتى أباك الذي قسا عليك من شدة خوفه.

- ومن أدراك أنني لم أقتل هؤلاء كلهم في أحلامي؟

ضحك «حسين» وتهند «أبان» وقال:

- في الواقع، إنني لم أكره «سمعان» بسبب تسميته لي، بل بسبب المرة الوحيدة التي تحدثنا معاً، قبل أن أضرب هذا اليهودي ويتم

تحويللي للتحقيق، في مكتبته وقبل أن يبدأ كل شيء، لا أنسى أبدًا هذا الحوار، ولا كلمة واحدة سقطت من ذاكرتي المسكينة، كنت أريد مغادرة المدرسة، استدعاني وسألني: لماذا تريد مغادرة المدرسة يا «أبان»؟ أعترف أنني لم أكن في أفضل أحوالي، قلت كلامًا كبيرًا، قلت كلامًا لألفت انتباهه، لكنه حاصري، استطاع أن يدفعني إلى الحائط، أن يضعني في سياق وأسلوب واحد للكلام يدينني ويجعلني أعترف بفشلي في الاستمرار، كنت أعرف أنه كاذب وأنه مليء بالخراء الذي يملؤني، لكنه يجيد تلوين نفسه وتجميلها، ليس هناك حديث في هذا العالم أسوأ من حديث بين اثنين يدعيان المثالية، أحدهما فوق الآخر..

وابتلع «أبان» ريقه بصوت مسموع:

- ووقفت أنظر هناك، لا أستطيع أن أهمس حتى بما أريد أن أقوله بصيغة مهذبة، فضلًا عن أن أقوله بشكل قبيح، وأن أخرج له لساني، كان ماهرًا، الحوار الذي دار بيننا يجب أن يُدرّس وتكتب عليه الشروح، تسبب في فزعي بطريقة لم تحدث لي من قبل ولا من بعد، حتى لو قيل لك إن قاتلاً يسير خلفك بمسدس مذخر، هل تعرف لماذا فزعت؟ وشيت بزميل لي، «إسماعيل»، كان يمكن أن أتسبب في طرده من المدرسة، بل وتعمدت أن أشي به، لأصير جميلًا في عيني «سمعان»، قلت له إنه يكتب الحكايات، ففاجأني بأنه يعرف، وقبل أن يشرح لي الأمر فوجئت بنفسي ثور، قلت لـ«سمعان» إن أبي أخبرني أن العلم الشرعي شرف، وأنه ليس من الشرف أن أدرس الدين مع كاتب حكايات وطالب يهودي، لا أنكر أنني وأنا أقول ذلك كنت أظهر امتعاضًا لا رصيد له، وأن «إسماعيل» أفضل مني على مستوى الاعتراف بالنفس، لكن «سمعان» أظهر لي معدني الحقيقي، أنني أنتمي إليه، أشبهه هو، وكنت مستعدًا أن أخسر مستقبلي وعطف أي لي لا أصبح مثل رجل كهذا، ثم انحرفت بي الأمور، وها أنا ذا،

شخص آخر تمامًا غير «سمعان» و«إسماعيل».

- «إسماعيل»؟

- نعم، «إسماعيل عارف»، لا أنسى هذا الاسم أبدًا.

لو كان هو هو «إسماعيل» الذي قام بتوصيله إلى القصر من مدرسة «سمعان»، الشواهد كلها تشير إلى ذلك، مع أن بحث «حسين» عن طريق علاقاته في أرشيف المدرسة لم يعثر له على متخرج اسمه «إسماعيل»، ولكن ها هو «إسحاق» يؤكد وجوده.

- وأين هو الآن؟

- من؟

- «إسماعيل».

- لا أعرف، لم أهتم، ما مربي بعدها كان أكبر من أن أسأل عنه.

نظر «حسين» إلى عيَّي «إسحاق»، إنه يكذب، و«حسين» يميّز نبرة صوته عندما يكذب، ولكن لا بأس، ليُعدّ الحديث إلى «سمعان» كما يجب أن يكون الأمر.

قال «حسين»:

- كل ما قلته ليس مُلهِمًا كفاية لتحلم بقتل «سمعان» يا صديقي.

- رغبة القتل لم أكتشفها على الفور، استغرقت وقتًا لأعترف بها، ثم تجلّيت لي تجليًا لا لبس فيه عندما كنت أختنق وأنا معلّق في حبل المشنقة. تعرف يا «حسين»، من السهل أن تعالج فكرة القتل إن كانت لها أسباب معقولة، بل وتجد الراحة والنشوة في ذلك، لكن فكرة قتل شخص ما بلا سبب واضح لا تستطيع أن تعالجها، القتل بلا سبب معقول أقوى من قدرة قلبي على مغالبتة، ربما تكون نزوة عابرة، وفي تاريخ النزوات العابرة رأيت أعاجيب لا تستطيع أن تصدقها، رأيت رجالًا يدفعون المال الكثير للزنا بنساء متزوجات، حتى لو دعوتهم إلى الزنا بفتاة بكرٍ بنصف هذا المال أو ربعه، مع

ذلك أكاد أقسم ألف مرة إن رغبة القتل بلا سبب موجودة كـرغبة طبيعية تمامًا داخل قلوب الرجال كلهم، مثلي ومثلك، لكنها مردومٌ عليها بكل السخافات العصرية التي تعلمناها.

كان «إسحاق»، وهو يصف مشاعره ببطء شديد، قد استطاع إخراج «حسين» من حالة النشوة بسبب المخدر إلى حالة من نشوة أخرى، من دون المرور بحالة وسطية، وكانت النشوة الأخرى أشد، مليئة ومذخرة برغبة لا تفسير لها، وقد حاول تفسير رغبته أو مقاومتها، لكنها تشبه رغبة طفولية كثيرًا ما رآها بعينيه في الصعيد واحتقرها، بل وتقرز منها، رغبة الأولاد في تبادل كشف أعضائهم لرفاقهم داخل الشوارع الضيقة التي لا يستطيع الكبار المرور منها، وليغالب هذه الرغبة التي تكاد تجرف الدعامات القوية لقلبه العالي وتلقي به إلى التهلكة سأل «أبان» مُصرًّا:

- ولكن لماذا فكرت في قتل «سمعان» دون الآخرين؟ ألم يكن من الأفضل أن تقتل هذا الشاب؟

- «إسماعيل»؟!

- نعم، «إسماعيل»، أقصد أن «سمعان» رجل من الصعب أن تقضي على وجوده بطلقة رصاص، وأن أشباهه موجودون، أنت اعترفت أنك كنت في فترة من حياتك تشعر بالانتماء إليه، فلماذا لا تخرج من هذا التشتت كله بقتل «إسماعيل»؟

فكّر «إسحاق» قليلًا، كان الاقتراح بعيدًا ويشي بأثر المخدر على أعصاب «حسين»، لكنه قال في النهاية:

- ربما يكون ما تقوله وجيهًا، المهم هو الرغبة، الشيء النادر الذي لا يتكرر هو الرغبة، وقد وجدت رغبتي مع «سمعان»، تمامًا كالحب من النظرة الأولى، لا تستطيع تفسيره.

\*\*\*



## «إسماعيل» - الكاتب

لا شيء مثل الحب يا «إسماعيل»؛ فالوقت الذي تكون فيه أكثر استيثاقًا منه في قبضتك هو ذاته الوقت الذي يكون فيه أكثر قدرة على الهروب، إنه الشيء الذي يُبقي للقدر هيئته في هذا العالم.

من قال إن الحب يرقق الموجودات؟! بعد حديثي الأخير مع «إيلات» صار جلد الجدران يزداد سُمكًا وغلظة يومًا بعد يوم، وكأنه كافر حُكم عليه بالاحتراق من دون أن يتبدّل جلده، حتى نزهة الصلاة مع «جبر» لم تعد موالية لقلبي.

مرت أيام كثيرة لم تطلب مني «إيلات» خلالها نصًا، فضلًا عن أن تستدعيني للقائها، بعد لقائنا الأخير، تلوك ذهني مرارًا وتكرارًا جملة التي ودّعني بها إلى الباب، بعد الرجاء الحار الذي أخذ شكل العاصفة ثم مطر الدموع ثم الجمود والصمت المشبوب، التي أعقبتها تحيات الوداع المتسرّ، قالت:

- أرجو أن تظل مرتاحًا حيث أنت يا «إسماعيل»، أتمنى ألا أكون قد ضايقتك يا أخي.

ما الذي قصّدته بهذه الجملة؟! بدت وكأنها تهدهد طفلًا صغيرًا، أو تكفكف خيبة رجولية اكتشفتها فيّ للتو، وكان حرصها عليّ أكثر إيلامًا من شراستها تجاهي، في وقت لست فيه بحاجة إلى القسوة التي أصبحت مولعًا بممارستها على نفسي..

وعلى الرغم من العبارة المتجافية، أرسلت لي مع خادماتها - بعد انصرافي - علبة معدنية مليئة بالمقرمشات، وكأنها تمهر عقدًا خفيًا تم بيننا بصورة مبدئية، أخفيها في حقيبتي، هذه العلبة التي ضمت

كل أشياء السرية فيما بعد، ولم يكن بها شيء أكثر خطورة على قلبي مما أهدته إليّ في البداية.

كان كافيًا أن أخلد إلى النوم مرة واحدة بعد لقائها الأخير معي، وأستيقظ فأجد أن الواقع قد فقد أبعاده، صارت «إيلات» (واقع وجودها، لطفها معي، حديثها، ملابسها، وتزيينها للقائي وحتى جملتها: اكتب لي نصًا في الحب) تتضخم مثل حلوى في حلم طفل لا يستطيع تصغيرها لاتهامها، ولأصعّرها كان عليّ أولًا أن أطمئن ألا أحد يراني، ثم أقوم بفك غطاء علبة المقرمشات، وأُخرج واحدة وألتهمها راقدًا على ظهري مغمضًا عينيّ مستدعيًا تفاصيل لقائنا الأخير الذي انتهى بالخيبة.

جربتُ أن أكتب نصوصًا وأرسلها إليها، لكنها كانت تعيد «جبر» بالطبق وعليه الورقة لم تمسها عيناها، كيف كنت أعرف أنها لم تقرأها؟ الحروف مظلمة.

هل يمكنك القتل من أجلي يا «إسماعيل»؟ هل تحبني للدرجة التي تجعلك مستعدًا لقتل رجل من أجلي؟ النبرة التي قالت بها، المشاعر الدفينة، الحقد الذي يساعد على الاشتعال ولا يشتعل، جعلتني أشعر حسيًا بأن كتابة النصوص في المطلق الذي هو ليس تناصًا ولا إحالة مثل القتل في العدم، ومن دون أسباب، القتل عدد من المرات ولروح يجب أن تُقتل مرارًا لتستوفي ذنبها، القتل في العدم مثل كتابة النصوص من العدم، عمل إلهي، يُحيي العالم، يُعيد للأشياء توازنها، ويجدد هذا الجلد القبيح للكون.

لو أنني امتلكت الجرأة يومًا على أن أحمد الله فسأحمده على نعمة هذا الإدراك الفائق الذي منحني التعرف على موهبتي - ذات ظهيرة عند البيارات - عن طريق الروائح التي فُتح لي صندوقها قبل أن أفقد إيماني بالعالم في مدرسة الأستاذ «سمعان»، عندما كان لا يزال موجودًا، ظني الساذج برسوخ الأشياء وقدمها وثبات العادات والعصية عليها،

لأهتدي إليها، إلى «إيلات»، فتمنحني التشبث بموهبتي بعد أن كادت تفلت مني.

على الرغم ممّا تقوله الدكتوراة «عالية»، أقول لنفسي إنه لولا الخديعة ما استطعتُ أن أكتب حرفًا، ولولا غفلتي ما ظللت أكتب للعالم القديم، تلونه حروفي وتبهجه كطوطم هندي وتعبدته كوثن، قبل أن ألاحظ الحركة الخافتة للدود الذي ينهش، محاولًا تنويع المقدس بالفناء وإيهامي بالحركة الدؤوب في الساكن المتفسخ. كم مرة قيلت هذه الجملة: العالم القديم، لكنني أمتلك الآن من الأسرار ما يجعلني واثقًا من أن هذه هي المرة الأخيرة التي ستُقال فيها الكلمة، ومع هذا سأظل أكتب حتى بعد أن انزاحت غفلتي، لهما: رثاء لما مر من هذا العالم، وتودّد إلى قلب امرأة وحيدة قاسية القلب، هما المتبقيان خارج هذا التعفن، ولولا هذا الصندوق الذي فُتح لي ذات ظهيرة ما انتبهت إليهما..

وفي ردغة الخبال هذه كتبتُ أول نصوصي السرية معها، كانت «إيلات» بطلتها بالعري المضغوط الذي يشبه سوبرنوبا ورغبتي في حفر طريقي بداخلها كخلد ماء ضعيف مرتعد، مع آخر قطعة من علبة المقرمشات، كتبت نصي الإيروتيلي الأول عنها ومعها ورقدت على ظهري واحترقت في وهجها راضيًا.

لا شيء مثل الحب يا «إسماعيل»، إنه المجاز الذي حذرك الأستاذ «سمعان» من خطورته على قلبك.

\*\*\*

للسبب الذي لن أذكره الآن، خلا كل ما حكيته للدكتوراة «عالية» عن القصر من اسمها، اسم «إيلات»، سميتها سيدة القصر، قلت لها إنني أحببتها، وإنها طلبت مني أن أقتل زوجها، واعتزلتني ثلاثة أشهر لا تكلمني بعد أن طلبت مني ذلك، حتى كدتُ أجنّ، سألتني:

- لم تذكر لك اسم هذا الزوج؟

- لا.

- ولم يذكره «جبر»؟

- ولا مرة.

- ولم تقتله يا «إسماعيل»؟

- هل تشكين في ذلك؟

- هل أنت خائف من شي؟ لا تخف، أنا أيضًا ابتلاني الله بزواج سيئ فترة طويلة من حياتي، وحتى انفصلت عنه كنت أتمنى أن يقتله أحد بالنيابة عني.

سألتها هازلًا:

- كان اسمه «إسحاق»؟

سهلت ضحكتها على الطرف الآخر، إن كان هناك شيء أرتاح إليه في هذا العالم بعد رؤية «إيلات» فسيكون الحديث مع الدكتورة «عالية».

\*\*\*

عشتُ ثلاثة أشهر تالية من التخبط والجنون والحيرة، كلما استبسلت وكتبت أكثر وأرسلت إليها ابتعدت وصارت حلمًا أبعد من قدرتي على تناولها، وكأنني أحكُّ مصباحي السحري الذي احترق مارده بالداخل ولم يعد يحقق الأمنيات، ثلاثة أشهر كاملات لم أرَ فيها «إيلات» لدرجة أن العالم والمشاهد والرؤى فقدت لحمها وجلدها، وصارت عصيًا ينبض بوهن أمامي، ولم أنتبه إلا ذات يوم و«جبر» يخبرني مشفقًا:

- لقد هزلت يا بني، على الرغم من أنك تأكل جيدًا.

إلى مرآة خلف الكرفان قادي «جبر»، أضاء لمبة علوية، صافحت عينا «إسماعيل» القديم بداخلي وجه «إسماعيل» الجديد، بلا ود، وباحتقار، وبنوع من الخشونة، لم يكن بالبدروم مرآة، وكانت هذه

هي المرة الأولى منذ جئت التي أرى فيها جسدي كاملاً على حقيقته، لم أفزع، وفزعت أكثر لأنني لم أفزع، وتوقعي لما هو أسوأ، بين كياني الواقف أمامي في المرأة والقابع في داخلي عشرات الكيانات المرادفة والمتوازية التي تشبهني، ولأصل إلى صورتي في المرأة كان عليّ أن أقتل الحي منها وأحرق الذي مات لأصل إلى جفاف واقعي، لأجد نفسي بالنهاية أسأل صورتي في المرأة بسخرية:

- ما الذي تريده يا خريج مدرسة «سمعان» من مطلقة ثلاثينية شرسة تعشق المقاعد وتهتم بها أكثر مما تهتم بالبشر؟

أجبتُ نفسي أنني أحتاج إليها، ليس كرجل، بل ككاتب، بعد سنوات الجذب في المدرسة أتت هي وجعلتني أكتب، لا أتدفق بالكتابة إلا في وجودها، أو أملاً في وجودها، قلت لنفسي إنها أول شخص حقيقي أقابله في حياتي، وبطريقة ما لا أستطيع تجاوزها، وأقصى ما أستطيع أن أبرر به انغماسي فيها: لقد اشتبك الرجل في شرك إثبات الكاتب.

هل كان تفسيري حينها صحيحاً أم هروباً من الذنب تجاه نفسي: الاستمرار بالتورط في قتل علاقة أحادية يقف على الجانب الآخر منها شيء أو غرض لا أعلمه؟!

بقي الانحسار الذي حدث لحظة وقوفي أمام المرأة، الموجة المرتدة، وفي غير وجود الالتزام الوظيفي بالوجود المستمر للكتابة عند الطلب أو تجهيز نصوص عينية نصف مخبوزة، مروراً باستدعاءات «إيلات» السابقة لمجالستي، ونهايةً بطقوس تناول المقرمشات وعهود الدم الدرامية التي تحترق ثم تخبو لتُخلف نصوصاً إيروتيكية تعيد احتراقي إلى الأبد في وهج الرطوبة المشتهاة، ثم ها أنا ذا أكتشف، بعد أشهر من الاحتراق، أن كل أعضائي مليئة بفرغ أبيض في صحراء انحسر عنها البلب وترك لي الملح، كان حلقي جافاً عطشاً للوجود خارجي، مع الناس، حاملاً رؤيا لا بُدَّ أن أصر عليها، قراراً وليس رؤيا، لا مفر من أن تنساها يا مجنون وإلا مَرَّقت

عالمك كما يمزق سكينٌ حاد رحم جنين ضعيف، لا بُدَّ أن تنساها  
وأنت في كامل قواك، قبل أن تتعرض لصدمة، أو يجندلك حادث،  
وفي أي وقت قد تقع تحت مشرط جراح وتهذي باسمها ملتأًا تحت  
تأثير المخدر، فيتبينون لوثك بها وولعك وستنتب السخرية عندئذ  
من عبارة واحدة ثم تورق آلاف السخریات اللاذعة: الخادم الذي  
عشق مخدمته.

ولأول مرة منذ جئت إلى القصر، أطلب إذن خروج من صاحبه،  
وحدي، مستثمرًا هذا الخروج في التجول بحرية، والتنفس خارج  
جلدي، والدق بقدمي في الطرقات الواسعة فقط لأتأكد من ثباتهما  
بعدما اهتزتا طويلًا وارتعشتا في لقاءها، منفقًا من راتبي شهرين  
قبضتهما دفعة واحدة في ظرف أبيض، اشترت ملابس داخلية  
جديدة، وملابس للخروج وطقمين لمكوثي في غرفة البدروم، ملابس  
تليق بوظيفتي التي تعدت مهامها إطار طالب المدرسة المُجد.

وفي البدروم، بعد أن عدت فاحت رائحة الملابس الجديدة من  
أكياسها، لعلي لمست بداخلي حينها سبب رغبتني الملحة في شراء  
الملابس، فأنفى قد بدأ يبحث عن تفسير لما انتابني مع باقي  
حواسي؛ فالروائح التي لا اسم لها، وفي بيئة جديدة، يصبح استقرار  
مشاعري رهينًا بتفسيرها، ولأن التفسير متعذر لاختلاط مشاعري فأنا  
أبحث عن روائح جديدة من السهل تفسيرها، الروائح الجديدة تعني  
رغبة جديدة، رائحة الكتان وصبغة الملابس تعنيان رغبتني في الدخول  
من باب آخر إلى حياتي التي أعيشها الآن.

سألني «جبر»:

- ما الذي كنت تفعله بالأمس في المول التجاري؟

- كيف عرفت؟

قال فخورًا بدهشتي:

- أنت مراقب يا بني، هنا وخارج أسوار القصر.

وفزع العجوز إذ عرف أنني ذهبت لشراء ملابس، وأخذ يلوم نفسه أمامي على الخطأ الفادح، ثم أخبرني أن السيد (سيد القصر) لو عرف سيغضب منه بشدة؛ فهو لا يسمح لأحد من خدمه (الخدم المقيمين معه) بشراء شيء يتضمن الملابس أو الطعام؛ لذا فإن:  
- ملابسك الداخلية الشهرية وطقمًا واحدًا كل ستة أشهر وعددًا لا بأس به من الامتيازات المعنوية من نصيبك ما دمت في القصر.

قلت في حذر خشية إساءة فهمي:

- لكني لست خادماً مقيماً يا سيد «جبر»، لا أقصد الإهانة، لكني موظف فقط، كتابة النصوص ليست شيئاً مُلحاً، أقصد مبيتي هنا مؤقت، لا أحد يحتاج ليلاً لكتابة نص، ولولا عدم وجود سكن لي لخرجت ودخلت كبقية الموظفين الذين يؤدون مهامَّ محددة.  
- أعرف ذلك يا بني، لكنك مقيم، ولهذا فلا بُدَّ أن تشترك مع المقيمين في الميزات المتاحة لهم.

ثم زغدني بلهجة جادة رسمية:

- لا تقل لي إنك رميت الفاتورة.

- لا طبعاً، هذه أول فاتورة أنفقها من مالي الحر.

- حسناً، أعطها لي وأنا أسويها لك وأضيف المال الذي أنفقته على مرتب الشهر المقبل.

وبفضول تفحص أرقام الفاتورة ثم هزَّ رأسه في تعجب وقال:

- هيا، أُرني ملابسك الجديدة يا «إسماعيل».

وكان كل كيس أفتحته لا يدع الفرصة لتجفَّ ضحكات «جبر» التي ضحكها على الكيس الذي سبقه، واستمر الضحك إلى منتصف الليل؛ إذ اكتشف سر الملابس الرخيصة، كانت ملابس صيفية، والشتاء على الأبواب، ثم قال في سخرية أبوية:

- كان يجب أن تشتري معها كرات النفطالين لئلا تأكلها العثة.

قلت في كبرياء باسمه:

- ولماذا؟ سأرتديها وأضع عليها «جاكيت» ثقيلًا، وبالنسبة للملابس البيت، فلن تحتاج إلى إضافات كثيرة، الجو هنا دافئ.

- بمناسبة الجو، البدروم في الشتاء سيكون قارس البرودة، ويجب علينا أن نتدبر أمر تدفئتك أو ننقلك إلى غرفة في الدور العلوي، يمكنني أن أكلّم السيد في ذلك.

- لا، لا.. انس هذا الموضوع، أنا مرتاح هكذا.

- لا شك عندي في ذلك، ولكن عندما يأتي الشتاء لن تكون مرتاحًا.

ثم نظر إلى الأكياس والملابس المبعثرة وقال:

- لنضع النقاش في هذا الأمر الآن ولنتدبر أمر أكياسك هذه، اسمع، عندي دولاب صغير ضلفة واحدة لا أحتاج إليه، وضعت في غرفة الطباخين منذ أن انتقلت إلى غرفتي بالقصر، سأسلفك إياه، يمكننا أن نضعه في هذا المكان الذي تعلق فيه ملابسك، تعليق الملابس على المشجب عادة همجية أشبه بشنق كائن حي أخرس حتى الموت.

وبشكل تلقائي تمامًا، بدا تلقائيًا، بدأ «جبر» في إزاحة الكتب من فوق النضد، ووضعها في صف واحد طويل على السرير تمهيدًا لنقل النضد، أسفل تلك الكتب كنت أخبئ علبتي الجميلة التي أهدتني «إيلات» وفيها مقرمشاتها الغالية، ليلتقطها «جبر» في دهشة ثم يتفرّس وجهي بخيبة أمل وعتاب:

- ما هذا يا «إسماعيل»؟ من أين أتيت بها؟

- إنها من السيدة «إيلات».

هز رأسه في ضيق شديد وقال:

- نعم أعرف أنها من السيدة «إيلات»، لماذا أعطتك إياها؟ وما الذي تقصده بالضبط عندما أعطتك هذه العلبة؟

\*\*\*

إن كان يمكن اختصار «جبر» في كلمات فهو رجل يثرثر كثيرًا، لكنه يعرف متى تُقال الكلمة الصحيحة، ويأكل كثيرًا، لكنه يميز الطعم الحقيقي للأشياء إذا جاء تحت أضراسه فيجعله يتوقف عن المضغ والابتلاع، عشاؤه طبق صغير من المكرونة، يصر على أن تلسعه النار، وطبق أصغر من السلطة، طماطم وخيار وشبت وفصوص ثوم مقطعة، يعدّه بنفسه ويتأنّ شديد على لوح من خشب الأرو ويسكن حاد جدًا وصغير، وهو لا يضيّع تلك الطقوس أبدًا حتى لو كان منهمكًا في حديث جاد، ثم يضع الطبقين على مائدة المطبخ الكبيرة ويبدأ في صنع كوبين من الشاي بالطريقة التي أحبها: يصب الماء الساخن بهدوء في كوب زجاجي به كيس الشاي والسكر، لا يقبلها حتى يختمر المزيج ويتلون الماء الصافي بفتائل من صبغة الشاي وعروق أخرى شفافة من ذوب السكر، يضع طبقي العشاء بيننا، وملعقتين وكوبي الشاي، بينما العلبة متناثرة في طرف المائدة البعيدة، ويجلس..

يتناول ملعقته متأهبًا للأكل ولا يدعوني، طبق واحد، لكنه سبق أن أخبرني أن الطعام يدعو الجائعين للأكل بلا ضيافة، حكمة سكندرية، ولأنه سكندري فلا يخالف ما تربّي عليه، وما تربّي عليه في كرموز كان أشد قسوة من أن ينساه، نافذة غرفة نوم تطل على عمود السواري، وعتبة بيت يصعد منها إلى الشارع العالي بسُلّم من ثلاث درجات خشبية، يصعد ولا يكف عن الصعود في الشوارع المتوازية حتى يحجزه البحر وهو يكاد ينقلب على المدينة الغافية، يفتح دكانًا جُهِز كمطعم صغير للأكلات السورية اسمه «أبو شامة»، اسم المطعم لغز في حد ذاته؛ فالمطعم يملكه رجل مصري، ليس سكندريًا ولا سوريًا، ولا توجد شامة على وجهه، ولا حتى في أشد أجزاء جسمه سرية، نعم، رأى «جبر» جسده كله عاريًا عدة مرات، كان يستدعيه في شقته فوق المطعم ليصبّن له ظهره، يقف مستندًا على الحائط بكلتا ذراعيه فيتحسس «جبر» الطريق إلى ظهره عبر

سحابة من بخار ماء ساخن، ويبد من حديد يدحو ظهره باللوف فتتلوى فتائل الطين الأبيض وتسقط لتذوب مع الماء الساخن على الفور، يقول «جبر» لنفسه معزياً إن ما يفعله جزء من عمله، لا يشين، كأنه يدحو عجين خبز فوق النضد الخشي، في قوقعة البخار تلك، المصنوعة من السيراميك الأزرق، أنفق «جبر» من كرامته ما يكفي للهبوط به مرة أخرى إلى ما أسفل عتبة بيته في كرموز.

المطعم قائم في شارع اشتهر بوجود عدة محلات فاخرة لبيع السيارات واستئجارها، جزء كبير من دخل المطعم معتمد على ملء أفواه موظفي هذه المحلات، ذات يوم جاء رجل فلسطيني لشراء سيارة يصحبه سائقه المصري الخاص، طلب لهما صاحب المحل الفخم طعاماً خاصاً حلاوة عقد الصفقة، قال السيد الفلسطيني لـ«جبر» بلهجة جادة:

- هل تستطيع أن تصنع الأكل الفلسطيني بمهارتك نفسها في صنع الأكل السوري يا «جبر»؟  
- نعم يا سيدي.

عرف «جبر» أنه فلسطيني بمجرد أن نطق، على الرغم من أن وسامته واتساق أعضائه بديا له ساحقين بطريقة تليق بعدو لا صديق، أعد لهما المسخن وخبز الطابون، دجاجاً مشوياً مع البصل المقلي مع سماق وزيت الزيتون والبهارات والصنوبر، ووضع هذا كله على خبز الطابون، الطعام عند الفلسطينيين تراث يجب الحفاظ عليه، وهم يحبون أطعمتهم ويأكلونها مثل واجب وطني يؤدونه، وأحد أسباب كراهيتهم لليهود أنهم يسرقون هذا التراث، يضعونه في علب من الورق ويعيدون تصديره للعالم على أنه أطعمة خاصة بهم، كل جزء من فلسطين يحمل عبء تمرير تراث طعامه من جيل إلى جيل، الطعام الذي طلبه السيد يدل على أنه من طولكرم أو جنين، على الأقل من مكانٍ ما بالضفة الغربية، إن «جبر» مثقف

فيما يخص الطعام:

- فالطعام هو ما يجعلنا بشرًا يا «إسماعيل»، الطعام والشراب، هذا ما أتذكره من القرآن: «بشرًا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق».. المهم، لا أريد أن أطيل عليك، أثنوا على الطعام وأعطاني صاحب المحل إكرامية إلى جانب إكرامية السيد بما يعادل مرتبي الشهري، وعندما قال لي السيد أريد أن أوظفك عندي في المطبخ يا «جبر» خلعت فوطة المطعم وأنا في الشارع، ودخلت على صاحب محل «أبو شامة» وأنا أبكي من الفرح لا الحزن قائلًا له إن أبي قد توفي وأنهيت حسابي معه وعدت مع السيد في السيارة الجديدة.

تلك السهولة والمال الوفير والأخلاق الحسنة جعلتني أشك لوقت طويل، عندما أتيت إلى هنا بحثت كثيرًا عن «نجمة داوود»، لم أجد ما ظننته، بعض الظن إثم، لكني لم أجد أيضًا ما يدل على فلسطينيتهم، وكأن هذا هو الظن الحلال، حتى تطبعتُ بطابع المكان يا «إسماعيل» وعرفته، جيراننا في هذا المكان متلونون على جميع الجنسيات والأديان، منهم الإسرائيليون ومنهم الفلسطينيون، ولا تختلف دماثة خلق السيد في التعامل مع الصنفين، غير أنه يدعو الصنف الثاني إلى مائدته أكثر من الصنف الأول، حتى اسم ابنته عندما ولدت وسماها، بدا لي يهوديًا، في البداية حيرني هذا التناقض، لكني وصلت إلى راحة بالي: إن لديهم وطنًا واحدًا للعراك وأوطانًا كثيرة للاتفاق والمجاورة.

يتناول «جبر» ملعقة مكرونة وبعد أن يمضغها طويلًا يبتلعها، وقبل أن تشتبك بالمريء يردفها بملعقة سلطة ويغمض عينيه كأنه في انتظار هدية ما، فسألته:

- وأنت يا عم «جبر»؟

- أنا ماذا يا بني؟

- طبقا المكرونة والسلطة اللذان تصر على تناولهما كل عشاء، هل

هما تراث مصري؟

تناثرت من فمه ضحكة عالية كادت تخنقه لولا أن ابتلعها مع الطعام، لم يبقَ منها إلا رذاذ مسحه من على فمه بالفوطة وقال: - إن أردت أن تعرف التراث المصري في الطعام يا «إسماعيل» فلا تبتعد عن المتاحف، اسأل عنه الصخور أيضًا؛ فالمصريون يهضمون الصخور بالكفاءة التي يحتونها بها يا بني.

ثم قال بصوت أقل درجتين:

- هل تريد أن تعرف حقيقة سبب تناوُلِي هذين الطبقين؟

- طبعًا، لا أخفي عنك أنني في كل عشاء أحضره معك هنا يراودني السؤال: ما السر في إصرارك على تناول هذين الطبقين بالذات على عشاءك على الرغم من أن الثلاثة مليئة بكل ما لذ وطاب؟! نظر إليَّ عندئذ بإعجاب شديد:

- أنت رجل مرهف يا «إسماعيل»، وأرى الآن أن اهتمام السيدة «إيلات» بك لم يأت من فراغ، ولهذا سأخبرك بالسر الذي لم أخبر به أحدًا من قبل.

ثم أشار إلى الطبقين:

- هذان الطبقان بالذات يعطيني إحساس مذاق شيء واحد فقط من أيام مراهقتي، مذاق سري.

- وما هذا المذاق يا تُرى؟

لم يُجب عن سؤالي، بل استمر في حديثه كأنه لم يسمعني:

- أعترف أنه أحيانًا ينفرد بي طعم واحد فيجعلني على وشك أن أتقيأ، كطعم الثوم، أو تظل صلصة المكرونة ملتصقة في فمي لا يغيرها شيء، ولكن صدقني، الأمر يستحق المجازفة.  
- فعلًا؟

- فعلاً، كان الأمر يستحق المجازفة يومها أيضاً، الساعة ساعة قيلولة، ودرج العمارة التي نسكن فيها يئزُّ فيه الذباب، لم يكن الهواء حارّاً، لكنه كان ساكناً، وكان رأس الفتاة متعرّفاً بشدة لدرجة أنه انزلق مرتين وأنا أحيطه بكلتا كفّي، لم يكن ملح الفتاة مضبوطاً، كأنك أضفت إلى ريقها وشفتيها بهارات زائدة على الحد، فكان طعم القبلّة المتأنيّة حريفاً، جعل ضغط دمي يصعد إلى السماء في لحظة، تبادلنا قبلّة واحدة طويلة وافترقنا من دون كلمة واحدة، نزلت هي وصعدت أنا، ربما كنت أنزل أنا وهي تصعد، ولكن القبلّة بلبلتنا، أو تسببت في جعلنا نتبادل أجزاء من ذاكرتنا، وأجزاء من شعورنا، هل تعرف؟ وأنا أتلّمظ بعد القبلّة شعرت بشفتيّ ناعمتين وكأنهما شفتا الفتاة، وكنت واثقاً أن شفتيّ معها، تشعر بخشونتتهما، بل وأجزاء من مريئي، أما مريئها فكان جافاً، جعلني عطشاً، باب شقنتنا كان مفتوحاً، دخلت المطبخ، وفي دورق من البلاستيك كانت والدتي قد وضعت تمرّاً مبللاً للإفطار، ظللت أجرج منه حتى امتلأ بطني، وعندئذ تذكرت أنني في نهار رمضان.

- لم تتذكر ذلك وأنت تقبّل الفتاة؟

قال بمكر ولوم:

- القبلّة لا تُفطر يا «إسماعيل»، القبلّة غذاء الروح.

ثم أردف باهتمام:

- لكن قبلّة هذه الفتاة تُفطر، لم أدّق هذا الطعم منذ جئت إلى هنا قبل ثلاثين عاماً، مذاق التمر الجاف عندما يتبلل ويُشرب في نهار رمضان مع طعم شفتيّ أول فتاة تقبلها.

قلت عندئذ في سخرية مازحة:

- يمكنني أن أشتري لك تمرّاً وتجرب الأمر مرة أخرى لنسوّي هذه المسألة.

إلا أنه تجاهل مزاحي وقال:

- لا، لا تتعب نفسك، لم يعد هنالك شيء كسابق عهده، حتى التمر هذه الأيام لم يعد يتربى على النخل العالي، تمر في حجم قبضة اليد صحيح ومليء بالسكر، لكنه لا يختزن الشمس ولا العلو. ثم قال في حنو وهو ينظر إليّ كأني ذكرته بشيء ما:

- أنت أيضًا يا «إسماعيل» طبعي، لم تتربّ في الصوب الزجاجية، تربيّت في البيئة الصحيحة لقلبك؛ لهذا أنت تعطي الطعم الحقيقي للرجل حتى لو بدا عليك الضعف، حتى لو كنت فقيرًا، أو منبوذًا. ثم تنهّد، واستمر في مضغ الطعام.

لم أكن جائعًا، لكن حكاية «جبر» فتحت شهيتي للطعام، كنت أود أن أشاركه طعامه ولم يكن بيني وبين ذلك إلا أن ألتقط الملعقة، لكنني لم أفعل؛ ففي الطبق كان طعامًا خاصًا جدًّا لا ينبغي إلا لصاحبه أن يأكله، طبق من قبلات سرية، بدا لي «جبر» كريمًا جدًّا بشكل انتحاري إن كان قد دعاني مرة إلى الأكل معه ولو كذبًا، ثم تفتحت روحي على سر غريب، إن «جبر» لم يدعني إلى طعامه ليس لأنه سكندري، بل لأنه لم يُرد أن أشاركه فعلًا، وإلا كنت قد شاركته أنا في المقرمشات التي أهدتها لي «إيلات»، والحقيقة أننا معًا الآن، بيننا عشرات الأعوام، لكننا عجوزان محبان نلتمس الحب في الذكرى: «جبر» في طبقه، وأنا في علبتي المعدنية التي صارت قريبة مني الآن، فوجدت نفسي أسأله:

- ما حكاية هذه العلبة يا عم «جبر»؟

قال «جبر»:

- هذه العلبة بالذات لا أستطيع أن أنساها، لقد أعطيتها لفتاة صغيرة بنفسي، قبل سنتين أتت هذه الفتاة للعمل هنا في القصر، والأمور مع الخدم الجدد لا تجري كما ينبغي، إنهم يعملون في

الغسيل والمناولة وخدمة العاملين، ولا تتم ترقيةهم إلا بخروج خادم ومجيء خادم جديد، هذه فرصة لخلق الرهبة وتعلّم القواعد، لكن هذه الفتاة، لحظّها السيئ الذي بدا في البداية حظًا جيدًا، لم تستمر في المناولة والغسيل فترة طويلة؛ لأنّ خادمًا تُوفي في حادثة واستعملنا خادمًا جديدًا، اعترضتُ على ترقيةها، لمصلحتها ليس إلا، كان رأيي أنه ما الضرر في وجود خادمين للمناولة أو الغسيل حتى تتعود الفتاة ولها الأولوية؟! لكن الرفاق هنا في المطبخ ارتدوا ثوب المصلحين الغاضبين، قالوا المبدأ هو المبدأ وهذا دورها وحظها حتى لو جاء مبكرًا، وبصفتي الشخص الذي يدير الأمور هنا كان في استطاعتي أن أعترض وأنفذ ما أراه صحيحًا، لكني لم أفعل، حتى الآن لا أعرف لماذا لم أصر، تعاطفت معها مثلهم، ولعل السر في تعاطفنا هذا أنها كانت فتاة حسنة المظهر كثيرًا ونظيفة ولبقة، علاوة على أمانتها التي اختبرتها بنفسني عدة مرات، بدا لي مناسبًا أن تترك الأعمال الشاقة وتعمل في خدمة الغرف.

عند هذا الجزء من الحكاية سكت «جبر»، ودق بطرف ملعقته في الطبق الخزفي عدة مرات كأنه يريد أن يتخلص من ذكرى سيئة فسألته:

- ماذا حدث بعدها يا سيد «جبر»؟

- لا أدري ما الذي حدث بعدها، الخدم هنا كثير كما ترى، لكن هذه الفتاة بالذات لم تغب عن نظري، ولعل السيدة «إيلات» لم ترُق لها الفتاة، لم أدرك ذلك في وقته، كما لم أدرك أنها تتربص بها، وكما قلت لك من قبل إن الفتاة أمينة لدرجة أنها كانت تستحي أن تأكل من طعام المطبخ حتى وجدتنا جميعًا نفعل، لكن السيدة «إيلات» كانت تشتري شوكولاتة غالية جدًّا، تشتريها بنفسها وتضعها في ثلاجتها الخاصة، تأكل منها ثم تفقد حماسها لقلب الشوكولاتة بعد أول قضمتين؛ لذا فقد كانت غرفتها مليئة بالبقايا، على التسمية

وفوق الكومودينو وفي الأدراج، المهم، بدأت هذه البقايا في الاختفاء، ولولا أن السيدة «إيلات» مولعة بالاحتفاظ بأغلفتها ما لاحظت. هذا ما قالته لي فيما بعد، التخمين الأول لمرتكب السرقة كان الفتاة التي تنظف غرفتها أحياناً وتحمل إليها الطعام، لكن هذه جريمة ليست كاملة، فربما تعتبر الفتاة هذه الشوكولاتة من المهملات التي يجب تنظيف الغرفة منها، كان يمكنها أن تطلب مني أن أعيدها للمطبخ، لكنها لم تفعل، وضعت لها اختباراً والاختبار الذي وضعته لها السيدة «إيلات» كان من المستحيل أن يجتازه أحد، بدأت بوضع قوالب كاملة مغلقة لم تمسها، الحق يقال، لم تأخذها الفتاة، لكنها استمرت في سرقة ما يتبقى كعاداتها، ثم زوّدت السيدة من عيار اختبارها، بدأت تُخفي ما يتبقى منها، وكنت ألاحظ الفتاة حينها، كانت مدمنة، لقد أدمنت هذه الأنواع، توقفت عن الأكل معنا تمامًا وهزلت، نظراتها زائغة ويدها دافئة كأنها محمومة، ومن ارتعاد خديها تعرف أن قلبها يدق بقوة، في النهاية سقطت الفتاة وسرقت، ومن المرة الأولى وقبل أن تغادر بوابة القصر أمرت السيدة حراس البوابة بتفتيش حقيبتها عند خروجها وطردتها شر طردة بعد أن تنازلت عن بلاغ الشرطة مقابل استغنائها عن مستحققاتها.

- هذا شرير جدًا.

- نعم.

ثم لبث «جبر» هنيهة ينظر إليّ مستغرباً وكأنني صدمته بالصفة، ثم قال:

- ولكن لا يخدعك ذلك منها، إنها سيدة تحب الخير، ليس مثل حب المرفهات في هذا المجتمع الغريب، تربية القطط الشيرازي والسلاحف والخنافس الملونة وأسماك الزينة، لا، لا، الخير الحقيقي: تبرعات لملاجئ اليتامى، والأسر المعوزة، ولا تعلم كم تنفق فعلاً في هذه الأمور، هذه العلبة المعدنية جاءت إلى القصر وكان بها

كعك في يوم اليتامى، فتيات يتيّمات صنعنه للمتبرعات، وأنا حصلت على العلبة من السيدة، وبقيت في المطبخ، لم يأكل منها أحدٌ إلا الفتاة التي طُردت، ذات مرة، على هذه المائدة، داعبتها، أخبرتها، أنها ما دامت قد أنهت الكعك بنفسها فالعلبة المعدنية ملكها، ليلة طردها أتت لي بالعلبة ورجتني أن أعطيها للسيدة «إيلات» من دون أن أفتحها، كان طلبًا خطيرًا للغاية، لكنك لا تستطيع أن ترفض رجاء فتاة أُهينت، حملتُ العلبة إلى السيدة وعندما فتحتها أمامي اندهشْتُ، ثم تمعَّنتُ، ثم صرَّحتُ ورمت العلبة في وجهي، ولم تُعد العلاقة بيني وبينها على ما يُرام بعد هذا اليوم.

- ماذا كان فيها؟

- أغلفة الشوكولاتة الفاخرة يا «إسماعيل»، عشرات منها، مرتبة بدقة ومُحزّمة بشريط شعر نسائي، مع زجاجة عطر رجالي كان طليق السيدة يضعه بشكل خاص.

\*\*\*



## «حسين» - القاتل

لم يطلب «د» طلبه المزدوج هذه المرة، كوب الشاي وفنجان القهوة، جاء متعجلاً، متعرقاً، وطلب فقط كوباً من الليمون البارد،  
بادره «حسين» بالسؤال:

- لماذا لم ترد عليّ في المرة الأولى؟

- توقيتك كان سيئاً يا «حسين»، كنت محوَّلاً للتحقيق.

- لهذا كنت أحتاج إليك، أحتاج إلى شخص مثلك ليتدخل ويمنع  
هذا التحقيق السخيف.

- الظرف لا يمكن رده يا «حسين»، أنت نفسك تعلم ذلك أكثر  
مني.

كان «د» يحمل المعلومات التي طلبها «حسين» في ظرف أصفر كبير،  
وضعه على المنضدة واستبقاه ناحيته:

- أنت تهدر طاقتك في الاتجاه الخطأ.

- أنتم من تتعمدون تضليلي يا سيدي، ولن أكون مُبالِغاً إن قلت  
إنكم تشتتون انتباهي.

- يا «حسين»، المهمة التي تكلمنا عنها منفصلة تماماً عن مهامك  
الأساسية.

تجاهل «حسين» التوضيح المتهافت وقال:

- الفائدة الوحيدة من هذا التشتت أنني عدت إلى قواعدي، قرأت  
كتيب التعليمات مرة أخرى، وما من مرة قرأته إلا وتأكدت من أن  
مؤلف الفصل الثالث ليس رجلاً.

- بعد مرور هذا الوقت كله تأتي تعتذر عن رفضك بهذه التخمينات؟

- الشخصان «أ» ورجل الدين، «إيلات» و«سمعان».

ضحك «د»، ولاحظ «حسين» ضحكته، كرجل لم يُفاجأ من تخمينه.

- ربما أكون قد تخلّيت عن الجائزة يا سيدي، لكني قررت أن أفتح عيني بنفسي.

- وهل المعلومات التي طلبتها تفتح عين أيضًا؟

- لا، بل أثر جانبي.

دفع «د» الظرف بطرف إصبعه إلى ناحية «حسين»، ببعض من التأفف:

- يا «حسين»، لا توجد طريقة لتهيني أكثر من أن تطلب معلومات تافهة عن طالب في مدرسة «سمعان».

لم يرد «حسين»، فض الظرف، لقد سبق أن حاول الحصول من آخرين على معلومات عن «إسماعيل» فأخبروه أنه شخص لا وجود له، وها هو «د» يأتي له بظرف متخم بالمعلومات عنه، وكأنها لعبة حُواة، ظهر «إسماعيل» الآن في الأوراق الرسمية، على الرغم من أن «حسين» تعتمد ألا يذكر إلا اسمه كما فعل في المرة الأولى، مع تصفحه للأوراق اثالت البيانات ككثيب من رمل: اسمه الكامل، درجات تخرجه، حتى ورود اسمه في حادثة ضرب أو شك أن يُفْضي إلى الموت لطالب يهودي، «إسماعيل عبد الله عارف»، من الذي يحميك؟ كان يجب أن تُقْتَل قبل ثلاث سنوات، مَنْ يحميك مني يا «إسماعيل» إلا الله؟ حتى الله كان يجب أن يدعني أقتلك إلا إن كان يخبئ لك ما هو أسوأ من القتل.

مسح «د» فمه بمنديل ورقي ثم أداره على وجهه وقال:

- الرؤساء غاضبون منك يا «حسين»، إن كان هناك شك أن الأمور أفلتت منك فقد أصبح الآن يقيئاً بعد التحقيق.

فتح «حسين» فمه ليلومه، لو أنه كان موجوداً عندما احتاج إلى

توضيح الموقف الملتبس لما احتدَّ على رجل الحكومة الرسمي، لكنه يظهر ويختفي كما يحلو له، ضغط الزر عدة مرات فلم يستجب، اختلس «حسين» النظر إلى وجه «د»، لماذا يبدو الآن بسيماء رجل هادئ لا تنعكس خطورة منصبه على ملامحه، شعر أشيب لم يحسن صبغه، عينيْن ملوتين، وجسد لا يتشوه بهذه الدرجة إلا من انصهاره في عمل مكتبي؟! وعلى الرغم من ذلك، على الرغم من ذلك يوجد شيء شرير في هذا الرجل، مؤامرة ما، كأنهم وضعوه في طريقه ليثبوا الإيمان في قلبه، أو الكفر.

قال «حسين»:

- هناك سر في هذا الشاب يا سعادة الباشا، علاقة ما بيني وبينه، نفس تاريخ اختباره، بيني وبينه أيام، حتى المكان الذي كان يجب أن أختبر فيه، لولا انتقالي إلى العاصمة، وكما تعلم، لجنة الاختبار لا تعترف بموضوع الانتقال على الرغم من أنها تسهل الأمور على المغتربين باختبارهم من خلال برامج ثابتة تُرسل نتائجها أولاً بأول من خلال «الويب». ببساطة: اللجنة التي اختبرتني هي نفسها التي اختبرت «إسماعيل» هذا، في اليوم نفسه أو يوم تالٍ لي، ولولا أن أوراق الاختبار سرية لقلت إن...

هنا قاطعه «د» وكأنه ضاق ذرعاً بتهويلاته:

- الآن صرت محققاً بوليسيّاً يا «حسين»، في مهمة لم تُكَلَّف بها!

ناح «حسين»:

- لو كنت أعطيتني تكليفاً رسمياً بالقتل لكنت عثرت على الفتاة أو قتلت «سمعان».

- هذا عمل جراح وليس جزار يا «حسين»، لقد وثقت برؤيتك، الجهات العليا وثقت برؤيتك، لكنك خذلتنا.

- لكن هذا الشاب...

- مجرد صدفة يا «حسين»، العالم ضيق.

كاد «حسين» يدافع عن نفسه، لكنه لمح في عيني محدّثه رفضًا لأن يستمر الحوار في هذا الاتجاه:

- نعم يا سيدي، العالم ضيق.

قال الرجل لينهي اللقاء:

- انتبه، لقد عدت إلى المربع صفر، المهام المقبلة ستكون إثبات ولاء ليس إلا، ولو لم تثبت نفسك لن تمر الأمور بسلاسة كما كانت من قبل.

جرع «د» ما تبقى من عصير الليمون دفعة واحدة ولم يضافح «حسين» عند انصرافه.

## «إسماعيل» - الكاتب

بتوغل الشتاء بدأت أحب حياة القصر، بلفظ أكثر دقة: أستمري حياة البدروم، خاصة مع تودد «جبر» وسهراتنا التي لا تخلو من طبق المكرونة الأزلي له وما لذ وطاب لي، لاحظت أنه كلما قل طلب مخدومته للنصوص مني زاد اطمئنانه لي، وكان الأسبوع الذي سبق مطر الثلج هو أكثر أسبوع مثمر في علاقتنا، طالما بُعدت دفة الكلام عن «إيلات»، على الرغم من أن بعض الحديث لا يكاد يمر إلا بذكرها، خاصة في الأسبوع الذي سقط فيه الثلج وغطى السقف والجراج والسور.

إغواء الثلج كان أكبر من قدرتها على المقاومة، مرضت «إيلات» نتيجة رعوتها في السير حافية على طبقة الهشة فوق السطح، كانت ترتدي ثوباً أحمر كبقعة دم، مثل ساحرة تنفذ طقساً شريراً لإطالة العمر، كان للحادث دويٌّ في حينه، لدرجة أن القلق فاض عن حاجة القصر وبدأ يتسرب إلى المطبخ، بمجرد أن يفتح أحد الخدم الباب الفاصل يسري التوتر ويستغرق الأمر وقتاً لتجفيفه من فوق الأشياء والوجوه والملابس، بل ومن داخل الأجساد أيضاً، بعض الخدم كانوا يعطسون بالفعل حتى تزول ذكرى هواء القصر من المطبخ وتعود له حميمته الدافئة وينسوا «إيلات» المريضة.

هذا الأسبوع بالذات كان أكثر أسبوع مرهق لـ«جبر»، أخذ الخدم يغيبون بحجج مختلفة ومتباينة، وبعد انصرافهم يبدأ في التسخط بينما يضع إمضاءه على أذونات الغياب لليوم التالي ويصرخ من وقت لآخر وهو يلوح بالورق في وجهي:

- انظر، هذه مباراة في الغياب، ذلك كله لماذا؟ لأنني رجل طيب، لا أريد أن أخصم من راتب أحدهم مليماً أحمر، ولأنني طيب

يستغلونني ويورطونني.

كنت أعد له طبقًا من البيض المقلي، ف«جبر» من كثرة انشغاله لم يَكُن قد تناول غداءه بعدُ، وضعت الطبق والخبز في متناوله فلم يشكرني، تناول الملعقة وأخذ يقطع البيض بها، ويبيد واحدة، ثم يمزج في كرب وهو يزفر في غيظ من وقت لآخر كلما هاجت بداخله فكرة عن ورطة جديدة ستحدث غدًا بسبب الغياب.

ثم هدأ أخيرًا وساد الصمت إلا من فحيح البخار في مواسير التدفئة وأصوات المضغ، وعندئذ خاطرت بسؤاله، وتهدج صوتي عندئذ وأنا أقول:

- كيف حال السيدة «إيلات»؟

- بخير، ما دامت مريضة فهي لا تؤذي نفسها، تكتفي بالأذى الواقع عليها.

فوجئتُ بالرد الذي جاء تلقائيًا، وأنبأتني اللهجة التي قيلت بها بأن الجملة قيلت من قبل عشرات المرات.. ثم قال «جبر» في بطاء وود، وكأنه أدرك أنه أخطأ في حقي بإجابته الجافة:

- لماذا تسأل؟ هل تود زيارتها؟

- وهل هذا مسموح به؟

عاودته لهجته العصبية عندئذ:

- لا تُجب عن السؤال بسؤال يا بني من فضلك، هذه صفة لا أحبها، لو لم يَكُن مسموحًا لك بالسؤال عن السيدة «إيلات» وزيارتها ما سألتك، ثم إنك قتلها ذات مرة، أنت لست مثلنا، وأمور السيدة «إيلات» لا تجري معنا نحن حسب القواعد، فما بالك بشخص خارج نطاقنا؟!

- كيف لا تجري حسب القواعد؟

- بالله عليك، كيف لم تدرك ذلك وأنت تكتب لها كل هذه

النصوص التي تعجبها؟! كيف لا تفهمها بينما نفهمها نحن الخدم الذين نعد لها طعامًا لا يعجبها في معظمه؟!

قلت في ضيق:

- دعك من المقارنات يا سيد «جبر» أرجوك وأخبرني: كيف لا تجري الأمور حسب القواعد مع السيدة «إيلات»؟ أريد أن أفهم.

- أقصد أن الأشياء المبهجة كثيرًا لا تُبهجها، والأشياء التي نتوقع أن تغضبها تكون سببًا في بهجتها بشكل غير متوقع؛ لذا فنحن نتصرف على سجيّتنا هنا، أنا بالذات أفعل، خاصةً بعد حادثة تلك الفتاة، بهذه الطريقة أضمن أنه على الأقل عندما أُطرد من هنا سيكون بسبب شيء فعلته، لا بسبب شيء تعمدت أن أفعله لإسعادها فأغضبها.

- لكن هذا ظالم بشكل مبالغ يا سيد «جبر»، ألم تفكر في ذلك مرة؟ أنتم تتعمدون إتعاسها بشكل مباشر، تضيّقون عليها الخناق بينما تدفع لكم مرتباتكم التي تُعيشكم.

- ومن أدراك أنها ليست هي من تتعمد إتعاسنا بشكل مباشر؟! عن طريق انتزاع عامل الراحة في علاقة بين سيد وخدام، السيد يأخذ خدمته كاملة بلا نقصان، لكنه مع ذلك تعيس ومتذمّر بطريقة تجعل الخادم يشعر أنه لا يستحق راتبه!

كان ما قاله «جبر» حقيقياً جدًّا، لدرجة أن كربه انتقل إليّ فتملّمت ولاحظ «جبر» ذلك فقال مشفقًا:

- قل لي يا بني، كم مرة أخبرتك «إيلات» أن ما تجتهد في كتابته لها أعجبها؟ أجيبك أنا: ولا مرة، بل كلما زاد إعجابها بنصوصك زادت كراهيتها لك، وهذا ما يقوله الخدم، كلما كان طبق الطعام جيّدًا كانت على وشك أن تقذفه في وجه من قدمه لها.

قال «جبر» ذلك ثم قام وغسل طبقه وجففه ووضعه في مكانه

بعناية.

قلت ببطء وتأنٍ معترفًا:

- أعتقد أنني فهمت.

قال «جبر» في مكر وهو يختلس النظرات وقد بدا على ملامحه انتعاش مفاجئ:

- ما الذي فهمته؟

- ما أردتني أن أفهمه، أن أكون على سجيتي معها؛ لأنه لا مأمّن من تقلباتها إلا بالخروج من هذا القصر. تعرف يا عم «جبر»؟ أعتقد أن سيدتك ستكون سعيدة في الجنة بشكل خاص؛ حيث تسقط عليها الثمار بمجرد أن تفكر فيها والطيور في السماء إذا اشتتها تنفض وتمثل على مائدتها مطهوه ومُحمّرة من دون أن تمسها يد.

- بالضبط، من دون أن تمسها يد، أتعرف يا «إسماعيل»؟ ما زلتُ اليوم نفسي على طرد هذه الفتاة، خاصة أن التقرير الذي يُقدّم إلى مكتب العمل الذي أتى بها يجب أن يحتوي على سبب الاستغناء عنها، وكلمة السرقة كلمة لا مزاح فيها.

- كان يجب عليك أن تحارب من أجل تقديم تقرير جيد على الأقل.

- ومن قال إنني لم أفعل؟ علاقتي بالسيد الكبير منحتني الفرصة لأشرح له الأمر، ليس كما حكيته لك، لم أخبره عن شرك الشوكولاتة الفاخرة الذي نصبته السيدة «إيلات» للفتاة، بل ألقيت اللوم على نفسي وطريقتي في إدارة الأمور، لكن السيد قال إنه وضع تقرير إنهاء الخدمة بين يدي السيدة بإلحاح شديد منها، هذا الإصرار يكشف عن أن طريقة السيدة في كشف السرقة كانت توحى بنية سيئة، ذهبت سرًّا إلى مكتب التوظيف واطلعت على التقرير بنفسي، الكلمات التي وضعتها عن سبب الاستغناء كانت مكتوبة بالحر الأحمر، وبطريقة لا تدع مجالًا للشك أو زوغان البصر، سجلت أيضًا ثمن الشوكولاتة

بالدولار، لا بالجنيه المصري، هذه كلها تفاصيل لا تزال تعذبني كلما تذكرتها.

- ولماذا لم تكلم السيدة في حينه؟

- لا طبعًا، لم أفعل، لكني أسألك: لو كنت مكاني، هل تجرؤ على أن تفعل بعد أن أسهمت في إهانتها من خادمة؟

- بالتأكيد.

- ربما لو كنت موجودًا حينها يا «إسماعيل» لطلبت منك التوسط عندها.

- الحمد لله إذاً أني لم أكن موجودًا حينها، وإلا خيّت ظنك؛ فالسيدة لن تأبه بوساطتي.

- لكنها تمكث معك وقتًا طويلًا، وهذا في حد ذاته أمر جيد، هل تعلم أنك الكاتب الأول الذي طلبت رؤيته «تقريبًا»؟

- تقريبًا!

- اعذرني يا بني، أنا متعب والألفاظ لا تسعفني.

تساءب «جبر» تتأوَّبًا ينمُّ عن رغبة هائلة في النوم، وخرج من حلقه صوت التثاؤب وكأن رجلًا يضحك.

- لا عليك، لقد أثقلت عليك بحديثي، ولا بد أن الوقت قد تجاوز ميعاد نومك بكثير.

\*\*\*

لم أتم، أخذت أفكر: لماذا تدفق «جبر» هذا اليوم بالذات في حديثه عن «إيلات» وعن مشاعرها؟ وإذا كانت الأمور بينه وبينها منذ حادثة الفتاة لا تسير كما يجب، فكيف سيوصل إليها الآن رغبتى في زيارتها وهي مريضة، أم أنه يكذب في حكاية الفتاة الخادمة، اختلقها بالكامل خارج النص، وتعمّد دسها في تيار الكلام لتحذيري عندما وجد العلبة المعدنية على منضدتي؟ وأي دافع يدفع «جبر» لدس حكاية كاذبة عمدًا في حديثه عن سيدته التي يخشى مجرد الإشارة إليها؟ هل لأنها تكلفه بأمور لم يُعد يطيقها، أمور تشبه غسيل ظهر رجل عارٍ في حمام مبلط بالسيراميك الأزرق؟

هل يمكن أن تكون «إيلات» هي من طلبت من «جبر» أن يعرض عليّ زيارتها من دون أن يشير إليها؟ وما معني أنني أول كاتب طلبت رؤيته تقريبًا؟ كيف يمكن أن يطلب شخص رؤية شخص تقريبًا؟ من فينا الموجود بشكل جزئي، الحاضر بشكل مبتسر؟!

عامّة، إذا كانت هذه رغبتها، أن أطلب زيارتها ورؤيتها، فمن غير اللائق أن أرفض، في الصباح سأطلب من «جبر» أن يُبلغ السيدة برغبتى في زيارتها، ولو وافقت فساكون قد قبلت دعوتها الخفية.

لم أتم على الرغم من وصولي إلى قرار، ولا حتى كرامة لعينيّ المجهدين، سأظهر أمامها إن وافقت على زيارتي مسهّدًا قلقًا، والله وحده يعلم في أي اتجاه يمكن أن يتجه الحديث مع ظهوري أمامها بهذا الشكل المزري، ربما دار في صالحي كعاشق وفي غير صالحي ككاتب، مع أن هذا لا يعني أبدًا أن ظهوري أمامها بشكل جيد سيكون في صالحي ككاتب، ولأسباب كثيرة سيكون هذا صحيحًا؛ لأن العالم يموت أو يولد من جديد، ولأن المعاني لم تجد بعد مصاداتها أو فارقتها إلى الأبد، فوضى الاحتمالات القدرية أو قاعة السيدة «إيلات» المحتشدة بالكراسي، ما الدور الذي تظن «إيلات» أنها تلعبه في حياة الآخرين: تدير الحديث حسب خيارات المقاعد، وتجيد الإشارة إلى

نفسها عن طريق خادمها تمامًا كإله يرسل أنبياءه إلى عباده، وبدلاً من أن تطرد الخادمة مباشرة لأنها كرهتها تدبر لها اختباراً؟!

قضيت بقية سهادي أتخيل نفسي شخصاً عادياً، حسب معايير، هل كانت «إيلات» تستطيع إدهاشي كما تفعل الآن؟ هل ستعدى حروفها وكتبها وعباراتها الغامضة قيمة أحمر شفيتها المرسوم بدقة؟ وبطريقة عكسية، لو كانت «إيلات» شخصاً عادياً، هل كنت سأشكّل لديها قيمة كما أنا الآن، بنصوبي وحكاية فشلي في مدرسة «سمعان»؟ وكانت الإجابة عن هذا السؤال تتطلب درجة من الوعي لا درجة من الفهم، الوعي بالفارق بين أن تحمل الحروف رغباتي الخفية أو تحملي الحروف إلى رغباتي الخفية.

«جبر» هو من قادني إلى غرفة السيدة «إيلات» مباشرة، بعد أن طلبتُ منه زيارتها في الصباح، صعوداً عبر درجات السلم الداخلي الرخامية، معتمداً في صعوده أمامي على الدرايزين المصنوع من الاستانلس اللّماع الذي كان يلتقط حرارة كَفّي «جبر» على شكل طابع ضبابي لأصابعه يتبدد ببطء، بدا وكأن الذهاب إلى غرفة السيدة واجب ثقيل عليه، يُنهكه الصعود، أو بالأحرى: يجعله يشيخ، مثل لعنة أُلقيت عليه وتمارس مفعولها تدريجياً، على نحو جعلني أقول لنفسي: لو كان باب غرفة السيدة أبعد قليلاً لسقط «جبر» أمامي غلاًفاً من جلد وشعر وملابس.

رأيْتُها أول ما رأيْتُها مستلقيةً تحت غطاءها في ضوء ساطع، حتى الإضاءة الخافتة للجدران تعمل، على الكومودينو بجانب السرير لم يكن ثمة زجاجات دواء، مع أن وجهها كان محتقناً ومن وقت لآخر كانت تسعل بشدة ويتصاعد درامي وكأن جداراً من غبار انتصب بين حلقها وبين الهواء، لم يكن صوتها الذي تحدثت به، بل بدا أشبه بصوت رجل يتكلف الود.

- تفضل يا «إسماعيل»، سعيدة بسؤالك وزيارتك، ارتحُ على هذا

المقعد، نعم، هذا المقعد، ناوِله علبة المناديل الورقية يا «جبر»، لتُكن إلى جوارك وضع منها على أنفك، أنا مصابة ببرد شديد يا «إسماعيل»، برد مثقف، والمثقفون يا «إسماعيل» أشد وحشية من الهمجيين، لكنهم يُخفون وحشيتهم في حوارات طويلة، هذا هو اليوم السادس له معي، وتصور كمية الهواجس والأحلام، بالأمس أكلني حوت لوركا هنا في غرفتي، واليوم توجّني المغول ملكة عليهم، وأمس الأول كنت أسيرة عند رجل من الدواعش جارية مستباحة.

غادر «جبر» بعد أن وضع علبة المناديل المعطرة بين يدي، انحنت «إيلات» وتلمست أزرار الريموت فتحرّكت الستائر قليلاً لتدخل أشعة الشمس حتى ساقّي، لكنها لم تطفئ الإضاءة.

- أنا أموت يا «إسماعيل»، أموت حرفياً، كان يجب أن أقفز من فوق السطح بعد هذه المغامرة المجنونة.

صار عليّ الآن أن أقول شيئاً، أن أواسيها، لكن الكلمات الدافئة بداخلي اشتبكت، وبطريقة ما كنتُ أرغب في أن أسألها إن كان بإمكاننا أن نكفّ عن الكلام، وتتيح الفرصة للعيون أن تنوب عنيّ، أو تتبادل الحديث مثلاً على ورقة مشتركة، فقد كنتُ عاجزاً عن تضيير نبرة صوتي ونظرات عينيّ مع كلمات تعبّر عن أحاسيسي بدقة، أما الورق فيمكنه أن يعبّر عنها من جانب أحادي.

وبدلاً من أن أخبرها بذلك، قلت:

- أرجو أن تتبهي لنفسك بعد ذلك ولا تغامري.

- كان شيئاً رومانتيكياً ولم أستطع المقاومة، مثل أن يهدي إليك رجلٌ وردة، أو معطفه الصوفي في جو بارد، أو تستمع لأغنية باهتة تتحدث عن الغياب والفقد، هذه الأشياء التي تخاطب مشاعري البدائية من دون المرور بعقلي، وبمناسبة الفقد أخبرني، هل افتقدتني؟

هل افتقدتها؟ رغبت في أن أقول: نعم افتقدتك كثيراً، لكنها كادت تخرج من فمي: كلنا افتقدناك. لكنني سارعت بقتل الجملة قبل أن

تخرج وسألتها:

- هل سيُسعدك ذلك؟

- طبعًا يا أخي، من تظني؟ أنا إنسان مهما كان، وأحب اهتمام الآخرين بي.

- إن كان ذلك فالإجابة هي: نعم، افتقدت أحاديثك.

- طبعي، وهل أملك شيئًا غير الكلام لتفتقده؟! لم أسألك إلا عن هذا.

أدركت عندئذ أنني خيّبت أملها؛ إذ تنهدت وعادت للغوص بظهرها في وساداتها الخفيفة المحتشدة خلف ظهرها، وبعد أن تأملتني وقتًا طويلًا أخذت تقول بصوت جديد وكأن مخزونها من الكلمات الجاهزة قد نفذ:

- يا إلهي! لقد هزلت بشدة، على الرغم من كل هذه الملابس فوقك يمكنني أن أشعر بعظامك وأتألم من ملمسها، ما الذي فعلته بك؟ لقد أخطأت في حقك يا «إسماعيل» عندما أشركتُك في ذاكرتي السيئة، لماذا أزعجك؟

ثم حدث شيء غريب في لهجة «إيلات»، استعادت صوتها بشكل فائق من دون خشونة البرد وكأن شبحًا بداخلها يتكلم ويقول:

- ولكن لماذا أزعجك فعلًا؟ لماذا لا أحافظ على جميع أحزاني لنفسي؟ لماذا أواصل إتاحة الفرص لك كي ترثولي؟

ثم استعادت صوتها الرجولي المتودد بعد صمت دام دقيقتين ودهشة متبادلة:

- هذه الكلمات العبقريّة لـ«جوته» يا «إسماعيل»، وهي تصفني بشدة.

ثم تنهدت وعطست بشدة وقالت:

- وبمناسبة «جوته»، هل كتبت شيئًا من أجلي؟

كدت أقول على الفور: وهل أكتب إلا من أجلك؟ ولكنني أعرف أنها ستفهمها: وهل أكتب إلا بطلب منك؟ في حين أنني لم أقصد إلا أن تحمل كلماتي معنى: وهل أستطيع أن أكتب إلا بوحى من إرادتك؟ بينما كان هناك شخص ثالث، شخص غيري، يملك ملامحي وقلبي وعقلي من دون حدود تؤطرها يريد أن يقول: وهل أتضرع بكلماتي إلا إليك؟

قلت:

- كنت أكتب طول الأسبوع، إن كنت مهتمة برؤيتها يمكنني أن أرسلها لك.

- أرغب في ذلك بشدة.

هل كانت خيانة؟ هكذا قلت لنفسى وأنا أتفحص وجه «إيلات» لأول مرة هذه المدة كلها دون خجل، هل كانت خيانة أن أتساءل: متى ستنهي «إيلات» هذا الحوار، المصافحة الودود، وتبدأ بطعني؟ نعم، كان الكلام بيننا يشبه مبارزة الشيش، الوجوه مغطاة والأجساد كذلك، والسلاح لا يؤذي، والمعول على إحراز نقاط، ليس إلا النقاط، المنهزم والمتصر سيتصافحان في النهاية، لا أحد يموت، القلوب فقط هي ما تموت

لكن الحقيقة أنني لا أتذكر كيف بدأ الطعن هذه المرة، وما المقدمات؛ ففي وجود «إيلات» كان يمكن للشيطان والملاك أن يتصافحا في ود، وأن تُفضي أكثر الطرق الجهنمية إلى عش طائر ضعيف، ولم يكن شيء يوحى بما ستقوله، ما الذي حدث في هذه اللحظة لتقول ما قالته؟ كان كل شيء حولنا كما هو، على ما يرام، وربما أفضل مما كان في أي وقت، المقادير المعتادة نفسها من الضوء والهواء والروائح المختلفة، نباتات الحديقة ونباتات الشجر، ربما رائحة صمغية ثقيلة، لكنها لم تستمر طويلاً كمقدار فعّال، الأصوات المعتادة نفسها لهذا الوقت من اليوم وكل يوم، فقط

تأتي من زاوية مختلفة، من غرفة «إيلات»، لكن الزاوية مختلفة في كفة ميزاني أنا، أما كفة «إيلات» فلم تكن زاويتها مختلفة، و«إيلات» هي التي قالت حينئذ لتثبت أن ما ستقوله لم يُقلّ عفوً خاطئاً، بل بترصد وإصرار.

قالت بثقة وهي تبتسم:

- أراهن أنك لم تخبرها بحبك.

- من؟

- «هاجر».

لبثت لحظة مشوشاً، ثم قلت:

- لا، لم أفعل.

- هذا لأنك تفعل هذا في نصوصك بامتياز تستحق عليه الدرجة الكاملة كرجل في عصرنا.

- لم أكتب بعد النص الذي يوفيه.

نظرت إليّ حينئذ كأنها تتبين مدى جدتي ثم سألت:

- وهل يوجد نص يوفي امرأة يا «إسماعيل»، أقصد امرأة من لحم ودم وأعصاب تحمل من الرغبات المخيفة والمخفية ما لا طاقة لرجل على استيعابها؟

ذهلتُ للحظة ونظرتُ مباشرة إليها فابتسمت وقالت:

- هل توجد نصوص تكتبها ولا تعرضها عليّ يا «إسماعيل»؟

هززت رأسي أن نعم، فقالت:

- أخبرني، هل تراقصها في نصوصك الأخرى التي لا تعرضها عليّ؟

- لا.

- هل تحدثها؟

- أحياناً.

- عن أي شيء؟ عن غرامك بها؟

- لا.

تهدت عندئذ:

- أنت عنيده، لتظل هكذا وإلا مت، النساء يحببن الرجل العنيد الذي يعترف بصعوبة، لكني أريد أن أسألك عن داخلك، بالتأكيد تجاوزت هذا الأمر، وصلت إلى مساحة أوسع لحركة نصوصك، نصوصك السرية أقصد.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي تذكر فيها هذه الكلمة، النصوص السرية، ابتسمت، وكانت هذه الابتسامة هي خطئي الأول.

- أخبرني يا «إسماعيل»، هل تعريها في نصوصك؟ هل رأيته عارية في مخيلتك؟

- لا، لم أفعل.

ردت بعصبية وهي تغمد أولى طعناتها:

- تكذب، أنت تكذب ببساطة؛ لأنك تظن أنني سأطلب منك أن أرى هذه النصوص، ولكن اطمئن، لن أفعل، هل ترى هذا الصف كله من الكتب هناك؟ إنها روايات إيروتيكية، مليئة بأشياء تفوق مخيلتك عن هذه الأمور، ولكني أسألك لأطمئن على مستقبل البشرية الحمقاء (ابتسمت هازلة حينئذ) هل النصوص موجودة؟ أجبني بصراحة ولن أطلبها منك.

في هذا الوقت، عادت الرائحة مرة أخرى، الرائحة الصمغية العطرية، عندئذ أدركت أن الرائحة لم تأت من الحديقة، بل من «إيلات»، تحديداً من بين شفتيها، وكأن زهرة غامضة مغوية تفتحت في جوفها وأرسلت عطرها إليّ، وكان الموقف مرشحاً ليموت قبل أن يولد، ولكني أبيت ذلك، كان هذا خطئي الثاني، لكني تعمده، ربما لأنها فرصتي الوحيدة لاكتسب نقطة قوة معها، وربما لأن النصوص

موجودة بالفعل ولكنها خاصة بها، ووجدت نفسي أضغط على أسناني وكأني أمضغ الكلمات لألينها قبل أن تخرج من فمي:

- هذه النصوص موجودة بالفعل، لكني لا أستطيع أن أريها لك كما خمنت، فهي لم تُكتب من أجل أن تُعرض على جمهور، لم تُكتب حتى تُعرض على من كانت موضوعها الأُحد.

الآن صارت الرائحة في الهواء حولنا أشبه بوجود كهرياء بعد أن ضربت صاعقة مكانًا قريبًا، واحترق للأبد ملاك طيب من الملائكة وانتشر شذى آثم من احتراقه، وللحظات اكتسبت المريئات في عيني بُعدًا رابعًا، وصار البكاء طبيعيًا للغاية، بل ومستساعًا، لكني اخترت جانب البطولة حتى زالت الرائحة والحالة التي فرضتها وبقيت النظرات الفضولية في عيني «إيلات»، كرواسب، مثل معدن نفيس تبقى في قاع حريق هائل سريع.

- لن تريها لي حتى لأصحها لك؟ هل ستبقيها طي الكتمان بعبها وأخطائها الفادحة؟

- لا، تعجبي هكذا، بأخطائها الفادحة.

- إذاً أنت قررت من نفسك أنني لا أستحق أن أطلع على نصوصك السرية؟

- ليس موضوع استحقاق.

- الطفلة الجميلة التي لا يجوز لها أن تشاهد نصوص الكبار إذاً، هاه؟

- ولا هذا، كل ما في الموضوع أنه لا يصح، كأنني أعريها لك من دون أن تسمح هي بذلك.

- إذاً حين تقرأها هي ربما ستسمح لي بقراءتها من بعدها!

- بالفعل كما قلت، على استعداد أن أعدك بذلك.

- حسنًا، حسنًا، سأكتفي بهذا الوعد على الرغم من أنني أعلم أنه

لا خطة لديك للقاءها، وأنت تحيلني إلى مجهول، هل تعرف لماذا سأكتفي به؟ لأن الوعد يصيرنا صديقين فيما يخص هذا الأمر؛ لأن الأصدقاء يتشاركون أسرارهم يا «إسماعيل»، أليس كذلك؟

هزرت رأسي واغتصبت ابتسامة من بحر الارتعاد بداخلي فهزت رأسها ثم قالت وكأنها تصرفني:

- إذًا، سأقرأ النصوص التي سترسلها لي مع «جبر»، ما دمت متيقنًا أنها النصوص الوحيدة التي تريدني أن أراها.

\*\*\*

في صباح اليوم التالي، عندما سألت «جبر» عنها قال لي إن بنات عمها أخذنها إلى نزهة.

- وهل ستتأخر؟

- عادة ما تفعل، لكني أظن أن حالتها الصحية لن تسمح لها بالسهر.

- هل أعطيتها الأوراق؟

- تلك الرزمة التي أعطيتها لي؟ نعم، أخذتها مني ووضعتها في حقيبة يدها.

عادت «إيلات» في المساء، وكان الخدم قد انصرفوا، طلبت شيئًا بالليمون من «جبر»، وطلب مني «جبر» أن أساعده؛ لأن الخادمة المقيمة متوعدة:

- يبدو أنها التقطت البرد من السيدة «إيلات».

- سأساعدك حتي باب غرفتها، بشرط ألا تخبرها بوجودي، وسأظل بخارج الغرفة لا أحدث صوتًا ونعود معًا.

حملت معه صينية الأطباق والفناجين الخزفية وحمل هو نضد السرير، وأمام الباب وقف «جبر»، طرق طرقًا لا يوقظ نائمًا ثم فتح الباب ودخل، غاب قليلًا ثم خرج وأخذ الصينية من يدي، وعندما

عاد عاد بوجه ممتقع:

- السيدة تريدك، لا أفهم كيف خمنت، سألتني عن الخادمة، وتلجلجت.

- حسنًا، حسنًا.

دخلت خلفه، في هذه المرة كانت أشد مرصًا، لكن صوتها كان طبيعيًا، وملامحها أشد بياضًا، وكانت لا تزال راقدة على سريرها، وكأنها لم تغادره أبدًا، لكنها كانت تشرب الشاي، رشقات صغيرة تبتلعها وهي تغمض عينيها متألمة من حلقها.

انصرف «جبر» على الفور، وجلست أنا أعاتبها مشفقًا:

- لم يكن هناك داعٍ لخروجك بهذه الحالة يا «إيلات»!

- أردت التريُّض يا «إسماعيل».

- لن تهرب الأماكن إلى دولة أخرى.

نظرت لي بدهشة كأنني قلت معلومة جغرافية جديدة:

- تعرف؟ سأصطحبك معي في المرة المقبلة، ربما سأكون أكثر تعقلًا في وجودك.

ارتعد قلبي قليلًا عندما قالت ذلك.

- أخذت النصوص معي، مثل تلميذة شاطرة، وقرأتها هناك، انظر.

ثم جذبت حقيبتها وأخرجت كبشة أوراق، ونثرتها على السرير، كل ورقة على حدة بدت وكأنها دخلت معركة منفردة، معركة من الشد والجذب، وعلى بعضها كانت ثمة بقع زيتية، ومن ضمن الأوراق ورقة دخيلة، كبيرة وملونة بشعار مطعم شهير للمأكولات البحرية، وتنهدت وهي تخبرني إذ لاحظت نظراتي على الورقة الملونة:

- لقد تحدوني يا «إسماعيل»، تحدوني أن أكل معهم، جمبري

واستاكوزا وقواقع بحر.. تصور؟ وخسرت الرهان، بل كدت أقيء لولا أن دسست منديلًا معطرًا في أنفي، ثم دفعت الفاتورة.

- كانت فاتورة غالية؟

- جدًّا جدًّا، لكني أخذت حقي، انتقمت، شفيت صدري منهم.

- كيف؟

- قرأت عليهم نصوصك.

تعمدت «إيلات» ألا تنظر إلى وجهي الذي انسحبت منه الدماء وأنا أقول:

- الحمد لله أن نصوصي أفادتكِ أخيرًا.

- في الواقع ليست النصوص فقط، لهجتي وأنا أقرأها كانت عاملاً مساعداً.

ثم بحثت بيدها في الأوراق وهي تقول:

- في الواقع، استقر رأي الجميع على أن النصوص كلها سيئة، لكن هذا أحسنها.

التقطت ورقة ثم قذفتها لألتقطها فلم أفعل، اصطدمت بصدري وسقطت على ساقى وبقيت هناك.

- ما هذا؟ ما هذا الوجه؟ هل أنت غاضب؟ أقول لك إنني خرجت مع شباب وبنات العائلة، قرأت نصوصك معهم بصوت مرتفع، ضحكوا على إلقائي، في منتصف مطعم فاخر مزدحم بالناس، مطعم فاخر في مكان لا تستطيع أن تدخله ولو عملت طول حياتك هنا، تمت قراءة نصك فيه، وهذا ما أخذه منك، هذه التكمشة، لا ترد، أليست هذه غاية أي كاتب؟

متشاعلاً بالنظر إلى الورقة على ساقى تجاهلتهما، كأن زرق طائر سقط على سروالي فأجبرني على الجلوس ثابتاً إلى أن يجف وأكحته بظفري.

- أليس هذا ما يتمناه أي كاتب يا «إسماعيل»؟ هيا أجبن، هيا، شوها البرادة؟!

- فعلاً، هذا ما أتمناه، أن تصل كتاباتي للمكان الذي لا أستطيع

الوصول إليه وفي الزمن الذي لن أعيش فيه، وبافتراض البنية يا سيدي، يمكن لورقة تحمل نصًا أن تلمع حذاء ولكن لا يمكن لوجه كاتب أن يُلَمَّع به حذاء.

- بالضبط.

- أو تُمسح بها مائدة.

قالت بمرح وقد فهمت اللعبة:

- أو يمتخط بها طفل من أطفال الشوارع، رأيت هذا بنفسي ومنذ ذلك الحين لم أعد أفتح نافذة سيارتي.

- أو يُمسح بها الخراء في مكان لا يوجد به ماء أو صابون.

صاحت بدهشة:

- معقول؟!

قلت بثقة باردة:

- فعلتُ هذا بنفسي عدة مرات، حياتي مع جدي علمتني الكثير.

أراهن أن «إيلات» عند هذه المنطقة من الحديث قد قررت شيئًا، أو تألمت من ذكرى بعيدة، أو رأيتني بشكل لا يمكنها احتمالها، ولو أنها طعنتني جديًا فنزفت ما تركت الأثر نفسه في دوري الدموية من عبارتها التالية، قالت:

- نعم نعم، هذا أكثر مكان يمكن أن يستفيد من نص مكتوب بهذه الطريقة وأن يُستمتع به جدًا.

- لا، استمتع سيدة بقراءته في مطعم مزدحم أكثر بكثير.

عندئذ وبسرعة، وكأن الحدث يدور في وقت آخر ومكان آخر قُذِف فنجان فارغ إلى وجهي، اصطدم بصدغي، وسقط على السجاد بصوت مكتوم، لكنني لم أتألم ولم أرفع يدي حتى لأتحسس الجرح.

- أنت وقح.

كانت ترتعد ودبت في وجهها الدماء وعلا صوت تنفسها من دون أزيز البرد، وكان قلبي قد بدأ يدق بخفوت، يضخ دماء ثقيلة باردة وملئية بشظايا زجاج لا تكاد تُرى، لكنها تمزق أوردتي وشرائيني.  
- أشكرك.

- وقح، وعنيد، ولا تفهم كيف تتعامل مع النساء، ويجب أن تُحبس في زريبة من الخنازير.  
- وقُري على نفسك هذه الشتائم لترفقيها في تقرير خدمتي يا سيدة «إيلات».

لوهلة فهمت الكلمات على معناها الأول ففتحت فمها لترد، ثم انتبهت ونظرت إليّ في ذهول للدرجة التي كادت عيناها تغرورقان بالدموع، ثم صاحت:  
- «جبر».. «جبر».

وأخذت تبحث عن جهاز استدعاء الخدم فلم تجده، وكلما تعثرت يدها في البحث بورقة من أوراق، مزّقتها أو ألقتها بعيداً، ثم صار هذا هدفها الأسمى وهي تصرخ: «جبر».. «جبر».  
- يمكنني أن أستدعي لك «جبر» لو أردتِ يا سيدتي.  
- ما أريده منك أن تغور من هنا حالاً ولا ترني وجهك.

وبعثت صرخاتها «جبر» من مكمّنه فاصطدمت كتفي بكتفه عند الباب المؤدي إلى المطبخ، لم تتبادل كلمة واحدة، كأننا غريبان، فتحت فمي لأخبره بما حدث ولكني عدت فأغلقتة عندما لاحظت الرعب المرتسم على وجهه وارتعاد شفّتيه، وظللت أسمع وهو يهمس: ما الذي فعلته؟ حتى أغلق الباب خلفه ميكانيكيّاً.

جلست على منضدة المطبخ، خائضاً بذهني في طين الاحتمالات المقبلة، بينما يدق الدم في أذنيّ بشدة ويصمهما، للدرجة التي لم

أعد أسمع فيها أصوات المطبخ الصغيرة، طبقا عشاء «جبر» أمامي، لم يمسهما، كأنني أنا و«إيلات» قد سقطنا فيه كذبايتين، سقطنا رأسًا في متعته السرية اليومية، ولم أسمعوه وهو يفتح الباب ويجيء ناحيتي ثم يضع يده على ظهري فجفلت.

- لا بأس يا بني، لا بأس، السيدة «إيلات» تريد أن تعتذر إليك.

- لن أصعد يا عم «جبر».

- لا تفسد الأمور يا «إسماعيل» أكثر مما فعلت، هيا اذهب.

لم أكن قد التفتُ إليه بعد، لكنني شعرت به وهو ينحني على وجهي، ويتفحصني، ثم ذهب وأحضر لاصقًا طبيًا صغيرًا وجذبه على وجهي بعد تفرغته من ورقته فالتصق به.

وفي الطريق إلى غرفتها، ولسبب لا أعلمه، نزعت اللاصق، ورسمت على وجهي ابتسامة باردة.

\*\*\*

لم أغضب من كذبة «جبر» عندما ابتدرتني أول ما دخلت الغرفة:

- أشكرك يا «إسماعيل» على رغبتك الطيبة في الاعتذار، أنا أيضًا يجب أن أعتذر إليك عن الألفاظ السيئة التي قلتها.

كانت راقدة على فراشها وسيما المرض عادت إليها أشد مما كانت، الأوراق التي مزقتها قد جمعت في سلة صغيرة إلى جانب سريرها، وشممت رائحة عطر خفيف، عطر رجالي.

- أنا من تحامقتُ يا سيدي، ما كان يجب أن تصل الأمور بيننا إلى هذه الدرجة.

- أنا غاضبة يا «إسماعيل»، غاضبة منك، وهذا المرض يجعل أعصابي تنفلت يُسر.

- وإلي متى ستظلين غاضبة؟

- حتى تفكر، أقصد حتى تعيد النظر.

- في أي شيء؟

قالت في عصبية:

- تسأل وكأنه ليس بيننا موضوع معلّق، أنت تجعلني أشعر أنني حمقاء يا «إسماعيل»، من دون قيمة، أقصد رغبتني في رؤية نصوصك عن «هاجر»، ورغبتك في إخفائها عني، على الرغم من أنني أستشعر أنك تضعني في الكتابة بمنزلة عرابتك، لكن دعنا من هذا، قلت أرغب في رؤية هذه النصوص بجنون وأنت وكأنك لست هنا، أخبرني، للعلم ليس إلّا، على الرغم من أنني تزوجت وكدت أنجب لكني لا أعرف، هل يخفي الفتى أولى علامات بلوغه عن أمه، عن سبب وجوده في هذا العالم؟ هل يخفي عنها أمرًا كهذا؟

أجبتها باسمًا:

- نعم يخفيها.

- ولو، حتى لو كان صحيحًا، هذا عن أمومة اللحم والدم، لكن أمومة الكتابة أكثر اتساقًا، سأخبرك بأمر يا «إسماعيل» ولكن لا نُسيّ الظن بي، أنا أسعى لاكتمالك، لتصبح نموذجيًا؛ فالكاتب مثل الرسام، حتى لو لم يرسم إلا الطبيعة يجب عليه أن يرسم جسدًا عاريًا، الجسد العاري بمثابة مقياس الرسم لخريطة الحياة، فأنت لا تستطيع أن ترسم شجرة ولا شمسًا من دون أن ترسم عضوًا تناسليًا، هل تعرف ما الأمر المرادف لرسم جسد عارٍ في الكتابة؟ إنها مغامرة التوغل في هذا الجسد، النصوص الإيروتيكية، إن الكاتب لا يستطيع أن يقول إنه قد صار متحكمًا في أدواته وهو لم يكتب نصًا إيروتيكيًا، وهو لا يستطيع أن يتحكم في إفرازاته وهو يكتب، الخجل لا يصنع كاتبًا يا «إسماعيل»، قد تحتقر الأمر ولكن لا بُدَّ أن تمر من خلاله. - هذه كلها تشبيهات سيئة.

- ولو، الكتابة نفسها عادة سيئة، ومأساتك مضاعفة يا «إسماعيل»، أنت أصولي، اعترف بذلك، رباك الأستاذ «سمعان» على يده بعناية،

كما أنك تفتقد الشغف والرغبة في هذه الأمور؛ لأنك لم تجرب، ولأنك خجول، والكتابة مراوغة شقية لعب، ولتسطر اعترافها لك كاملاً لا بُدَّ أن تكون في قمة عنفوانك، لا بُدَّ أن تحبك، وتعشقك، وتتعلق بك.

- أنا شخص لا طموح له ولا أريد اعتراف الكتابة اللعوب لي، كما أنني لا أحتاج إلى الحب لأكتب، أنا بارد كما تفضلت بالإيضاح منذ قليل.

- فعلاً كما قلت، لقد أخطأت بالحديث معك، أنت سخي وسمح ولن تستجيب بشكل دبلوماسي، يجب أن يدق أحدهم على رأسك. عندئذ انغلقت روحي على الفور، واحتشدت بغضب وكبرياء للمرة الأولى في حديث مع «إيلات»:

- «إيلات»، لو كررت الكلام في هذا الموضوع سأترك القصر إلى غير رجعة!

ولم تعد «إيلات» خطوة للخلف، بل اندلعت بشرارتي، وصرخت بصوت بُح من العصبية ونوبة البرد:

- وهل تهددني؟! الباب مفتوح، يمكنك أن تغادر الآن لو أردت، أنت شخص عنيد ولا يمكن احتواؤك، لا عجب أن الأستاذ «سمعان» لم يُجِزْكَ للعمل في مكان آخر.

انحنت على الريموت، عبثت في أزراره بغضب، أطفأت الإضاءة وأتمت فتح الستائر، ثم نفخت في حنق وعادت لغلق الستائر وإضاءة المكان بالكهرباء، قلبت الريموت في يدها وبأظافرها الطويلة الملونة انتزعت غطاءه ودقت به على طرف الكومودينو فسقطت الحجارة الجافة على الأرض في صوت مكتوم، وكانت تهمس بصوت مسموع وهي تفعل:

- أنت تسخر مني، يا ربي! إنه يسخر مني، ما كان يجب عليّ أن

أطلب منه هذه النصوص، لن يعطيها لي، إنه حتى لا يملك الرغبة في أن يناولني هذه الحجارة التي سقطت على الأرض وأنا مريضة، لكنني لا أريد شيئاً، لا النصوص ولا الريموت.

قذفت الريموت عندئذ على الستائر المسدلة فاصطدم بها وسقط على الأرض، ثم صرخت في وجهي:

- هل يمكنك على الأقل أن تفتح الستائر لتتنفس امرأة مريضة؟  
تحركت إلى النوافذ، وأخذت أجذب الستائر بينما هي مستمرة في الحديث:

- لا يمكنك أن تحبني يا «إسماعيل»، لا يمكنك أن تحبني، وأنا أعرف ذلك، أنت تشبهني، قلبك في رأسك مثلي، والقلوب التي في الرأس لا تصلح للحب، لكنني كنت أتوق لشيء يهزني، يحرك بحيرتي الراكدة، لكن هذه النصوص ليست من حقي، أليس كذلك؟ إنها من حق «هاجر»، وأنا لست «هاجر»، ولا أستطيع أن أكون.

ارتعدت من غضبها وإحباطها ودمعت عيناها، فقلت مشفقاً:  
- لو كان هذا آخر ما سأفعله في حياتي سأقوم به من أجلك وعن طيب خاطر، سأعطيها لك ولكنني لا أستطيع الآن.

نظرت إليّ كأنها تتبين روعي التي نطقت بها هذه الكلمات، وعندما تبينت صدقي أخذت تتضرع:

- لماذا لا تستطيع؟ هل تخشى أن أنتقدك؟ أعدك أنني لن أفعل، لا كقارئة ولا كامرأة.

كدت أهتف بها: وهل تعتقدين أنني أحتاج إلى نقدك؟ لم أعد أحتاجه، لم أعد أرغب إلا في وجودك، عينيك المسلطتين، ووجهك المطل من أعلى، وروحك المشعة في هذا القصر البارد.

- عندما أموت سأوصي بذلك، سأوصي بأن تؤول ملكية أوراق السرية كلها إليك.

- هل تسخر؟ أعرف أنك لا تفعل، ولكن اطمئن، ستعيش طويلاً وستكتب أكثر مما ترغب في كتابته، وسأكون موضوع إحدى حكاياتك يا «إسماعيل»، السيدة العجوز التي رفضت طلبها ذات يوم، السيدة الغنية المشوهة التي طلبت منك نصاً ولم توافق على إعطائها إياه. - لم أرفض.

- إذاً، اكتب نصاً لي، نصاً إيروتيكياً، تخيل فيه أي امرأة، ليس بالضرورة «هاجر»، ليس أبداً «هاجر»، اشتته أي امرأة وكتب عنها نصاً وأعطني إياه.

كان هذا فوق احتمالي، ووجدت نفسي ألتحم بغضبي من جديد، وأنظر إليها فينفث غضبي بنظرات الضراعة في عينيها، وأثر المجاهدة ينبعث من ظهري حبات من العرق البارد، لكن العرق تحت إبطي كان كريهاً، مثل عصارة أئمة، وأخذت الدنيا تدور حلزونيّاً من وطأة الغضب المكتوم.

- ولماذا أنا؟ لماذا؟

فقلت بعد تردد وفي صوت خافت عميق قد زایلته بحّة البرد:

- لأنني أرغب في ذلك، لأنني أهتم بقصص الحب، أشعر بها تحييني، تمنحني قطرات من الندى، ينقذف في جسدي الجاف بعض من الرطوبة والحياة.

- عندك هذه الكتب والروايات التي ذكرتها كلها، لماذا نص مني أنا بالذات؟

- لقد قرأتها، مراراً وتكراراً، لكنك لا تعلم، الفارق بين أن تشاهد قبلة في فيلم وأن تفعلها بنفسك هو الفارق بين نص حي كتبه صاحبه ونص آخر مكتوب سابقاً.

- لكنني لا أجيد الحب، أنا فاشل جداً في هذه الأمور، لقد عشت حياة قاسية جداً، أنا نفسي أستشعر هذه القسوة في داخلي، أنا

حتى لم أبكِ على جدي الذي مات.

- تمامًا كما تصورت، هذا ما صورته عنك، أبعد الناس قدرة على المنح هم أبعد ما يكونون ظاهرًا عن ذلك، «هتلر»، الديكتاتور الذي قتل نصف أوروبا ودكَّها، كان عاشقًا رومانسيًا، وأنت مثله، أنت تحتاج للكتابة كي تفرض خاتمة القسوة عن قلبك يا «إسماعيل»، لكن النتيجة ستكون مدهشة صدقني.

ظلت عيناها معلقتين بوجهي الحائر، الخواطر تضيئه وتطفئه حتى أظلم كليًا وأنا أقول:

- لا أستطيع يا «إيلات»، لا أستطيع، حتى لو طلبتِ النص مني بشكل رسمي، أنا أفصل مغادرة القصر والعودة إلى مدرسة الأستاذ «سمعان» على أن أقوم بفعل أمر كهذا فوق إرادتي.

صُدمت ولكنها تماسكت سريعًا، ثم همست:

- حسنًا، حسنًا.. لا عليك، أنت أصلاً لم تُكن لتكتب نصًا بالطلب، أنت نهم، شهواني، هذه هي الحقيقة الكاملة، وأنا ببساطة كنت أريد أن أعرف كيف يمكن أن يشتهي رجلٌ مثلك، فقيهُ متعصبٌ ملتج، مر من تحت يدي «سمعان» الخطير، خجولٌ منطو، كنت أريد أن أدخل في رأسك، لكنك لست شجاعًا كفاية لتجعلني أفعل، لن تعطيني نصك الشهواني.

- الشهواني؟

لم تلتفت إلى استنكاري وقالت:

- هيا انصرف من هنا، لن أضيئك بعد الآن، ولن أطلب منك نصوصًا، أنت حر طالما بقيت في هذا القصر، تأكل وتشرب وتنام وتقبض مرتبك من دون أن تُكَلَّف بشيء إلا إذا أردت مساعدة الخدم في المطبخ.

- «إيلات»، لا تجبريني أن...

- اسمعني أولاً قبل أن ترد، اعتبر حواراتنا وزيارتك لهذه الغرفة وكل شيء، كل شيء، حلمًا أو كابوسًا، وأتمنى أن تنسى وجهي أيضًا، هيا انصرف.

\*\*\*



## الفصل الخامس

الكلمات قُبَّعات الكاتب، يدسُّ فيها أرانبه، تكون حية أول ما نسطرها، حية وجامحة ومؤلمة، بعد فترة تصبح توابيت، الكاتب الجيد يخنق ما يكتبه ليصبح قابلاً للتداول على الفور، أما أنا فأصبح رخوًا بصورة بائسة بعد كل مرة أكتب فيها، وتحتاجني أمنية وحيدة: أن أتعلَّم لغة لا يمكن تداولها إلا أسفل الماء، لغة كلها فقايق وإشارات، وأن أطفو هناك كقنديل بحر يلدغ كل من يحاول الاقتراب منها.

«إسماعيل» - الكاتب



كم مرة سأغادر هذه الغرفة وأنا أحمل الخيبة على كتفي مثل بهلوان مجنون، يقهقه ويهز ساقيه ويفح عند أذني بكلام بذيء ويبول العرق البارد على ظهري ثم يعود يهز ساقيه ويقهقه، ولا سبيل للتخلص منه إلا بمغادرة باب القصر، وأنا أعرف، ولكني لا أستطيع، لا أستطيع ولو على سبيل التهديد الطفولي، باب غرفتها لا ينغلق خلفي، مفتوح ولكن بلا خيار واحد للعودة، الممر يضيق كلما سرت فيه والسلم زلق ولا أحد حولي، كأني داخل رحم تطردني في ميلاد مبتسر إلى العالم، منتفخ بشعور لا أستطيع تحليله، في فمي طعم شيء كرهه تناولته ولا أتذكره، خائف، خائف من التنفس خارج القصر، خائف من السير على الأرض من دون صلاحية وجود طريق عودة إلى غرفة «إيلات»، على الرغم من أنني أعلم جيدًا أنها غير جادة، لكنني خائف، تفقد الجدران ودها القديم تدريجيًا كأنها حرارة جسد مات منذ قليل، حتى جدران البدروم، تصير زلقة ولامعة وجديدة وغريبة عني كلما خفضت بصري عنها وعدت لأصوبه، كل ما أحججه أو ألمسه يطفو حولي كحاجيات غريق (ملابسي التي أرتديها، الطعام الذي أتناوله، نظراتي إلى الخدم وإلى «جبر»، خطواتي ذهابًا وإيابًا)، كلها تحتاج إلى إعادة تثبيت بكتلايدي لتبقى وأستعملها من جديد، و«جبر» ينظر إليّ كأنه يأمل في أن يرى ما دار بيني وبين «إيلات» من خلال جلدي، ثم تضيق به الرغبة والفضول فيجلس إلى جوارتي في ذات يوم بعد أيام كثيرة ويسألني:

- يبدو أن برد السيدة قد انتقل إليك.

- أنا بخير والحمد لله، لكن الحوار بيني وبينها لم يسر كما ينبغي.

وعاد الصمت، لكنه مُزجج بالفضول الجديد الذي زُرعت بذرتة.

- كيف؟ وما الذي حدث؟

- لا تعجبها نصوصي، أنا أكتب بطريقة سيئة يا عم «جبر».

- أنا لا أفهم في الكتابة يا بني، لكني أعرف تاريخ السيدة وأفهم الناس، أنت تكتب بشكل جيد للغاية وإلا ما اهتمت بك، إنها لا تهتم بأنصاف المخبوزين.

- وهذا الشخص الذي يكتب بشكل جيد أخبرته أنها لن تطلب منه الكتابة بعد الآن، لم تعد ترغب في رؤية ما يكتبه.

- لكنك لن تتوقف عن الكتابة لمجرد أنها أخبرتك بذلك! اكتب يا بني، لا أخفي عنك، للمرة الأولى أشعر أن هذه الوظيفة لها فائدة تعود على ساكني القصر، أقصد: الأمور صارت أكثر اتساقاً مع السيدة، لعلك لا تلاحظ، لكني ألاحظ، صارت تأكل بشكل منتظم ولم تعد تصرخ في وجوهنا، ولا تبكي، ولا تتهمنا كما في الماضي بأننا نريدها أن تموت، وأننا لا نحسن خدمتها، وأننا نشكوها إلى السيد، صدّقني، منذ جئت صارت الأمور أفضل، والخدم يحبونك، أنا أحبك، والسيدة تحب الحديث معك، وتحب أن تكتب لها، فلا تتوقف.

- لا أتوقف عن ماذا؟ أخبرتك أنها لم تعد تطلب مني شيئاً يا عم «جبر».

- اكتب وأنا من سيرفع ما تكتبه إليها يا بني، لصالحك ولصالحها، ولصالحنا.

تبيّست الكلمات عندئذ على فمي، وكدت أخبره عن مشاعري تجاه «إيلات»، وعن إحساسي الآن، وأنا جالس معه، منغمس في الدفء، بينما قلبي وعقلي يرتعدان من البرد وترتعد معهما كلماتي، عقلي وقلبي اللذان يسافران بلا هدف بعيداً جداً عن القصر، في المجهول، في قبر بارد أسفل عشب يعلوه الصقيع، أو برّ يחדش الصقيع فيها أصابعي وأنا أحاول تسلق حجارتها إلى السماء، وأني لأول مرة في حياتي أحتاج إلى نبوءة وإلى طمأنينة، أن تقرأ عرّافته كفي وتكذب عليّ وتخبرني أنني سأنسى «إيلات» إذا تزوجت امرأة أخرى،

أو تُصدِّقني وتخبرني أنني لن أنساها وسأحبها مهما جرى وسأظل أحبها ولا فرار من مصيري معها، كدت أخبره أن حبها كان خيارًا في البداية، ثم أصبح جبرًا، كان ودودًا ثم أشهر عند حلقي سكينًا، وعلى الرغم من كل محاولاتى لإيقاف روحها من التسلل لا تتوقف عن التنكر والدخول؛ فهي بين ملابسى مثل أنفاس غريبة دافئة، وعلى جلدي كجمرة متقدة، فتمر من جلدي ولحمي وعظامي، ويا ليتها تنفذ إلى الناحية الأخرى، فتنتفئ أو تحترق، لكنها مختبئة في مكان لا يشبه إلا القلب، لكنه ليس القلب، حتى لو لغممت قلبي وفجرتة، لن أنساها، جربت أن أنساها قبل ذلك، لكنني أحتاج إلى أكثر من الرغبة، ربما أحتاج إلى مشرط جراح، وإلى تخدير، وإلى أن يُشل وعي تمامًا؛ فمجرد التفكير في فراقها يجعلني ألهث وأنا جالس، ألهث فعليًا، لقد كتبت نصًا في نسيانها منذ يومين، والآن يدور في ذهني أن النص نفسه لا يصح إلا على وجهه الآخر، على النقيض منه، نص في صعوبة نسيانها، ولا أعلم أي الوجهين أصح، لم أعد أعلم، حتى الكلمات تعصيني.

ولم أدرِ بنفسى إلا وأنا أتضرع في لهجة منداة بالبكاء:

- لكنى لم أعد أريد الكتابة يا عم «جبر»، الكلمات تزيد حالتي سوءًا، تجعلني أحبها أكثر، أحبها وأريدها.

صُدم «جبر» للحظة، كأن انهيارى أسوأ ما توقعه، لكنه بهدوء رجل عاش هذا الموقف عشرات المرات قال وهو يربت على كتفي: - وفر حبك لتضعه في قلب مفتوح يا بني، إنما «إيلات»، «إيلات» صندوق مغلق، مغلق على أشياء جميلة جدًّا، مفتاحها لم يعد مع أحد، ولا حتى مع الرجل الذي امتلكها ذات مرة، وتسببت كل محاولاته لفتح هذا الصندوق في أن يتحطم فيه أكثر مما بقي، وفر حبك يا «إسماعيل» واذهب لتنام.

\*\*\*

- ادخل يا «إسماعيل»، تفضل، أخبرني «جبر» أنك تريد مغادرة القصر لفترة، إجازة، كم لديك من أيام عندنا؟! واحد وعشرون يومًا في سنتين، أنت هنا منذ سنتين يا «إسماعيل»، لا مفر من أن أقول الكلمات المعتادة: يا ربي كم أنا مندهشة! مرت كأنها أسبوعان.. اجلس، لماذا لا تجلس؟ ليس هنا أكثر من المقاعد.

غرفة الأضياف الواسعة، على نهاية منضدة السفرة منفضة سجاجر، وفي طرفها سيجار مشتعل لا تمسه؛ ف«إيلات» لا تدخن، تعبئ الهواء وتستنشقه.. تدخين سلبي فقط.

- كم يومًا تريد؟

- قد آخذ الأربعين يومًا دفعة واحدة.

- لماذا؟ هل ستصعد الهيمالايا؟

- لا.. سأبحث عن عمل.

- وهنا؟ ألا تعتبره عملًا؟

- هنا أشعر بشعور غير مريح يا سيدتي، لا أحد يطلب مني الكتابة، ولا حتى أنت.

- لكني طلبت منك عدة مرات أن تكتب لي ورفضت، أليس كذلك؟

- لم أطلب مقابلتك لتحدث في الموضوع ذاته يا سيدة «إيلات».

- لا لا طبعًا، أعلم أنك مزعج، اعذري.

ثم أخذت تتأملني:

- هل تعرف يا «إسماعيل»؟ أنا مريضة بولع غريب.

- ولع آخر غير ولع جمع الكراسي؟

- نعم، ولع بتحطيم الأشياء الجيدة في حياتي لأرى إلى ماذا ستصير، إنها أشبه برغبة الله في اختبار مؤمنيه وتمحيصهم حتى يسقطوا في الخطيئة أو يصيروا ملائكة، السبب في هذا الولع مربية في طفولتي

أخبرتني ذات مرة أن الدق بيد هاون نحاسية على قرط من الذهب لا يجعله يتبسط، بل يحيله ترابًا، الحق يقال: إنها كانت تخيفني من إيذاء حليّ الذهبية، منذ ذلك الحين وكلما رأيت ذهبًا تملكني رغبة جارفة في أن أدقه بيد الهاون؛ لذا فلا أرتدي الذهب، ربما أحتاج إلى علاج نفسي، أو يكون لديّ الحماقة الكافية لأجرب، سأفعل ذات يوم، أدق على قرط من الذهب، لا بُدَّ أن أفعل، عندئذ ربما أكف عن الدق على رؤوس الرجال؛ لأن الرجال أثمن من أقراط الذهب، الرجال متعة لا تُعوّض يا «إسماعيل»، ولا يكره الرجال إلا امرأة معقدة، وأنا لست امرأة معقدة، أنا فقط أريد أن أتناول الرجال من بعيد، من دون أن ألمسهم.

- وهذا أكثر ما يعذب رجلًا يا سيدي، تناوله من بعيد.

- أعرف ذلك، وأعترف أنني أردت هذه النصوص بشدة وأنت عذبتني برغبتك تلك؛ لأنني أستخدم وسائل ضغط سخيفة لا تجدي نفعًا، أقصد أنني لا أمتلك حقوقًا كصديقة، أقصد يعني، لا يصح، حقوقًا محدودة جدًا لا يعضدها حتى الكم مئة دولار التي أدفعها لك.

ثم نظرت إلى وجهي خلسة وكأنها تستشف أثر كلماتها:

- أنا سخيفة ونزقة، لكنك بارد يا «إسماعيل»، قلبك بارد ويدك الضخمة هذه باردة، ويوم أن تدب فيك الحرارة ستموت بأزمة إحساس، صدّقني، لن تتحمل قلبًا حيًا ولا أعضاء دافئة، على العموم يؤسفني ألا أنفذ لك طلبك، لا تستطيع مغادرة هذا القصر إلا بتوقيع من «سمعان»، العقد الذي قمنا بتوظيفك بناء عليه يوجد به هذا الشرط المهم للغاية، لا أعرف ما الذي فعلته لأستاذ «سمعان» ليضع هذا الشرط الغريب، لكن بالتأكيد لم يطلب منك أن تكتب له نصًا إيريوتيكيًا.

ابتلعت إهانتها وقلت بكبرياء:

- أنا شخص حر يا سيدة «إيلات»، لا يستطيع الأستاذ «سمعان»

ولا أنتِ أن تمنعاني من مغادرة هذا القصر.

- لا طبعًا، لا يمنعك أحد، الباب - كما تقولون - يفوّت جملاً، لا نغلقه إلا ليلاً مخافة اللصوص، كل ما في الأمر أن هناك أصولاً، وسيتم إبلاغ المدرسة بمجرد أن تغادر.

- وكيف أحصل على توقيع الأستاذ «سمعان» وأنا لا أستطيع مغادرة القصر إلا بإذن منك؟

- يمكنني أن أدبر لك السفر إليه والعودة في اليوم نفسه عن طريق سيارتنا الخاصة، وسنخصم ثمن البنزين من راتبك.

- ولو كتبت لكِ النص الذي تريدين؟

- سيمكنني حينها أن أسمح لك بالمغادرة بشكل ودي، وسيسعدني مغافلة مدرسي هذه المدرسة الذين لا يُطاقون، وسأدفع ثمن البنزين من جيبِي الخاص.

- لماذا؟

- لن تستطيع أن تفهم لو أخبرتك، كما قلت لك منذ قليل، أنت جيد التوصيل للحرارة، لكنك بارد، أنت معدن نفيس، لكنك معدن في نهاية الأمر، علاوة على ذلك نحن شخصان مختلفان تمامًا، كائنات تتصادم دون مسوّغ واضح، كالحديد بالزجاج، أو الحديد بالطين، أو الطين بالنور، أو الدب بالفراشة، يجب أن نحافظ على مسافة الأمان بيننا، بهذه الطريقة لن يحدث تصادم.

صدمتني الطريقة التي تحدثت بها، بغضّ النظر عن كل ما حدث، كان هناك جزء منها لا يمكن أن يمرر هذه الكلمات الباردة، وهذا ما جعلني أفكر في الاقتراب منها، وأن أربت على كتفها، لكنها كانت قريبة جدًّا، مثل أبعد نجم في المجرة.

كانت حماقةً مني أن أسألها، ولكن بدا لي حينها وديًا ولطيفًا ورائعًا أن أفعل:

- هل طلبتِ من «جبر» عندما مرضتِ أن يشير في حديثه إلى رغبتك في مقابلتي؟

صاحت باستنكار:

- أنا؟

- خمنت ذلك.

- لا، أنت من طلب ذلك وألح عليه.

عندئذٍ انتبهت إلى مدى الإساءة في كلامي إلى كبريائها واعتزازها بنفسها، فقلت بسرعة:

- بالفعل، أنا ألحت في ذلك.

وكانت هذه الكذبة أسوأ من الحقيقة، واشتبك حظي التعس في أعماقها الكئيبة اليائسة.

- وكأنك لا تريد إلا عذابي يا «إسماعيل»، لماذا قلت ذلك؟ ما الذي فعلته لك لأستحق هذه القسوة كلها منك وهذه السخرية؟ ولا تزال تكرر ذلك كلما ظننت أنك قد كففت عنه.

ثم جففت لهجتها بسرعة وبقدر المستطاع وهي تردف:

- لا يهم الآن، لقد مر، وما مر قد مات، ولا داعي لأكرره عليك كل لحظة، أليس كذلك؟ ما أردت أن تفهمه أن القلوب التي في الرأس لا تصلح للحب، وأن حاجتي لنصوصك السرية حاجة بيولوجية لا أكثر، حاجة لا دافع لها، لكن العالم الأحمق يريد أن ألتمس لها دوافع ومبررات، مثل حاجتي لقتل طليقي، ونحن ضائعان بهذا العالم في الطريق إلى احتياجاتنا، والآن، هل ستعطيني نصوصك؟

- لا.. سأنتظر السيارة التي ستأخذني إلى المدرسة.

- هكذا إذًا! حسنًا، أنت عنيّد، حسنًا، انتظر السيارة، وسيكون عليك أن تنتظر طويلًا، لدينا إصلاحات بها، والسيارة الأخرى مع «حسن».

- من «حسن»؟

- ألا تعرفه؟ إنه أبي، ذلك الذي تقضم من رصيده في البنك شهرياً مقابل عمل لا تقوم به، لكننا سنجد حلاً لهذه المعضلة عن قريب، سنجد حلاً، ولا مفر من أن تحتضن كراهييتي لك بدايةً من اليوم، أما أنا فقد أكتب الليلة نصّاً ماجناً شهوانياً، أدلل نفسي به، والآن انصرف من هنا، لم تعد لك حاجة للبقاء، ولم تعد لي رغبة في وجودك.

## «حسين» - القاتل

كما أخبره «د»، مهام الإعدام التي كلفوه بها بعد التحقيق كانت المهام الأسوأ، وكأنها جُعلت خصيصًا لتكديره، تسلّم زبائن من أماكن عشوائية، مناطق شعبية على أطراف القاهرة أو محافظات بعيدة، عشرات النساء والأطفال والرجال رأوا وجه «حسين»، بل وتكلموا معه قبل أن يأخذ زبونه إلى العدم، الزبائن أنفسهم ضعفاء أو همجيون من الصعب السيطرة على تصرفاتهم، بل وبعضهم يعرف أنه في طريقه للقتل، ينظرون إلى «حسين» في ريبة، وفي أقرب فرصة يتركون أحذيتهم في السيارة ويهربون جريًا، بعضهم يواصل الهرب، والقليل منهم من يعود متشككًا عندما يلاحظ أن «حسين» لم يطارده.

مع تكرار هذه المهام، اضطر «حسين» إلى إهمال الشرط المهم في كتيب التعليمات، وهو أن لكل زبون أمنية أخيرة.

الثَّهم لم تعد واضحة، كأن من سجلها تعتمد الإيهام، أغرب التهم على الإطلاق هي الوجود، الوجود في مكانٍ ما (شارع أو ميدان)، وفي وقت معين، تم تسجيل وجوده عن طريق كاميرات الشوارع من دون أن يدري، هذه تهمة تحتاج إلى بحث لكي لا يُخل «حسين» بنقاء مهمته، كان عليه أن يتصفح مواقع الصحف يوميًا، ويسجل في ورقةٍ معه الأوقات والأماكن التي تحدث فيها مظاهرات أو صدامات، وفي لحظة القتل يضطر إلى تخمين تهمة.

كان الإحساس كله عديمًا، وفي أحسن أحواله كان مريعًا وممرضًا كأنه يرسل إلى السماء أناسًا مقتولين سلفًا، ويدفن جلودًا مدبوغة وعظامًا نخرة..

لولا تحذير «د»، ما استطاع «حسين» احتمال أن يتم الإعدام

بهذه الطريقة، وجبة تكدير كاملة، حتى المنغصات البسيطة لم يهملوها، الطريقة التي يكتبون بها الأسماء، كيف استطاعوا إدراك أن الخطأ في رسم الأسماء المكتوبة إملائيًا يضايقه، وأن همزة ناقصة فوق ألف أو شدة نُسيت وتم إهدارها تقطع خشوع القلب مثل فردة حذاء واحدة أمام مسجد ومقلوبة إلى السماء؟ أما وضع الهمزات أعلى وأسفل بهمجية فيسبب له التباثًا في لسانه، تصبح الهمزة مثل بعوضة ذهبت في المكان الخطأ، الفم أو الأنف، علاوة على الأسماء التي يمكن كتابتها بطريقتين، فيضطر إلى التحدث مع الزبون لتصحيح الاسم. كيف استطاعوا معرفة ذلك؟!

لكنهم من حين لآخر كانوا يهبونه مهمة مشبعة، بلا أخطاء، مهمة يمكن بها إصلاح الفوضى بداخله، مهمة تستحق الاحتفال، وفي الواقع صار الانتهاء من مهمة إعدام مناسبة يستحق الاحتفال، أي مهمة، المهمة النظيفة والمهمة القذرة، وكان الاحتفال يلزمه «إسحاق»، و«إسحاق» موجود دائمًا، وسواء اتصل به «حسين» قبل أن ينفذ الإعدام أو بعد تنفيذه لا يخيب ظنه أبدًا، يُخلي الشقة فورًا ويستقبله..

الحق يقال: إنه بسبب البؤس الذي يعانيه في مهام القتل، استطاع «إسحاق» في فترة وجيزة الوصول إلى أعماق بداخل «حسين» لم يصل إليها أحدٌ سلفًا، ولا حتى عمه الذي علّمه الكتابة قبل أن يتعلمها في المدرسة، وفي لحظات معينة كان «حسين» يأتيه يقين قوي أن جده بُعث في جسد حياة «إسحاق»، ليرشده أو يشجعه، لدرجة أن «حسين» بدأ يخبره بكثير من أسراره، حتى المخزي منها، مع أنه ظل عاجزًا عن أن يخبره بطبيعة مهنته.

وذاث ليلة، استيقظ «حسين» من نومه في ساعة لا يستيقظ فيها عادة، ولم يكن قد غادر أحلامه، وأحلامه لم تكن قد غادرت داخله، تجوّل بداخله في صفاء نفس لم يجربّه من قبل، وقبض

على قلبه يقين لا يهتز في أن هذه المهام المُمِرضة ستنتهي بعد أن يتبين النظام أن قاتلهم عاد لرشده، وأنه بدأ ينفذ الأوامر حرفيًا، وأن أيام القتل الجميلة ستعود، أيام القتل الذي يعود منها إلى صالات التدريب لا إلى شقة «إسحاق».

ثم تذكر شيئًا آخر كان سببًا زائدًا للثقة، أن الميعاد الآخر لظرف «إسماعيل» يوشك على الاقتراب، يعد «حسين» الأيام عدًّا، لدرجة أنه خدش التاريخ على تابلوه سيارته.

كل شيء كان صافيًا، وباعثًا على الأمل، قبل أن يقوم «حسين» بمهمته الأخيرة.

\*\*\*

التقط «حسين» زبونه من أطراف شبرا، مقهى شعبي يقع بجانب مستشفى حكومي ضخم، اسم المقهى «البروستاتا»، لاحظ «حسين» أن المنطقة مليئة بالمقاهي والمحلات المليئة بالذباب، وكلها مسماة بالطريقة نفسها: كباب «جزر لانجرهانز»، بقالة «الكوليسترول»، فول وطعمية «الضغط العالي».

مقهى «البروستاتا» يقدم مشروب الشعير، ويجد فيه «تجار شنطة الأدوية المنشطة للجنس» زبائن ممتازين، اضطر «حسين» إلى الترجُّل، والسؤال عن زبونه.

المكان في الداخل استقبله برائحة بول مرَّكة، أشار له النادل إلى جانب من المقهى مزدحم وتبعث منه تأوهات وصيحات حسبها «حسين» في البداية رهانًا جماعيًا على لعبة طاولة، عندما اقترب لاحظ أن ثمة ثلاثة رجال على الأقل قد خلعوا سراويلهم وجلسوا بملابسهم الداخلية، وفوق رأس هذا الزحام كانت لافتة صغيرة مكتوبة بخط اليد «محمود ملواني.. المعالج الروحاني، يخلصك من حصوات الكلى في دقائق»، قام «حسين» الطويلة مكَّته من أن يرى المشهد، طست مليئة بالماء والدم وقطن طبي، يجلس

إليه رجل، عارٍ من الأسفل، على مقعد مختلف عن مقاعد المقهى، ورجل أشيب يرتدي قفازًا طبيًا رخيصًا، كلما مرر أصابعه على البطن العاري وعلى العضو الجاحظ بشدة أخذ الآخر يتأوه تصاعديًا ويطلق بلسانه.

زبون «حسين» لم يكن المعالج ولا أحد المتفرجين، بل كان رجلًا من الرجال الثلاثة الذين خلعوا سراويلهم تمهيدًا لإجراء العملية، ولإقناعه بارتداء سرواله والتخلي عن دوره الذهبي في طابور معالج الحصوات اضطر «حسين» إلى تهديده:

- هذه أوامر شركة التوصيل، الوقت الزائد سيُضاف إلى الفاتورة، وهذا سيُغضب رئيس الشركة بشدة.

في مقعد سيارة «حسين» الخلفي، أخذ الزبون يتلوّى ويتقلب وهو يشد إبريم حزامه، ثم تنهّد أخيرًا وهو يشد ملابسه على قميصه الداخلي المتسخ.

بمجرد أن انطلق «حسين» بسيارته، قام الزبون نصف قومة وتدلّى بنصف جسده العلوي على المقعد الأمامي وأخذ يحيط رقبتَه بخناق من أسئلة كثيرة عن المكان الذي سيذهبان إليه، لكن «حسين» لم يُجبه، إلا أنه لم يُخمد لسانه على الفور إلا بعد أن أخبره «حسين»:

- أنا مجرد سائق توصيل يا سيدي، ولا أعرف إلا العنوان.

ونفخ «حسين» بضجر ليقطع عليه السبيل في التماس طرق أخرى لمضايقته، وتمدّد أمامهما طريق أسفلتي أقل سوادًا من رؤية «حسين» وضجره.

لكن القشة الزائدة على ظهر البعير أتت سريعًا؛ فبعد نصف ساعة فقط، طلب منه الزبون أن يركن السيارة لأن الحصوة تحركت. بجوار شجرة على الطريق، توقف «حسين»، قفز الزبون فوق حاجز الطريق الخرساني ووقف أسفل جاعلاً ظهره للطريق، دفع

كفه بطول ذراعه إلى الشجرة كأنه يمنعها من السقوط فوقه، وأمسك عضوه باليد الأخرى، وكفأ وجهه، لم يسمع «حسين» خريز بول بل تأوهات، تأوهات تغلظ وترق، تصل للشخير ثم تتحدّر إلى الشكاية، وفي النهاية ومن دون أن يشد سرواله جلس أسفل الشجرة وأخذ يبيكي، ففكر «حسين» أن يلتقط سلاحه ليريح هذا الكيان البائس من آلامه وينفّذ مهمته في الوقت ذاته، لكنه توجّس، باق على النفق نقطتان من نقاط التفتيش المرورية، وحده القوي يلح عليه بأن هذه المهمة خطيرة ومدبر لها بعناية، مهمة أخيرة، إما أن يحتملها للنهاية وإما أن يوقعوا به وينهوا خدمته: اتهام بجريمة قتل.

ثم بدا لـ«حسين» أن يفتح الظرف بينما ينتظر انتهاء الرجل من بكائه، وضع الظرف بين ساقيه، ولأول مرة في حياته فصّ الظرف بلا إحساس بالرغبة، أخرج الورقة وفك طياتها، كانت فارغة من الكتابة، فارغة تمامًا، ارتعد قلب «حسين» وغاضت الدماء فيه، ورقة فارغة، لا اسم ولا تهمة، ولا يمكن له أن ينفذ مهمة بلا تهمة؛ لأنه لا يوجد بند في كتيب التعليمات يُعلمه ما الذي يفعله بورقة فارغة.

بعد أن عاد الزبون، وبمجرد أن انطلق بالسيارة، أخذ «حسين» يسأله، محاولًا استشفاف أي تفاصيل عنه.

لكن الزبون لم يرد عليه من شدة ألمه، لم يزد على أن قال وكأنه يكلم نفسه:

- الغلطة غلطتك، كان يجب أن تدعي أجري العملية عند «الملواني».

نقطة المرور الأولى أكدت شكوك «حسين» تجاه مهمته؛ فقد التقفه ضابطها بكثيرٍ من الشك والتفحص، وسأله عدة أسئلة جعلت الزبون ينكمش في مقعده بدأب رجل لا تخلو أموره من ريبة، أخرج «حسين» خط السير المزوّر لشركة التوصيل ففحصه الضابط بلا عناية ثم أخذ بطاقة الزبون وأرسلها مع المجند الشاب إلى غرفة الكمبيوتر، وفي أثناء الانتظار نسي الزبون آلامه تمامًا من شدة

الكرب، لكن البطاقة عادت ومَرَّ «حسين» بسيارته.

عند أول مطب صناعي بعد النقطة المرورية الأولى، وعندما قلل «حسين» من سرعته، فتح الزبون الباب وقفز، بكثيرٍ من الحنق والاستياء قاد «حسين» سيارته خارج الطريق وتوقف، وانتظر، من خبرته كان يعلم أنه سيعود، وبالفعل، عاد الزبون وكان متعرقًا بشدة.

بعد خمسة كيلومترات من هروبه الأول، كرر الزبون الهرب، ثم عاد بعد وقت أطول مما استغرقه في المرة الأولى، عندما عاد كان يائسًا ومحبطًا، سأل «حسين»:

- هل ستقتلني؟ أعلم أنهم أرسلوك لقتلي.

قال «حسين» ببرود:

- لماذا تقول ذلك؟

- بطاقتي مزورة، ومع ذلك لم يقبضوا عليّ لأنهم يعرفونك.

- أنا مجرد سائق توصيل يا سيدي.

- هل تقسم بالله على ذلك؟

اندهش «حسين» قليلًا، كانت هذه المرة الأولى منذ أعوام يطلب منه أحد أن يقسم بالله على شيء، وبدلاً من أن يفعل سألَه وقد وجدها فرصة جيدة لاستنطاق الزبون:

- ولماذا تحمل بطاقة شخصية مزورة؟

لم يرد الرجل، كان الحوار عبثيًا، وما يدور بعقل زبونه أسرع من قدرته على كبحه؛ فبعد الكمين الثاني صاح به الزبون:

- قف.

فتوقف «حسين»، نزل من السيارة ولم يخط خطوة أبعد، ثم عاد ودخل وبدا عليه الاستسلام التام لسكين قدره الثلم.

لم يتم «حسين» الطريق، قبل النفق بكثير انحرف بسيارته من دون اعتراض من زبونه، توغّل في الصحراء لمسافة لا تُسمع منها دوي رصاصة إلا كصوت شبيه بانفجار إطار سيارة، لم تنتصب الطنبجة في الدواسة، كانت جاحظة، وشعر بالرصاصة محتبسة فيها، محتقنة، ألتمته عند انطلاقها، ألصق الطنبجة ب صدره وأطلق في موضع القلب وشعر به ينفجر، نشيش الدماء كان واضحًا في هدوء الصحراء وهي تهدئ من حرارة السبطانة، تندفق داخل ماسورة الإطلاق وتطفئ ظمًا السدود والأخاديد التي وجهت الرصاصة وكأنها نقوش في معبد وثني.

كان الرجل جلدًا على الرغم من بنيته المتهاوية، صرخ فيه: ألم أقل لك؟ ألم أقل لك؟ ولم يسقط، حاول «حسين» أن يسقطه بركلة، أطاش الرجل بذراعه فتمكنت أصابعه من طرف قميص «حسين» وتشبث به، بصعوبة فكك «حسين» أصابعه وخلّص نفسه، ثم لكمه عدة لكمات حتى غاب عن الوعي، وخنقه بيده.

كان هذا هو الزبون الأسوأ على الإطلاق، لم يكن يستحق أمنية أخيرة، لكن الموت حققها له بدلًا من «حسين»؛ فبعد أن انتهى «حسين» من خنقه فوجئ بانفراج عضوه عن سيّال مستمر من البول، وعلى الرغم من انقطاع نفسه، خرج من فمه زفير نتن بعد أن انتهى، ثم سكن تمامًا.

لم يدفن الجسد، قيّده وسحبه بسيارته على سرعة بطيئة جنائزية، ثم رمى عليه قبضتين من الرمل، وعاد قبل أن تسود السماء بالليل، وفي الطريق اتصل بـ«إسحاق».

لو كانت هذه هي المهمة الأولى لـ«حسين» لربح العالم عدة أرواح سُجلت باسمه في السماء.

\*\*\*

ولأول مرة منذ تعارفا، انقبضت عليهما الصالة ككفٍّ بخيلة من المسرات، حتى غلب المشروب البارد التي أقي بها «إسحاق» من ثلاجته ضنّت عليهما بالرغبة، أما مروحة الجدار فلم تكن تدور إلا لترفع الشراشف ولا تعود إلا لتهبط بها، وكلما ارتفعت الشراشف وهبطت ذُكرت «حسين» بموجة شاطئ، بالنور والظلام، بانقباض القبضة وانبساطها، بالموت والحياة، بجفن يرف، بكل الأفعال الثنائية التي يصنع تكرارها دائرة.. المثلث دائرة، والنقطة دائرة، وفوهة الطبنجة دائرة، لا يقطعها إلا مرور رصاصة، والرصاصة لا تعود، فعل أحادي، والأفعال الأحادية هي ما تجعل للأفعال الثنائية معنى وقيمة، الفعل الأحادي فعل إلهي، الفعل الثنائي فعل ثديي، كل فعل ثنائي يعضّد كل الأفعال الثنائية الأخرى، دورة الدماء، دورة التنفس، دورة الخراء.. أما الفعل الأحادي فلا يعضّده شيء، إنه يقف وحيداً، مُطارداً، تعيشاً، مثل «حسين».

- أغلق هذه المروحة.

نطق «حسين»، أخيراً، رد «إسحاق» بتذمّر:

- الجو حار.

لم يكن «إسحاق» محتاجاً لأن ينظر إلى وجه «حسين» مرة أخرى ليعرف أن الأمور معه ليست بخير، وأنه سيستجيب لرغبته على الرغم ممّا قاله عن الجو الحار. يغلق المروحة ويعود ليجلس، مطلقاً زفرة قوية لينبه «حسين» إلى أن الليلة ستمر بلا طائل إن استمر الحال كما هو عليه، لكن «حسين» لم ينتبه، لا إلى المروحة التي توقفت ولا إلى عصبية الزفرة؛ فكل ما حوله كان مظلماً، الأسئلة التي تدور في ذهنه تدور مظلمة، وإجاباتها لا تضيء.

لم يعقد «حسين» هدنة مع أسئلته ليتناولوا الحبوب المخدرة، جرعاها مع المشروب البارد، وسرّعت الصودا من مفعولها، وانقضت أولى الأفكار المضحكة على «حسين»، قال:

- تصور أنني، في جزء من داخلي، ما زلت أعتقد أنك الشاب اليهودي.

ابتسم «إسحاق»:

- وأين ذهب «أبان»؟

- اختفى، ذهب إلى أمريكا ولم يعد، أو اختبأ في حضان أبيه، يحلم بأن يعود إلى مدرسة «سمعان» محمولاً فوق الرؤوس.

- أمريكا كانت أفضل بكثير من حضان أبي، لكنها كانت تحتاج إلى أمواله، أما العودة إلى «سمعان» فمستحيلة، حتى لو لم أكن قد تركت المدرسة بإرادتي معتبراً أن خروجي منها أفضل ما حدث في حياتي.

- قلت لي من قبل إن معرفتك بي أفضل ما حدث في حياتك.

قهقه «إسحاق» وكأنه فوجئ، ثم قال بلهجة من يريد أن يُرضي جميع الأطراف:

- أنت الثاني، ثاني أفضل شيء حدث في حياتي.

رد «حسين» مهاجماً، بلا داعٍ، لإثارة الكدر ليس إلا:

- قل الحقيقة، أنا بالنسبة إليك مجرد جالب للحبوب، علاقتنا لا تتجاوز هذه الجدران، لم أحدثُ حتى الآن في حياتك يا «إسحاق»، أما «سمعان» و«إسماعيل» فحدثا في حياتك، حدثا بقوة؛ لذا يتبعهما فعل، «سمعان» تكرهه و«إسماعيل» تحبه.

فوجئ «إسحاق»، وسكت، ولم يكن سكوته بسبب المفاجأة بل للتفكير، هل سيجابه الصراحة بصراحة أم لا؟

- حتى لو افترضنا أن جزءاً من كلامك صحيح، أنا لا أكره «سمعان» ولا أحب «إسماعيل».

- كما أنك لا تكرهني.

- بالضبط.

- ومع ذلك لا تحلم بقتلي؟

هز «إسحاق» رأسه وضغط على علبة المشروب البارد فصدرت منها طقطقة:

- هذه نقطة لم تفهمها للأسف يا «حسين»، الراحة التي شعرت بها في الحلم لم تكن راحة رجل تآقت نفسه إلى شيء ولم يستطع الحصول عليه فطغت رغبته حتى حلم به، أنا لم أرغب أبدًا في قتل «سمعان»، أقصد رغبة نابذة من مشاعر حقيقية، كالكرهية أو الحقد أو حتى القرف، لكن بعض الرغبات لا يوجد لها تفسير، وحتى لو أتيحت لك الفرصة لتنفيذها في الواقع فلن تفعل، رغبة شاذة تمامًا كأن تحلم بمعاشرة أمك أو أختك وتشعر بالمتعة في ذلك؛ لأن الحلم يخبرك: لا إثم في ذلك.

هذه الكلمات المتلاحقة، التي قالها «إسحاق» بصدق تام يقترب من الوقاحة، هتكت الصورة الخيالية لـ «إسحاق» في ذهن «حسين»، ولم تجعل أمامه مفرًا إلا أن يسأله:

- في الحقيقة أنا أتساءل يا «إسحاق»: إذا وصلت الأمور بيننا إلى أن أكون حدنًا سيئًا في حياتك، فهل سترغب في قتلي؟

لم يبتلع «إسحاق» ريقه، لم يرف جفنه، كانت نظراته ثابتة، كسطح معدني تدق عليه الكلمات برنين مفرع وهو يقول:

- لا تستطيع أن تصل إلى مستوى حدث سيئ في حياتي يا «حسين»؛ لأن الأمور عندما تصبح معجزة أمامي أكون أنا هو الحدث السيئ، ويمكنك أن تقرأ التقرير الطبي للفتى الإسرائيلي إن أردت أن أحضره لك، ومن دون أن تتساءل، أو تُصعب الأمور على نفسك، أستطيع قتلك إن رغبت في ذلك، فهل ترغب في ذلك؟

سقط القناع تمامًا، وتحول الشاب المرفه الذي لا يتجاوز طموحه كسب مراهنة فيمن ستخدره الحبوب أولًا إلى شاب لا يستطيع أن يتنمر به أحد، بل ويرد على التنمر بتنمر، ولدقائق ظلت أعينهما

متشابهة، اشتباكاً كاشتباك العظام، لا نجاة منه إلا بالكسر، وكان الحديث المحتد المتسارع قد جعل مفعول المخدر ينحسر قليلاً، وكلل العرق وجهيهما نتيجة مباشرة لصراع المخدر في بسط نفوذه على الدماء اليقظة، ومع توقف المروحة أصبح الوضع مأساوياً، صار الهواء ثقيلاً، مُستهلَكًا، كحوار لا يزيد على كلمتين، شهيق وزفير، يتنفسانه فيُعاد إليهما، من رئة «إسحاق» إلى رئة «حسين»، دائرة مغلقة للجنون والرغبة في الخلاص.

وبهدوء وتحت العينين الدهشتين لـ«إسحاق»، أخرج «حسين» طبنجته، ذخرها برصاصة واحدة، ووضعها بينهما على النضد الخشبي، بحيث يكون المقبض في وضع الالتقاط من الناحيتين. - نعم، أنا أرغب يا «إسحاق» في أن تطلق هذه الرصاصة على صدري.

\*\*\*

عبارة «حسين» كانت كفيلة بتجميد المشهد إلى ما لا نهاية، أو إنهائه بضحكة صاخبة من «إسحاق»، لكن كلا الشئيين لم يحدث، أخذ «إسحاق» يتأمل الطبنجة، كانت المرة الأولى التي يرى فيها سلاحاً عن قرب، وللمرة الأولى لم يخيب القرب ظنه كما خيبه في أشياء كثيرة، بل كان سبباً في أن ينمو لديه شعور تلقائي بعد أن ظن أن المشاعر التلقائية أصبحت مستحيلة مع طبيعة حياته، فهو لا يتذكر متى كانت آخر مرة شعر بالجوع لرائحة طعام شهي، أو آخر مرة شعر بالعطش عندما رأى ثلاثة مليئة بالمرطبات، أو الشهوة لرؤية امرأة عارية، كان متخماً، لديه فائض من المشاعر لأشياء فعلها في حياته من دون أن يرغبها، وعندما يحدث ما يجعله يرغبها لا يشعر بالشغف نحوها، لكنه عندما رأى الطبنجة شعر برغبة طبيعية تماماً. وليستنطق هذه الرغبة، مدّ «إسحاق» يده وتحسّس الأخمص بباطن كفه وبرويّة شديدة، بأصابعه الرقيقة أخذ يمسّد على السبطانة، دار

بها حول المسددين والزناد والمطرقة وحجرة التذخير، كان السلاح يشبه أي سلاح خلف زجاج فاترينة محل للأسلحة.. ولكن، كم من روح سلكت طريق الرصاصة وصعدت للسماء!

لم ينطق «حسين» بكلمة أخرى، قال عبارته وانتظر، ترك التوتر والكهرباء المنشورين في الصالة يتكفلان باستحضار لحظة القتل التي تأتي بالدأب إن لم يأت بها الإلهام والطبيعة، تمامًا كحظة الولادة، مهارة يجب أن يتمتع بها منفذو القصاص الأحرار، إدراك اللحظة.

و«حسين» كان يدركها، ينتظرها، ويتركها تنضج، ويستمتع برائحة نضجها، بل ويرى رأسها المطل أحيانًا، ويقود حسب رؤيته؛ فالزبون الذي يقود به بسرعة ٨٠ لا يشبه من يقود به بسرعة ١٢٠، إنه شيء أشبه بمواءمة القدر.

وقد لا تأتي اللحظة، عندئذٍ يأتي دور الدأب؛ فلحظة القتل إن ماتت قبل أن تشق عنها الغلاف سببت قتلًا أكثر مما كان ينبغي لها أن تفعل.

لكن لا دور للدأب الآن، «حسين» يشعر بسبطانة الطبنجة منتصبة، منتصبة بشدة، وعلى وشك أن تطلق رصاصة حتى لو لم يشد الزناد، ولمسة «إسحاق» تفعل في سلاحه ما لا يستطيع أن يفعله هو إلا بالقتل، تهدئ من انتصاب السبطانة وتبرّد الرصاصة، وأدرك «حسين» برهافته أن «إسحاق» قاتل من نوع مختلف، سلاح واحد وقاتلان، لا يفزعه إدراك هذا الوجود بقدر ما يجعله يشعر بالشهوة، شهوة عصبية، كأنها مسمار غليظ يُدق في رأسه، ويثبت نظراته إلى «إسحاق» وهو يجرجر الطبنجة على سطح النضد إلى ناحيته، ثم يأخذها في يده بترأخ، فيجفل، ليس خوفًا، بل كأن يدًا غريبة لمست مكانًا سرّيًا في جسده، وتعلقت عيناه بوجه «إسحاق»، كان ملونًا، متوردًا وملينًا بالحياة، وجه قاتل حقيقي أو مقتول جيد.

كانت لحظة القتل قد اكتملت، ومع اكتمالها اكتمل شيء آخر،

ولأول مرة، شهوة «حسين» الغائبة، ماء نضج واختمر وتكثف وتعكر بالنطف وأخذ يدق وينبض مع دقات قلبه المتدافعة، أغمض «حسين» عينيه وقرر ألا يفتحهما، ليرى في العتمة الحمراء لجفنيه ما بدأ يشعر به فعلياً أسفل سرتة، وكأن نصفه السفلي كله مغمور بالكامل في دوائر لحمية شهية، دوائر رطبة تنقبض وتنبسط بل وتخور بنعومة.

ولم ير «حسين» «إسحاق» وهو يصوب، لكن عندما انطلقت الرصاصة كان «حسين» راضياً، ومتعته كاملة، واللذة التي حصل عليها لم يسبق أن ذاقها من قبل في حياته.



## «إسماعيل» - الكاتب

يوم سلام وأيام حرب، و«إيلات» لا تنفد ذخيرتها، ولا حيلها، لكن عقدتي عصية، تستدعي اليدين والأسنان، استدعتني بعد يومين من طردي، واستدعتني بعدها عدة مرات أيضًا، حادثني طويلًا ثم لقنا الصمت أطول مما تحدثنا، تكلمنا كثيرًا حول «سمعان» والمدرسة بالتفصيل، ليس هناك موضوع أنسب بين اثنين يضمران معركة مقبلة، طلبت مني نصوصًا وصححتها، احتفظت ببعضها وأعادت إليّ البعض الآخر، وقال لي «جبر» ذات مرة إن النصوص التي تحتفظ بها تعطرها وتضعها في صندوق حليها الخاص.

بعد أيام، جاءني منها طلب بنص جديد، كان هذا في تمام التاسعة صباحًا، جاء «جبر» بالطبق الخزفي المزخرف، وعليه ورقة، ليست فارغة، بها رسالة بخط «إيلات» الملتف حول نفسه مثل يرقات، لكن الخط هذه المرة كان مفكوكًا، كشعر غجرية مسدته بالدهن والعنبر ثم تركته حرًا، ومكتوبًا به جملة واحدة: «أريد نصًا إيروتيكيًا». كان هذا حقيقياً تمامًا، لا أحتاج أن أفرك عيني لأراه، كل «ألف» كانت مرسومة على هيئة عضو ذكرى في المرحلة الأخيرة من تهيج، يقذف منياً كفوهة بركان، حمماً منوية بعضها يسيل ببطء على جلد الحرف المشكول، وبعضها يطير عاليًا كأضواء المهرجانات، أربعة براكين متوهجة عصية على الكبح.

ابتلعت ريقى واحمر وجهي خجلًا، لا بُدَّ أن «جبر» لاحظ الرسم، حتى لو لم يقرأ، وهذا مشكوك فيه، فالرسم كافٍ ليفهم، سألته:

- ما الذي تنتظره يا سيد «جبر»؟

- الكلمات يا بني، الكلمات التي ستكتبها.

- هذا النص يحتاج إلى وقت، السيدة تعرف ذلك.

- حسناً يا بني، المهم أن تكتبه لها كما تريد.

- اجلس يا عم «جبر»، ضع هذا الطبق، اجلس وأخبرني، متى كانت آخر مرة وظّفتُم فيها كاتبًا مثلي؟  
- لا أتذكر.

- لا تتذكر أم لا تريد أن تتحدث يا عم «جبر»؟

تنهد وقال:

- لقد تحدثت بما فيه الكفاية من قبل، نصحتك في بداية الأمر، أتذكر؟ قلت لك إنها امرأة ملعونة، قلت لك ما يكفي لإفزاع هذا الجدار لينخلع من مكانه وليهرع إلى السور ويحطمه وينطلق إلى مكان لا نجده فيه أبدًا، لكنك اعتمدت على قوة قلبك، ورفضت نصيحتي، بل أخبرت السيدة بتفاصيل أحاديث دارت بيننا، وعابرتها بها، وهذا كثيرٌ صدّقني، كثيرٌ جدًّا على أن أظل جالسًا معك هنا ولا أشتمك أو أحطم هذ الطبق على رأسك، وكل ما في الأمر أنني لم أعد أريد أن أسدي لك النصيح، لم أعد أرغب.

- ولماذا لا تشتمني أو تحطم الطبق على رأسي؟

- شيء ما يأخذ بيدي كلما فكرت في ذلك، أقول إنك معذور، فلو كنت في سنك وبرأسي مثل ما برأسك من قدرة على إثارة إعجاب السيدة «إيلات» لوثقت بقلبي كما فعلت أنت، بل وأكثر.

- إذاً ساعدني، أريد أن أعرف كل شيء عنها، للمرة الأخيرة يا عم «جبر»، للمرة الأخيرة أرجوك أن تتحدث.

- عن أي شيء تريدني أن أتحدث؟ عن الطريقة الجيدة التي تأسر بها قلبها وتجعلها متيِّمة بك؟

- وهل تستطيع؟

- كنت، كنت أستطيع قبل سبع سنوات من الآن، أستطيع أن

أخبرك عن نوع الورود التي تحبها، والطعام المفضّل إليها، واللون الذي تعشقه للأشياء، عن البلد الذي تحب أن تقضي فيه شهر العسل، لقد ربيت تلك الفتاة على يدي يا «إسماعيل»، لكني لم أعد أعرفها، يمكنني أن أسرد لك عنها حتى الغد حقائق تبدأ من أول وجع دب في أسنانها اللبنية، متى كان وكيف عالجناه، ولا تنتهي عند أولى تفاصيل دورتها الشهرية، ولكن ما قيمة الحقائق بعد أن فسد كل شيء؟ فيما مضى، كنت أشعر أننا أحلام بالنسبة إليها، كنا نخشى أن نؤلمها مخافة أن تستيقظ منا فننتهي إلى العدم، وكثيراً ما كانت تطلب مجالستي لتقرأ لي الشعر والروايات، ولا تمكث في غرفتها أكثر من ساعة، تروح وتجيء، في الشتاء تبث الدفء بحركتها، وفي الصيف كانت ندى في كل مكان تتحرك فيه وتتكلم، أما الآن، فلقد صرنا أفكاراً سيئة بالنسبة للسيدة «إيلات» يا «إسماعيل»، مجرد مزاج متكدر بعد وجبة ثقيلة الهضم، أو سعلة بعد دواء يحرق صدرها، لا يعني هذا أنها تحتقرنا، بل أحياناً أظن أنها تريد أن تتناولنا بجدية لكننا لم نعد نصلح لهذا، كأننا نزلق من يدها، أو سقطنا من مدخنة مدفأة غرفة معيشتها وهي مدفأة، لم نحترق ولم نرحم هواء غرفتها من الرماد.

- لكنني أشعر الآن أنني قريب جداً منها، أقصد قبل أن ترسل لي هذه الورقة، هذه الورقة وسخريتها وطلباتها الشاذة تخبرني بدأب أنها لم تحبني بعد، لكنني ألمس قلبها، مثل طفل صغير يقفز ويقفز، لكنه ذات يوم سيمد يده ويطبع كل أصابع يده في السقف العالي الأبيض.

- اسمع كلامي يا «إسماعيل»، أنت لا تفهم، ولو ظللت هنا أعواماً، أقصى ما قد يصل إليه شخص ما في قلب «إيلات» أن يكون فكرة انتحارية.

- بماذا تنصحي يا عم «جبر»؟

- بماذا أنصحك؟ أنصحك بأبعد الأمور عن ذهنك، أن تخبرها بحبك لها ما دمت متيقناً أنها لا تحبك، فلئن تبذك خير من أن تتحول إلى فكرة انتحارية في قلبها، عندئذ لا تلومن إلا نفسك.. أخبرها بحبك يا «إسماعيل»، ليس كلمات تكتبها ولا إشارة، أخبرها بكل ما في قلبك من ذل، هذا هو الطريق الوحيد للخروج من القصر بسلام، عبر قلبها؛ لأن قلبها مفتوح على الفراغ يا بني.

\*\*\*





عندما أفكر، لماذا طلبت مني «إيلات» هذه النصوص، للوهلة الأولى، أعترف أنني ظننت أنها رغبة من سيدة وحيدة لا تحب أن تتناول الرجال ولا أن يتناولها الرجال إلا عبر قفاز من كلمات حمراء، لكن الرغبة الحسية لا تفسر امرأة مثلها، الأمر أكبر من ذلك، ربما كانت تختبر قدرتي على كتابة نص كهذا، والقدرة تشمل الاستطاعة بما تحمله كلمة القدرة من أبعاد أخلاقية، صمودي أمام الضغط والإغراء؛ فالكلمات تخلع ملابسها كثيرًا، والكلمات العارية لا يصح أن تجلس في مجلس الحكماء، و«إيلات» كانت الباب الوحيد إلى عالم لم أستطع الصمود حتى أراه، ولكن لماذا؟ وما التالي؟ لا يسعني إلا التفكير في ذلك، ما الذي كانت ستؤول إليه الأمور لو ظلت على إصراري لا ألين، ولم أعطها تلك النصوص؟ أفكر أنني فقدت العزاء الوحيد في حكايتي، وأن وجودي بجانبها كان من الممكن أن يطول للأبد لو ظلت في لعبة المقاومة مثابرًا، مستمرًا في الحياة بالقصر من دون العودة إلى «سمعان» و«د» و«حسين».

مكثت ثلاثة أيام في غرفتي لا أخرج منها إلا لأحضر العشاء مع «جبر» في جو مأمي، في اليوم الرابع، وبعد الظهر بقليل، سمعت خطوات تهبط الدرج الخشي المؤدي إلى البدروم، حسبتها خطوات «جبر» أو أحد خدم مطبخ القصر فلم أرفع رأسي، أصبحت الخطوات خلفي ثم توقفت، أحسست بتنفس شخص مألوف وإن كان وجوده في هذا المكان غريبًا، وكالشمس عندما تنشر أشعتها على السائرين في صباح شتائي انتشر العطر الأخاذ تدريجيًا، لم أرفع رأسي ولم أقم، لم تنطق بكلمة ولم تقترب أكثر مما اقتربت، لو اقتربت لاحتقرت، ولو بقيت طويلًا لاحتقرت أيضًا، لكنني شعرت بلفح خافت على عنقي من الخلف، دافئ مبلل مثل لعقة من لسان شيطان عابث ومرح، ثم سمعت خطواتها وهي تبتعد وتبعد الدرج تاركة وجودها المشع

وعطرها يخفتان وداخلي يعمه الظلام والبرد، ثم وجدت نفسي جالسًا مستيقظًا على سريرى، وكان الليل ساجيًا حول القصر، كان حلمًا ليس إلا.

بقيت جالسًا لدقائق أحاول السيطرة على نبضي وحمضية دمائي، في أنفي حديقة عطرها وفي عيني ألوان ثوبها التي عكستها الشمس على الجدران، قمت مترنحًا، عممت وجهي ورأسي بالماء، دققتُ على الحائط بقبضتي، قفزت محاولاً بلوغ سقف غرفة البدروم العالية، ولمّا ظلت مشاعري متأججة كما هي وضعت إبهام يدي اليمنى بين الباب وإطاره وأغلقت الباب عليها، لم أصرخ ولم أتأوه وإن طفرت الدموع من عيني، وكانت الدموع مثل قيء محتبس، تنتظر أن أضع أصابعي في حلقي لتنهمر.

تورّمت إصبعي قبل أن يطلع الصباح، في الصباح صعدت إلى المطبخ قبل مجيء الخدم، جلبت لنفسي إناءً وملأته بالثلج وغمست يدي فيه، وانتظرت أن يأتي «جبر»، جاء الخدم وانتشروا في المطبخ، وبدؤوا يومهم الصاخب، لكن «جبر» لم يظهر، كلما اهتز الباب رفعت بصري متوقعًا أن يكون خلفه، حاملاً خبرًا بأن «إيلات» تطلب رؤيتي، بوحى زيارتها لي بالأمس في الحلم، لكني لم أكن واثقًا، خفتُ أن يختلط الحنين بالنبوءة فيفسد عليّ التوقع، لكن الحنين كثيرًا ما يحل محل النبوءة، إنه يستدعي النبوءة، وكأنه يخط في حياتي كلماتٍ لم يكن مقدراً لها أن تُكتب.

ثم ظهر «جبر»، أخيرًا، بعد أن صرّت تعيشًا بشكل ملحوظ، وكأنه أراد أن يخفف من تعاسي، قال مهنئًا:

- السيدة «إيلات» أمرت السائق بتجهيز نفسه للذهاب بك إلى المدرسة.

إن كان لي أن أكره «جبر» في أي لحظة فلن تكون سوى هذه اللحظة.

\*\*\*

مكثت بقية الصباح متكدرًا، واكتمل كدري قبل الظهرية بقليل عندما عاد «جبر» ليخبرني أن السائق ينتظرنني، فطلبت منه أن يستأذن لي عند السيدة «إيلات»..

وجدتها تنتظرنني خلف الباب، قالت بمجرد أن دخلت:

- سمحت لك بالخروج يا «إسماعيل»، وأعلم أنك لن تعود.

- ولماذا سمحت لي إدا؟

ابتسمت ولم تُجب، كان في يدها دسته من الأقلام ذات الحبر السائل، الماركة المفضلة لديها (zebra) محزمة بشريط شعر نسائي، مدت يدها بها، وهزتها لتحثني على أخذها:

- هذه هدية الوداع مني.

عندما مددت يدي والتقطتها واحتويتها بأصابعي، ابتسمت «إيلات» برقة وقالت:

- كُن هنيئًا يا «إسماعيل»، صحيح أن هذه الأقلام مستعملة، لكنها خاصة بي للدرجة التي تجعلني أرجو منك أن تحفظها بين عصبك وجلدك، لا تُهدّها لأحد ولا يمسها من جسدك غير أصابعك، ولو فرغت لا تُلقيها.

لم أخف فرحتي، كانت الأقلام الحقيقية والأوراق بضاعة نفيسة، قالت محذرة عندما لاحظت انفراج ملامحي:

- لا تهدر الهدية القيمة في كتابة رواية عني وعنك.

لم يبدُ الأمر حينها كأنها تريد أن تقول: اكتب رواية عني وعنك، فلا يوجد موضوع يمكنه أن يجعل «إيلات» على طبيعتها مثل الكتابة، لا أصناف الطعام الفاخرة ولا الموسيقى ولا حتى مآسيها الشخصية.

وعندما رأت حيرتي قالت مؤكدة:

- اكتب شيئًا حقيقيًا يا «إسماعيل»، ليس عني، ليس عنك، ولا حتى

عن جدك الذي تحبه.

- عن أي شيء سأكتب إذا إن لم أكتب عمّن أحبهم؟

- لا أحد يستطيع أن يملي على الكاتب موضوعه، ولا الكاتب نفسه، لكن الإغراء شديد يا «إسماعيل»، أن أكون محبوبتك وأن تكتب رواية عني، فلا شيء أجمل من كتابة رواية إلا أن تكتب عنك رواية، لكني لا أريد ذلك.

خشيت أن يؤول الحوار إلى دائرة مفرغة إن سألتها: وماذا تريدين إذا؟ فسألتها:

- هل لي أن أعرف سرها؟

- سر ماذا؟

- الأقلام.

- الأقلام؟ نعم، سأخبرك بسرها، لم أعطيها لك إلا لأخبرك عنها، هذا السر الذي أتمنى أن تحفظه إلى أن يموت معك، السر الذي أثقلني، لكني أعلم أنك ستحفظه، فأنت رجل حقيقي يا «إسماعيل»، أليس كذلك؟

ابتلعت «إيلات» ريقًا ثقيلًا لا يكاد يلحظ مدى ثقله إلا عينا محب مثلي، كانت خائفة من إخباري، ثم حسمت أمرها أخيرًا بعد صمت: - هذه الأقلام بين يديك رأت مني ما لم يرّه ولن يراه رجل، لقد كتبتُ بها في كل أجزاء جسدي يا «إسماعيل»، في كل مكان بجسدي، حسب مزاجي ووضعي: وجهي وأصابعي، ومتجردة من كل شيء في حوض الاستحمام، متجردة حرفيًا، وفي أشد مواضعي حميمة.

ثم سكنت ونظرت إلى وجهي وابتلعت ريقًا أثقل عندما لاحظت اتساع عيني من الدهشة، وكانت عيناها مبتلتين وصوتها أشد خوفًا وهي تستطرد:

- لا أفهم، لكني أشعر بنفسي حينها، أشعر كثيرًا، الكتابة رجّلي

الأوحد، وعندما أكتب أنتشي حرفيًا، أنتشي بالكتابة.

- «إيلات»!

ناديتها هامسًا، وبخشوع، لكن الكلمات في داخلي، عجيجها، كان يتدرج من «التي نور» إلى «الصراخ».

- الكتابة على طين الجسد تشبه الكتابة المسمارية، ساحرة حتى لو لم تكن تفهمها، وهذه الأقلام في يدك، سوداء أو خضراء، هما اللونان اللذان أحبهما، لا أحب اللون الأزرق، أستعمل أقلامًا سائلة، أهون من تلك الجافة ذات البلية الدوارة، جربتها مرة، بقلم أزرق، لكي لا أكره ألواني، إنه ذلك القلم الأزرق، مؤلم جدًا، جعلني أكره الأزرق أكثر.

- هذا مخيف يا «إيلات».

- الأمر مخيف معي أكثر يا «إسماعيل»؛ فأنا مثل صفحة بيضاء، ناصعة، هذه الخادمة القذرة أخبرت «جبر»، دخلت مرة ورأت جسدي الممهور بالكلمات، فصرخت.

- هذا هو السر إذًا؟

- نعم، هذا هو السر في كل شيء، هل أدركت الآن لماذا طلبت منك هذه النصوص؟ هذا تأويل ما رغبت فيه منك دائمًا، إنها عشرة أقلام، كل قلم منها ياصبع منك، أرني أصابعك، نعم، اشرعها في الهواء أمامي، بالضبط.

مست أصابعي وهي تجذبها لترتبها في الهواء فانشفط قلبي بعيدًا بعيدًا ولم أستعده إلا بعد لحظات وأنا أسمعها تهمس:

- يا إلهي، ما بال هذه الإصبع المصابة؟

- حادثة بسيطة، دعك مني الآن، ولتحدث في الأهم.

ابتسمت عندئذ ابتسامة خافتة شهية:

- قلنا الذي لا يُقال يا «إسماعيل»، فما الذي يمكن أن يقال بعده؟

- «إيلات»، هل أخبرتِ أحدًا بهذا قبلي؟

- أنت مجنون، لا أستطيع أبدًا، لا أستطيع، لقد انتظرتُ طويلًا لأجد من يليق بإخباره، وهو أنت يا «إسماعيل»، أنت من اخترته. ولهذا أريد أن أطلب منك شيئًا.

- نعم يا «إسماعيل»؟

- لا تخبري أحدًا بعدي بذلك، أعطيني هذه اللحظة من حياتك، أريد أن أمتلكها للأبد، أن أستعيدّها مرارًا، أتصورها، وألوكها بين أضراس قلبي الطاحنة، وليمة لا تنتهي.

نظرتُ إلى عينيها حينئذ، اللتين كان بوسعهما أن تقتلا رجلًا بالغًا بنظراتهما، وتذكرت حلمي بها في هذا الصباح، لو أن شخصًا آخر، رجلًا أو امرأة، أخبرني بما أخبرتني به لتوّي لاعتبرته شذوذًا، جنونًا على الأقل، مخزيًا في مجمله، لكن لأنها هي من تخبرني، يصبح السيئ جيدًا، بل أكثر من جيد، مثاليًا، علامة على الاكتمال.

قالت بصوت انتقل إلى الهمس الكامل:

- هذه اللحظة لا أريدها أن تظل فارغة منك يا «إسماعيل»، ما تتصوره اكتبه، اجلس على هذه المنضدة وكتب، أعدك أن ما تكتبه لي سأكتبه لك، هناك، سأتجرد هذا المساء، هنا في هذه الغرفة، وأضع عطوري لك، وأكتب النصوص التي ستكتبها الآن، مرارًا وتكرارًا على جلدي الأبيض حتى تشربني حروفك، تشرب بياضي وأشرب من سوادها.

- أريد هذه النصوص أن تظل في قلبي يا «إيلات»، أريدها أن تذوب في دمي.

- اكتبها يا مجنون، هذه النصوص ستقتلك وتقتلني.

لكن هذا كله كان كثيرًا على قلبي، وبدأت أرتعد، أشعر أن أعضائي لم تعد أعضائي، وأن رأسي صغير بين كتفي، وأني أشهق بين

جبلين، أشهق وأجري، أفر من نفسي إليها.

- أنا تعيس جدًا يا «إيلات»، أريد أن أبكي ولا أستطيع.

- الكتابة كالبكاء يا «إسماعيل»، كالمطر، لا بُدَّ أن ترتعدك لتهداً، لا بُدَّ أن تدق الأسطح بقطراتها القوية وتشق حلق المزاريب لتدفئك، غير ذلك ستظل مثقلًا، باردًا، بلا سبب، بلا جدوى، اكتب يا «إسماعيل»، اكتب.

كانت حزمة الأقلام قد سقطت من يدي وأنا أرتعد، وانحيت لألتقطها واكتشفت عندئذ أنني أبكي، ليس من عيني، بل من ثقوب وجهي كلها، انهمر البكاء وبلل أصابعي وجعل الأقلام تنزلق مني، يايغاز من إصبعي المصابة، ويايغاز من ضعف قلبي وعشقي، فقد صارت حزمة الأقلام الآن في خيالي جزءًا منها، من جسدها، ولم يكن بإمكانني أن أمس جسدها دون أن ترتعد يداي، لم يكن باستطاعتي أن أرفع حزمة الأقلام إلا بعد أن أنزل على ركبتي تخشعًا.

ولم أعد أعرف، هل أبكي أم أغرق! فماء الدموع المالح صار يقتحم أنفي وفمي، يخرج مني ويعود إلي، كأنه استمد الحياة من حزني، وصار كائنًا كاملاً، وصرت أنا مرادفه، مرادف العجز واليأس والحزن والرغبة المستحيلة، وحين أغشي عليّ لم أسقط على وجهي ولا جنبي ولا ظهري، سقطت في دموعي وملحي وأنفاسي، وكانت الأقلام هي القشة التي تعلقت بها يدي في عرض العدم الذي التفّ بي.

\*\*\*

وكانت المرة الثانية التي حلمت فيها بالرحلة، لم أستيقظ من الحلم في الحلم تحت الشجرة، بل كنت يقظاً أسيّر في الصحراء وكان لـ«إيلات» وجود طاعٍ في حلمي، وبدخلي إدراك أن في معنى اسمها حل لغز رحلتي ونهايتها، وسبيل عشوري على المثل العجيب المندثر في رمال الصحراء أسفل مني، الذي يربط بين علو النخلة وطيب الثمرة وقوة سعفها، وكانت فيه صفة تغفر لصفتين، أو صفتان تغفر لصفة، بشرط أن الصفة الجيدة ليست هي الثمرة الطيبة، عندئذ استيقظت في الحقيقة، وعندما استيقظت وجدت نفسي في القصر، بينما قلبي منطوٍ على لوعة آخر لقاء بيننا.

قال لي «جبر» إنني نمت يومين، جزءًا من نهار، وليلاً ونهارًا كاملين.

- انتظرك السائق كثيرًا يا بني، ولما طال انتظاره أرسل في استعجالك، بحثت عنك في البدروم فلم أجذك، قلت لعلك لا تزال عند السيدة، لكنها لم تكن في غرفتها، ثم سمعتها تحدث السائق بنفسها في الحديقة، رأيته من نافذة غرفة المعيشة، درتُ وخرجت للحديقة لأسألها عنك فلم أجدها ولم أجد السائق، وعندما عدت من الحديقة عبر البدروم وجدتُك نائمًا هنا، حاولت إيقاظك، فرجوتني أن أتركك لأنك متعب، كان جسدك محمومًا يا بني، كنت ساخناً كسيخ الشيء، واضطرت لإعطائك دواءً خافضاً للحرارة فحَفَّت ارتعادتك، السيدة «إيلات» سألت عنك عدة مرات، وزارتك ليلة أمس، وهي من أرسلت السائق لإحضار الدواء بعد ذلك، وأوصتني أن أسهر إلى جوارك وألا أتركك أبدًا، لم أرها قلقة بهذا الشكل منذ وقت بعيد.

استمر «جبر» في الكلام، خشيت أن أسأله عمّا لا أتذكره، كيف أفقت من غشيتي في غرفة «إيلات»، وكيف جئت إلى فراشي، ومررت بالمطبخ في وضوح النهار أمام الخدم من دون أن يلاحظوني!

- عمّ تبحث؟ لعلك جائع، الخدم انصرفوا مبكرين اليوم، اليوم

الخميس، ولكن اطمئن، بي من القوة ما يجعلني قادرًا على أن أعد لك طعامًا جيدًا، سأتركك حتى تغتسل وترتدي ملابس جديدة بدلًا من تلك المبللة بالعرق.

قبل أن ينصرف سألته:

- عم «جبر»، ألم يكن إلى جوارى هنا حزمة أقلام؟

- نعم، خبأتها لك في العلبة المعدنية، خشيت أن يراها أحد الخدم فيأخذها، هذه الأقلام غالية، هيا انهض.

لكني لم أقم على الفور، قمت بعد قليل، شاعرًا بخفة لا حد لها وكأنني تناولت السحاب على طبق غذائي، وفي ريقى طعم الموز والزيتون من نكهة الدواء، اغتسلت بماء فاتر، اغتسلت جيدًا، وقصصت أظافري، حتى إصبعي المصابة، تحايلت على ألمها حتى قصصت ظفرها الناق، تحت الماء شرعت أصابعي كما فعلت «إيلات» بها، وتذكرت لمستها وانخطاف قلبي، لا لم أتذكرها، بل تمثلتها، وانخطف قلبي إلى بُعد أستطيع أن أستعيده منه هذه المرة، وعندما عدت إلى جسدي وجدتني لا أزال تحت الماء.

بعد أن تجففت، ارتديت ملابس خفيفة ثم رقدت على ظهري، أتأمل إصبعي المصابة، بي من الخفة والطيش ما يلون الأشياء في عيني، منذ متى لم أقص أظافري؟ لا أتذكر، في طفولتي عند البيارات كنت أقرض أظافري بأسناني، وأتخيلها كما يحلو لي، أو كما يحلو لها أن تتخفى، أحيانًا تشبه حيوانات، كلابًا وذئبًا، كلب «بولدوج» غبيًا متهدل الشدقين، أو كلب حراسة ضامر البطن، أحيانًا تشبه أسماكًا، إبهامي المصابة قبل أن أقص ظفرها كانت تشبه فممة نهش الحوت الأزرق جانبًا منها.

الآن كبرت وامتلاّت بالذكريات، صارت أصابعي تشبه أشخاصًا مألوفين لي بشدة، لكني لم أرهم من قبل، ربما رأيتهم في حلم، أو فقدت الذاكرة وأستعيدها الآن على هيئة خيالات، ربما كانت أصابعي

أشخاصًا متنكرين، مختبئين بوجوههم تحت الأظافر، أصدقاء قدامى مخلصين، أقارب طيبين، أو زوجات من حيوات سابقة، أو ربما أحزانًا انعقدت كالدمل فواستها العظام بالسَّلَامِيَّات لتتشَمَّر رائحة الفرح وهي تقبض على الأشياء المبهجة، من قال إن الوجوه فقط هي ما تبتهج؟ الأصابع كلها وجوه مبتهجة، حتى عندما قصصت أظافرها الآن بالتساوي، تبدو كما يبدو من أعلى طلاب مدرسة ثانوية في طابور الصباح، مهذبين ومتجاورين وصامتين على الرغم ممَّا يحملونه بداخلهم من فوضى وصخب، والآن بعد أن اغتسلوا وتجهزوا بجدية، أشعر بهم ناضجين، مهمومين، يدور بينهم حديث لا أسمعه، وتربطهم ألفة لم أعتد عليها..

كانت شفاطات المطبخ تمتص روائح الطهي وتلقيه إلى الجهة القبلية، حيث يقع باب البدروم ذو الشَّرَّاعة العالية، ومن الشَّرَّاعة العالية كانت الروائح الشهية تعود، يعود بها هواء قديم للغاية، قديم من قبل أن تتغير الاتجاهات ويصبح الجنوب شمالًا والشرق غربًا، هواء غفا لقرون من الزمان قبل أن تبدل الأرض، ليستيقظ الآن، والآن فقط، من أجل أن يُشبع قلب عاشق يعرف جيدًا طريقه، ويعرف أدواته أين حُبَّت، عشرة أقلام محزمة بشريط شعر نسائي في علبة معدنية، يكتب كل ما يشتهي قلب سيدة يهب عليها الهواء نفسه، يهب على معشوقة تتمطى في سعادة وتستعد لاحتضان الرؤى التي تصنعها في المطلق، حروف اثالث على قلب عاشقها الأخير.

\*\*\*

وكان الأكل باردًا عندما تناولته، فقد مكثت ثلاث ساعات وأنا أكتب، قام «جبر» بتسخين الطعام عدة مرات، ونادى عليَّ عدة مرات، ثم اضطر لأن يأكل وحده، ولم يَتم على الرغم من أنه التهم طبقين من المكرونة، قال لي معتذرًا بمجرد أن رأني داخلًا عليه:  
- لم أكن جائعًا، لكني أكلت.

ثم نظر إلى وجهي كأنه لاحظ تغيرًا أو يبحث عن سر غريب، وقال:

- هذه الليلة غريبة، لأول مرة منذ أعوام تحمل كل ملعقة طعم قُبلة سُلِّمَ بيتنا التي حكيت لك عنها، كل ملعقة بلا استثناء، حتى تخيلت أن الطعم لن يفارقني ولو وضعت الملعقة فارغة في فمي، كدت أفعل، لكنني خشيت أن أفقد السحر.

وعلى الرغم من السحر فإنه اندهش عندما شرعت الأوراق في وجهه وقلت له بثقة إن السيدة «إيلات» تنتظرها، قال لي إنها لا بد نائمة وستنزعج، لكن ثقة عيني هزمت كل تردد لديه، وعندما عاد من هناك كانت الدهشة تملأ عينيه ويده فارغة وقلبه طائش لدرجة أنه وضع الطعام لي باردًا ثم اعتذر عن ذلك بعد أن شرعت في الأكل، كانت المرة الثانية التي يعتذر لي فيها «جبر» في ليلة واحدة، هذا يستحق أن أتناول طعامًا نيئًا فضلًا عن كونه باردًا.

لكنه كان ألد طعام تناولته منذ جئت إلى القصر، وكانت كل كلمات «جبر» مضحكة، ما أراد أن يضحكني به، وما أراد أن يريني به مدى حزنه، كله كان مضحكًا، حتى عندما بكى وهو يحكي لي كيف فارق محبوبة قُبلة الدرج، ضحكت، لكنه لم يغضب، واستمر في الحديث.

- وما الذي كان باستطاعتي أن أفعل أكثر مما فعلته يا بني؟ عملت وثابرت حتى أكرمني الله بالسيد فوظفني عنده، وبمجرد أن ادخرت ثمن الذهب، تقدمتُ لها فرفضني أبوها بحجة أن ابنته لا تعمل في خدمة البيوت، اعتبرتها إهانة وغادرت، لكنني في العام التالي كنت قد اشتريتُ شقة في «كامب شيزار» وعدت فرفضني للمرة الثانية بدعوى أن ابنته لن تزوج خادمًا يبيت تحت أقدام أسياده، شتمته وشتمني وافترقنا، وبعد أسبوع واحد تزوجت ابن عطار شهير.

- ولم تزوج أنت؟

- لا، سرقني السكينة كما يقولون، ولم أجد بي ميلًا للنساء، كانت امرأة حياتي.

- على من تلقي اللوم في فراقكما يا عم «جبر»؟

- عليها، بعد هذه الأعوام كلها ألقى اللوم عليها؛ لأنها وقفت معي ضد أبيها، وأوهمتني أن إصراري على الحفاظ على وظيفتي ممكن مع الحفاظ على جها لي.

- لم تسأل عنها؟! ليس معك رقم تليفون تتصل به في أنصاف الليالي ثم تغلق السماعه بعد أن يرد ابنها البالغ عليك، أو تحصل على عنوان بيتها لتسافر من هنا إلى الإسكندرية فقط لتقف تحت شرفتها، تصيد لحظة خروجها فلا تخرج إلا ابنتها التي تهيج أشجانك القديمة من شدة ما تشبه أمها؟

قهقهه «جبر» مندهشاً:

- لا لا، ولا شيء من هذا، أنا رجل عاقل.

- رجل عاقل يكتفي من حب عمره كله بسرقة القبلات من أطباق المكرونة بعد أن ينصرف الخدم!

نظر إليّ معاتباً عندئذ:

- لم أكن متبتلاً طيلة هذا الوقت كله يا «إسماعيل»، كانت لي غزوات جميلة، تزوجت مرتين عرفياً، الزيجة الأولى من امرأة مطلقة والثانية امرأة قبيحة لدرجة أنها لم تجد أحداً يتزوجها.

- هذه جولة لجمع الحسنات في عالم النساء الكسيرات وليست غزوات يا عم «جبر».

- ومع ذلك أنستني هذه الجولة قبلة الدرج يا «إسماعيل»، ولو لشهور.

- أيهما أمتعتك وأنستك قبلة الدرج؟

- كلتاها أمتعتني يا «إسماعيل».

- حتى القبيحة؟

- لا توجد امرأة قبيحة يا بني، ولكن يوجد رجل لا يبصر، كلتاها

أمتعتني، لكني لم أنس قبلة الدرج.

- متى كانت آخر مرة مسست فيها امرأة؟

- هذا سؤال خبيث.

شرعت الشوكة تجاهه وكأنني سأطعنه بها إن لم يستجِب لتهديدي:

- اعترف يا عم «جبر».

رفع ذراعيه مستسلماً وهو يقهقه:

- سأعترف، سأعترف.. آخر غزوة غير شرعية تقريباً كانت بعد طلاق

السيدة «إيلات»، الجو هنا كان خانقاً باستمرار والرجل منا كما تعرف يحتاج إلى امرأة يفضض لها.

ثم شرد ببصره:

- لن تصدقني إن قلت لك إن الوضع حينها لم يكن ليتحسن

إلا بالتحاق السيدة «إيلات» بمدرسة «سمعان»، صحيح أن هناك نوبات، لكنها تبقى مجرد نوبات، من بعد هذه المرة اختزلت حاجتي إلى النساء في المكرونة والسجائر.

ولدقائق ظل الحديث مستمراً، بل والضحكات، وسألته أسئلة أخرى وأجابني بما لا أذكره، ثم خفق قلبي خفقة مفاجئة وشعرت بطنين في أذني وهبط عليّ ثقلٌ مباغت، وكأن الهواء توقف عن إعطائي ما أتففس به، شعرت بقطرة عرق تزحف ببطء على ظهري، وكنت أحتاج إلى جهد العالم لأتماسك لأسأله دون أن أجعله يلاحظ نبرة صوتي التي تغيرت:

- هل تقول إن «إيلات» درست في مدرسة الأستاذ «سمعان» يا عم

«جبر»؟

\*\*\*

كم مرة أتى ذكر مدرسة الأستاذ «سمعان» في حديث بيني وبينها، وما من مرة نوهت «إيلات» فيها بمعرفتها بتفصيلة من تفاصيل

المدرسة، لا الجغرافيا ولا التاريخ، حتى إنها طلبت مني ذات مرة أن أصف لها الأستاذ «سمعان» وصفًا دقيقًا كأنها لم تره من قبل مطلقًا!

أتى التذكُّر بطيئًا، بطيئًا جدًّا، وخافتًا في البداية كصوت الدماء في العروق عند قياس الضغط، ثم انهمرت التفاصيل والرؤى وعلاني الصخب بشكل لم أعد أستطيع معه أن أحدد بالضبط نوع المؤامرة التي تعرضتُ لها، هل أرسلني «سمعان» إلى القصر عن قصد، إلى «إيلات» لاستكمال تقويمي بعد أن يؤس مني، أم أنه مجرد اختيار آخر، اختبار فشلت فيه أمام نفسي بعد أن كتبت إلى «إيلات» نصوصها، كل ما طلبته؟ (لا بد أنك عزيز جدًّا وغالٍ عند الأستاذ «سمعان»، لماذا؟! لأنه أرسلك إلى هنا، المكان الأفضل، لماذا الأفضل؟ ما هذا السؤال الغريب؟ لأنني هنا طبعًا، «إيلات»).

ألم تقل ذلك لي؟ ألم يدر بيني وبينها حوار مشابه؟

وكان «جبر» في منتصف حديثه - إجابته - فضاعت مني تفاصيل قالها وحكاية قديمة:

- السبب هو السيد «حسن»، ظل مُصرًّا على أن طريقة أمها في تربيته هي السبب في كل ما حدث لها من مطبات بحياتها، تنشئتها على قراءة كتب الشعر والأدب التي جعلتها تعيش في عالم من أحلام غير قابلة للتحقق، قصص الأرانب وحكايات الجان والرومانسيات التافهة التي أفسدت أخلاقها، وجعلت تقبلها للعالم الحقيقي مستحيلًا، بعد طلاق «إيلات» وحادثه انتحارها، أصر أبوها على إلحاقها بمدرسة الأستاذ «سمعان الشنقيطي»، كطريقة من طرق العلاج، طريقة أقل مهانة من زيارات الأطباء النفسيين، انغمست «إيلات» سريعًا في حياة المدرسة، وتفوّقت بشكل جعل «سمعان» يطلبها للتدريس براتب محترم بعد أن تخرجت، ولأنها لا تحتاج إلى المال رفضت العرض وإن بقيت صلتها بـ«سمعان» جيدة، وبينهما

نقاشات طويلة، وكما سمعتُ ذات مرة فإنها تُولف كتابًا سيجيزه الأستاذ «سمعان» للتدريس في المدرسة.

كتاب! قلت في نفسي ساخرًا: نعم كتاب في المجاز على الطريقة العصرية، الباب الأهم فيه «حالة «إسماعيل» - حالة مستعصية تم علاجها بالنصوص الإيروتيكية.

- لكنك لم تخبرني بذلك من قبل يا عم «جبر»؟ لم تُشر إليه حتى؟

- لم تأت مناسبة لأخبرك به يا بني فقط، لم أتعمد ذلك.

في داخلي، اشتبكت عشرات الشكوك الخلّاقة، وفي نقطة التقاء كل شك بآخر كان وجه «جبر» المستر كقوّد عصري من الدرجة الممتازة، مساعد ماتادور محترف عرقب ظهري بأسهمة الملونة القاسية حتى أنهكني، بل واستطاع التبدّل بين أدوار المساعدين الستة في حلبة المصارعة بمهارة، ليأتي بي في النهاية إلى الماتادور ليُجهز عليّ بسيفه وزيه البرّاق وينال تصفيق الجمهور، بلا شفقة ولا ذنب ومن أجل غرض لا أعلمه.

وكنت مُنهكًا بالفعل، أزفر ويخرج البخار والدم من أنفي، أتففس خديعة القوى المهيضة، لا أستطيع أن أستجوب «جبر» أو ألومه، حتى وإن أردت، يتسرب فيّ الهواء خارج القصر وخارج قلبي السحر المتقن الذي مورس عليّ طيلة سنتين، تاركًا بداخل الغرف الكثيرة والردهات والأثاث والأبهة المبالغ فيها صرخات مجنونة وصورًا شتى للانتقام، ولكن، لا صورة منها قابلة للتحقيق في وجود قلبي الضعيف، وفي وجود «إيلات»، الماتادور العظيم، البهي، الممشوق، التي تقف بأعلى، تدور بزيتها الصاخب لتحيا الجمهور المهتاج وتسل سيفها وتأتي إليّ، والعالم يكتسي باللون الأحمر، يصبغ كل شيء، حتى وجه «جبر» المتملق المتسائل:

- ماذا بك يا «إسماعيل»؟

- لا شيء يا عم «جبر»، الصبح قريب، وأريد أن أنام قبل مجيء الخدم.

وقمْتُ، سرْتُ بينما يتأملني مشفقًا، هبطت الدرج إلى البدروم، لا شيء عالق بقلبي من هذا الظلام إلا حديث واحد دار بيني وبينها ذات مرة، حديث واحد لا يفتأ يتكرر في ذاكرتي.  
كان عندما سألتني:

- بماذا أخبركم الأستاذ «سمعان» عن النص إذا احتوى سردًا لأحداث؟  
- أخبرنا أن اسمه حكاية.

- هذه تسمية بدائية للغاية يا «إسماعيل»، تحمل من التهكم أكثر مما تحمل من التعريف، لكنني سأخبرك عن النص إذا سرد أحداثًا، يطلق عليه أسماء كثيرة، حسب طوله وقصره: القصة، النوفيل، الرواية.. وإن كنت أفضل التسمية الساحرة القديمة: الرواية، النساء كلهن يحببن الرواية، وأنا على الرغم من كراهيتي للنساء أحب الرواية.

أخذت أردد الكلمتين بخفوت: «الحكاية - الرواية»، وكأنني أثنهما بلساني، وتبرعت «إيلات» بالإجابة وكأنها قرأت السؤال في عيني:  
- الحكاية عنصر أولي من عناصر الرواية يا «إسماعيل»، ما الحكاية؟ كيف تحكيها؟ من أين تبدأ؟ وكيف تنتهي؟ هي بعض العناصر الأخرى.

- مثل الجرائد؟

- الجرائد تحتوي على أخبار وحكايات تحدث للناس، ولكن لا يمكن أن نقول عن الجرائد إنها رواية؛ فالروايات حكايات لم تحدث.  
- حكايات منسوجة بالكذب؟

- يا «إسماعيل»، إذا كان ما نسمعه غير ما نقوله وما نراه غير

ما نحكيه، حتى لو حرصنا على الدقة في النقل، فكيف تضمن لي أن الحكاية تخلو من الكذب وأنها نقل أمين للواقع؟! حقيقة الأمر يا «إسماعيل» أن الروايات هي حكايات فيها من الحقيقة أكثر مما ينبغي للحكايات.

ثم صمتت، لطالما أحببتُ هذا الصمت وعرفته، وانتظرتُ ما يأتي بعده.

- لكن دعنا من نقاشات الأستاذ «سمعان» العقيمة لأصف لك ما يجب أن تكون عليه الرواية إذا كنت تفكر في كتابتها؛ فالرواية كائن ماكر جدًّا وفوضوي يا «إسماعيل»؛ فهي ليست صفحة جريدة ميته، لكنها في اقتحامها لحياتك - سواء أكنت كاتبًا لها أم قارئًا - تتبع الطريقة التي تتبعها ورقة جريدة مهمة، أقل حتى من أن تُقرأ، ورقة قديمة لففت فيها شطائرُك في عودتك إلى منزلِك، ووضعتها على مائدتك التي تتناول عليها طعامك، وبينما تأكل شرعت في قراءة أسطر الجريدة القديمة، ستكون رؤوفاً بك في البداية تلتقط أنفاسك التي تبعثرها عليها وتعيدها إليك بود، ثم فجأة تصبح محايدة توطئة لقسوتها المقبلة، قسوة مرة المذاق، لكنك لا تستطيع الاستغناء عنها حتى بعد أن تنتهي من طعامك، تبعثر لك ملابسك وتضعك في حالات الجمود والذهول والتقمص والبكاء والرعدة والكشف، ثم في النهاية تفاجئك بنعيك أنت مسطورًا على صفحة الجريدة القديمة، هذا ما ينبغي أن تكون عليه الرواية يا «إسماعيل»، هذا ما ينبغي أن تكون عليه الرواية...

وكنْتُ أهذي وأنا أستعيد الكلمات: وهذا ما ينبغي أن تكون عليه الرواية يا «إسماعيل».



## «حسين» - القاتل

كان هناك ألمٌ وتأوُّه، ودوي ناتج من إطلاق رصاصة في شقة مغلقة، وارتد السلاح ارتداداً وميضياً إلى ذراع «إسحاق» فتسبب في رضة مؤلمة وتناثر من المنضدة نثارٌ خشبي وغاصت الرصاصة في طبقة الرمل بعد أن ثقت البلات أسفل المنضدة، ولدقيقة طفت الأشياء والمسموعات والمشاعر طفوًا مظلّيًا، وفي هذه الدقيقة عاش «حسين» حياة كاملة، انجذب جسده ثم انجمع على بعضه وارتعش عدة مرات ثم عاد لارتخائه بعد أن تخلص من أرقه المحتبس وقذف كل ماء شهوته في سرواله.

وعندما عاد كل شيء لموضعه، عاد أشد ثقلًا، واختلطت رائحة البارود ورائحة نشارة خشب طازجة برائحة أخرى خاصة للغاية، رائحة شفافة، كأن كائنات من زجاج وُلدت في التوُّ، هل هذا ما يشعر به الرجال: غرابة الوجود وغرابة الهدف وغرابة البداية، القدرة على رؤية الأبجديات والتساؤلات الأولية، وكأن العالم لم يبدأ من خلية، بل بدأ من رجل انفصل لتوّه عن امرأة؟!

في هذا المكان منذ سنتين، رأى «حسين» أنه سيقتل «إسحاق»، كان يعتقد حينها أنه مُسيّر، لا اختيار له في القتل، يعطونه ورقة فيها الاسم والتهمة وكل ما عليه أن يضع الإطار الأسود، ثم حاول «د» أن يحرره، أن يجعله مخيرًا، لكنه رفض، أكان غيبًا عندما رفض وأضاع الجائزة؟ كان يقول لنفسه حينها: ما الذي يمكن أن تكسبه بفتح العينين يا «حسين»؟ مزيدًا من الناس والضوء والليل والبيوت؟ مزيدًا من الوعي بعد فعلٍ قتلٍ كنت مساقًا إليه؟ لا، لم يحتج إلى فتح العينين ليلاحظ أن هناك شيئًا غريبًا في الحكاية، لكنه احتاج لمزيد من فتح العينين ليتمكن من القبض عليها، غرابة

مراوغة كقطعة صابون سقطت من يده في أثناء دش ساخن، يتحسس العثور عليها بيدين عماوين، عبر آخر مكالمة دارت بينه وبين أمه، وآخر مكان يتذكر أنه خبأ فيه كتيّب التعليمات، وآخر طعام اشتراه لنفسه، وآخر مرة أيقظه منبه من نوم عميق، كأن القتل يمحو الأحداث البسيطة من حياته، وفي كل مرة تجول فيها في زحام الناس كان ممتنًا لنفسه على الحركة التي منحها للأحياء بقتل الأموات، مع إدراكه أن الأحياء غير قادرين على استيعاب هبته التي وهبها لهم؛ لهذا فقد ظل الأحياء كالأموات: لحمًا وجلدًا، بينما «حسين» جالس على رمانة الميزان بينهما، يتأمل الناس ولا يرى فارقًا، وبسخط لا حد له، يتأملهم كفأر وقع في مصيدة مات صاحبها، لن يقتله ولن يطلقه.

أما الآن، وبعد ما عاشه، فقد صار قادرًا على رؤية الحركة، ليس في الأحياء فقط، بل في الأموات أيضًا، وكل ما عليه أن يرتّب ذهنه قليلًا في هذه اللحظة الغريبة.

فتح «حسين» عينيه فرأى «إسحاق» ممسكًا بكف يده التي ارتضت، مباعدًا ما بين ساقيه وناظرًا بدهشة إليه، فسأله بخشونة وبكثير من الخيبة:

- لماذا أطلقت الرصاصة على المنضدة؟!

ولم يكن ثمة إجابة، لا الآن ولا بعد ذلك، فالأمر قد انتهى، وكل ما عليهما أن يعالجا الأثر الجاني للحدث.

مدّ «حسين» يده ليأخذ السلاح الذي أسقطه «إسحاق»، فوضع «إسحاق» قدمه ليمنعه، حاول «حسين» أن يصنع من السلاح عتلة لإزاحة القدم، وكلما حاول تمكن الرفض من «إسحاق» وداس أكثر فأكثر، تحول السلاح إلى كائن ثالث بينهما، لا خطة له ولا هدف، لم يوسوس إلى «إسحاق» قائلًا: احذر فلو أتيحت له الفرصة ليأخذ سلاحه سيقتلك، ولم يوسوس لـ «حسين»: لو تركت له سلاحك

سيظن أنك سهل المنال، هكذا السلاح في أي لعبة بين رجلين، حتى لو لم تتوافر نية القتل، تظل نية التملك والإحراز أقوى بكثير، بل ربما هي ما تؤدي إلى القتل.

وكان هناك حوارٌ ما بينهما، جنينٌ حوار، ليس فاعلاً ومفعولاً به أو مبتدأ وخبرًا، كتلة مهروسة من الكلمات وحروف الجر، كلها فاعل ومبتدأ، وكلها تريد أن تجعل الطرف الآخر مفعولاً به وخبرًا، ثم أدرك «حسين» في خضم محاولاته أن الطريق إلى سلاحه ليس بهزيمة القدم التي تقيده إلى الأرض، وإنما بهزيمة الجسد بأكمله.

كان «حسين» هو البادئ، وبدفعة واحدة أزاح جسد «إسحاق» بالكامل من فوق الكنبه ومن فوق سلاحه، وانحنى وأخذ سلاحه، ثم حاول «إسحاق» أن يكرر ما فعله «حسين»، لكنه كان راسخًا، بلا تشبُّث، ولم ينل «إسحاق» إلا من القميص الذي يرتديه، مسببًا تطاير الأزرار الخمسة كطلقات خردق طائشة في الأنحاء الأربعة، دفعه «حسين» بسهولة كما يدفع ثقلًا بزنة ٩٠ كيلوجرامًا على بنش رفع أثقال، ثم تحوّل من وضع الاستلقاء إلى الغشيان مثبتًا «إسحاق» إلى مسند الكنبه (الفوتيه) بذراع واحدة.

وكان ما يحدث حلم غريب، تحوّل الدفع والجذب فيه إلى ريشة رسّام هادئ ترسم المشهد ببطء، يمحو أكثر مما يُثبت، ويكفئ «إسحاق» على وجهه ماضغًا الوسائد في شتائم لا حصر لها، لا تردع بقدر ما تضيف الملح ليستمر المشهد، ويدرك «حسين» أنه يُفتَن، للمرة الأولى يفتنه بقاء شخص على قيد الحياة، تفتنه الحياة والاختلاجات والشراسة، ويرغب في إخمادها، لكنه عاجز عن ذلك، عاجز عن القتل على الرغم من قدرته على القسوة والسحق والامتهان.

كان هذا قدر «إسحاق»، أن يُقتل من دون كراهية ولا رغبة أكثر من رغبة «حسين» في إزالة احتقان الرؤية الجليلة، إزالة الشوك العالق

في حلق سلاحه، وتوجه تفكير «حسين» تلقائيًا إلى الطنبجة الملقاة،  
وإلى الرصاصة المخبأة في جيب الحقيبة، ثم إلى قلب «إسحاق» الذي  
ينبض بقوة، مدركًا أنه لم يكن مخيرًا ولا في لحظة واحدة من حياته،  
كان مسيرًا، مسيرًا منذ البداية.

## الفصل السادس

### «إسماعيل» - الكاتب

ستفعل، ستنساها، اطمئن، عشرون دورة حول المضمار الواسع حتى تسعل عرقًا من فمك وتنسى ماذا كان طعام إفطارك هذا الصباح، مئة من تمارين الضغط حتى تستنفر عضلاتك المختبئة خلف جلدك فتنسى أسماء الصحابة العشرة المبشرين بالجنة، والقانون الأول للجاذبية، وعددًا لا تذكره من التمارين الأخرى حتى يخفق قلبك بقوة ترتعش بها المريئات أمام عينيك وتنسى أسماء أقاربك من الدرجة الأولى، وستستلقي عندئذ مرتاحًا على العشب الطازج بالندى، ستتمثل رقدتك أسفل مشرط الجراح، وستغمض عينك منتشيًا، فلن يكون ذلك الاسم - اسمها - من بين هلوساتك عندما يتمكن البنج من عروقلك..

لقد اختبأ بعيدًا تحت الجلد.

«إسماعيل» - الكاتب



لم تخرج «إيلات» من عالم غرفتها مدة ثلاثة أيام، وكنت أنا حبيسًا بالخارج، يأكل قلبي كل لحظة آكل مختلف، الشك والخديعة واللامبالاة، حتى اليقين صار يلتقط فتات ما يسقط من قلبي، ليعاود قلبي ميلاده ويعاود الشك التهام وجبته الأثيرة.

في هذه الأيام الثلاثة، استعدت كل الأحاديث التي دارت بيننا، لكتُها وسجلتُ الكثير منها في أوراقي، وقسمتها إلى مراحل، بداية: سخريتها وحرصها على الظهور بمظهر شخص لا جدال في فهمه للأدب، هذه المرحلة كانت الأنسب لشكوكي، ثانية: بدأت تصبح أكثر لطفاً وتلقائية، وروحها أكثر خفة وغفراناً لي في النصوص التي تعجبها، وكانت تسألني دائماً عن تفاصيل قصة حي لـ«هاجر» وفي أوقات نادرة تبث إليّ شكواها من طليقها، وهذه هي المرحلة الأنسب لعشقي لها، ثالثة: بدأت الأمور تتفككت، مرحلة النصوص السرية التي طلبتها، هذه المرحلة المناسبة لكل شيء، لعشقي وشكوكي، جموحي وإحجامي، خوفي منها واطمئناني إليها، الحب بلا التباس ولا خديعة، بقلب مكشوف للطعنات، وضمايدات مهترئة، حتى ما أخبرني به «جبر» فيما بعد، بعد تلك الليلة، أن «إيلات» كانت تنتظر نصوسي؛ فعندما دق الباب فتحتُ على الفور وكانت مرتدية وممزينة ومتعطرة بشكل جعله يخجل منها.

في اليوم الأول، استيقظتُ بسلام غريب يجوب قلبي، بلا سبب، حتى حادثة الحماقة التي هرسست فيها إصبعي دون مبالاة لم أعد نادماً عليها، كانت روحاً مناسبة للحياد، ولأتساءل بيني وبين نفسي: هل سَتُخلدُ كلمات البشري في دنيا صنعها الله، في الوقت ذاته الذي صعدت فيه كلماته إلى السماء، أم ستنتظر أن تقدسها عينا امرأة لم تأبه بالكلمات ولا بي؟! كيف بدأ العالم كبيراً عند البيارات، وانتهى إلى قلب امرأة لا أستطيع أن أنالها ويفصل بيننا سقف واحد؟ ومتى

ذهبت الكلمات - التي وُلدت في قلبي لتُخلَّد - لتحظى بالموت على عتبة سيدة لا تُحسن كسر بيضة لتقلّوها؟!

في ذلك النهار، تذكرت حديثنا عن نهاية العالم، عندما قالت لي:  
- هل تعلم لماذا رفع الله الحروف يا «إسماعيل»؟ ليس لأن يوم القيامة قريب، بل فعل كما يفعل الكاتب عندما يحرق مخطوطاته قبل موته ضئلاً بها.  
- لكن الله لا يموت.

- لكنه اقتنع أن البشر لا يقرؤون يا «إسماعيل»، بقدر ما يتفخرون بامتلاك النصوص ويظنون أن امتلاكها هو غاية الغايات؛ لذا أخبرتك أنها فكرةٌ عقيمٌ أن تفكر في نشر ما تكتبه، وأن تصبح عصاة روحك ملكاً لأحدهم ببعض الدولارات.

- ربما أقوم بطرح كتي على نفقتي ومن دون ثمن.  
- وما الفائدة؟ هل هذا كاف لتجعل الناس يحترمون كتاباتك كاحترامهم للكتب السماوية، وألاً ينتهي بها الأمر كورق للمراحيض؟  
- هذه مبالغة في التوقير، لا أريد أن يحترم الناس كتي، أريدهم أن يقرؤوها.

ابتسمت وقالت:

- اليوم، أنت رفيق سيئ يا «إسماعيل»، أسوأ من طبق طعام فارغ مليء بالنقوش، وأسوأ من الموت من دون أن تتم قراءة كتاب مشوّق، وأسوأ من...

وظلت تذكر أشياء سيئة كثيرة من دون أن تفقد ابتسامتها.

في اليوم الأول، قرأت الكتب التي أعارتي إياها، ونمت وأنا أقرأ.

وفي اليوم الثاني، استيقظت بلا سلام، وبكثير من الندم، وهاجمتني كآبة لا سبيل للتخلص منها إلا بالخروج إلى الشمس، خرجتُ من البدروم إلى الحديقة، وتتبع أكمة الشجيرات التي رسم لها السور

حدودها، وحيثُ الحارسين اللذين يعرفانني جيدًا، وسرْتُ على ممر الحصى الأبيض أمام بوابة القصر، نظرت إلى انعكاسي في زجاج الباب الكبير كما تنظر ظبية إلى ظل أسد يتربص بها في العشب الطويل، ثم دقت خطواتي على الطريق الأسفلتي المؤدي إلى الجراج المظلم أسفل القصر، وتجاوزته إلى مخزن الأدوات الخشبي وأجولة الفحم وبيت الديزل، ثم سرت على الخطوط الفاصلة الصغيرة بين أحواض الورد الكثيرة، وتخيلت قبري هناك؛ حيث ستشرق عينا «إيلات» يوميًا عليه، لم أكن ناسيًا تحذير الحارسين و«جبر» لي عدة مرات، منطقة أحواض الزهور منطقة محرمة إلا على البستاني؛ لأن نوافذ غرف السادة تطل عليها، كانت نافذة «إيلات» مغلقة في وجهي باردة والشمس دافئة على ظهري، وما بين النقيضين تملكتني رعدة وقشعريرة، وكان شعري جافًا كالقش عندما مسحت عليه لأكفكف من رعدتي، وتذكرت المرة التي رأيت فيها ثعبانًا طائرًا فوق أراضي الأرز التي حُصدت، كان الوقت قيطًا، وهزمت الذكرى برودة أطرافي ورعدتي، وبقيت نافذة «إيلات» باردة، ثم تناولت غدائي مع الحارسين في هذا اليوم وعلماني كيف أقذف النرد بطريقة تجعله يأتي على الوجه الذي أريد.

في اليوم الثالث، تناومت عندما شدت اليقظة معصمي، تناقلتُ، مضغْتُ طعام نجوم درب التبانة في فمي، ولم يكن طعامها لبنيًا ولا متألفًا، كان طعامها كطعم كهرياء فاسدة، أضاعت من قبل لعشرات من «الإسماعيل» الذين حاولوا الفوز بقلب «إيلات» واحدة (واحدة فقط)، ولم يفلحوا، «إيلات» التي كانت في غرفتها العالية تنقش النص الأخير على جسدها، إلى جانب الكثير والكثير من نقوش عشاقها الآخرين..

وعلى الرغم من تصوري هذا، لم أشعر بالغيرة ولا بالحق، بل أخذت ألوم نفسي: هل أحببتها حقًا؟ لكن كيف يكون حب امرأة

مثلها، بالخفة الفخور التي تجعلني لو أود أن أشركها نظرات عيني إلى الأشياء منذ ولدت وحتى التقيتها؟ لم يدُر بداخلي هذا الخاطر مرة إلا وارتعدت، فلو حدث ورأت بعينيها كيف نشأت وأين ولدت، وكيف دفعني القدر إليها، من دون أن يهيئني، كطائر بلا ريش، كسمكة من دون خياشيم أو زعانف، كحجر يهوي ويحمل على كتفيه ثقل جبال العالم كلها، لا خيار، ولا أحد يستطيع أن يلومني، أحببت «إيلات»، أطعمت حبها، سقيته غصبا، تنفسته، لا، لا.. كان هذا جزءا من تسلسل الحياة ليس إلا، أن أحبها وأن تنكّل بي في حبها..

لكن حتى كلمة «تسلسل» أو «دورة الحياة» تبدو كلمة مُضحكة، مُغرقة في المثاليّة، فلم تُكن «إيلات» معي وأنا أخوض في كدر حياتي وصفائها، كنت وحيدا ولم تتبدّد وحدتي بعد أن عرفتُها، تعيسا بشكل ما واتخذتُ تعاسي شكلا آخر، للدرجة التي تجعلني أتساءل: ماذا لو لم يمُت والدي في حادثة لم أعرف تفاصيلها؟ ماذا لو عاشت جدتي ولم يبدأ جدي باصطحابي معه إلى البيارات حتى لا يتركني وحدي؟ ماذا لو وجدتِ الأسماك حيلة للهروب من السدود ولم يحترف جدي اصطيادها؟ كيف يمكن أن يعيش الإنسان في عالم تتساوى أكبر كوارثه مع أنفُس هداياه، فلا يمكن التفريق بينهما أحيانا، كلغم في طرد بريدي تفوح منه رائحة رسالة معطرة؟!

\*\*\*

لن أنسى أبدا النص الذي تشجّعتُ به على مواجهتها، كتبته وصحّحته وشكّلته جيّدا، لم يدهشني أنني أصبحت أمتلك من الفطنة ما يجعلني قادرا على أن أكتب نصّا لا يؤذي عينيها، ولم أُفاجأ عندما أخبرني «جبر» في اليوم الرابع أن السيدة تتأهب للسفر خارج البلاد؛ فدائما ما تسبقني بخطوة إلى المجهول في علاقتنا.

- إلى أين يا عم «جبر»؟

- إسبانيا أو فرنسا، لم تلتقط أذناي الاسم جيّدا.

- هل يمكنني أن أودعها قبل أن تسافر؟

- طبعًا، سأخبرها.

بعد دقائق، جاء واصطحبني وتركني أمام الباب.

- سأغادر يا «إسماعيل»، وأظن أنني لن أعود على الفور. أخبرني، هل يوجد شيء أستطيع أن أفعله لك لتكون مرتاحًا حتى عودتي؟

- تمنيت أن يكون بيدي أن أجبرك على البقاء.

- ولو بقيت؟

- لو بقيت...

لكني لم أتم العبارة، جاشت عواطفني، وأخذت أقبض يدي وأفردتها، أفتح فمي وأغلقه، وأضغط على أسناني وكأنني أمضغ صخورًا، وتصلبك المريئات بعينيَّ فينبعث منهما وميض، كل المريئات عداها، وأهرب بعينيَّ من عداوة المريئات إلى رؤيتها، ولو تركتني على هذه الحال طويلاً لانفجر قلبي حسرة وغيظًا..

ورأفةً بي، رأفةً بي فقط، همستُ برقة:

- افهمني يا «إسماعيل»، لن يكون الحال كما كان في السابق.

قلتُ عندئذ بسخرية مُرة:

- وما الحال الذي كنا عليه في السابق؟

- أقصد: الأحاديث والكتابة والنقاشات، لقد هُتِك شيء ما بيننا، ولم أعد أستطيع الاستمرار، لا أستطيع فعلًا، أشعر بشعور غير مريح، أنا آسفة يا «إسماعيل»، آسفة فقط، لا أقدر أن أستم بعد أن كشفت لك أحد أسراري الموجهة، أعذر، لا أقدر، لا أقدر.. لا أتقن الهروب، وأتقن الإشارة لنفسني بخفة كما اكتشفت عني من قبل، وأتقن المكوث متوارية أيضًا، وهذا ما أعول عليه الآن، أنا لست بخير ولستُ على ما يُرام، لا أبرر رحيلي ولا أضع له مسوغات، أنا فقط أرحل من حياتك، وأرجوك ألا تسمح لرحيلي بأن يسبب لك

خللاً لا تستطيع تداركه.

- إلى أين سترحلين؟

- تقصد المكان؟ عبور الشارع بعيداً عن القصر وعنك يُعتبر رحيلاً لي يا «إسماعيل»، ما زاد على الرحيل تذكرة طائرة إلى إسبانيا وأمل باهت لشراء قبعات قش ملونة والتقاط صور فوتوغرافية لامرأة سعيدة أسفل أكبر شجرة مُعمرة في العالم.

- تعرفين ما أفكر فيه الآن؟ ما كان عليّ أن أعطيك تلك النصوص.

- يا «إسماعيل»، ما مر قد مر، ولم أكن لأتوقف حتى أحصل عليها، «إيلات» التي تراها الآن ليست «إيلات» التي كانت تطلب منك النصوص، وقد أحسنت صنعاً بأن أعطيتها ما تتوق إليه، «إيلات» الأخرى لا سبيل للتخلص منها إلا بالموت.

قلت لها بذلّ وضراعة:

- يمكنني أن أكتب لها النصوص التي تحبها إلى ما لا نهاية إن كان السبيل إليك يمر من خلالها.

ردت في أسف:

- لم تعد تحتاج إلى النصوص منك أنت.

دعست الكلمات قلبي، ولاحظت «إيلات» شحوبي فقالت:

- هل رأيت يا «إسماعيل» مقدار صدمتك؟ أرى ذلك على وجهك، سأرحل يا «إسماعيل» بعيداً عن هنا لأتخلص قليلاً من «إيلات» الأخرى، ولتهنيئ أمورك وتعتاد على غيابي. هل تعرف ما أفكر فيه الآن؟ أفكر أنني ابتعدت كثيراً عن الطريق الذي اخترته لنفسي بعد طلاق؛ فأنا أريد أن أكون قديسة يا «إسماعيل»، قديسة من طريق يضمن لي ألا أتشوّه، موت هادئ بإرادتي ولكنه مُصدق عليه من قبل السماء، هذا عالمٌ قاسٍ للغاية، لن يسمح لك بالموت ولا حتى بحادث سيارة أنت الوحيد فيها، فضلاً عن شق أوردت معصمك في

بانينو ماء بارد، أحيانًا أفكر أنه لا مفر من أن ألْعَم جسدي وأفَجِّره  
لأُتخلص من هذا الهاجس. أتعلم ما هذا الهاجس؟ سأخبرك به:  
إنني لن أُتخلص، ولو بالموت، من عذاباتي.

لا تلتفت بوجهك عني يا «إسماعيل»، لا تحرم امرأة من النظر إلى  
عيَّي عاشقها حتى لو لم تُكُن تحبه، إنها المرأة السحرية التي تتوق  
إليها جميع النساء، المرأة التي تهتف دائمًا: يا أميرتي، لا يوجد من  
هو أجمل منك في العالم. هل تعرف؟ على الرغم من كل المرايا  
التي تملأ القصر، عيناك هما المرأة الوحيدة التي أرتاح في النظر  
إليها، ولكن خلف كل راحة لعنة، وما من مرة رأيت وجهي في عينيك  
إلا هرعت إلى مرآة لأتأكد، وأجدي أتساءل: هل سيأكل الدود هذا  
الوجه، الأنف والشفيتين والوجنتين، تلك الجبهة وما يتستر خلفها  
من أفكار وذكريات، مثل أشباح ولصوص وشحاذين وموظفي بريد،  
هذه الذكريات التي تقف كستار أسود بيني وبين الضوء، لدرجة أنني  
أجد نفسي دائمًا ما أفعل في خلوتي؟! أبحث عن ريموت الإضاءة  
بالغرفة، أضغط على الأزرار، ثم أكتشف أن كل أنوار الغرفة مضاءة،  
لكنها معتمة.

ولم يَكُن هذا مُقَدَّرًا له أن يتم بهذه الطريقة. قمت، وبطريقة  
خرقاء، بإخراج الورقة التي كتبتُ فيها نصي الأخير من جيبي،  
وفضضت طياتها وقلبي يدق، ثم خفتت حركتي حتى ماتت وتبيَّست  
يدي على الورقة، ولم يعد متبقيًا مني إلا روحي وهي ترتعد بداخلي  
مثل ضوء شمعة في بيتٍ كل نوافذه مفتوحة على الحزن، وبخفة  
جذبتُ «إيلات» الورقة من يدي وأشرقت عليها:

- ما هذا؟ كتبتُ نصًا جديدًا من أجلي؟ تعالَ يا «إسماعيل»، تعالَ  
لنجلس في الشرفة.

تبعثُّها بآلية، وعندما وصلت إلى سور الشرفة الحديدي نظرت إلى  
أحواض الزهور، وفكرت في تراخٍ، كنتُ هناك أمس الأول، سرُّ هناك

وانطبعت خطواتي على الطين، وها قد أزال البستاني أثر خطواتي،  
وكلماتي أيضًا، ها هي تنطبع على عيني «إيلات»، ثم ستأتي الكلمات  
الجديدة للكاتب الذي سيأتي بعدي وتزيل أثرها، وهكذا الأمر، لا  
شيء باقٍ، لا أحد باقٍ إلا «إيلات»، لا أحد باقٍ إلا من يملك السيطرة  
على قلبه.

سمعتها تقرأ بصوت خافت، كأن الكلمات ليست كلماتي:

«في كل صباح أحاول أن أخونك، أعددتُ لذلك نصًّا مستديرًا، كفيلاً  
بأن يحيط بكينوتك في داخلي، نصًّا متكاملًا يشبهك ويضادك، كفيلاً  
بنزعك مني كجرثومة، قويًّا مجدولًا بهيًّا، منتظرًا أن تفارقي عش  
صدري، عسى أن يحضرنى النص حينئذ فأباغتك.

في ذلك الصباح، شعرت بك تتكئين على عيني، تشاهدين المارة  
معي، كدت أنجح، شعرت بك، وقبل أن أنطق بتعويذتي سمعت  
من يقول خلفي: انظر هذا الرجل الغريب كيف يسير ويتكلم مثل  
امرأة!

عندئذ، عرفت أنني بقدر ما أجتهد لأخونك، أكونك!«.

ساد صمتٌ لم أعرف خلاله هل أعجبها النص أم لا، ولم أرفع  
وجهي لأتبيّن، لكني سمعتُ صوتها:

- يا إلهي! هذا النص جميل فعلاً، من أجمل ما قرأت يا  
«إسماعيل».

عندئذ وكأنني تلقيت حكمًا ببراءتي، رفعت رأسي فرأيت على عينيها  
غشاءً رقيقًا من الدموع:

- أترى الآن؟ بمجرد أن استشعرت غيابي أشرق ذهنك وكتبت نصًّا  
جميلًا، وهذا ما يجعلني مُصرّة على قراري الفردي، من أجل  
نصوصك، وروايتك التي ستكتبها.

ثم نظرت إلى وجهي نظرة سريعة وابتسمت:

- أتعلم يا «إسماعيل»؟ كنت أتمنى أن أكون مثلك، قلبًا ضعيفًا وعينين تحمران بسرعة عندما تكتمان دموعهما، ما أبهاك وأنت تكتُم دموعك مثل رجل! ما أبهاك بحيث لو بقيت هنا لساعة واحدة قد أقع في غرامك بالفعل، نعم، ابتسم يا عزيزي، ابتسم وهوّن على نفسك، يا ربي! انظر إلى ملامحك، عندما أرسلوك إلى هنا لم أتوقع أبدًا أن يحصل هذا كله، هل تظن أن كتاباتك هي التي أسرتني؟ لا طبعًا...

ثم قطعت كلماتها وهتفت بقلق:

- هل أنت بخير؟

- لا تقلقي، أنا بخير، بي من القوة والعنفوان بحيث لو طعنني أحد الآن قد أخور حتى أشقه بصوتي.

في عينيها، التمع عبث خفيف، وتوزعت كهرياء ضحكة في نبرة صوتها وهي تقول:

- أظعنك أنا؟

- تريدني أن أفزعك؟

- نعم، هيا أفزعني، هيا.

تضحكن، وساد السلام بيننا، لقد توقف الكون عن التمدد أخيرًا.

قلت لها:

- أريد أن أضافحك الآن وأغادر القصر.

- إلى أين؟

- ليس لمكان معين، بل لهدف لن يتحقق إلا بمغادرة القصر.

- وما هو؟

- أن أترك الكتابة.

- لقد وُلدت لتصبح كاتبًا يا «إسماعيل»، ما الذي تستطيع أن

تفعله غير الكتابة؟

- قد أنضم لأستاذ «سمعان»، أو أصبح قاتلاً.

- لا فارق كبير بين الأمرين صدقي، هل تجد أنت فارقاً؟

لم أحبها، بل أخذت أتساءل: كيف وصلت الأمور بيني وبينها إلى ما وصلت إليه؟ كيف؟ بعد أن وصلت إلى تلك النقطة التي ظننت أنه لا انحدار بعدها وإنما صعود، بينما المشهد لا يزال طازجاً في قلبي.

- هل ما زلت تريدني أن أكتب لك نصاً في الحب؟

سألها فابتسمت وقالت:

- أي امرأة حمقاء قد ترفض نصاً في الحب من الكاتب الأخير في العالم يا «إسماعيل»؟

- حسناً، سأكتب لك النص الذي وعدتك به.

- نصاً مثاليّاً يا «إسماعيل»؟

ثم سرحتُ بفكري قليلاً، استعدتُ أيامي الأولى في القصر.

- سأندبر أمر إرسال النص إليك بعد أن أغادر القصر.

- ما زلت مصراً على مغادرة القصر؟

- نعم، لن أظل هنا دقيقة واحدة بعد مغادرتك.

- أرجوك لا تفعل يا «إسماعيل»، ستخسر شهادتك، ستخسر خمس

سنوات من عمرك بسبب رعونتي.

- لماذا؟ الشهادة معي.

- الشهادة التي بحوزتك لم يتم تسجيلها على موقع وزارة الداخلية،

ووزارة التعليم العالي.

- وكيف عرفت؟

- ما أقوله هو الحقيقة، «سمعان» لن يستطيع تسجيل شهادتك إلا

بتقرير مني يُضم إلى ملفك.

- وما علاقتك بـ«سمعان»؟

- علاقة وثيقة جدًّا، إنه يرسل لي الطلبة الذين يعجز عن التعامل معهم ضمن منظومة التدريس.

- لم تخبريني بذلك يا «إيلات».

- تركت لك إشارات لتفهم، لكنك تغافلت، أعرف أنك فهمت وتغافلت.

- قلبي كان أعمى يا «إيلات»، لم أعرف إلا قبل أيام فقط، قبل أيام، بعد أن حدث كل شيء.

- ليس بيني وبينك إلا الخير يا «إسماعيل»، ويمكنك أن تسأل «جبر» عن الطلبة الذين سبقوك، كيف سحقتهم ببساطة في جلستين على الأكثر، ولكن ها أنت ذا، لم أرغب في إيدائك حتى، وفي التقرير الذي كتبته لـ«سمعان» حاولت ألا أؤذيكَ أيضًا، أوصيت أن تظل بالمدرسة، يمكنك أن تكتب هناك بشكل سري، تمارس دورك كمدرس لمادة الأدب العربي، مدرس تحت الرقابة، وقد نلتقي مرة.

لماذا لا يذبح هذا السكين؟ لماذا يحز رقبتني؟ يؤلمني ويغرق صدري بلون الدم وبلله، لكنه لا يسحب مني الروح، لو قيل لي هذا قبل أيام لمتُّ من المفاجأة، ولكن ها أنا ذا، جالس معها في الشرفة، كأننا نحتمي الشاي معًا، هادئان مثل فرخين في عشٍّ واحد، قرر أحدهما أن يجرب الطيران بينما يحذره أخوه من الثعابين والموت المتربص به.

- كيف سيصل تقريرك عني إلى «سمعان»؟

- ببساطة، لن يصل إلى هناك إلا بعد مغادرتك القصر بشكل شرعي.

- وكيف تكون هذه المغادرة بشكل شرعي؟

- تنتظر السيارة التي أتت بك، سيتسلم سائقها ظرف التقرير مغلقًا

من «جبر»، ويسلمه إلى «سمعان».

ثم سكتت قليلاً وقالت بصوت هامس:

- أعرف أنك لن تستمع إليّ، منذ قرأت أول نص لك وأنا أعرف أنك مختلف، لكن الخيارات ليست مفتوحة أمامك؛ لذا فقد قلت لك قبل قليل: ابقَ هنا كما تشاء يا «إسماعيل»، لن يضايقك أحد، أريدك أن تفكر طويلاً ولا تتعجل، ما قيمة امرأة مثلي في حياتك؟ ما قيمة مئة امرأة أفضل مني في حياة وفي زمان يمكنك أن تصبح فيهما نبياً بدلاً من أن يتخذ منك «سمعان» خرقه لمحو الشبهين بك؟! لقد آذيتك بشدة لمصلحتك الشخصية، لتتفر مني ومن «سمعان»، لكنك أحببتي.

- نبي!

- نعم، كما أخبرتُك من قبل، لا أنت ولا جدك تعرفان الحكاية الحقيقية للمجاز، أنا أعرفها، المجاز احتُقر أولاً في قلوب البشر، ثم رُفعت الحروف المقدسة، وأنت الوحيد، أنت الذي قد يجعل الله يرغب في إعادة حروفه إلى كتابه مرة أخرى، اكتب ما يجعل الله يغار منك.

ثم قالت بعد أن مضغ الصمت العجوز قلبي:

- فكر يا «إسماعيل» في كل ما عرفته ومررت به، وعندما تصل إلى قرار لا تنظر خلفك.

وصمتت «إيلات»، فنظرت إلى أحواض الزهور، كان الممر بين الحوضين الأبيض والأحمر مؤلماً للقلب، والممر بين الأحمر والبنفسجي مثيراً للذكريات، والممر بين البنفسجي وزهور التيوليب متوحشاً، وأخذت الممرات بين الأحواض تقص قلبي كورقة ملونة يعدونها لزينة السقف في احتفال لن أدعى إليه، تقصه وكأنها تريد أن تصنع منه قلباً جديداً ليكون مستعداً لخوض مفاجآت جديدة، أن تستبدل بقلبي، الذي هو مزيج من قلب طائر وثعلب وكلب

أليف، قلبًا آخر، ليس قلبًا بالمرة، وإنما كما قالت «إيلات»: رأس،  
رأس صلب كقحف قرموط، لا يموت إلا بضربات الهراوة.

- يجب أن أخوض التجربة كاملة يا «إيلات»، وإلا طاردني ما تركته  
منها في أحلامي بقية عمري.

- يبدو أنك اشتقت إلى «سمعان»؟

- لا أخفيك خبرًا، أشتاق إلى أن أراه بعييَّ الجديدتين، وأن أناقشه  
من جديد، ومن يعلم؟! ربما أحببته، كان الصادق الوحيد في حكايتي.

- ستنتظر السيارة التي أتت بك؟

- نعم، سأنتظرها.

- إذًا يمكنك تسليم هذا الظرف يدًا بيد من دون أن تفتحه.

من حقيبة يدها أخرجت ظرفًا مطويًا مغلقًا على رزمة من الورق،  
أعطتني إياه، كان وداعًا رسميًا، لم تتصافح الأعين ولا الأيدي، لم  
تقل عبارة مميزة أتذكرها، ربما قالت: وداعًا يا «إسماعيل»، تذكرني  
بالخير، أو قالت: إلى اللقاء يا «إسماعيل»، كن بخير، لكني لم أحفظ  
أي عبارة قيلت لأعرف أي عبارة أضمرت.

لم يعد لمدلولات الكلام قيمة إذا اقترن برحيلها، بالذات إذا اقترن  
برحيلها.

\*\*\*

عندما قلت لـ«جبر» هازلًا:

- أرجو أن تبْلِّغ تحياتي للكاتب الذي سيأتي بعدي.

رد قائلاً:

- أنت الأخير يا بني.

نظرت لوجهه، فأدركتُ، «جبر» يشبه «سمعان»، وليس «إيلات»؛ فـ«إيلات» كان لديها من الحرية ما جعلها تفعل ما يروق لها ثم تضعه ضمن الخطة المبيتة لطعني، أما «سمعان» فكان يطعنني مكرهًا، ومن يدري؟ ما الذي سأجده كلما توغلت أكثر في نسيج هذه المتاهة؟

- السيدة «إيلات» أبلغت المدرسة أنها لن تختبر طلابًا آخرين.

لم تروّعني معرفة «جبر» بالاختبار، كان ممشوقًا متحفزًا كما ينبغي لمساعد ماتادور أنهى مهمته بنجاح، أما أنا فذبيحة جيدة، متأنق، حقيتي في يدي، والكتب التي أهدتها لي «إيلات» في كرتونة على الأرض وفوقها علبة الكعك المعدنية وبها الأقلام، ونحن واقفان أمام بوابة القصر، ظل القصر يرطب ظِلِّنا بلعقات من هواء بارد، الحارس لا يبدو فضوليًّا، أما «حسين» - كان اسمه «حسين»، أتذكره منذ سنتين - فلا يبدو متعجلًا، لم يدق بوق سيارته ليتعجّلني، كل شيء كان يتشاءب ليخلد إلى نوم القيلولة، أنا نفسي كنت أتشاءب وأنا أسمع «إسماعيل» يقول من فمي وبلساني:

- كُن إلى جوارها، لا تتركها، أنا متأكد أنها ستعود إلى نشاطها قريبًا.

نشاطها، الكلمة الأنسب، كبركان، كشخص سري، كقاتل متسلسل. ابتسم «جبر»، وكأنه يستطيع أن يتركها، حتى لو تركته هي.

شد على أضلعي بذراعيْن واهنتين ليُنهي الوداع، وضغطت على ظهره بذراع واحدة، وعندما ولجت في السيارة ظلّ ممسكًا بابها

ليغلقه خلفي كما يفعل مع السادة، كان هذا وداعًا فوق ما أتمنى، وعندما قال «حسين»: هل سننطلق الآن أم ننتظر قليلًا؟ لم ينتظر إجابتي، وظللت رافعًا يدي بالتحية لـ «جبر» حتى غيَّبني الشارع الكبير.

\*\*\*

سألني الدكتورة «عالية»:

- في الحلم الذي تحلم فيه أنا اتهمناك بقتل «إسحاق»، ما الذي يحدث بعدها؟

- لا شيء، أستمّر في النوم، بلا أحلام.

- لكنك واع أنك نائم، وتعلم على الرغم من اتهامنا لك بقتل «إسحاق» أنك لم تقتله، أنت واعٍ إذا؟

- نعم.

- لماذا اسم «إسحاق» بالذات هو ما نتهمك بقتله؟

- لا أعرف.

- ربما يكون «حسين» هو من أخبرك عنه؟

- لا.

- أو سمعت «حسين» يصرخ باسمه وهو في الغرفة المجاورة لك؟

قلت متذمرًا:

- إن كان هناك شخص سيصرخ سيكون أنا، عندما يشرع «حسين» في قتلي مرة أخرى.

- ألا تجد ذلك غريبًا؟

- ألا وهو؟

- أن تعرف اسم الشخص الذي تبرع «حسين» بالاعتراف بأنه قتله.

- هل قال «حسين» إنه قتل شخصًا اسمه «إسحاق»؟

- نعم، وطلب منّا أن نحاكمه.

- إذا أتم تعرفون أن «حسين» قاتل ومع ذلك تضعونه حرًا في الغرفة المجاورة لي!

- لن يستطيع قتلك.

- قتل قبلي الكثير يا دكتورة «عالية».

- «حسين» لم يقتل أحدًا في حياته.

- لكنه أخبرني بذلك.

- متى؟ أين؟

- بعد أن أخذني من القصر.

كان هذا هو اليوم الذي التقيت فيه الدكتورة «عالية»، يوم أن خرجت من القصر بصحبة «حسين»، الظل بارد والندى يصنع تحت الأشجار دوائر من ماء تجففها إطارات السيارات جيئة وذهابًا، «حسين» كان يرتدي ملابس شتوية خفيفة، أما أنا فارتديت ملابس الصيف التي اشتريتها مؤخرًا، بمجرد أن غادرت السيارة نطاق المبنى الفاخرة غرقت في إغفاءة، «حسين» كان سائقًا جيدًا، وحريصًا، ربّي إغفائي حتى صارت نومًا مستحكمًا.

عندما استيقظت كنت السيارة متوقفة، النوافذ مفتوحة، والعشب يملأ الأفق حولها، ومسدس مصوّب إلى رأسي، وخلفه يد «حسين» وعيناه:

- جيد أنك استيقظت بنفسك، لم أحب إيقاظك، نومك عميق لدرجة أنني فكرت أن أدفئك بهذا النوم دون أن أقتلك، أيًا ما كانت الوظيفة التي كنت تقوم بها في هذا القصر فلا بد أنها كانت ترهقك بشدة.

حاولت أن أنهض فثبت الماسورة الباردة في صدري ليمنعني.

- لماذا توقفتنا؟

- لأننا وصلنا.

- إلى المدرسة؟

- لم آخذك لتوصيلك إلى المدرسة.

نظرت حولي، واستعدت الكلمات التي قالها عن قتلي.

- لا أفهم لماذا أتيت بي إلى هنا، لكني متأكد أن الأمر اختلط عليك،  
لست إلا طالبًا في مدرسة «سمعان».

- اهدأ يا «إسماعيل»، فسواء كنت طالبًا في مدرسة أو موظفًا يكتب  
النصوص في قصر فلن تكون الصدفة فقط هي ما وضعتك في  
طريقي.

- لماذا تقول إذاً إنك ستقتلني؟

- لأتوقف عن كراهيتك، لم يكن هذا سببًا كافيًا في اعتقادي، لكن  
اللعنة على الأسباب، قلت لنفسك ذلك مرارًا، اللعنة على الأسباب،  
لكني قاتل سيئ، كان لا بُدَّ أن أجد سببًا، ولهذا بحثت، ذهبت  
إلى بيت جدك وعثرت على أوراقه، وتسلمت إلى مدرسة «سمعان»  
وحصلت على النسخة الأصلية من شهادة تخرجك، النسخة الخاصة  
بالمدرسة، وسجل المتخرجين، هل تعرف ما الذي وجدته؟ السجل  
الخاص بالمتخرجين كان فيه تسعة أسماء، كل الأسماء التسعة كان  
بجوارها اسم واحد: «إيلات».

- «إيلات»؟!

- في البداية، اعتقدت أن «إيلات» مؤسسة ما، ذهبت إلى القصر  
وراقبته من بعيد، شاهدت تلك المرأة تخرج وتدخل في سيارة، لا  
أحد يخرج ويدخل غير هذه المرأة وبعض الموظفين، وتكلمت  
مع الحارس، لم يكلفني الأمر أكثر من علبة سجائر لأعرف اسمها:  
الدكتورة «عالية»، وعندما سألت الحارس عن «إيلات» فقال إنه لم  
يسمع بهذا الاسم.

- لماذا تخبرني بهذا كله؟ لماذا تبحث عني في الأساس؟

- في الواقع يا «إسماعيل» أنت تتكلم مع أغبي قاتل خلقه الله، نعم، عندما وضعوك بيدي في المرة الأولى كنت أبحث عن فتاة، «إيلات»، الوصول إليها كان سيغيّر حياتي تمامًا، وعندما أيسست وضعوك في طريقي كإشارة جيدة للوصول إليها، لكني لم أنتبه، على الرغم من أنني أوصلتك إليها بنفسني، وجودك سبّب لي الفشل في مستويات كثيرة يا «إسماعيل»، أنت أفسدت حياتي، أفسدت مهامني، وخدعتني، وسخرت مني.

كانت يده ترتعد من الغضب واليأس، ولكني لم أكن خائفًا، بل مضطربًا، حائرًا، شعرت بالقلق على «إيلات»، لكنها في إسبانيا، وأنا سأموت، وعندما أموت لن يعود بإمكانني أن أشعر بالقلق ولا بالحب، كانت برودة السلاح على جبهتي لا تجعلني أشك لحظة أنه السلاح الذي سيُنهي حياتي، لا تبدو لمستته كلمسة يد باردة، أو قطعة من الثلج.. لفحت ذاكرتي برودة أشياء كثيرة من حياتي: الندى والسمك الخارج من الماء والعشب عند البيارات وأرضية المطعم في الشتاء على قدميّ الحافيتين، وطعم الهواء في صدري في المرة الأولى عندما طلبت مني «إيلات» نصًا إبروتيكيًا، كل شيء كان باردًا في حياتي، ثم أدركت السر في تلك البرودة، سرًّا جعلني لا أكره «حسين» في هذه اللحظة حتى لو كان قاتلي، لقد عشتُ طويلًا جدًّا، وكلها أوقات لم تُكن ملكي، جئتُ متأخرًا في كل مرة، والرصاصة التي سيطلقها «حسين» قد انطلقت بالفعل، سمعت دويها وشعرت بوطأتها على جبهتي، الدائرة التي رسمتها، والمسار الذي مرت من خلاله في مخي، رصاصة باردة؛ لأنها انطلقت من وقت بعيد، ثم شعرت بالرغبة في أن أقيء، هجمت الروائح وأحاسيس الجلد، ضُبت فوق رأسي حياة كاملة، أكثر من حياة، ذكر وأنثى، الطعن في اللحم والرغبة الجارفة في الاحتواء بين الفخذين، واحتشد في فمي جنود من لعاب كلهم متأهبون لتذوّق طعم مئات الأشياء التي كانت على وشك أن تأتي، احتشدوا ودفعوا شفتي ليخرجوا ويتساقطوا، وأخذ جدار معدني يتحرك كبطن

دودة تحفر في الذاكرة.

وبعد الموق الذين دفنهم «حسين»، بل أكثر، انبعث رجال وأحاطوا بنا في بطاء ونظام شديدين، وكانت رؤيتهم أشد وطأة على «حسين»، لم يهاجموا رؤيته فقط، بل روحه، اقتربوا منا، وعندما لمس واحد منهم يد «حسين» وربت آخر على كتفه ساد الظلام.

\*\*\*

فيما بعدُ، أخبروني أن «حسين» قاومهم، حاول الهرب، أسقط أربعة رجال في طريقه قبل أن يتمكنوا من السيطرة عليه، ثم أعطوه عقارًا منومًا ليقفوا نزيف السباب الذي سال من فمه.

استيقظتُ في مكان رطب تملؤه روائح كثيرة وغريبة، وعندما فتحت عيني رأيت سقف الغرفة التي أكتب فيها الآن، مستكشفًا وضعي ببطاء، كان الباب مفتوحًا، والممر أبيض، والضوء الذي يأتي منه يجعل عيني تدمعان، سمعت صوتها في الممر، ورأيت ظل من تتحاور معه، حسبتها جزءًا من حلم، لكنها دخلت، لم تغلق الباب خلفها، تحركت بثقة سيدة تعرف كيف تجذب النظر، جاءت ومدت يدها لتصافحني:

- مرحبًا يا «إسماعيل».

على الرغم من الضوء الخافت، كان وجهها قريبًا بشكل لا يدع للشك مكانًا، الوجه الذي جعل قلبي يدق والدنيا تدور بي، آخر شخص أتوقع وجوده في هذا المكان، وجه «إيلات».

جلست على مقعد بجانب فراشي، ثم قالت وهي تبسم:

- لا تنظر إليّ هكذا، لست هنا للتحقيق معك في جريمة قتل.

قلت بلسان ثقيل لا يطاوعني:

- إذًا أنت هنا لمناقشة الطريقة التي أفصل إعدامي بها؟

سهلت ضحكتها وضايقني هذا، فقلت لها هامسًا:

- لماذا قطعت مشروع سفرك إلى إسبانيا وجئت إلى هنا؟

اندهشت، ونظرت لي بنظرة غريبة:

- إسبانيا؟! يسمع منك ربنا.

قالت ثم تنهدت وكأنه أمل بعيد:

- في الواقع أنا هنا لزيارتك والاطمئنان عليك.

- أنا بخير، هناك شخص حاول قتلي ولكني بخير.

- من؟

- «حسين»، السائق الذي كان يقوم بتوصيلي، ولولا أن رجال

الشرطة...

انتبهتُ عندئذ أنني لست في مستشفى ولا في مركز للشرطة، فاعتدلتُ  
جالسًا وسألتها:

- أين أنا؟

ابتسمت برقة وهي تقول:

- أنت معي.

- هذا يكفيني.

عدتُ للرقود عندما هاجم الصداع رأسي، ثم سألتها من دون أن  
أفتح عيني:

- لماذا حاول «حسين» قتلي؟

- أنت شخص مهم يا «إسماعيل»، الجميع سيحاولون قتلك، يجب  
عليك أن تعتاد على هذا.

تذكرتُ عندئذ أن «حسين» يبحث عنها فهتفتُ:

- كوني على حذر أنتِ أيضًا، «حسين» يبحث عنك لسبب لا أعلمه.

سمعت حركتها وهي تقوم:

- اطمئن عليّ يا «إسماعيل»، هذا كارت به رقم تليفوني إن أردت أن

تتصل بي في أي وقت.

- ألن تأتي مرة أخرى؟

- إن أردت، ولكن أولاً لديك قائمة طويلة من المحظورات وضعها الأطباء، وعليك أن تتبعها، في الزيارة المقبلة أتمنى أن تكون في خير حال.

- أين أنا؟

- أنت في المقر الرئيسي للجنة الاختبار يا «إسماعيل».

\*\*\*

الليلة الأولى التي قضيتها في الغرفة كنت أفكر في موضوع واحد، لقائي «إيلات»، اللقاء الغريب، لا شك أن رؤيتها سممت قلبي بعد أن وطنت نفسي على غيابها، وطافت أسئلة كثيرة في فضاء ذهني الخاوي، أسئلة جائعة مع غياب الإجابات، استحالتها بلفظ أدق، ولكن ليس هذا ما فكرت فيه، بل فكرت في نظرتها، كانت «إيلات» تنظر إلى وجهي وعيني من دون أن يبدو عليها أنها رأني من قبل. لماذا عاملتني بهذه الرقة الغريبة، وفي الوقت ذاته تجاهلت تاريخنا المشترك، كأنها لم ترني من قبل؟! لماذا قدمت نفسها لي باسم آخر غير «إيلات»؟ فعلى الكرسي الذي كانت جالسة عليه تركت كارتاً مطبوعاً بخط ذهبي، عليه رقم تليفون أرضي واسم الدكتورة «عالية»، مُحاضرة الأدب العربي بجامعة عين شمس، لم أندesh، لقد كشف لي «حسين» هذا الجزء من الكواليس، ولكن ما اللعبة هذه المرة؟ وهل ينبغي عليّ أن أجاريها؟ وكيف؟

في صباح اليوم التالي، زارني أستاذ «سمعان»، لم يصادفني، مكث قليلاً، لكن وجوده قلل من غربتي التي شعرتُ بها بعد زيارة «إيلات»، أو الدكتورة «عالية»، ثم «د»، الرجل الذي اختبرني قبل خمس سنوات، ناداه الحارس بـ«سيادة المدير».

كنت مشوشًا، واضطرت لارتداء نظارة شمسية لأخرج إلى الساحة في اليوم الثالث، وفي الساحة فوجئت بوجود شخص آخر سبقني إلى الخروج هناك، يرتدي نظارة شبيهة، لم أتعرفه في البداية، لكنه عرفني.

وحاول قتلي للمرة الثانية، ولكن خنقًا، كان «حسين».

\*\*\*

- لماذا قُلتِ إن «حسين» لن يستطيع قتلي؟

- لديّ أسبابي.

- أسباب لم يأتِ الوقت بعد لأعلمها؟

- لا تتعجل.

- هل تعرفين أنني أحيانًا أفكر في أن هذا الغموض كله لا يفسره إلا شيء واحد فقط.

- ما هو؟

- أنني ميت الآن، يبدو هذا لي كتفسير لكل شيء، الخفة التي شعرتُ بها عندما استيقظت، لون جلدي الذي لا يشبه آخر مرة رأيته فيها في القصر، وعينا المرهفتان للضوء المبهر، نصوبي التي لم أعثر عليها، والعزلة التي وضعتوني فيها، كابينة التليفون، وصوتك في الهاتف.

- وكيف تموت من دون أن تتذكر؟

- «حسين» أطلق رصاصته، لكنني لم أسمع دويّ رصاصة، يقولون إن المقتول لا يسمع دوي الرصاصة التي تقتله، ولو كنتُ متأكدًا أنه أطلق رصاصته فسيكون هذا هو الدليل على أنني مت بالفعل، وانتقلت إلى الجنة.

- الجنة مرة واحدة!

- الجنة توجد في البرزخ أيضًا، لا أعلم كيف يجعلون القتلى في الجنة

يعرفون أنهم قُتلوا، ولكن أعتقد أنه لا توجد طريقة أجمل من هذه، كراهية قاتلي في غرفة بجواري لا تستطيع أن تقتلني مرة أخرى، وشخص مألوف يقنعني أنني حي ثم يتدرج معي في كشف الحقيقة، وعندما اكتشف أنني ميت ولم أعد في الدنيا يرفعون الجدران عن مساحة الجنة الشاسعة ونعيمها.

- إذاً كيف الحال حولك الآن؟ هل انزاحت الجدران؟

- لا، فأنت لم تخبريني بالحقيقة بعد.

- وهل أنا مألوفة لك؟

- بالطبع.

- لأي درجة؟

- لأقصى درجة.

- هل أشبه أمك أم جدتك أم مدرسة اللغة العربية في المرحلة الابتدائية؟

قهقهت:

- لا.. بل مدرسة الحساب.

قالت متذمرة:

- أكره الحساب.

ثم قالت بجدية:

- هيا يا «إسماعيل»، تعلم أن الميت، سواء أكان ميتاً على سريريه أم قتيلاً، يُدفن، ويُسأل، ويرى مقعده من النار أو الجنة، ويعذب في القبر أو يُنعم، ما تقوله افتراض مضحك، هل لديك تفسير آخر؟  
- لديّ تفسير مستحيل بعض الشيء.

- ما هو؟

- أنكم فقدتم الذاكرة، جميعكم فقدتم الذاكرة، وأنا الوحيد الذي

يحتفظ بذاكرته وذكرياته.

لَيْسَتْ قَلِيلًا حَتَّى فَهَمْتُ، ثُمَّ صَهَلْتُ ضَحَكْتُهَا:

- بالله عليك! هذا افتراض أسوأ من سابقه، دخول الجنة أسهل.

- إِذَا فَلَا يَوْجَدُ تَفْسِيرٌ؟

- بل يوجد.

- ما هو؟

تَرَدَّدْتُ قَلِيلًا قَبْلَ أَنْ تَقُولَ:

- قَرِيبًا يَا «إِسْمَاعِيلَ»، سَنَتَحَدَّثُ كَثِيرًا، وَسَأُخْبِرُكَ بِكُلِّ مَا تُرِيدُ.

\*\*\*

## «عالية» - أستاذة الأدب العربي

العالم ليس بسيطاً كما يبدو عليه، حتى لو ظهر بسيطاً مع تذليل المستحيلات لخلق معجزة بحجم قدرات البشر، الصعود للفضاء، عاصفة في فنان، أو طفل أناييب، أو أول رسالة أرسلت بلغة مورس، ما الذي قالته أول رسالة بلغة مورس: «زوجتك في مرحلة نقاهة»؟ لا، لا، «ما فعل الله»؟ نعم، وما بين «نقاهة زوجتك» و«فعل الله» مصاعب يجب تذليلها، ومن ضمن هذه المصاعب: التقريب بين عقليْن كعقلك يا «عالية» وعقل «سمعان».

- كل عضو في اللجنة لديه اعتراضات على طريقة العمل يا سيادة المدير، وعليه أن يتلعبها بجرعة ماء أو من دونها، لمصلحة القضية ليس إلا، بدلاً من أن يتصرف بتلك الطريقة.

- لا أتكلم عن الاعتراضات يا دكتورة «عالية»، صاحبك مصدوم مما فعله «حسين» معه؛ فمن الضروري أن تكون الأمور بينك وبينه جيدة، وإلا لن يأتي مرة أخرى، «سمعان» شخص عنيد، ولا أحد في هذه المنظومة يستطيع إجباره على المجيء ضد إرادته.

- أولاً: «سمعان» ليس صاحبي، ثانياً: هذا أفضل، أنا أقول إن غيابه أفضل، بل وسأخبرك بما أعتقد، خطوط السيد «سمعان» الحمراء وهو أجسه هي ما ستفسد التجربة.

- هذا القول مبكر جداً يا بروفيسير، كلنا نتوقع الفشل في التجربة الأولى، حتى من اخترعوا العقار.

- أفهم، مع أن ذلك لا ينفي أنه كانت هناك إمكانية لحدوث معجزة، خاصة مع قوة النماذج ونقائها، لولا «سمعان».

- معجزة! نحن في زمن شرير أستاذة «عالية»، وبِشْرٍ نعالج بعضنا

من شرّه، كلنا لدينا هواجس وخطوط حمراء، ليس «سمعان» وحده، هيا، الحقي به، إنه رجل طيب، سترضيه أي كلمة.

- منذ قليل كنت تتكلم عن صلابة رأسه.

- نعم، هاتان صفتان لا تنفصلان.

- ليست هذه هي المرة الأولى يا سيادة المدير، لكني أفكر هذه المرة جديدًا أن أخبره أن الطريقة التي يتجاهل بها نداء الناس لا تجعله مهمًا بقدر ما تثير شفقتهم.

- أعلم أنك لن تفعلي، أنت عاقلة.

- بمناسبة العقل، متى سنخبر «حسين» و«إسماعيل» بالحقيقة؟

- عندما يكونان مستعدّين لها، وهذا يتوقف عليك وعلى أستاذ «سمعان»، على علاقتك بـ«إسماعيل» وعلاقة «سمعان» بـ«حسين».

- وهل من الضروري عزلهما عن العالم الخارجي هذا الوقت كله؟

- هذه توصيات العلماء، قالوا إن العزل ضروري لمعالجة الآثار الجانبية، «حسين» و«إسماعيل» لا يستطيعان الخروج إلى العالم الآن، لا أحد يعلم ما الذي شاهداه في أثناء إجراء التجربة عليهما، لا بُدَّ أن يتطهرا، ينسيا قبل أن يعودا لحياتهما، وإلا اختلط عليهما كل شيء، ما عاشاه حقيقة، وما شاهداه، التعليمات تقول ذلك، يجب أن يناما بعمق، ويحلما، يطالعا ويمارسا الرياضة والحب، هذا مذكور في نسخة التعليمات المترجمة حرفيًا عن النسخة الأصلية.

- النسخة الأصلية! نُعدهما لتجربة مقدسة بتوصيات لا تخلو من ريبة يا سيادة المدير!

- توصيات الخبراء يا دكتورة.

- نعم، للأسف، كلما تذكرت ذلك تذكرت خيبتنا، اليهود يستنبطون علماء ونحن نستنبط أنبياء.

- اليهود لا علاقة لهم بالمشروع يا دكتورة «عالية»، ثم إن هذا

عادل إلى حد ما، لا تنسي أن أكثر من نصف أنبياء الدنيا من نسلهم،  
لقد اكتفوا وشبعوا، بينما نحن لا نزال في أول الطريق.

ثم دقة على المكتب الخشبي وتهديد مشوب بابتسامة:

- ثم إن هذه الجمل الاعترافية ليست في صالحك كعضو رئيسي  
في اللجنة.

- ليس بإرادتي يا سيادة المدير، لا أطيق هؤلاء القوم، اعتبرها  
وراثة، لا تنس أن جد جد جدي كان فلسطينيًا.

- لم أنس.. والآن، هل ستلحقين بأستاذ «سمعان»؟

- قبل أن أفعل، أريد إجابة عن سؤال.

- أي سؤال؟

- متى يمكنني إخبار «إسماعيل» بالحقيقة؟

- وقتما تشائين، مع تحمُّك المسؤولية الكاملة.

علاج الآثار الجانبية للعقار! هل هي جملة كافية لتبرير حبس اثنين  
من المواطنين، كُلُّ في زنازة منفردة؟ يجب أن يخرج هذان الشابان إلى  
العالم، يجب أن يستيقظا.

هذا ما كانت «عالية» مقتنعة به، نظرات «إسماعيل» المخدوع،  
والكبرياء الجريئة التي يتعامل بها «حسين» مع الجميع، من يدري؟  
ربما تكون تلك الآثار الجانبية هي ما يحتاجه اكتمال التجربة، حتى  
لو كان اعتقادها هذا سيسبب لها المشاكل في مجال عملها، فلن  
يكون أسوأ من علاقتها المتوترة بـ«سمعان»، ورأيها في العلماء اليهود  
الذين استنبطوا العقار.

اتجهتُ رأسًا إلى حجرة «إسماعيل» في الجزء البعيد من المبنى،  
دقت باب الغرفة وسمعت صوته يقول: تفضل.

كانت ترتدي ثوبًا أبيض، وتضع عطرًا مميزًا، انتبهتُ لهذا الآن  
فقط عندما رأت «إسماعيل» جالسًا على منضدة الكتابة فخفق قلبها

خفقانًا مثيرًا، لكنها وأدته، لا ينبغي للعالم أن يقع في حب تجربته.  
في الضوء الكابي للغرفة، تفحصها «إسماعيل»، ابتسمت له، فسألها  
بدهشة:

- من أنت؟

- أنا الدكتورة «عالية» يا «إسماعيل»، ألا تتذكرني؟

\*\*\*

تفخر الدكتورة «عالية» أنها تمتلك قلبًا قويًا، صاغته حوادث لا  
يمكن لأنثى شرقية أن تخوضها وحيدة، خاصة إن طُلِّقت في سن مبكرة،  
ولادة ابنتها من دون أن يرافقها أحد، والتعرض طيلة حياة كاملة  
للتحرشات والمضايقات التي لا تخلو منها حياة أنثى جميلة، فضلًا  
عن فائقية جمالها، صمدت بلا خدش يُذكر، ولكن كل ما تعرضت  
له لم يصددها بالقدر الذي شعرت به مع نظرة «إسماعيل» بعد  
أن أخبرته باسمها، وطريقته في الكلام وهو ينتفض قائلاً:

- لا.. لست الدكتورة «عالية».

في لحظة واحدة، فقدت الدكتورة «عالية» صوتها، فقدت أبعاد  
المكان، جغرافيته، أين تقف؟ استعادت فزع الصغار عندما يتوهون،  
أو يقابلون مجنونًا لأول مرة في الشارع، استعادت كل حواراتها الهاتفية  
مع «إسماعيل»، ضحكاتهما، وتساءلت: كيف رآها «إسماعيل»؟! ما  
سبب صدمته؟!

استدارت الدكتورة «عالية» وانصرفت، كأنها أخطأت الباب في مكان  
عام، شعرت بالخزي، وقاومت دموعها وهي تسير في الممر حتى  
وصلت إلى مدخل المبنى المهيب.

زيارتها تلك أودت بـ«إسماعيل» إلى حافة الجنون، والأيام التالية  
ملأها بالهياج والصراخ والدق على جدران غرفته، فمُنعت الدكتورة  
«عالية» من زيارته والتحدث معه في الهاتف، وكأنها ارتكبت خطيئة

لا تُغتفر.

عزّاها مدير المؤسسة:

- ما فعله «إسماعيل» معك يا دكتورة «عالية» أقل بكثير مما حاول «حسين» فعله مع «سمعان»؛ فبمجرد استيقاظه ومعرفته بهوية مُحدّثه حاول أن يقتله.

لكنها لم تفرح بالتعزية بقدر ما أغضبتها، لماذا أنكرها «إسماعيل»؟ كأنها لا بُدَّ أن تعرف حكايته من جديد.

ما قامت به الدكتورة «عالية» طيلة يومين لم تحبه ولم تحبّه، لكن كأنها حُبست برفض «إسماعيل» الكلام معها، فقررت أن تجعل هذا الحبس ماديًّا، اعتذرت عن عدم الذهاب إلى العمل وأغلقت على نفسها باب غرفتها، واحتاجت إلى كثير من التجريد والقسوة لتفكر، إنها تعلم أن «إسماعيل» فقد وهماً، وهي تملك حقيقة هذا الوهم، ولكن من يحتاج إلى الحقيقة للتعامل مع احتياجاته العاطفية، الوهم هو ما نفقده في الناس، مجازهم لا حقيقتهم، فما فقدته في والدها عندما مات لم يَكُن والدها، وإنما لحظات سعادتها معه، لقد مرت بهذه اللحظات من قبل عندما فقدت أباهَا واكتشفت خيانة زوجها، وتعلم أن الاقتراب من «إسماعيل» في هذه اللحظات خطر، كالاقترب من الحيوانات الجريحة، ليس لأنها تعضُّ أو تعقر، ولكن لأن الإنسان الجريح يث حبه كالعدوى، كالطاعون، وهي لا تريد أن تقع في حبٍّ لا طائل من ورائه.

في صباح اليوم الثالث، أرسل لها مدير المؤسسة خطابًا كتبه «إسماعيل» إليها، ورقة شطب فيها أكثر مما كتب:

لا أعرف كيف أخبرك بالأمر، لكن السيدة التي زارتني منذ يومين ليست أنتِ، أعرف ذلك ولم أنس وجهك منذ رأيته في اليوم الأول في لقائنا، وإن كنتِ أنتِ في الحقيقة من زُرتني في المرة الثانية فسيكون الأمر أصعب من أن يتحمّله عقلي، ولا يقدر أن يقوم بهذه الخدعة

إلا الله أو الشيطان؛ فالقاء الشبه لعبة شيطانية أو إلهية، وبسببها أعدم أشخاص لا علاقة لهم بما أعدموا من أجله على مر التاريخ، وإن كان لا بُدَّ من إخبارك فأخبريني أولاً: هل قُتل سيدنا عيسى على الصليب أم شبيهه؟ وهل السيدة ذات الأعوام الخمسين التي زارتني، ترتدي نظارات، وبها لفحة من سمار، هي أنت أم شخص آخر؟ أرجوك، سأجنُّ، أو أرسلني لي صورة حقيقية لكِ كما رأيته منذ أسابيع، صورة شبيهة بوجهك الذي أعرفه.

## «حسين» - القاتل

كان يزوره ذلك الرجل الذي يطرح عليه سؤالاً واحداً ويسجل إجابته وينصرف، كل يومين:

- ما الذي ستفعله عندما تخرج من هنا؟

في المرة الأولى، حدق «حسين» في عينيه ثم قال بلهجة يطفّر منها الحقد:

- سأقتل «إسماعيل»، سأقتل أولاد الزواني، ومنهم الرجل الذي أرسلك، وقد أقتلك أنت أيضًا.

اضطروا إلى تكتيفه، وظل يسب كأنما انتابته حمى، ونام نومًا عميقًا.

عندما استيقظ، كان أهدأ حالاً، شعر «حسين» بأنه أصبح خاوياً من التضادات والمترادفات التي أعمته عن رؤية الشروخ الدقيقة، أعمته عن حقيقة موظف الخروج على المعاش الذي التقاه في بداية توظيفه، وأعطاه كتيب التعليمات، وجهاز الاستقبال، وحكى له بضع ذكريات عن القتل، الآن فقط يدرك أن هذه الذكريات عن القتل كاذبة، وأن الرجل لم يقتل إنساناً في حياته، مجرد عامل تسليم مخادع، بينما الأخبار التي أدمن مطالعتها قبل أن يسجنوه تُظهر كيف يكون القاتل، وكيف يكون الموظف القاتل، ومن بين مئة، بل ألف، من القتلة ظهرت صورهم على المواقع، وتداول الناس أسماءهم كبصقة يوجد موظف واحد، موظف تلو آخر، لهم نظرات متشابهة، نظرات لا تستجدي، نظرات أشخاص يعرفون قيمة أنفسهم جيداً، لكنهم خُدعوا، وفقدوا السيطرة وضحّو بهم، أسلافه الذين سبقوه.

لكن ساعته لم تجن بعد، تنبئه بذلك الطريقة التي أمسكوه بها والغرفة التي يحبسونه بها الآن، غرفة صغيرة بلا قضبان، نافذة يمكنه كسرها بضربة واحدة أو بالأثقال التي زوّدوه بها لممارسة رياضته، وحارس ضعيف، موظف أكثر منه حارسًا، على أسوأ تقدير سيتدرجون في سجنه والتمثيل به، وحتى ينضم وجهه إلى تلك الوجوه المميزة، خلال شهر أو شهرين، لن يقتلوه، أولًا: سيدير المجتمع عن القتل والقتلة الملوئين بالدم حديثًا شائئًا مليئًا بالكفر والتجديف، ثم سيرتقي إلى السماء عندما يرغب في الموت، كربة نبي أو رسول، وبوسيلة أقل سهولة عن القتل برصاصة، لا يزال جزء كبير من الحياة بانتظاره وعليه أن يعيشه بكل مخاطره.

- أريد أن أعود لمهنتي، أخبرهم بذلك، عندما أخرج من هنا أريد أن أعود لممارسة مهنتي.

سجل الرجل إجابته في حيادية كلمةً كلمةً وانصرف، لم يتم «حسين» بعد أن انصرف، ظل يمارس الرياضة بعنف أقرب إلى الشبق، بعنف حتى ارتجفت عضلاته وتجاوز بها نقطة الوهن والرضوخ، وشعر بالخفة، لدرجة جعلته قادرًا على أن يرى مستقبله بوضوح تام، سيعيش طويلًا، أطول مما يتوقع هو ومما يتوقع من سجنوه، سيقتل أكثر مما قتل حتى يصبح الأمر كما قال له «إسحاق»: رغبة شاذة تمامًا كأن تحلم بمعاشرة أمك أو أختك وتشعر بالمتعة في ذلك.

بعد ثلاث ساعات من التمرينات نام، نام نومًا أعمق مما نام في حياته كلها.

- ما الذي ستفعله عندما تخرج من هنا؟

- أريد أن أزور قبر أبي، وقبر أمي.

لم يرتعد وجه الرجل شفقةً وهو يسجل الإجابة؛ فهو لا يعرف «حسين»، ولا يعرف أن أباه وأمه لم يموتا بعد، لقد أمره أن

يسجل الإجابات إلى أن يصل للإجابة المنشودة..

في المرة الرابعة أجاب:

- قل لهم: أريد أن أصبح أنا موظف تحرير الأظرف، أريد كتابة الأسماء، أستطيع أن أفعل ذلك بكفاءة، أعرف التهم وأعرف كيف تنطبق هذه التهم على الأشخاص، لن أخطئ.

ولم يسجل الرجل الإجابة، ليس لأنها طويلة، قال في شك:

- لم تعد تريد أن تقتل أحداً؟

لا، لم يعد يريد أن يقتل أحداً، كم شخص يمكنه أن يقتله في حياته بطريقة أيامه الخوالي! كم ظرف يمكن أن يكتبه في هذه الحياة بالمقابل! وربما يكرسون تحت يده عشرات القتلى، سيكتب الأسماء لهم بخط لا حد لروعته، بلا خطأ.

و«إسماعيل» أيضاً لم يعد يرغب في قتله، حتى بعد أن عرف أنهم وضعوه في الغرفة المجاورة، ببكائه المثير للشفقة، المخزي لرجل، وصرخاته ونداءاته على أشخاص وهميين، التي لا تليق إلا بمجنون، حتى يُبَح صوتَه وتخفت قوته.

لا ينفك عن جملة واحدة يقولها:

- «إيلات».. «إيلات».. لماذا تركتني؟

\*\*\*



## «عالية» - أستاذة الأدب العربي

الرسالة الأولى (من الدكتوراة «عالية» إلى «إسماعيل»):

أعلم أنك ستلغني بعد قراءة هذه الرسالة يا «إسماعيل»، لكن كيف يمكن أن تُقال الحقيقة إن كانت بهذا التعقيد؟ وكما قلت من قبل، إنها سعادة لم يَكُنْ مقدَّرًا لها أن تستمر، أنت لم تلتقِ هذه المرأة، لم تعيش في القصر معها، كل ما عشتَه كان حلمًا، حلمًا بالمعنى الحرفي، بعد أن وضعك أطباؤنا وعلمائنا في سبات طويل، هذه التقنية التي استنبطها الغريون لحل مشاكل العلم المستعصية، ويحلون لي أن أسميها «الحل بواسطة الحلم».

لا أفهم في الأجزاء العلمية على الرغم من أنهم شرحوا لي من جوانبها الكثير، وبالنسبة للأحلام فمعلوماتي بسيطة، أعلم أن الإنسان يمكن أن يحلم في الليلة الواحدة ما يقرب من ثلاثة إلى خمسة أحلام وربما أكثر، ومن المنطقي أن ترتبط هذه الأحلام ببعضها، والعلماء استطاعوا التحكم في طول مدة الأحلام في أثناء النوم، بل والتحكم بمحتواها، يستخدمون لذلك حبوبًا قريبة من حبوب «الباربيتورات» لجعلوا الأحلام أقل هلوسة وأكثر واقعية، كما أن مزيجًا من «البنزدرين» المنبه و«النيومال» المسكن (لاحظ طرقي النقيض) يستطيع أن يوقعك في نوم طويل بلا أحلام، والحرمان من الأحلام في أثناء النوم يُضاعف مدة الأحلام في فترة النوم التالية، أي أن نومًا هادئًا بلا أحلام سيوقعك في فترة أحلام أطول في الليلة التالية، والباحثون يقولون إن باستطاعتهم فعل الأمر المضاد، أي صنع أحلام خلال فترة النوم كلها، من دون المرور بمراحل النوم المختلفة، واليقظة النهائية.

الفترة التي نمت فيها يا «إسماعيل» اختصرنا خلالها سنين من التعليم والإقناع لصاحب الموهبة الجديرة، وهو أنت و«حسين»، عقلاك أنت وهو كانا في حلم واحد، حلم تفاعلي إن صح إطلاق اللفظ، وكنت أنا وأستاذ «سمعان» نلقنكما ما نرغب فيه عبر فترات تداخل قصيرة، الأستاذ «سمعان» باعتبار التلقين الديني وأنا باعتبار التلقين الأدبي.

ولكن لماذا؟ لماذا فعلنا بكما هذا؟ الإجابة ببساطة: التجربة تمت لتهيئكما لكتابة نصوص تُجمع في كتاب ديني سنعده بحيث يأخذ المكانة الأولى عند المسلمين، كتاب يحتوي على تعاليم القرآن وحكاياته وقصصه، يمكنك أن تقول: مشروع لإعادة كتابة القرآن بلفظ بشري، لفظ قريب جدًا من اللفظ الإلهي، لكنه قابل للبقاء على الورق.

الأستاذ «سمعان» يراهن على «حسين» أقوى مما أراهن أنا عليك، على إنقاذ العالم الإسلامي، النتيجة كانت أفدح مما تخيلنا جميعًا يا «إسماعيل»، رفع الحروف أزاح ثقل العالم إلى وضع انحراف لا يمكننا جميعًا تقبله، والحكايات عن نهاية العالم دفعت العقول إلى الوضع المتفجر، الأخبار ليست كما تسمع وكما ترى، يوميًا هناك أرقام عن قتلى أبرياء وغير أبرياء، هناك تهديدات من دول كبرى باستعمال الأسلحة ضد دول عربية كثيرة امتلأت بالجماعات الأصولية التي تنادي بجهاد آخر الزمان، الوضع ملتهب ونحن نحاول هنا إيقاف عداد يوم القيامة بمعناها الحرفي.

كما قلت لك، كان مقررًا أن تقوما، أنتما الاثنان، بتأليف النصوص، ولكن في أثناء خضوعكما للعقار رفض أحكما الاتصال بالآخر، أحكما أو كلاكما، مؤشرات الرفض لدى «حسين» كانت أقوى، وتمثل هذا الرفض في إخضاع رجل في الحلم يسمى «إسحاق» (حتى الحلم له قانون، لاحظ التشابه بين حروف إسم إسحاق وحروف

اسميكما)، لهذا قررت اللجنة أن واحدًا منكما فقط هو من سيكتب النص الذي نرغب في كتابته، وبدا هذا أنسب للمشروع كأنها فكرة كانت تائهة عن الجميع.

«سمعان الشنقيطي» يقول إن «حسين» هو الأنسب للكتابة؛ فقد تعلّم اللغة وأصولها بشكل جيّد على يد عمه الفقيه الأزهري الصعيدي، وعنده عناية باللفظ وتفانٍ يجعل من المستحيل أن ينسب جهد الكتابة لنفسه، عكسك تمامًا، أنت نرجسي، والتوقعات كلها كانت تشير إلى أنك سترفض إلا إذا وعدناك أن ننسب الكتاب لك في مرحلة ما من حياتك، لكنني استطعت إقناعهم بأنه يمكنك التضيعة وأنت الأفضل، أنت أقل تحررًا من المخاوف وأكثر حبًا، وهذا ما نحتاج إليه، كتاب في الحب وليس في الحيادية.

هذه هي المناقشات الأولية، ولكن يمكنك القول يا «إسماعيل» إن الأفضل لكتابة النصوص ستتحكم في اختياره أمور عدة، أنت من استيقظ أولاً، وهذه نقطة في صالحك، لكن الأطباء قالوا إن «حسين» هو من أيقظك، هذه نقطة جيدة جدًّا في صالحه هو، وكادت ترجّح كفته، لكن من الواضح أن «حسين» هو من قتل «إسحاق»، وهذه صفة سيئة، صفة الإقصاء، القتل، في النهاية وبعد مناقشات طويلة مضنية اختلفنا أنا وأستاذ «سمعان» فيها اختلافًا أدى إلى الضغينة، اتفق رأي اللجنة على تعويم القرار باختيار أحدكما، وترك الأمر لمجهودي أنا و«سمعان».

والآن يا «إسماعيل»، بعد ما عرفته، أتمنى أن توافق، نحن نقدّم لك فرصة على طبق من ذهب، فرصة حياة حقيقية، الخلود في ملعقة من فضة، حياة مليئة بالكفاح والمخاطر، ولا تظن أن وجود الأستاذ «سمعان» معنا سيمنع الأصوليين من مهاجمتنا وتكفيرنا، لكننا وضعنا قصة حياة مقنعة ووافية لك، هل تعلم يا «إسماعيل» عدد الكتب التي كتبها المسلمون بعد القرآن، والصحاح، والمسانيد،

وظل المسلمون يقدسونها في وجود القرآن؟ كتب كتبها أصحابها  
بمجهود فردي، ومع وجود تاريخ مشرف، لكن كتابنا، كتابك أنت،  
ستتوافر له مزايا لم تتوافر لكتاب منها.

اطمئن، سنكون خلفك يا «إسماعيل»، على مسافة آمنة، نساعدك  
على تجاوز كل معاركك منتصرًا، وما سيقوله المنصفون عنك في  
النهاية هو الفيصل: السيد المبجل، الذي جعل بكتابات من العالم  
مكانًا أكثر سلامًا، لغته التي فككت لغة التعصب كما تُفكك قنبلة  
موقوتة، سترقب عينك المدينة التي ستنشأ في الصحراء حول مدرسة  
«سمعان» عندما تصبح مُلهمًا من ملهمي الطلبة فيها، والمدينة  
الصغيرة التي ستقوم على عظامك ودمائك وذكرياتك حولها، كلها  
ستقوم على أكتاف النص الذي ستكتبه في الحب، إليها، إلى سيدة  
القصر التي رفضت أن تخبرني باسمها.

\*\*\*

الرسالة الثانية (من «إسماعيل» إلى «عالية»):

حلمت حلمًا سخيًّا، طويلًا جدًّا، أطول من أن يكون حلمًا، بطول  
ست سنوات، الحلم كان حقيقيًّا، ولو أن شخصًا ما طعنني في الحقيقة  
ما تألمت عند استيقاظي كما تألم الآن، وألمي هذا دليل على أنكم  
أحسنتم، وأرى أن مهارتكم لم تفقد حداثتها حتى في لحظة النهاية،  
حلقتم لحيتي، وتاريخ الحائط أزلتموه لتزيدوا من بلبتي، وساعتي  
تلاعبتم بها، إنها تشير إلى الصفر، صفر في اليوم وفي الشهر وفي  
السنة، والوقت مشابه لوقت قديم ولكنكم مدسوسون في كواليسه.  
كيف صنعتُم الخدعة؟ لا تتوقعي أن أصدِّق هذه التخاريف حول  
العقار والتجربة، ما عشته بالفعل، أو ما تظنون أنني عشته، كان  
حقيقيًّا، بغض النظر عن وجودكم في الكواليس، كاللصوص، والآن  
تخرجين أنتِ منها الآن لتضعي أمامي خيارين تعتقدين أنني حر  
في اتخاذ أحدهما، ما أدراني أنكم لا تزالون هناك؟! حتى لو رفضت

وغادرت، لو أن ما فقدته من عمري كان سنة أو أقل أو أكثر قليلاً لكان من السهل اتخاذ قرار، لكنني أشعر بالسنوات الست رازحة في قلبي، كل سنة منها ملأت قلبي بالحجارة والألقاض والحطام المؤذي، هل لبثتُ نائماً ست سنوات، أم أنها مدة في الحلم؟ أنتم تتلاعبون بعقلي، وست سنوات مدة كبيرة لإجراء تغييرات اعتيادية متوقعة تسير في طريقي الخداع والحقيقة بالتوازي، مات جدي ولكن ربما تقتلونه أو تخفونه عني، سأظل ضائعاً باختياركم حتى تُخرجوني وتسمحوا لي أن أجد نفسي، وعندما تضعون أمامي خيارين، تظنون أن كليهما تأثيره على حياتي أكبر مما تتخيلون، ألا أعرف الحقيقة إلا من خلالكم، هل هذا ثمن عادل للأشياء التي قد تمنحونها لي، تبدأ بمرتب ثابت وقد تنتهي بالخلود؟ كيف تتوقعون أن تُخدع هذه الحشود التي تتكلمون عنها بكتاب يكتبه شخص مغيب مثلي، مع كونه سرّاً قابلاً للاستدراك والنقد والاحتقار؟!

هل تريدان أن تعلمي كيف أراكم الآن؟ ستندهشين لو عرفتِ، حقيقتكم أقل بكثير من مجازكم، وأنتم أقل من حقيقتكم بكثير، أنتم لصوص، سرقتم ست سنوات من حياتي، حتى لو كان التاريخ على الحائط يشير إلى عكس ذلك، هل تظنون أنني لا أستطيع إدراك الفارق بين الحقيقة والمجاز؟ أعرف ما مررت به جيداً، وأعرف كيف أتقم له، وأشعر بالرغبة في إنهاء متعتكم بشكل سيئ، في إفساد المشهد الذي سينزاح الستار عنه الآن، رغبة جارفة.

أرفض عرضكم الكريم، واسمحي لي أن أقول: أنتم مجانين، كان يمكنكم أن تطلبوا مني ذلك مباشرة، من دون المرور بتلك التجربة كما تسمونها، من دون الانضمام للمدرسة، والعمل في القصر، وانتهاي بتلك الطريقة، بل وسأخبرك بالحقيقة المرة: الحياة التي جعلتموني أعيشها بتخطيطكم هي السبب في رفضي.

\*\*\*

الرسالة الثالثة (من «إسماعيل» إلى «عالية»):

أرجوك، سأجنُّ، لم أستطع النوم، أكتب هذه الرسالة بعد ساعة من تسليمي الرسالة السابقة، هل يمكن أن يحلم الإنسان بأشياء لم يتعلمها ولم يعرفها في حياته قط؟ هل يمكن أن يرى وجوهاً يحبها ويكرهها؟ هل يمكن أن يحلم حلمًا طويلًا جدًّا، بطول ست سنوات من دون أن يدرك أنه حلم؟ حاولي أن تساعدني، أرسلني لي كتبًا، روايات، صورًا مطبوعة من الأخبار التافهة، أخبار الممثلين وجرائم القتل، أرسلني صورة من شهادة ميلادك وميلاد ابنتك، صورة ضوئية لكما في مكان به عشب وماء، اطلبي منهم أن يُخرجوني أو يقتلوني، لم أعد أحتمل.

\*\*\*

منذ زمن، نويت أن أستشعر الطعم الحقيقي للأشياء، أن أتناولها من دون محسنات، وكنت أجد عزائي في حُمى الناس من حولي وهم يتحركون، ولكن عندما أخلو بنفسى كان لا بُدَّ أن أعد الطقوس لأحقق ذلك، أنزع من كوب الشاي ملعقتي السكر، وأكتب بقلم فارغ من الحبر، مقعدي من الخشب، والأرض باردة، أتحمل مرارة الشاي، وأخربش الصفحات البيضاء لتنزف حبراً أبيض على أديمها، وأنزع من النص تشبيهاتي الناعمة المستديرة، ومن العبارات حروف الجر وأدوات الوصل، وأحتسب الشدَّة حرفاً كاملاً، وأدوس بقدميَّ الحافيتين أسفل النضد محاولاً فرملة الأرض عن دورانها.. فقط لأتمكن من كتابة نص يصف العالم من دونك.

«إسماعيل» - الكاتب



قبل منتصف الليل في اليوم الذي أرسل فيه «إسماعيل» رسالتيه،  
دق جرس هاتف الدكتوراة «عالية»، ومن الكلمات الأولى تبَيَّنَت صوت  
«إسماعيل» المرتعد:

- أعتذر عن اتصالي في وقت متأخر.

وعلى الرغم من صوتها الغارق في زبد النوم، قالت لترفع عنه  
الحرص:

- لا عليك يا «إسماعيل»، أنا أنام في وقت متأخر.

- أرسلت لك اليوم رسالتين ردًّا على رسالتك.

- سأتسلَّمهما في الصباح.

كان صوت «إسماعيل» حزينًا، خشنًا، كأنه صرخ كثيرًا ولا يجد من  
يواسيه.

- كان هذا ضروريًا يا «إسماعيل»، كان الأمر يستحق.

- اقري الرسائلتين.

- حاضر.

- كم أعطوك من وقتٍ قبل أن تخبريهم بنتيجة حوارنا؟

- كل الوقت يا «إسماعيل»، كل الوقت.

- هل يمكنني الاتصال بجدي في أثناء ذلك؟

- لا.

- على الأقل أخبريني إن كان حيًّا أم ميتًا كما أوهمتوني.

- غير مسموح لي يا «إسماعيل» بغير ما قلته لك في الرسالة.

- ولا حتى سؤال عام.

- ما نوع السؤال؟

- كنت أريد أن أسألك بصفتك أستاذة في اللغة عن معنى كلمة.

- أي كلمة؟

- هل تعدينني بالإجابة؟

- إن كانت الإجابة تهملك أعدك أن أبحث لك.

- وعدك كافٍ لي.

ثم ابتلع «إسماعيل» ريقه، سمح لها سكون الليل بسماع حركة الريق في حلقه قبل أن يقول:

- ما معنى كلمة «إيلات»؟

\*\*\*

بعد مكالمة الليل وقراءة الرسالتين اللتين أرسلهما «إسماعيل»، أرسلت له «عالية» مجموعة من الكتب التي تتحدث عن الأحلام، وصورة ضوئية لشهادة ميلادها، وصورة ضوئية لابنتها في حديقة: أرجوك لا ترفض يا «إسماعيل»، لا تخذلي، رسالتك سببتا لي صدمة، «سمعان» لم يرض بك من البداية، ويترقّب هذا الرفض ليملاً أسماع القائمين على المشروع بما سبق أن قاله عن الأدب وقيمته، هل تعتقد أن مشروعاً كهذا يمكن أن يخلو من شخص مثلك؟ أرجوك، أرسل لي بما يطمئني، اتصلت بك مراراً، لكن الحارس أخبرني أنك أغلقت الباب على نفسك وترفض الحديث. أنا أيضاً أغلقت على نفسي من شدة الإحباط، عاودتني نوبات البكاء القديمة بعد أن طُلّقت ثم فقدت أبي، ولكن كما ترى، لا مفر من أن يفني الإنسان منا بما وعد، سألتني عن معنى كلمة «إيلات»، ولأنني أتبع حدسي في أسئلة الطلبة الذين يشبهونك فلم أضيّع وقتي في أن أجمع لك معلومات عن ذلك البلد الساحلي القديم، لقد سألتني عن المعنى، وها هي ذي الإجابة:

«إيلات» كما في «قاموس الكتاب المقدس» اسم عبري معناه شجرة

البطم أو البلوط.

وفي «المعجم الجامع لما صرح به وأبهم القرآن من مواضع» لفظ «آيلة» هو نسخ حرفي للاسم القديم الوارد في العبرية التوراتية بشكل «إيلت» الذي هو جمع مؤنث من «أيل» بمعنى شجرة كبيرة أو نخلة أو غزال أو وعل أو كبش، لكن الأرجح أنها تعني واحة نخيل. كما ترى، «إيلات» تعني كل ما هو يتفرّع عند رأسه، سواء بالفروع أو بالقرون، وهذه نظرة مبدئية تحتاج إلى بحث، ولكني أرجو أن تكون مفيدة لك..  
كل تحياتي.

\*\*\*

الرد الذي أرسله «إسماعيل» كان مريئاً نوعاً ما لمدير المؤسسة، رسمياً ومبهماً:

أشكرك جداً على اهتمامك بالرد، أتمنى أن يُتاح لي الوقت عندما أخرج من هنا لأقوم بهذا البحث، والحقيقة أنني لم أرَ من معاني الأسماء التي أرسلتها إلا العلو؛ فالنخل عالٍ، والشجر، والوعول والكباش تعشق الصعود فوق المرتفعات العالية، وهذا قريب من اسمك: العالية، فهل هناك رابط بين اسمك واسم «إيلات»؟ اسم قديم لعائلتك؟ معنى لاسم قديم أو ما شابه؟

على الرغم من ذلك، ما ذكرته عن واحة النخيل جعلني تَوَّاقاً إلى معرفة المزيد عن علاقة الاسم بالصحراء والشجر والعرب القدامى، وبصفتك أستاذة في الأدب العربي لن يستلزم الأمر مجهوداً طائلاً. طلب صغير أرجو ألا يكون وقحاً: أرجو أن ترسلي لي صورة لك، صورة ضوئية واضحة.

\*\*\*

الرسالة التي أرسلتها «عالية» بعد هذه الرسالة كان مدوناً بها قصائد

كثيرة من قصائد العرب عن الصحراء، وصورة حديثة واضحة لها حرص مدير المؤسسة على محو التاريخ في خلفيتها:

لماذا يورك هذا الاسم للدرجة التي تصرفك عن مناقشة ما تحدثنا بشأنه؟! وعلى كُلٍّ، على الرغم من غرابة طلبك، فإنني لا يمكنني إلا أن أستجيب له، على وعد بأن تخبرني يومًا ما بالسبب الذي جعلك تطلب صورة لي، أما العلاقة بين اسمي وهذا الاسم الغريب فأعتقد أن البحث في تاريخ عائلتي سيكون بلا جدوى؛ فعائلتي ذات أصول متنوعة من أقصى المشرق العربي إلى أقصى المغرب.

بالنسبة لما طلبته من معلومات عن علاقة لفظ «إيلات» بالصحراء، لم أجد عنه إلا أن اسم «إيل» ارتبط بأسماء أحد الملوك في سوريا (الملك حزائيل)، وهو مأخوذ من اسم الإله «إيل»، ويُظن أنه كان اسم إله الصحراء.

\*\*\*

من «عالية» إلى «إسماعيل»:

لماذا لم ترد على رسالتي السابقة؟ ألم تخبرك سيدة القصر أنه ليس من اللائق أن تترك امرأة تنتظر؟! على كُلٍّ، سأسامحك وأتمنى ألا يكون بسبب شيء أغضبك مني، أقصد شيئًا جديدًا بالطبع، الكتابة تُرهقني يا «إسماعيل»، لقد صرتُ عجوزًا، كما أنني أريد أن أسمع صوتك لأطمئن عليك، المرة الأخيرة التي سمعته فيها كانت أسوأ نبرة صوت سمعتها في حياتي، أسوأ حتى من نبرة صوت زوجي وهو يناديني، أو يطلب أن أضع له طعامه، هل من الممكن أن تعود مكالماتنا الهاتفية مرة أخرى، بغض النظر عن المشروع الذي نتناقش فيه؟ أرسل إليَّ الرد.. أرجوك.

لدي خبر سيئ، وقد يكون جيدًا، بالأمس أرسل إليَّ مدير المؤسسة صورة من تقرير الخبراء بعد دراسة الحالة النفسية التي استيقظت بها أنت و«حسين»، ورقة واحدة، لا بُدَّ أنه أرسل صورة منها

إلى «سمعان» أيضًا، وسأحاول أن أختصر لك ما فيها. الأخطاء والتوصيات: ألا تتم التجربة التالية إلا على نماذج تجاوزت سن الأربعين، وفي غير وجود جنس مختلف للتلقين (إما إناث وإما ذكور)، خضوع الملقنين لدراسة الحالة النفسية لهم جيدًا، وعلاجهم في حالة صعوبة الاستغناء عنهم، وجود ملقّن في علم من العلوم خارج الموضوع المُعنى به: الفيزياء، الكيمياء، الفلك.. وبلا بلا. أتساءل: هل هذا ما كان ينقصكما فعلًا يا «إسماعيل» لتنجحا؟ لا يهم الآن، ما يهم أن التقرير يؤكد فشل التجربة، وأن الإفراج عنكما وشيك، وأن الاستغناء عني أنا و«سمعان» سيكون قبل عثورهم على نماذج التجربة الجديدة.

لا أخفي عليك يا «إسماعيل»، أنا غاضبة، غاضبة لاستغنائهم عني وغاضبة لأنني سعيدة بذلك، لم أكن لأتحمل تجربة أخرى، لكني كنت أكبر، لم يعد بإمكانني أن أشارك في إنقاذ العالم، هلوليا.

ما الذي سأفعله الآن؟ ما الذي يفعله مُنقذ سابق للعالم؟ سأكتب كتابًا جديدًا للدراسة على طلبة الأدب في الجامعة، سأسميه «المجاز في العقيدة وفي الأدب» وسأجعل إهداءه لك، سأجرب اثني عشر طعمًا جديدًا للشاي المفضّل لي، لم أجربها عندما كنت منهمكة بالعمل في المؤسسة، سأقابل سبعة عشر خاطبًا جديدًا لابنتي الجامعية وأرفضهم، إنها جميلة يا «إسماعيل»، بل فاتنة، لو رأيتها لكنت الخاطب الثامن عشر.

وسأنام كثيرًا؛ فأنا الآن أنام وأحلم، وأدوّن أحلامي، لقد غيّرتني يا «إسماعيل».

\*\*\*

من «إسماعيل» إلى «عالية»:

أعتذر عن تباطئي في الرد على رسالتك الأولى السابقة، سعيد بسعادتك، وأتمنى لك التوفيق في كتابك الجديد، وأن تجدي

خاطبًا مناسبًا لابنتك الجميلة، الإفراج عني أنا و«حسين» أعتقد أنه سيأخذ وقتًا، أخبرني مدير المؤسسة بذلك، أما عن التقرير الذي أخبرني عنه، ولكي تكون الصورة مكتملة لديك، فقد زارني أحد الخبراء الأجانب، وتحدثنا كثيرًا في وجود مترجم، أخبرني أن معظم الذين خضعوا للتجربة كانوا علماء وقد حكو حكايات مذهلة عند استيقاظهم، إلى أن اكتشفوا أن تذكر الحلم يضعف كثيرًا من أثر التجربة، وهذه فرضية لم يتأكدوا منها بعدُ بشكل تام، قال لي إن غلطتي (أو خطيئي - هكذا ترجمها المترجم الذي يبدو أنه مصاب بالاكئاب) أنني حكيت لك، فمن يحك يتذكّر، وأعتقد أن ما قاله - بخصوص التذكر - صحيح مئة في المئة؛ فبالأمس قابلت «حسين» في الممر خارج غرفتنا، نظري طويلًا لكنه لم يتذكرني، لم أر في عينيه العداوة القديمة، يبدو أننا سنصبح صديقين.

لهذا السبب تحديدًا، أعتذر عن مواصلة مكالماتنا الهاتفية، صوتك في الهاتف يشبه صوتها في الواقع، وأنا أريد أن أجد الفارق بين الحلم والواقع في الوقت القريب، وإلى ذلك الحين لديّ أشياء لأنجزها، ولا تقل أهمية عن استكشاف اثني عشر طعمًا للشاي، كل يوم أخرج صورتك وأتأملها وأحاول إقناع نفسي، لا، ليست «إيلات»، «إيلات» لا أرجوني لأكتب لها نصًا بعد كل ما حدث بيننا، «إيلات» في إسبانيا، في الحلم، أو الحقيقة، وما كان في استطاعتي أن أرفض لها طلبًا بكتابة نص، نص في الحب، أنا الآن عاكف على كتابته، كما يجب أن يكون، خاليًا من الأخطاء، فظائع الهمزات المضطربة في أماكنها على الألف، والأخطاء الناتجة عن عدم التمييز بين الألف اللينة والياء في أواخر الكلمات، نصًا بالشدة فوق أحرف كلماته؛ فالشدة حرف كامل كما قالت لي من قبل مرارًا وتكرارًا، يا إلهي! كيف كنت أكتب بهذه الطريقة إليها؟! كيف كنت أخدش قلبها قبل بصرها؟!!

لكن عزائي أن الله - عز وجل - من فوق العرش سيتقبّل مني الكلمات

بمجرد أن أكتبها، على معانيها لا على أشكالها، حتى لو كتبْتُها بألف طريقة خاطئة سيعرفها ولن ينتظر مني أن أصحح أخطائي ليحبني، هل أحبني الله؟ نعم بالتأكيد، وإلا ما كنت قد التقيت «إيلات» في هذا الزمن الغريب، وربما ساقني إليها لأومن به، أومن به وأومن بها، وأومن أيضًا بأن بعض البشر لن يرضوا بأقل من أن نخاطبهم كالألهة وأن الله فقط هو من سيقبل منا أن نخاطبه كما نخاطب البشر، ويستجيب على الرغم من ذلك، كم أحببتها! وكم سأكرهها الآن لغيابها! ولكن ما بقلبي سيظل باقيًا بقلبي، لا يتغير، أحمد الله عليه حمدًا مليئًا بكل أخطاء اللغة، عمدًا، ليتقبلني.

\*\*\*

من «عالية» إلى «إسماعيل»:

حسنًا يا «إسماعيل»، أتمنى أن تجد نفسك سريعًا وأن تجد قلبك قبل أن تجد نفسك، لا تنسَ البحث عنه أيضًا بدلاً من أن تلتسمه في آخر حياتك في الأغاني القديمة التي أمتلك منها الكثير.

من واجبي أن أحذرك من الخبراء الأجانب وما يقولونه، أعتقد أنهم يستمتعون بفسلنا، ولك أن تعرف أنهم رفضوا أن يعطونا العقار إلا بعد إشراف جزئي منهم، وتأكد أننا لن نستخدمه إلا للغرض الذي ذكرناه، للكتابة والتأليف.

ما فهمته من رسالتك الأخيرة أن «إيلات» هي سيدة القصر، وليس كيانًا أو مكانًا، ولقد بحثتُ طويلًا عن الأحلام و«إيلات» فلم أستطع أن أصل إلى شيء يربط بينهما، نصيحتي التي أعلم أنك لن تلقي لها بالًا: اسع خلف حلمك الذي رأيته ولا تتحرر منه، أرجوك؛ فلعل هذا يكون أول التفاهم بيننا حول موضوعنا الذي قتلته برفضك الغريب، الأحلام مهمة جدًا يا «إسماعيل»، إنها ليست حصة تدبير منزلي ولا تقل أهمية عن اليقظة، الأحلام كانت سببًا مباشرًا في

حصول عالمين على جائزة نوبل، لا أتذكر من الذي قال ذات مرة إن اليقظة درجة واحدة: عندما نستيقظ من نومنا كل صباح، لكن النوم درجتان لليقظة، أول درجة منهما عندما نغيب عن العالم فوق أسرّتنا كل ليلة.

ملحوظة: وجدت معلومات جديدة عن اسم «إيلات» تبعد تمامًا عن استنتاجي (التفرع عند الرأس) وتقرب نوعًا ما من استنتاجك (العلو).

قال الأصمعي في معنى «جبرائيل» و«ميكائيل» و«عزرائيل»: معنى «إيل»: الربوبية، فأضيف «جبر» و«ميك» و«عزرا» إليه.

ويرى بعض المفسرين أن كلمة «إل» ما هي إلا «الآلهة» باللغة العبرانية كما في أسماء الملائكة «جبريل» و«ميكائيل» و«إسرافيل»، وكما في «إسماعيل» و«إسرائيل»، عليهم جميعًا السلام، وذكر مجاهد أن «إل» هو اسم من أسماء الله - عز وجل - وذكر الأزهري أن أصله من «الأيل» وهو «البريق».

كل تحياتي.

\*\*\*

كان «حسين» قد اعتاد على النوم في الصخب الذي يصنعه «إسماعيل» في نوبات هياجه، والموظف الذي يحرسهما يغفو أحيانًا؛ لذا فلم يكونا مستيقظين في هذه الليلة التي وصلت فيها الرسالة الأخيرة من الدكتور «عالية»، عندما اكتشف «إسماعيل» جزءًا من الحقيقة، كم عُمر عليه أن يعيشه في الحلم ليعرف الحقيقة كاملة! ولكن مساءه الأول الذي تحرّر فيه كان مشهودًا، ظل يضحك ويبيكي حتى اختلط عليه الأمر، لماذا يضحك؟ ولماذا يبكي؟ ثم صار يبكي بذبول ضحكات، ويضحك بذبول من بكاء.

وبعد أن توقّف «إسماعيل» عن الضحك والبكاء، ساد هدوء عميق، تألّق ضوءٌ جميل، وكأنّ العالم عاد ليتنفس من جهاته الأصلية

مجددًا.

في **كيان للنشر والتوزيع**، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصدارتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائماً نرحب بالكتاب الشاب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الإبداعية العربية إلى العالمية.

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش. ابعت لنا على:

**kayanpub@gmail.com**  
**info@kayanpublishing.com**  
أو زور موقعنا:  
**www.kayanpublishing.com**

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235688678 - 0235611772**

هاتف محمول: **01000405450 / 01005248794 / 01001872290**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونياً على الروابط التالية، للاطلاع على كُتبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتابنا الثقافية:



Kayan.publishing



kayan\_publishing



Kayanpublishing



kayanpublishing



+KayanPublishing



KayanPublishing